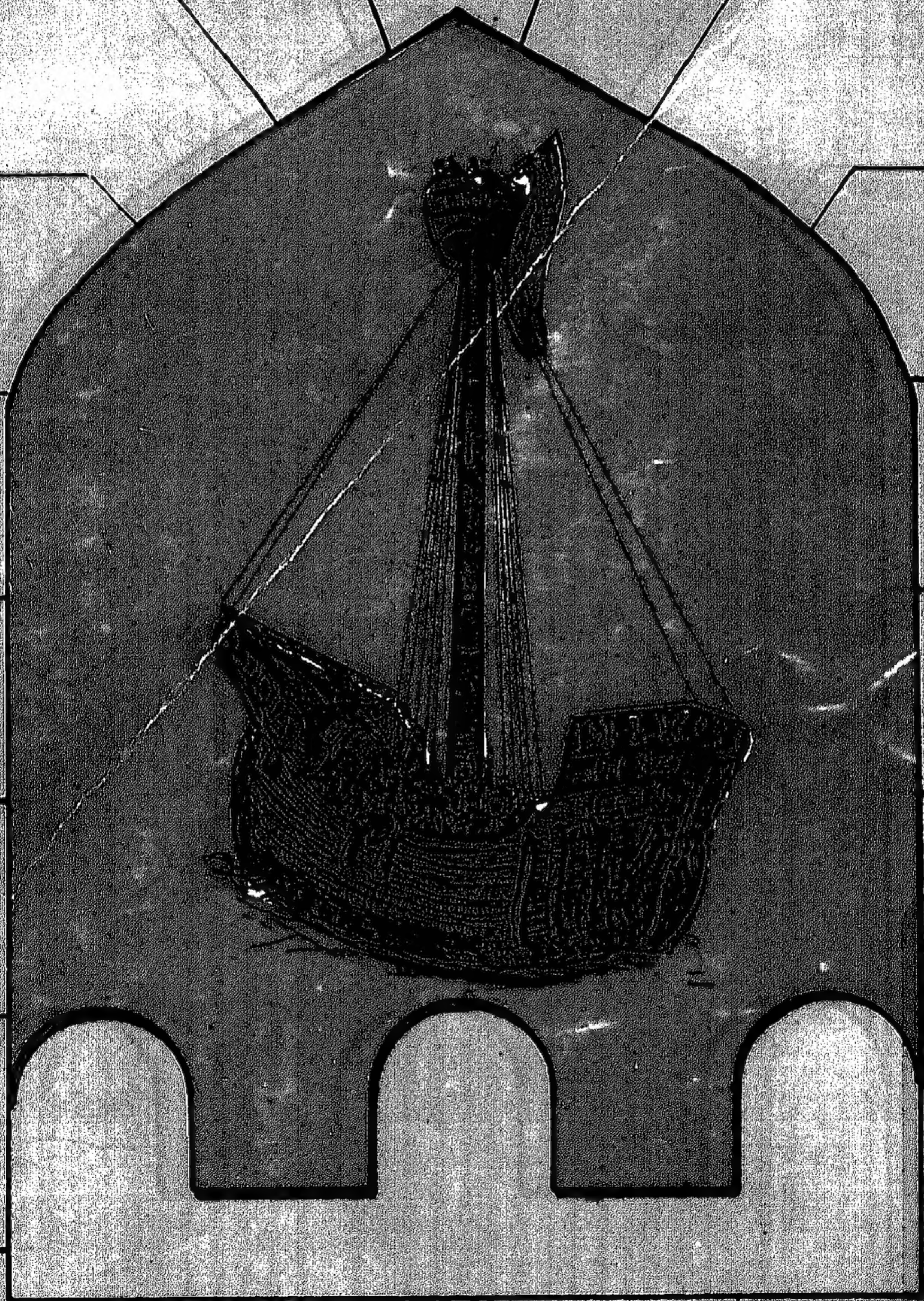


الحملة الصليبية الخامسة

حملة چان دى بدين على مصر

١٤١٨ - ١٤٣١ م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ

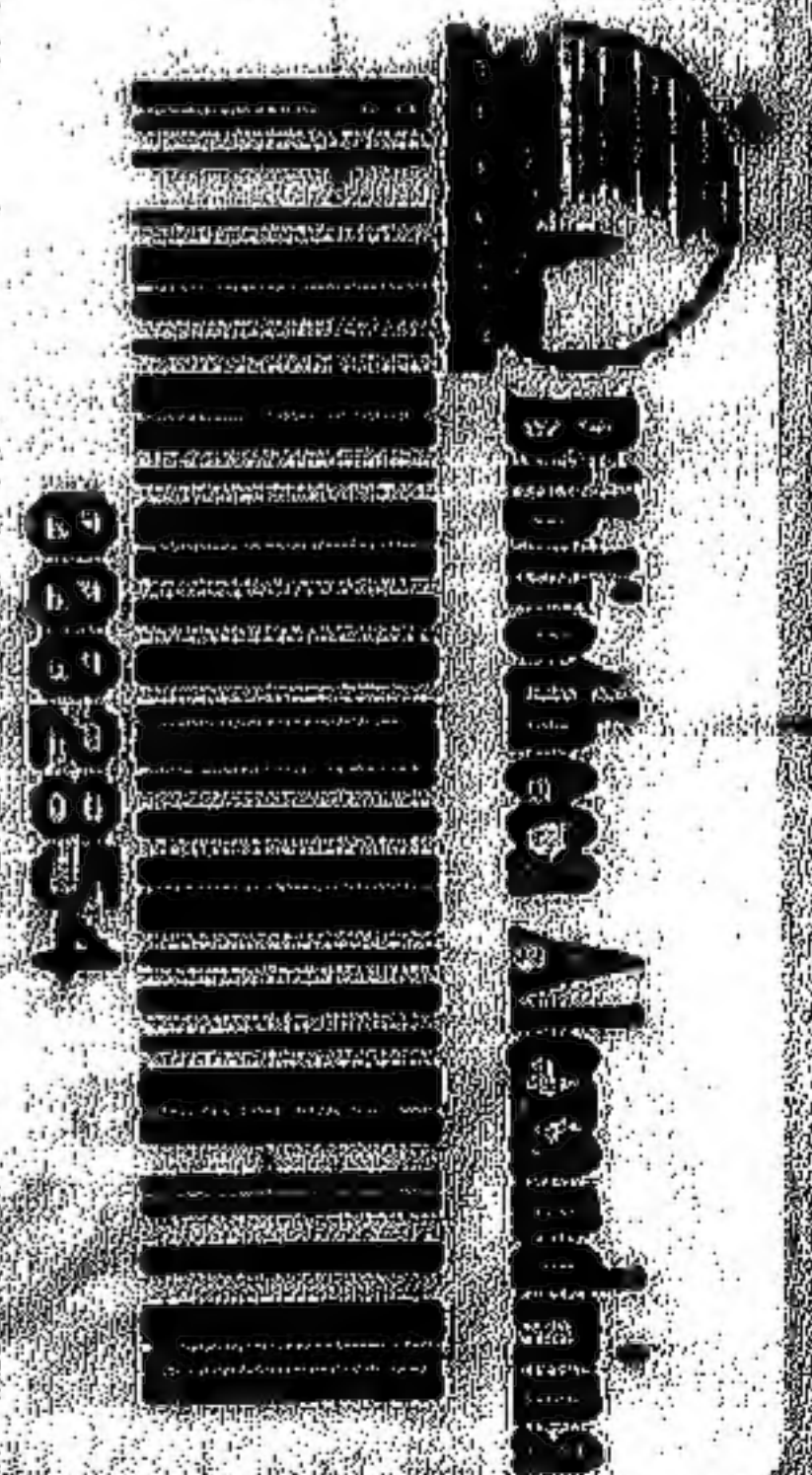


دار المعارف

١٩٨٥

عبد الرحمن

مكتبة الآداب - جامعة الاسكندرية



• • ٧٧٢ • •

مكتبة جامعة القاهرة



مَطْبَعَةُ الْإِنْتِقَابِ
كُومُ الدِّكْنَةِ - إِسْكَنْدَرِيَّةُ

٢٤

الحملة الصليبية الخامسة

حملة جان دي برين على مصر

١٢١٨ - ١٢٢١ م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ

دكتور
محمد سعيد محمد
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إمنحنا القوة لكي نحافظ على حقوق مصر ،
وامنحنا الحب حتى نؤدي ما علينا من واجبات لمصر .

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

٨ - ١٢

المحتوى

١٣ - ٢٠

تقديم الكتاب

تصدير

٢١ - ٤٦

عرض وتحليل لمصادر الحملة

المصادر الأجنبية : مصادر شهود العيان - مصادر معاصرة
مصادر متأخرة زمنياً .

المصادر العربية : شهود العيان والمعاصرين - مصادر
متأخرة زمنياً - المراجع الأجنبية والعربية والمعرية .

الفصل الأول

٤٧ - ٨٢

الأطماع الصليبية في مصر في القرن الثاني عشر
الميلادي/ السادس الهجري .

الفصل الثاني

٨٣ - ١٣٦

أوروبا والشرق قبيل الحملة الصليبية الخامسة

مصر والشام قبيل الحملة - اشتباكات ومناوشات غير
حاسمة بين المسلمين والصليبيين - أحوال الشرق اللاتيني :
مملكة بيت المقدس - أنطاكية - طرابلس - أرمينية -
قبرص . الغرب الأوربي : إيطاليا والبابوية - ألمانيا - فرنسا
- إنجلترا - إسبانيا . الدولة البيزنطية - الحملة الصليبية

رقم الصفحة

الرابعة وآثارها - موقف البابوية من إمبراطورية اللاتين في القسطنطينية - حلمتا الصبيان .

الفصل الثالث

أسباب الحملة الصليبية الخامسة والإعداد لها ١٣٧ - ١٧٨

أسباب الحملة - مجلس اللاتران الكنسي - الدعوة للحملة والتبشير بها - موقف البابوية والغرب الأوربي من الحملة - الحملة الهنغارية .

الفصل الرابع

الجيش الصليبي في جيزة دمياط ١٧٩ - ٢٢٨

دمياط : تخطيطها وأسباب توجه الحملة إليها - رسو الحملة في جيزة دمياط - الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين - سقوط برج دمياط - وفاة الملك العادل - وصول الإمدادات الصليبية - اشتباكات في البر والبحر - مؤامرة ابن المشطوب وآثارها - عبور الصليبيين إلى الضفة الشرقية للنيل وحصار دمياط .

الفصل الخامس

سقوط دمياط في أيدي الصليبيين ٢٢٩ - ٢٨٦

الدعوة للجهاد - عرض الملك الكامل على الصليبيين - إعداد مصر والشام للقتال - تخريب بيت المقدس وبعض الأماكن الأخرى - مناقشات غير حاسمة بين المسلمين

رقم الصفحة

والصليبيين - معركة أغسطس ١٢١٩ م (جمادى الثاني
٦١٦ هـ) - عرض ثان بالصلح على الصليبيين - قدوم
النجيدات الصليبية - عرض ثالث بالصلح - اشتداد الحصار
حول مدينة دمياط - سقوط دمياط .

الفصل السادس

٢٨٧ - ٣٥٨

فشل الحملة الصليبية الخامسة

الدعوة للجهاد ، وبناء مدينة المنصورة - انقسام الصليبيين
على أنفسهم في دمياط وأثره - سقوط قلعة تنيس - مهاجمة
ممتلكات الصليبيين في الشام - عودة الملك جان دي برين
إلى عكا - رحيل وقدوم بعض القوات الصليبية - مهاجمة
البرلس - عودة الملك جان دي برين إلى دمياط - الزحف
صوب القاهرة - هزيمة القوات الصليبية - أسباب فشل
الحملة .

٣٥٩ - ٣٧٠

خاتمة

تخريب مدينة تنيس - حملة الإمبراطور فريدريك الثاني على
الشام - تقلص الروح الصليبية - نهاية الإمارات الصليبية
بالشام وموت الفكرة الصليبية .

رقم الصفحة

المصادر والمراجع

٣٧٣	مختصرات لبعض المصادر والمراجع
٣٧٤ - ٣٧٣	مجموعات الحروب الصليبية -
٣٧٤	دوائر المعارف
٣٧٨ - ٣٧٤	المصادر الأجنبية
٣٨١ - ٣٧٩	المخطوطات
٣٩٠ - ٣٨٢	المصادر العربية
٣٩٧ - ٣٩١	المراجع الأجنبية
٤٠٧ - ٣٩٨	المراجع العربية والمعربة
	فهرست الأعلام والمدن
	الخرائط

الخرائط

رقم الصفحة

- خريطة رقم (١)
٤٥٣ بلاد الشام عقب صلح الرملة
- خريطة رقم (٢)
٤٥٥ خط سير الحملة الهنغارية
- خريطة رقم (٣)
٤٥٧ دمياط القديمة زمن الحملة الصليبية
- خريطة رقم (٤)
٤٥٩ مواقع القوات الإسلامية والصليبية من بونية إلى
٤ فبراير ١٢١٩
- خريطة رقم (٥)
٤٦١ مواقع القوات الإسلامية والصليبية بعد فبراير
١٢١٩
- خريطة رقم (٦)
٤٦٣ خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة
- خريطة رقم (٧)
٤٦٥ بحر المحلة

مقدمة الطبعة الثانية

نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عقيب صدوره مباشرة عام ١٩٧٨ . وكان على أن أقوم بإصدار طبعة ثانية ، ولكن ظروف تواجدى خارج البلاد حالت دون ذلك . ومن هنا فإلى أعذار لطلابى فى جمهورية مصر العربية والعالم العربى عن التأخير فى إصدار طبعة أخرى . كما دعنى أيضا لإصدار هذه الطبعة ما رأيته من تشجيع زملائى وطلابى باعتبار هذا الكتاب المرجع الأول فى تاريخ الحملة الصليبية الخامسة التى كانت أول حملة صليبية تستهدف غزو مصر باعتبارها حصن العروبة ، وأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة . يضاف إلى ذلك اتصال بعض الاساتذة من إنجلترا وأمريكا - المهتمين بالدراسات الصليبية - بى لطلب معونة أو مشورة حول أحداث الحملة . وانه ليسعدنى أن أقدم هذا الكتاب الذى يمثل جانباً هاماً من تراثنا القومى ، وأتمنى أن يصدر بالصورة اللائقة والمناسبة للجهد الذى بذل فيه . ولا يفوتنى فى هذه المناسبة أن أتقدم لأهل دمياط العظيم بعظيم شكرى وتقديرى على ما بذله من التضحية والفداء .

والله ولى التوفيق .

محمود سعيد عمران

اسكندرية فى أغسطس ١٩٨٤

تقديم الطبعة الأولى

معرفتي بالدكتور محمود سعيد عمران مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ترجع إلى سنوات عديدة مضت . عرفته عن قرب أثناء ماضيه الجامعي الطويل ، ووجدت فيه الباحث الذى يمتاز بالنشاط والأمانة والإخلاص وحب العلم والتفانى فى تحصيله . حصل على درجة الليسانس فى الآداب من قسم التاريخ وعمل للدرجة الماجستير فجازها بتقدير « ممتاز » ، ثم الدكتوراه فى الآداب فأحرزها بمرتبة الشرف الأولى فى تاريخ العصور الوسطى .

وكتاب الزميل الدكتور / محمود سعيد عمران الذى يسعدنى أن أتقدم به وبمؤلفه إلى قراء العربية فى مصر وفى كافة أقطار العالم العربى ، يسد فجوة هامة فى المكتبة التاريخية العربية بوجه عام ، ومكتبة الحروب الصليبية على وجه الخصوص . إذ تناول بأسلوب علمى صحيح ومنهج تاريخى سليم ، حلقة من أهم حلقات الصراع الطويل المرير بين الشرق والغرب فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الحملة الصليبية الخامسة على مصر (٦١٥ - ٦١٨ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢١ م) المعروفة بحملة جان دى برين صاحب عكا اللاتينى والملك الاسمى لبيت المقدس آنذاك .

ويعتبر هذا الكتاب القيم أول دراسة علمية موضوعية متكاملة تظهر فى هذا الموضوع الهام ، وتلم بكل أطرافه وزواياه من مختلف المصادر والأصول ، من عربية ولائنية وفرنسية قديمة ، خطية ومطبوعة ، بغية الوصول إلى أصدق النتائج وأصوبها التى يتمخض عنها النقد التاريخى السليم .

استهل المؤلف كتابه بمقدمة نقدية تحليلية لمصادر البحث ومنابعه نتبين إفادته منها إذا ألقينا نظرة فاحصة مدققة إلى حواشى الكتاب وتمعنا النظر فى ثناياه . إذ رجع إلى عشرات المصادر العربية بعضها لا يزال خطيا لم ينشر بعد ، وإلى العديد من الأصول الأجنبية من كتب ووثائق ومراسلات بعضها لا يزال بلغنا .

الأصلية التي دون بها كالاتينية أو الفرنسية القديمة . هذا ، إلى جانب الكثير من المراجع الحديثة من عربية وأجنبية . لقد غاص في أعماق هذه الأصول والمراجع ، واستخرج منها مادة علمية من الطراز الأول . وقام بتحليلها تحليلاً علمياً مقارناً يدل على عمق في الفهم وأصالة في التفكير .

وكمدخل طبيعي للموضوع أشار المؤلف إلى المشاريع الصليبية السابقة للحملة الخامسة ، التي استهدفت مصر باعتبارها معقل القوى الإسلامية وحصنها المنيع ، وقلبها النابض بالحركة والحياة ، ومركز إمدادها بالمال والرجال والمؤن والسلاح . ثم تحدث في الفصل الأول وعنوانه « أوروبا والشرق قبيل الحملة الصليبية الخامسة » عن الظروف السائدة في الشرق والغرب قبيل الحملة ، من سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية . وخلص منها إلى أن أحوال أوروبا وقتها كانت تسمح لها بأعداد حملة صليبية كبيرة ضد المسلمين ، وأن مصر - هي الأخرى - كانت على أتم استعداد لمواجهة الغزاه ودفعهم عن البلاد .

واستهل الفصل الثاني وعنوانه « أسباب الحملة الصليبية الخامسة والإعداد لها » ، بتحليل مختلف العوامل التي أدت إلى قيام الحملة ، من مباشرة وغير مباشرة ، داخلية وخارجية ، رئيسية وثانوية . وتوصل إلى أن اللاتين كانوا يهدفون إلى توجيه ضربة قوية إلى مصر تنتهي بالاستيلاء عليها حتى يتسنى لهم تحقيق كافة أطماعهم في العالم الإسلامي . وفي الفصل الثالث وعنوانه « الجيش الصليبي في جيزة دمياط » ، تناول المؤلف بعض القضايا الهامة التي توصل فيها إلى نتائج محددة . من بينها الأسباب التي جعلت الصليبيين يتخذون من دمياط بالذات ، دون غيرها من الثغور والموانئ المصرية ، هدفاً لهجومهم ، معتمداً في ذلك على المصادر الأجنبية الأصلية المعاصرة للفترة موضوع البحث ، مثل مؤلفات جاك دي فترى وأوليفر أوف بادنبورن وروجر أوف وندوفر . وتناول بالتحليل أيضاً مؤامرة ابن المشطوب التي استهدفت خلع الكامل محمد ملك مصر وتولية أخيه الصغير الفائز مكانه ليصير الحكم إليه ، مع بيان الآثار المترتبة على ذلك .

وعالج الباحث في الفصل الرابع وعنوانه « سقوط دمياط في أيدي الصليبيين » عددا من القضايا التي لم يُت فيها برأى قاطع ، في حيدة وموضوعية وجدية ، منها عروض الصلح المتتالية التي تقدم بها الملك الكامل إلى الفرنج الدخلاء أثناء حصارهم لمدينة دمياط وبعد استيلائهم عليها بهدف إتاحة الفرصة له لمواجهة الغزاة وصدهم . فاستعرض الظروف التي لا بدت كل عرض من هذه العروض ، مع تحليل دقيق لمواقف مختلف الأطراف المعنية منها ، مستمدا مادته الأصلية من أصول البحث ومصادرة من عربية وأجنبية . أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه « فشل الحملة الصليبية الخامسة » ، فقد تعرض فيه المؤلف للوقائع والأحداث التالية لسقوط دمياط في أيدي الفرنج حتى هزيمة الحملة وجلائها عن مصر تجرأ وراءها أزيال الخيبة والخذلان . ومن المسائل الجديدة التي عالجها في هذا الفصل الصراع بين بيلا جيوش ممثل البابا الروماني في الحملة وبين قائد الحملة جان دي برين حول الزعامة والسلطة ، وما ترتب عليه من آثار . واختتم الفصل بتحليل عميق لمختلف العوامل والأسباب التي أدت إلى فشل الحملة ، مما يدل على فهم كامل لكل خباياها ومشاكلها .

ولم تكن خاتمة الكتاب مجرد عرض موجز لتاريخ الحملة الصليبية وهزيمتها ، ولم تكن مجرد نتائج واستنتاجات فحسب ، ولكنها سلطت الأضواء بشكل قوى على قصة هزيمة العدو الدخيل والتجارب المستفادة منها . فأشار المؤلف إلى بعض الأفكار الهامة التي ترتبط بالحروب الصليبية باعتبارها حركة من أهم حركات التاريخ الوسيط وظاهرة من أبرز ظواهره ، من حيث موازين القوى ومراكز الثقل والأفعال وردود الأفعال ، ودور مصر في دفع العدوان وإلحاق شر أنواع الهزيمة به ومغزى ذلك ودلالته .

بهذا الأسلوب العلمي الجاد تناول الدكتور محمود سعيد عمران مختلف القضايا والمسائل المتعلقة بالحملة ، في بحث مستقل قائم بذاته لم يدرس من قبل . دراسة وافية ، تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه العربية والاجنبية على السواء . لقد ألم بوجهتى النظر إماما تاما ، وناقش مختلف الروايات والاسانيد المتضاربة .

وقارنها بعضها ببعض ، سعيًا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة والنهج التاريخي الصحيح . وتوصل إلى آراء وأفكار تتميز بجديتها وأصالتها وقيمتها التاريخية .

أن كتاب الدكتور محمود سعيد عمران عن الحملة الصليبية الخامسة على مصر يعتبر كسبا واضحا للمكتبة التاريخية العربية ، وإضافة جديدة لها وزنها إلى سلسلة مراجع الحملات الصليبية .

جوزيف نسيم يوسف

استاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الاسكندرية في أول يناير ١٩٧٨

تصدير

عرض وتحليل لمصادر الحملة

المصادر الاجنبية : مصادر شهود العيان - مصادر معاصرة - مصادر متأخرة
زمنيا - المصادر العربية : مصادر شهود العيان والمعاصرين - مصادر متأخرة
زمنيا . المراجع الاجنبية والعربية والمعرية .

موضوع هذا الكتاب هو حملة جان دي برين Jean de Brienne الصليبية على مصر (٦١٥ - ٦١٨ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢١ م) المعروفة بالحملة الصليبية الخامسة . وقد إختار الباحث هذه الحملة موضوعا لدراسته لعدة أسباب ، منها خلو المكتبة العربية من كتاب قائم بذاته يتناول أحداث هذه الحملة . هذا بالإضافة إلى خلوها من بحث علمي يتناول وجهتي النظر الإسلامية والغربية لأحداثها ، كما أن لهذه الحملة في تاريخ الحركة الصليبية أهمية خاصة لأنها أول حملة أعدتها البابوية وحشد لها الغربى الأوربي كل إمكانياته - تصل إلى مصر - بهدف الإستيلاء عليها باعتبارها حصن العروبة ومركز إمدادها بالمال والرجال والمؤمن والسلاح ، ومنها تخرج دائما صيحة الجهاد ضد الطارق الدخيل . وعلى ذلك رأى الصليبيون أن الإستيلاء على مصر يتيح لهم فرصة تحقيق أطماعهم ليس في رقعة الشرق الأدنى الإسلامى فحسب وإنما في العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه . وهذا يوضح التغير الذى طرأ على الإستراتيجية العسكرية فى الفكر الأوربي وقتذاك . أضف إلى ذلك أن أحداث حملة جان دي برين حملت فى طياتها تنفيذ الفكرة التى أخذت تنادى إعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) بكتليكة العالم الإسلامى وذلك عندما كان رجال الدين الصليبين الذين إشتراكوا فى الحملة يقومون بتعميد الأسرى خاصة الأطفال منهم . ومن ذلك يتضح أن الهدف الرئيسى للحملة هو الإستيلاء على مصر ، ليتمكن الغرب اللاتينى من نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي الرومانى فى الشرق كلية^(١) ، عساه أن يحقق الأهداف التى أخفقت الحملات العسكرية خلال القرن الثانى عشر (السادس

(١) تتضح هذه الحقيقة بجلاء من الخطاب الذى أرسله الكاردينال جاك دي فترى - أسقف عكا وأحد الداعين للحملة فى أوروبا والشام وأحد المشتركين فيها أيضا - إلى البابا - هونوريوس الثالث من دمياط (٢٢ سبتمبر ١٢١٩ م / ١١ رجب ٦١٦ هـ) أنظر :

Vitry, Lettre, de Jacques de Virry edition Critique Par R. B. C. Huygons, Leiden, 1960. P. 103.
راجع أيضا Oliver or Padenborn, The Capture of Damietta tran. John J. Gavigan, Philadelphia, 1948, pp. 1-3.

الهجرى) فى تحقيقها . لهذه الأسباب وغيرها التى سيتناولها الباحث بالتفسير والنقد والتحليل فى ثنايا الكتاب ، تتضح أهمية دراسة هذه الحملة . ومن هذا الزوايا أدلى الباحث بدلوه فى هذا الموضوع مستهدفا عرض الحقائق فى صورته موضوعية ولا شىء خلاف ذلك . ثم أن الباحث وهو يتناول موضوعه نظراً إليه نظرة عريضة شاملة باعتباره حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب الذى ترجع جذوره إلى مئات السنين والذى لا يزال ممتدا حتى وقتنا هذا . فمصر الأمس هى مصر اليوم ، هى القلعة الصامدة المناضلة المكافحة . والحروب الصليبية التى إكتوى العالم الإسلامى بنارها بالأمس ، تبدو اليوم فى شكل آخر يمثل فى الوجود الصهيونى الاستعمارى فى بعض أجزاء الأرض العربية والهدف شبيه بنفس الهدف ، والأطماع قرية من نفس الأطماع . فما أشبه اليوم بالبارحة .

ولما كان هذا البحث يتناول طرفاً من العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة زمنية محددة هى فترة الحملة الصليبية الخامسة ، لذلك تحتم على الباحث الرجوع إلى مصادرها العربية والأجنبية على قدم المساواة سعياً وراء الحقيقة التاريخية المطلقة التى هى فوق كل اعتبار . ولا شك أن ما إعتري الكتابات التاريخية فى هذا الميدان الفسيح من قصور وليس فى بعض النواحي التى تناولوا فيها أحداث الحملة إنما يرجع إلى أن الكتاب الغربيين جنحوا إلى الاعتماد على شق واحد من أصول الحملة أكثر من إعتادهم على الشق الآخر ، فانطبع إستعراضهم السريع المبتور لبعض قضايا البحث ومشاكله بطابع أنصاف الحلول . وعلى ذلك أصبحت مهمة الباحث فى التاريخ لهذه الحملة هى مناقشة مختلف الأسانيد والروايات التى تعرضت للحملة ومقارنتها ببعضها بغية الوصول إلى أسلم النتائج التى يتمخض عنها البحث التاريخى السديد .

لقد توخى الباحث هذا المنهج فى بحثه ، فرجع إلى المصادر الشرقية والغربية وبعضها لا يزال بلغته الأصلية التى كتب بها كالاتينية والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً لم ير النور بعد ، أهمها بلا شك مصادر شهود العيان ، ثم مصادر المعاصرين

والتأخرين زمنيا الذين ينقلون عادة عن الأصول المفقود أو غير المفقود .

وقد هدانا البحث إلى وضع المصادر الأوربية في المكانة الأولى تليها المصادر العربية . والسبب في ذلك أن المصادر الغربية أسهمت في وصف وقائع الحملة على العكس من المصادر العربية . فضلا عن أن معظم كاتبيها كانوا من شهود العيان الذين إشتراكوا في الحملة مشاركة فعلية وشهدوا وقائعها وأحداثها مما أكسب رواياتهم طابعا من الطراز الأول . والواقع أن الغوص في أعماق هذه المصادر ليس بالامر السهل ، فمعظمها مدون باللغة اللاتينية لم ينقل إلى اللغات الحديثة بعد . ثم أن بعض هذه المصادر لم يكن موجودا داخل جمهورية مصر العربية ، ولم يقف ذلك عقبه أمام الباحث الذي لم يدخر وسعا في الحصول عليها في الخارج . وبذلك استطاع أن يجمع ما يقرب من واحد وعشرين خطابا ووثيقة أصلية وأصيلة كانت مبعثرة هنا وهناك . هذا بالإضافة إلى المصادر الأخرى لشهود العيان وغير شهود العيان والمصادر المتأخرة زمنيا .

وقام الباحث بتصنيف هذه المصادر الغربية إلى مجموعات ، المجموعة الأولى منها خاصة بشهود العيان للحملة والمجموعة الثانية تتعلق بالمعاصرين من غير شهود العيان . والثالثة هي المصادر المتأخرة زمنيا وأرخت للحملة أو جانبها منها ، أما الرابعة فهي التي نتحدث عن الحوادث السابقة للحملة أو اللاحقة لها وأصحابها من شهود العيان لأحداث أزمانهم . هذا وتبلغ منابع الحملة في مجموعها ثمانية وأربعون مصدرا أجنبيا .

وعلى رأس المجموعة الأولى الخاصة بشهود العيان ما كتبه المؤرخ الألماني أوليفر أف بادنبورن Oliver of Padenborn وتاريخ مولده وكذلك مسقط رأسه ليس معروفا لدينا ويعرف أيضا باسم أوليفر المعلم (سكولاستك) Scolastique وقد بدأ اسمه في الظهور عام ١١٩٦ م عندما كان يعمل شماسا في كنيسة بادنبورن بالمانيا . وفي عام ١٢٠٠ م عين مدرسا في مدرسة الكنيسة نفسها وفي العالم التالي أصبح مدرسا في مدينة كلوني Cologne وفي عام ١٢٠٧ م رحل إلى فرنسا وقضى بها بعض الوقت ثم عاد إلى كلوني مرة

أخرى . وساعد أوليفر في أعمال مجلس اللاتيران الكنسي Lateran Council الذي عقد في روما عام ١٢١٥ م وهو المجلس الذي دعى فيه للحملة الصليبية الخامسة موضوع الدراسة . وتوجه أوليفر بعد انتهاء أعمال المجلس إلى المانيا حيث وعظ وبشر للحملة . وفي عام ١٢١٧ م أبحر من مرسيليا مع بعض قوات الحملة في طريقه إلى الشام حيث وصلها في يوليو أو أغسطس . وفي العام التالي أبحر مع الحملة إلى دمياط وظل مع الحملة حتى هزيمتها ورحيلها في خريف ١٢٢١ م ثم نزل في مدينة عكا وبقي بالامارات الصليبية بعض الوقت حتى إبحر إلى كلوني التي وصلها في عام ١٢٢٢ م حيث عين أسقفا لكنيسة بادنبون في الفترة من ١٢٢٤ - ١٢٢٥ م وأسقف كنيسة ساينا Sabini بإيطاليا في الفترة من ١٢٢٥ - ١٢٢٧ م ، كما تولى أيضا منصب الكاردينالية في أواخر أيام حياته . ومات أوليفر في عام ١٢٢٧ بالتحديد في الفترة من أغسطس حتى التاسع من سبتمبر ودفن في إيطاليا^(١) . وأثناء تواجد الحملة في مصر عمل أوليفر كاتباً للمندوب البابوي الحملة الكارينال بلاجيوس Pelagius - لذلك فانه فضلا عن كونه من شهود العيان ، فقد كان ملتصقا بقيادة الحملة ومن هنا تتضح أهمية ما تركه لنا أوليفر من مادة تاريخية تتعلق بأحداث الحملة . والواقع أن أوليفر لم يكتب للحملة فقط فله كتابات تاريخية أخرى . وما يهنا ونحن بصدد التاريخ للحملة خطابين صادرين من أوليفر وهو في دمياط وكتابه المعروف باسم تاريخ دمياط Historia Damiatana والخطاب الأول^(٢) موجه من أوليفر إلى إنجلبرت Engelbert رئيس اساقفه مدينة كلوني . وقد كتب هذا الخطاب بعد سقوط مدينة دمياط في يد الصليبيين (٥ نوفمبر ١٢١٩ م / ٢٥ شعبان ٦١٦ هـ) .

واحتوى هذا الخطاب على معلومات تتعلق بفرق المعسكر الصليبي الذي أقيم في جيزة دمياط (٢٩ نوفمبر ١٢١٨ م / ٩ رمضان ٦١٥ هـ) ومحاولات

(١) Oliver of Padenboir op. cit., pp. 1-3

(٢) النص الكامل لهذا الخطاب نشره بونغارز باللغة اللاتينية عام ١٦١١ م أنظر : Bongars, J., Cesta Dei Par Francos, pp. 1185-1192.

الاستيلاء على برج السلسلة ، كما تضمن وصفا لمدينة دمياط وحالة سكانها عندما إستولى عليها الصليبيون ، هذا بالإضافة إلى واقعة قيام المعظم عيسى ملك دمشق (٦١٥ - ٦٢٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م) بهدم أسوار مدينة بيت المقدس وأبراجها ، ومعركة الثالث من مارس عام ١٢١٩ / ٤ ذو الحجة ٦١٥ هـ) ورحيل وقدم بعض القوات الصليبية من وإلى دمياط وأخيرا معركة أكتوبر من العام نفسه (جمادى الثاني ٦١٦ هـ) .

والخطاب الثاني^(١) أرسله أوليفر إلى الكامل محمد ملك مصر (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٨٨ م) بعد هزيمة الصليبيين (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م) ويشهد هذا الخطاب بالمعاملة الإنسانية التي عامل بها الملك الكامل الرهائن الصليبية ، فقد كان أوليفر نفسه ضمن الرهائن ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الكامل لكافة جنود الحملة الصليبية بعد هزيمتها . أما كتاب أوليفر «سقوط دمياط»^(٢) فقد إشتمل على أحداث الحملة منذ قدوم الحملة الهنغارية إلى عكا في سبتمبر عام ١٢١٧ م وحتى نهاية وقائع أحداث الحملة الصليبية الخامسة وتسليم مدينة دمياط للمسلمين . وقدم أوليفر عرضا طيبا عن أحداث الحملة الهنغارية التي دارت وقائعها في الشام وأغارة الصليبيين على حصن الطور . وأهم ما قدمه أوليفر الأحداث الخاصة بتجمع الصليبيين في قلعة الحجاج ثم إبحارهم إلى مصر حيث رسب قواهم في جيرة دمياط . وأسنان إلى ذلك كانت الأحداث المتعلقة بالمحاولات المتعددة من جانب الصليبيين للاستيلاء على برج السلسلة والمناوشات التي وقعت بين المسلمين والصليبيين ، كما تناول أوليفر المؤامرة التي وقعت في المعسكر الإسلامي المقام في العادلية جنوبي دمياط وهروب الجيش الإسلامي وكيف انتهر الصليبيون الفرصة وعبروا إلى الضفة الشرقية للنيل . وسجل لنا أيضا المعارك العسكرية التي وقعت بين المسلمين والصليبيين في الفترة الواقعة بين عبور القوات الصليبية وحتى سقوط مدينة

(١) قام رهرشت بنشر هذا الخطاب باللغة الألمانية عام ١٨٩٨ م . انظر :
Rohricht, R, Geschichte de Konigreichs. Jerusalem, p. 753.

(٢) نشر هذا الكتاب باللغة الانجليزية تحت عنوان (سقوط دمياط) أنظر ماسبق ص ٢٣ حاشية (١) ،

دمياط بما فيها عروض الصلح التي تقدم بها الملك الكامل .

كما وصف لنا الحالة السيئة التي كانت عليها مدينة دمياط عندما دخلها الصليبيون ثم كان من تحويل جامع المدينة إلى كنيسة كاثوليكية للسيدة مريم وتعميد الأسرى خاصة الأطفال منهم . وقدم لنا أوليفر كذلك وصفا ممتازاً عن تحصينات مدينة دمياط وأسوارها وإبراجها وإسراديبها وهو ما لم تسجله المصادر العربية ، كما صور لنا أحوال الصليبيين أثناء تواجدهم في المدينة وحتى الزحف صوب القاهرة، وعرض لنا في هذه الفترة الفساد الذي أنغمست فيه القوات الصليبية وأحداث سقوط مدينة تنيس والقيمة الاقتصادية لهذه المدينة بالنسبة لإيرادات مصر في العصور الوسطى . وعرض لنا النشاط العسكري الذي قام به الملك المعظم ضد بعض القلاع الصليبية في الشام بغرض التخفيف من الضغط العسكري على مصر ومغادرة الملك جان دي برين مدينة دمياط إلى عكا ثم إغارة الصليبيين على مدينة البرلس وغير ذلك من الأحداث الهامة التي أفادت جانباً كبيراً من هذا البحث .

أما الفترة التي نبدأ بالتفكير في الزحف صوب القاهرة وحتى هزيمة الحملة وفشلها فقد قدم أوليفر عرضاً حياً لكافة الأحداث المتعلقة بهذه الفترة وإستعداد الجيش الصليبي للتقدم جنوباً إلى المنصورة والبطولات الرائعة التي قام بها المسلمون لوقف تقدم الصليبيين ، كما قدم لنا الأخطاء التي وقعت فيها القوات الصليبية أثناء زحفهم إلى القاهرة ، ولعل أهمها إهمال مصب نهر المحلة وعدم الاهتمام بحراسته بقوات صليبية الأمر الذي سهل للقوات الإسلامية تطويق الجيش الصليبي من الخلف^(١) ثم ما كان من أمر فيضان النيل وكسر المسلمين لبعض جسور النيل الذي أغرق المعسكر الصليبي ، واختتم هذه الأحداث بهزيمة الصليبيين وطلبهم الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط .

والحق أن أوليفر قدم لنا مادة تاريخية وافية عن أحداث الحملة ضمنت بالكثير منها المصادر العربية . ورغم هذا فإن ما كتبه أوليفر يظهر فيه التعصب الديني

(١) أنظر الخريطة رقم (٧) .

بشكل واضح ، كما أنها لا تخلو أيضا من الاساطير . ومما يؤخذ على أوليفر كمؤرخ الاستطراد في بعض الاحيان وتقديم أو تأخير بعض الاحداث وتكرارها . وأخيرا نقول أن ما كتبه أوليفر بالنسبة لمعاصريه يتسم بالموضوعية إلى حد كبير^(١).

والى جانب أوليفر توجد رسائل الكاردينال جاك دى فترى Jacques de vitry وقد ولد جاك حوالى عام ١١٨٠ م وتلقى تعليما دينيا ، وتقلد في شبابه العديد من المناصب الدينية ، وسرعان ما أصبح أحد رجال الدين المرموقين وكان تأثيره على الحركة الصليبية في بدايات القرن الثالث عشر الميلادى لا يقل عن تأثير بطرس الناسك Peter the Hermit في زمانه ، وكان أيضا من الداعين للحملة الالبيجنسية التى قامت في جنوب فرنسا ، كما بشر ووعظ ودعا في فرنسا للحملة الصليبية الخامسة ، وكرس حياته لإعادة تعزيز الوجود الصليبي في الأرض المقدسة .

وقد حضر إجتماعات مجلس اللاتيران الكنس شأنه في ذلك شأن زميله أوليفر . وفي عام ١٢١٦ م عين أسقفا لمدينة عكا ، وصاحب الحملة المهنغارية في هجومها على ممتلكات المسلمين بالشام عام ١٢١٧ م ، وصاحب جاك الحملة الصليبية من بدايتها حتى نهايتها عام ١٢٢١ م ، ثم عاد إلى عكا وظل مقيما بها حتى عام ١٢٢٧ م ثم عاد إلى روما . وشغل جاك بعد ذلك عديدا من المناصب الدينية منها وظيفة الكاردينالية وممثلا للبابا في كل من فرنسا والمانيا ، وأخيرا عين بطريقا (اسقيا) لمدينة بيت المقدس ولكنه توفي في نهاية أول مايو عام ١٢٤٠ م قبل أن يتسلم مقاليد هذا المنصب^(٢).

وفضلا عن كون جاك دى فترى من شهود العيان ، فقد كان أيضا رجل الدين الثانى ولى المندوب الباهوى في الحملة ، وكان يرسل التقارير من دمياط

Runciman, A History of the Crusades, III, P. 484.

(١)

Vitry, op. cit., I, History of Jerusalem, pp. III- IV.

(٢)

تباعا إلى البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) . وبلغ مجموع هذه التقارير سبع رسائل خمس منها كانت أثناء تواجد الحملة في مصر فقد كانت الرسالة الأولى مؤرخة في أوائل أكتوبر ١٢١٦ م ، والثانية في ربيع ١٢١٧ م ، والثالثة في أغسطس ١٢١٨ م ، والرابعة في سبتمبر ١٢١٨ م ، والخامسة في سبتمبر ١٢١٩ م ، والسادسة في ربيع ١٢٢٠ م ، والسابعة في الثامن عشر من إبريل ١٢٢١ م ، ولازال هناك دراسات حول التحديد الدقيق لتواريخ هذه الرسائل التي نشرت أخيرا بلغتها الأصلية وهي اللاتينية في عام ١٩٦٠ م^(١) .

وتتمتع هذه الرسائل بأهمية بالغة ، ذلك أن كاتبها حضر الاجتماعات الرسمية ! ثابته بالرسالة قبل وصولها إلى مصر ، كما أن هذه الوثائق تحمل في طياتها صفة الوثائق الرسمية لكونها تقارير كانت ترسل تباعا من شخصية رسمية إلى البابوية في روما . وتعتبر هذه الرسائل ثقة في تاريخ الحملة نظرا للمعلومات القيمة التي وردت بها واشتملت على العديد من تفاصيل وأحداث الحملة منذ قدومها إلى مصر ورسوها في جيزة دمياط ، وتفصيل الغارات المتتالية التي شنها الصليبيون حتى سقوط برج السلسلة وعبور الصليبيين للضفة الغربية للنيل . كما تناولت أيضا الأحداث التي وقعت بعد ذلك خاصة حادثة الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٢١٩ م (١٥ جماد ٦١٦ هـ) ثم تفاصيل سقوط مدينة دمياط وما تلاهما من وقائع كتحويل جامع دمياط إلى كنيسة كاثوليكية وتعميد الاطفال وتوزيع الغنائم وسقوط قلعة مدينة تنيس ، وربطها بمطرائية دمياط . كما عالجت موضوع رحيل الملك جان دي برين وبعض الصليبيين من دمياط والأسباب الكامنة وراء هذا التصرف والنتائج التي ترتبت على ذلك ، وكذلك الفساد الذي تردت فيه القوات الصليبية أثناء تواجد الحملة داخل المدينة ، والتحصينات التي أقامها الصليبيون شرق وغرب دمياط كما أنه تناول في خطابه إقامة الملك الكامل وعساكره في المنصورة والكمائن التي كان ينصبها

(١) أنظر ما سبق من ٢٢١ حاشية (١) .

المسلمون للصليبيين وجهود الكامل والمعظم في إقلاق مضاجع الفرنج بمصر والشام . وتعرض جاك دى فترى لموضوع ظهور المغول وقتذاك وما له من أثر على موقف كل من المسلمين والصليبيين ، ويؤخذ على هذه الرسائل أنها غير سلسلة الحوادث ففيها تقديم وتأخير وتكرار في بعض الأحيان كما أنها لم تتناول المراحل الأخيرة من الحملة التي تبدأ بالزحف صوب القاهرة حتى هزيمتها والاستسلام . ويتضح من هذه الرسائل أن كاتبها كان متعصبا لديانته ومذهبه فقد كان من الذين نادوا بكتلكة الشرق الادلى الإسلامى .

وبالاضافة إلى رسائل الكاردينال جاك دى فترى الذى امدنا بمادة دسمة في موضوع الحملة مؤلفه المعروف باسم « تاريخ الشرق » Hostoria Orientales الذى تناول فيه أحوال الشرق بصفة عامة مع الإشارة إلى مدنه وموانئه والطرق التجارية وأهمية المدن المصرية من هذه الناحية . وقد استفاد الباحث مما ورد فيه عن مدينة دمياط إذ تعرض لبعض أحداث الحملة خاصة وصف برج السلسلة وأسوار مدينة دمياط وحالة المدينة بعد سقوطها في ايدي الصليبيين .

وإذا كان ما كتبه جاك دى فترى يصل بأحداث الحملة إلى نقطة تقدم القوات الصليبية من دمياط فكان على الباحث أن يبحث عن شاهد عيان آخر يستكمل من كتابته بقية أحداث الحملة حتى يمكن مقارنتها بما كتبه أوليفر وحتى لا يعتمد الباحث في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ مصر القومى على وجهة نظر أوليفر فقط ، وقد عثر الباحث على ضالته المنشودة في خطابين يتميزان بأهمية بالغة لانهما ينتسبان إلى بطرس أف مونتاجو Peter of Montagu رئيس جماعة الفرسان الداوية ١٢٢٠ م - ١٢٢٩ م وأحد شهود العيان ، وكان أيضا ضمن الرهائن الصليبية لدى الملك الكامل في المرحلة الأخيرة من الحملة . والخطاب أرسله بطرس عقب إطلاق سراحه مباشرة فقد أرخ في سبتمبر عام ١٢٢٢ م وهذا الخطاب مرسل إلى أسقف اليمونيوم Elimenum وعنوانه « أحوال الأراضى المقدسة بعد سقوط دمياط » وأهمية هذا الخطاب يرجع إلى أن بطرس كان في دمياط وغادرها إلى عكا مصاحبا للملك جان دى برين ، وظل بها فترة من الوقت تبدأ من التاسع والعشرون من مارس

١٢٢٢ م^(١) . وتناول بطرس في هذا الخطاب أخبار سقوط دمياط وتأسيس ، والإمدادات الصليبية في حوض البحر المتوسط والضائقة المالية التي عانتها الحملة ، وقيام الملك المعظم بالهجوم على الممتلكات الصليبية في الشام وأمل الصليبيين في وصول الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني Frederick II (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) للنجاح بالحملة لقيادتها .

أما الخطاب الثاني فقد أرسله بطرس إلى حد رفاقه ويدعى مارتل marcel وعنوان هذا الخطاب « ضياع دمياط » ، وإشتمل على أحداث مجلس الحرب الذي عقده المندوب البابوي وبعض القادة الصليبيين الذي تقرر فيه الزحف على القاهرة . كما تضمن أيضا عودة الملك جان دي برين من عكا إلى دمياط ، وتقدم القوات الصليبية وإقامتها قبالة المنصورة وبحر أشمون يفصل بينهم وبين المعسكر الإسلامي ، وسجل فيه كذلك تمرد بعض الصليبيين أثناء الزحف وعودتهم إلى دمياط ثم قيام المسلمين بكسر الجسور وإغراق المعسكر الصليبي ووصول هنري Henry كونت مالطة إلى دمياط وإنضمامه إلى رفاقه الصليبيين الذين رفضوا الاستسلام للمسلمين . وقد ذيل هذا الخطاب بالمعاملة الإنسانية التي عامل بها الملك الكامل القوات الصليبية بعد هزيمتها ، وعقد الهدنة بين الطرفين، فقد كان هو الآخر ضمن الرهائن الصليبية . وأخيرا جلاء القوات الصليبية عن دمياط .

وفي ختام المجموعة الخاصة بشهود العيان ترد الخطابات الأربعة الصادرة من بعض رجال الدين وقادة الحملة أثناء تواجدهم : دمياط للبابا هونوريوس الثالث وإلى بعض الشخصيات الأوربية. والخطاب الأول منها مؤرخ في الخامس عشر من يونيو عام ١٢١٨ م أي بعد رسو الحملة في جيزة دمياط بأسبوعين تقريبا ، والثاني والثالث والرابع مؤرخة في العاشر والحادي عشر والثاني عشر على التوالي من شهر نوفمبر عام ١٢١٩ م ، أي أن الثاني مؤرخ بعد خمسة أيام فقط من تاريخ سقوط دمياط في أيدي الصليبيين . وتناولت هذه الخطابات

Vitry, op. cit. p. 136

(١)

رسو الحملة في جيزة دمياط وعرض الصلح الذي تقدم به الملك الكامل وبعض الأحداث التي سبقت سقوط مدينة دمياط ثم سقوط المدينة في أيدي الصليبيين وحالتها عند استيلاء الحملة عليها ، هذا بالإضافة إلى طلب النجيدات من البابا وحثه على إرسال الإمبراطور فريدريك للحاق بالحملة في دمياط ثم أخبار تخريب أسوار مدينة بيت المقدس . ولهذه الخطابات أهمية تاريخية عظيمة لما حوته من معلومات عن الحملة رغم إنطباعها بالطابع الديني كما أنها تؤيد بعض الأحداث التي رواها شهود العيان الآخرين^(١) .

أما المجموعة الثانية من المصادر الأجنبية فهي الخاصة بالمعاصرين من غير شهود العيان فيتصدرها الخطاب الذي أرسله فيليب أف|البنى, Philip of Albeney إلى رالف إيرال شيلستر^(٢) . Ralph Earl of Chester وفيليب هذا هو أحد الفرسان الإنجليز والمعلم المخلص للملك هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) . واستلقى المعلومات التاريخية التي وردت في خطابه أثناء إبحاره في البحر المتوسط بالقرب من دمياط وهو في طريقه إلى الأراضي المقدسة عندما شاهد سفنا عديدة تغادر ميناء دمياط وتحدث مع أحد البحارة واستقى منه بعض المعلومات التي تتعلق بزحف الصليبيين من دمياط صوب القاهرة وهزيمتهم وعقد الهدنة وتبادل الرهائن وتسليم دمياط . ولما كانت هذه المعلومات مسجلة بعد الهزيمة مباشرة لذلك تتضح أهميتها التاريخية والتي ترقى إلى حد كبير إلى ما دونه شهود العيان .

وبلى ذلك ما كتبه روجر أف وندوفر Roger of Wendover باسم « زبدة التاريخ » Flowers of History ويشتمل هذا المؤلف على تاريخ الفترة الممتدة من سنة ٤٤٧ إلى سنة ١٢٣٥ م وقد تعرض فيه لأحداث الحملة موضوع الدراسة

(١) نشر رهرشت هذه الخطابات باللغة اللاتينية عام ١٨٩٢ م أنظر :

Rohricht. Funten Kreuzzuges, pp. 39- 46.

(٢) ا حاء رالف إلى دمياط في خريف عام ١٢١٨ م مع الامدادات التي أتى معها بلاجيوس وانظم إلى صفوف الحملة وظل بدمياط حتى ربيع عام ١٢٢١ م أنظر :

Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 411- 2

وهو ينقل معظمها من أوليفر وجاك دي فترى ، لذلك تمتع هذا المصدر بأهمية كبرى خاصة أنه أورد بعض التفاصيل التي لم يرد ذكرها عند المؤرخين السابقين . وقد استفاد الباحث مما كتبه روجر خاصة المعلومات الخاصة برحيل القوات الصليبية من أوروبا إلى الشرق ومساعدة بعض الصليبيين لإخوانهم ضد المسلمين في أسبانيا كما تعرض أيضا للامدادات التي وصلت إلى دمياط في سبتمبر ١٢١٨ م وعلى رأسها الكاردينال بلاجيوس ، هذا بالإضافة إلى الأمراض الجلدية التي انتشرت بين القوات الصليبية في شتاء العام نفسه . ويؤخذ على هذا المصدر أنه انتهى بمحوادث الحملة عند سقوط مدينة دمياط وتيس ، ولكنه استطاع أن يكملها بنصوص الخطابين الخاصين ببطرس اف مونتاجو وكذلك الخطاب الخاص بفيليب أف البنى . والملاحظة أنه يؤرخ الأحداث على الطريقة الستين شأن معاصريه لذلك جاءت أحداث الحملة غير مترابطة ومتداخلة مع غيرها من الأحداث .

ومن هذه المجموعة أيضا تاريخ هرقل^(١) Eracles ويعتبر هذا المصدر أيضا ثقة في تاريخ الحملة الصليبية الخامسة . فقد وردت به معلومات وتفاصيل لم ترد في المصادر السابقة خاصة تفاصيل مهاجمة المسلمين لممتلكات الصليبيين في الشام أثناء تواجد الحملة في دمياط ، بالإضافة إلى تفاصيل عودة الملك جان دي برين من دمياط إلى عكا ومشكلة الوراثة في أرمينية ، والميزة الخاصة التي يتمتع بها هذا المصدر هو ذكره لأسماء كبار الشخصيات التي اشتركت في أحداث الحملة . ويلاحظ على تاريخ هرقل تحامله على المندوب البابوي إلى حد ما وعدم الدقة في ذكر تاريخ الأحداث خاصة سقوط مدينة دمياط في أيدي الفرنج ، كما أنه أخطأ عندما ذكر أن المسلمين طوقوا الصليبيين من الشمال ببعض السفن

(١) منشور اللغة الفرنسية القديمة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية R. H. C. وهو من تذييلات وليم الصوري ولم يعرف كاتبه . ففي حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قام أحد رجال ملك فرنسا بترجمة كتاب وليم الصوري وأضاف إليه ما عرف باسم تاريخ هرقل . وقد سمي بهذا الاسم لأن بداية الكتاب تبدأ بكلمة الامبراطور هرقل أنظر :

Runsiman, op. cit., 1, P. 477, III, P. 482.

التي أبحرت من رشيد ثم دخلت في فرع دمياط من الشمال، والواقع أن المسلمين أحاطوا بالقوات الصليبية عندما أبحرت السفن الإسلامية من بحر المحلة جنوباً واتجهت شمالاً وخرجت من مصبة المواجه لشارمساح^(١).

وإلى جانب ذلك يوجد تاريخ بطارقة بيت المقدس الذي تضمن بعض المعلومات عن رجال الدين اشتركوا في أعمال مجلس اللاتيران الكنس وفي الحملة نفسها . وكذلك تاريخ الأرشف اللاتيني لقبرص وتاريخ البطارقة اللاتين لأنطاكية ، وإلى جانب ذلك يوجد تاريخ بطارقة بيت المقدس الذي تضمن بعض المعلومات عن رجال الدين اشتركوا في أعمال مجلس اللاتيران الكنس وفي الحملة نفسها . وكلها تضمنت بعض المعلومات الهامة عن نشاط الأساقفة في الأعداد للحملة ، ثم حوليات الأراضي المقدسة التي تعتبر مصنفات مختصراً لتذيلات ولیم الصوری .

يضاف إلى هذه المجموعة أيضاً النصوص الخاصة بقرارات مجلس اللاتيران الكنسى والخطاب الذى أرسله البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) فى سنة ١١٩٨ م إلى شعب البندقية بغرض تحريم الاتجار مع المسلمين ، والخطاب الذى صدر منه أيضاً إلى البارونات الانجليز فى عام ١٢١٦ م يطالبهم فيه ببذل الولاء والطاعة للملك الانجليزى حنا . وكذلك التقرير الذى أرسله بطريق بيت المقدس إلى البابا انوسنت الثالث عام ١٢١٤ م الذى تناول فيه بعض المعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية عن مصر وخطاب بيقولا الأول بطريق الروم الكاثوليك بالاسكندرية إلى البابا هونوريوس الثالث فى عام ١٢٢٢ م يطالبه فيه بارسال الامبراطور فريدريك الثانى لغزو مصر عن طريق فرع رشيد ، والوعد الذى قطعه فريدريك على نفسه باذلا فيه الولاء للبابا انوسنت الثالث . وتنتهى هذه المجموعة بما كتبه بول أويجلر Paul wiegler باسم « الامبراطور المهترق » The Infidel Imperor، وقد تناول فيه موقف الامبراطور من الحملة ومعاقبته لهنرى كونت مالطة-الذى

(١) أنظر الخريطة رقم (٧) .

وصل إلى دمياط عقب استسلام الصليبيين - على سوء تصرفه .

والمجموعة الثالثة الخاص بالمصادر الأجنبية هي المصادر المتأخرة زمنيا عن الحملة ثم كتب الرحالة . أما المصادر المتأخرة فأهمها ما كتبه متى أوف وستمينستر^(١) Matthew of Westminster باسم « زبدة التاريخ » The Flowers of History الذي تنتهي حوادثه بعام ١٣٠٧ م . وما كتبه الرحالة فلكس فابري^(٢) Felex Fabri باسم « كتاب الترحال » The Book of wandering الذي تنتهي حوادثه حوالي عام ١٤٨٣ م . وكلاهما تناول أحداث الحملة باختصار . يضاف إلى ذلك ما كتبه بعض الرحالة الذين كتبوا عن بلاد الشام وأوصافها وهم بروكارد^(٣) Bruchard الذي سجل مشاهداته في عام ١٢٨٠ م ، وما سجله مارينو سانوتو^(٤) Marino Sanuto في عام ١٣٢١ م ، وما دونه ليودلف

(١) ينسب إلى مقاطعة وستمينستر في إنجلترا ، وكان أحد الرهبان البندكتيين ، وقد ذاع صيته مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادي . وهو يعتمد في تاريخه هذا على ما كتبه روجرلوف وندوفروسي الباريسي اللذين عاشا في القرن الثالث عشر الميلادي ويعتبر بلا مازع من أعظم مؤلفي عصره ، ويستحق بمقدارة الشهرة التي اكتسبها بين غيره من المؤرخين . أنظر :

Matthew of Westminster, The Flowers of History, I, PP. I- III.

(٢) عاش في القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان أحد أفراد جماعة الدميكان . وقد زار الأرض المقدسة مرتين كانت الأخيرة منها فيما بين عامي ١٤٨٠ ، ١٤٨٢ م . وقد دون كتابه في عام ١٨٨٤ م وفاء بوعد كان قد قطعه على نفسه أمام أحد رفاقه ، أنظر :

Fabri, I, The Book of Wandering, Vol. I, Part 1, P. I.

(٣) هو بروكارد الصهيوني Bruchard of Mount sion ، وهو ألماني الأصل وعاش في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد قديم إلى الشرق عام ١٢٣٢ م . وزار مصر وسوريا ودون مشاهداته عام ١٢٨٠ م . أنظر :

Bruchard, A Description of the Holy land , PP. III-1V.

(٤) ويسمى أيضا مارينو سانودو Sanudo ويرجع أصله إلى إحدى العائلات النبيلة في البندقية وقد زار الشرق وسجل مشاهداته منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حتى عام ١٣٢١ م . أنظر :
Marino Sanuto, Secrets for True Ciusaders, pp. III-1V.

فون سوكيم^(١) Ludolph Von Suchem عام ١٣٥٠ م .

وتأتى بعد ذلك المجموعة الرابعة الخاصة بالمصادر التى تتحدث عن الحوادث السابقة للحملة أو اللاحقة لها . والسابق منها يتصدرها ما كتبه جاك دى فتر . باسم « تاريخ بيت المقدس » The History of Jerusalem وما كتبه وليم الصورى^(٢) باسم « تاريخ الاعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر - (Historia Renum in Partibus) هذا بالإضافة إلى ما كتبه ريتشارد أوف ديفز^(٣) Richard of Devizes وجودفرى دى فينسوف^(٤) Geoffrey de Vinsauf عن حملة ريتشارد قلب الاسد عام ١١٩١ - ١١٩٢ م (٥٨٧ هـ) ، وما سجله روبرت كلارى عن سقوط القسطنطينية . وتنتهى هذه

(١) كان ليودلف قسيسا فى كنيسة سوكيم التابعة لأسقفية بادنبورن بالمانيا . وقد رار الأراضى المقدسة فى الفترة من ١٢٢٦ - ١٣٤١ م ، وسجل مشاهداته فى عام ١٣٥٠ م . أنظر : Ludolphe von Suchem, Description of The Holy Land, P. III.

(٢) ولد وليم الصورى فى بيت المقدس حوالى عام ١١١٠ م . ويبدو أنه نشأ فى بيت المقدس نفسها . وكان يتقن اللغات اللاتينية والفرنسية والعربية فضلا عن المامه بالعبرية والفارسية واليونانية ، وقد عمل منذ حياته المبكرة فى السلك الكهنوتى وأصبح أحد رجال الكهنوت التابعين لرئيس أساقفة صور . وقد ارتبط بخدمة الملك عمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٣ م) الذى كلفه بكتابه تاريخه ، وعينه عمورى رئيسا لشمامسة كنيسة صور . وقد قام الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق بعمل دراسة تحليلية عن وليم الصورى تعتبر فى غاية الأهمية يضيف المقام هنا عن ذكرها . أنظر : عمر كمال توفيق : المؤرخ وليم الصورى ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد ٢١ (سنة ١٩٦٧) ص ١٨١ - ٢٠٠ .

(٣) لا نعرف الكثير عن حياته ، غير أنه كان من معاصري ريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩ م) وكان راهبا فى مقاطعة ونشستر . أنظر حوليه المؤرخ فى : Chronicles of The Crusades (ed. Bonn. S) London 1848, p. III.

(٤) من عائلة نورمانيه ولكنه أنجليزى المولد وله مؤلفات عديدة أهمها الكتاب الذى رجع اليه الباحث ، وكان معاصرا وشاهد عيان لحملة ريتشارد على الشام . أنظر : Chronicles of The Crusades, pp. III-V.

المجموعة بالخطاب الذي وجهه الكاهن يوحنا في عام ١١٥٥ م إلى الامبراطور البيزنطي مانويل (١١٤٣ - ١١٨٠ م) والخطاب الذي وجهه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١ م) عام ١١٧٧ م إلى الكاهن يوحنا . أما المصادر التي أرخت للحوادث التالية للحملة ورجع اليها الباحث واستفاد منها فأهمها كتاب جوانفيل^(١) Joinville عن حملتي لويس التاسع على مصر والشام ، هذا بالإضافة إلى ما دونه متى الباريسي^(٢) Matthew Paris عن تاريخ إنجلترا في الفترة من ١٢٣٥ إلى سنة ١٢٧٣ م . وقد أمدت هذه المصادر الباحث بالمعلومات التاريخية خاصة بالأحداث السابقة للحملة والتي تعتبر من مقدماتها وكذلك بالنسبة لبعض نتائج هذا البحث ويبدو أثرها جليا في ثنايا الكتاب

(١) ولد جان دي جوانفيل حوالي عام ١٢٢٤ م . وكان أكبر أولاد والده سيمون حاكم جوانفيل وقد خلف والده في حكمها ، ثم أصبح بعد ذلك حاكم شامبانيا . وقد كان هو أيضا أحد فرسان الملك لويس التاسع أثناء حملته على كل من مصر وسوريا في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي . وقد عرف بالدقة والصدق فيما يكتب . عن ذلك ومزيد من التفاصيل أنظر :

Joinville, Memoires of Louis IX, King of France, cf. Chronicles of the Crusades pp. 344-9.

وقد قام الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف بمزيد من التعريف بهذا المؤرخ والظروف التي دون فيها سيرة سيده لويس التاسع وبعض الجوانب الأخرى . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٤ - ٥ ، العدوان الصليبي على الشام ص ٣ - ١٦ .

(٢) من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادي . ولا نعرف شيئا عن تاريخ ميلاده أو سنى حياته الأولى . وقد انخرط في سلك الرهينة في ٢١ يناير ١٢١٧ م . واشتهر بحكمته وعدالته ، وكان واسع الاطلاع غزير الثقافة أمينا منصفيا فيما يكتب . ويبدأ تاريخه من عام ١٢٣٥ وينتهي عام ١٢٥٩ م وهي السنة التي مات فيها المؤلف واكمل هذا التاريخ حتى سنة ١٢٧٣ م راهب بدير القديس إلبني بإنجلترا يدعى وليم ريشانجيه عن ذلك ومزيد من التفاصيل أنظر :

Matthew of Westminster, op. cit., II 316 - 7, Matthew Paris, English History V- VII.

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على الشام ص ١٩ - ٢٢ .

هذا فيما يتعلق بالمصادر الأجنبية المعاصرة والمتأخرة ، أما المصادر العربية فأهمها على الإطلاق هو « تاريخ بطارقة الاسكندرية »^(١) . وقد ورد في قصة الكنيسة القبطية أن كاتبه هو أبو شاكر بن الراهب أبو بطرس بن المهذب شماس كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالعلقة^(٢) . وهذا يعنى أن كاتبه كان مقيما بمصر أثناء تواجد الحملة في دمياط . والواقع أن تاريخ البطارقة يعتبر الحجة الأولى بلا منازع في المصادر العربية التي أرخت للحملة . والمتصفح لصفحاته يلاحظ أن كاتبه كان ملتصقا بالحوادث التصاقا وثيقا . فانه علاوة على ما ذكره من وقائع الحملة ، أورد وصفا دقيقا للقلعة العائمة التي شيدها الصليبيون للاستيلاء على برج السلسلة وكذلك وزن سلسلة البرج التي تتصل بالمدينة ، والغارة التي قام بها الصليبيون أثناء إقامتهم في جيزة دمياط يوم الجمعة (٢٢ يونيه ١٢١٩ م / ٢٦ ربيع أول ٦١٥ هـ) وغارة يوم الأحد (١ يوليو ١٢١٨ م / ٥ ربيع ثاني ٦١٥ هـ) . كما أنه أشار إلى العواصف التي اجتاحت المعسكرين الإسلامى والصليبي يوم (٢٩ نوفمبر ١٢١٨ م - ٩ رمضان ٦١٥ هـ) وأثرها على المعسكرين ، وحادثة أحد السعف (٣١ مارس ١٢١٩ هـ / ١٣ محرم ٦١٦ هـ) أثناء حصار الصليبيين لدمياط ، وكذلك نشاط صفى الدين بن شكر في إعداد المال والرجال لمواجهة القوات الصليبية . هذه وتلك من المعلومات التي لم ترد في بعض المصادر الأجنبية أو العربية الأخرى مما يضيف على الكتاب أهمية خاصة . ونذكر منها على سبيل المثال أنواع الأطعمة التي قدمت للرهائن الفرنج وكذلك أسماء بعض الشخصيات الإسلامية التي قدمت كرهائن للصليبيين . هذا فضلا عن الحديث الذى دار

(١) يبدأ هذا التاريخ بعهد القديس مرقس وينتهى باحداث عام ١٢٦١ م ، وتوجد نسخة من الكتاب بمكتبة الفاتيكان باللغة العربية مع ترجمتها اللاتينية . انظر : ابريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ٣ ص ٢٤٦ . وقد قام بلوشيه Blochet بنشر الجزء الخاص بالحملة باللغة الفرنسية الحديثة وهو النص الذى رجع اليه الباحث . انظر :

Revue de L'Orient Latin, Vol XI, pp. 242 - 260

(٢) ابريس حبيب المصرى : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

بين الملك الصليبي والمندوب البابوي للحملة الذي أنب فيه الملك المندوب البابوي باعتباره السبب في الهزيمة التي لحقت بالحملة . ويؤخذ عليه بعض الأخطاء التي وقع فيها، منها ما ذكره من أن الملكة زوجة الملك جان دي برين كانت ضمن الرهائن الصليبية بينما كانت هذه الملكة قد ماتت منذ أكثر من عام . ورغم ذلك فإن تاريخ البطارقة يعتبر أكثر المصادر العربية أسهابا في سرد أحداث الحملة ووقائعها وأكثرها دقة في ذكر تواريخ هذه الوقائع والأحداث .

والى جانب تاريخ البطارقة يوجد خمسة من المؤرخين المعاصرين هم ابن الجوزي وأبو شامة وابن الأثير وابن واصل وابن خلكان . ويلاحظ على هذه المصادر جميعها إنها تناولت الحوادث الرئيسية للحملة فقط مع بعض التفصيلات البسيطة التي لا تغطي أحداث الحملة ، بينما مرت مر الكرام على كثير من وقائع الحملة التي لو كانت قد امدتنا بها لزودتنا بمادة قيمة لا يمكن تجاهلها .

فابن الجوزي^(١) (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٥ م) صاحب كتاب « مرآة الزمان » كان صديقا للملك المعظم صاحب دمشق ، وقد حضر إلى دمياط وشاهد جانبا من أحداث الحملة ، كما كلف باعداد بعض الامدادات في الشام وأرسلها إلى مصر . وخير ما ورد به تفاصيل الحوادث التي وقعت بالشام وأحوال البيت الأيوبي ابان الحملة على مصر ، بالاضافة إلى تفاصيل مؤامرة ابن المشطوب التي لم ترد في غيره من المصادر .

(١) هو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزوغلي . ولد عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م في بغداد وكان أبوه معبدا تركيا . ودرس في مسقط رأسه ثم شرع في الرحلة منذ اوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وأصبح في آخر الأمر مدرسا وكتبا بدمشق . أنظر : أبو المحاسن : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٥ وزنه ٥٨٩ - ٥٩١ . انظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العلوان الصليبي على الشام ص ٣٤ حاشية ١ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١٦٤٧ - ١٦٤٨ .

ويلازم ابن الجوزي أبو شامة^(١) (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) ولم يأت أبو شامة في كتابه « الذيل على الروضتين » بمجديد أكثر مما ذكره ابن الجوزي إذ يلاحظ أنه نقل عنه . ولكنه مع ذلك امدنا بمعلومات طيبة عن غارة الصليبيين على البرلس (يوليو ١٢١٩ م / جمادى الأولى ٦١٧ هـ) ، إلا أنه صور عدد القتلى الصليبيين في هذه الموقعة بصورة مبالغ فيها .

أما ابن الأثير^(٢) (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) فقد تعرض لحوادث الحملة في كتابه « الكامل في التاريخ » وقد تناول خطوطها العريضة شأنها في ذلك شأن المصدرين السابقين . وخير ما ورد به الوصف الذي صور به الفرع الذي انتاب العالم الإسلامي من جراء تواجد الصليبيين في دمياط والتتار في الشرق الإسلامي وكذلك موقف العربان في مصر من الحملة ومن القوات الإسلامية ، والفرح الذي عم العالم الإسلامي بعد هزيمة القوات الصليبية .

وإلى جانب ابن الأثير يقف ابن واصل^(٣) (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) فقد ورد في مؤلفه « تاريخ الواصلين » المنشور جزء منه تحت اسم « مفرج

(١) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسي . ولد بدمشق سنة ٥٥٩ هـ / ١٢٠٣ م . ويعرف بأبي شامة لوجود شامة على حاجبه الأيسر . ر' عدة مؤلفات أهمها الروضتين في أخبار الدولتين و « الذيل على الروضتين » الذي نشره عزت العطار تحت اسم « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » وهي نشره غير محققة . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : الكتبي : قوات الوفيات ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٣٤ حاشية (٢) ، يوسف سركيس : معجم المطبوعات العربية ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم الملقب بعزيز الدين والمعروف بابي الأثير ولد عام ٥٥٥ هـ / ١١٦١ م في جزيرة ابن عمر ونشأ بها وصار إلى الموصل وأهم مؤلفاته « الكامل في التاريخ » . انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٣) هو جمال الدين أبو عبد الله بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضي حماه . ولد عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م . وله مؤلفات كثيرة لعل أهمها « تاريخ الواصلين » وكان عمره إحدى عشر سنة عندما قدمت الحملة إلى دمياط . أنظر : السيوطي : هنيه الوعاء ص ٤٤ ، جمال الدين =

الكروب في أخبار بني أيوب» وقائع الحملة ، وقد نقلها عن ابن الأثير إذ كان صغير السن أثناء تواجد الحملة في مصر . ولكنه زاد عليها بعض التفاصيل منها موقف الأمير شجاع الدين من الملك الكامل والصليبيين عند إستلامه مدينة دمياط ، عندما رفض الانصياع لأوامر الكامل وتلبية طلب الصليبيين وتمسكه بموقفه ورفضه تسليم الصواري للقوات الصليبية عند جلائها .

ويختتم هذه المجموعة من المؤرخين العرب المعاصرين ابن خلكان^(١) (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) . وتنحصر قيمة روايته عن الحملة في مؤلفه « وفيات الأعيان » فقد جاء في ثنائه ترجمته لبعض رجال عصره البارزين ، وعلى رأسهم العادل والكامل والافضل والاشرف والعزير وهم الملوك الأيوبيون الذين حركوا حوادث الحملة والاحداث السابقة واللاحقة لها. وقد جاء في ثنائه هذه التراجم معلومات قيمة أفدنا منها كثيراً .

ويأتى بعد هؤلاء طائفة من الشعراء والآباء على رأسهم البهاء زهير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) . وابن مطروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) ، وابن النبيه (٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م) ، وقد صوروا لنا ابتهاج المسلمين بالنصر على الصليبيين والفرح الذي عم العالم الإسلامي ابتهاجا بهذا النصر .

وبلى تلك المصادر التي اكتفى الباحث بذكرها في هذا الموضع ، بعض المصادر الأخرى عاش أصحابها في القرن الثامن الهجري نذكر منها ، ذيل مرآة الزمان » (مخطوط) لليونيني (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٣٦ م) ، و « درر التيجان » و « كنز الدرر » (مخطوطان) لابن أليك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

الشيال : مفرج الكرب ج ١ ص ٤ وما بعدها . وقد نشر تاريخه هنا حتى عام ٦١٥ هـ الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ويقع في ثلاثة أجزاء ، أما الرابع الذي ينتهي بحوادث عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م فقد حققه الدكتور حسنين محمد ربيع تحت اشراف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وقد نشره دار الكتب عام ١٩٧٢ م .

(١) عن ابن خلكان أنظر : الكشي : فوات الوفيات ج ١ ص ٥٥ - ٥٩ .

و « نهاية الارب » (مخطوطة) للنويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٢٣٢ م) ،
و « تاريخ ألى الفدا » و « تقويم البلدان » لألى الفدا (ت ٧٣٢ هـ /
١٣٣٢ م) ، و « تنمة المختصر » لابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ،
و « دول الإسلام » للحافظ الذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٦٨ م) ، و « فوات
الوفيات » للكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) ، و « البداية والنهاية » لابن
كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) . .

ومن أهم المؤلفات التى تعرضت لحوادث الحملة فى القرن التاسع الهجرى
« تاريخ الدول والملوك »^(١) لابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ،
وكتاب « العبر » لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٤ م) ، و « الخطط »
للمقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، وكتاب « النجوم الزاهرة »
و « المنهل الصافى » (مخطوط) لألى المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ /
١٤٦٩ م) ، و « فتوح النصر » (مخطوط) لابن بهادر (عاش فى القرن
التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) .

وبالإضافة إلى هذه المصادر توجد بعض المصادر الأخرى المتأخرة التى
خدمت جانباً من هذا البحث أو زاوية من زواياه . كما اعتمدنا فى هذا البحث
على بعض المصادر التى سجلت أخبار الحوادث السابقة للحملة باعتبارها
المدخل الطبيعى لها ، وقد اعتمد عليها الباحث فى المقدمة أو بعض تفسيرات
أخرى . ومن هذه المصادر « الديارات للشابشتى » (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) ،
و « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ،
و « أخبار مصر » لابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) ، و « تاريخ

(١) رجع الباحث إلى الجزء المنشور منه ابتداء من حوادث عام ٥٦٤ هـ حتى عام ٦١٥ هـ . وقد
شره الدكتور حسن محمد الشماخ وساعدت جامعة البصرة على طبعه . وقد صدر تحت اسم
(تاريخ ابن الفرات) ، والمجلد الرابع ج ١ ويحوى الفترة من ٥٦٣ إلى ٥٨٦ هـ ، وقد طبع عام
١٩٦٧ م والجزء الثانى ويحوى الفترة من ٥٨٧ هـ إلى ٥٩٩ هـ وقد طبع عام ١٩٦٩ ، والجزء
الخامس ج ١ ويبدأ من حوادث عام ٦٠٠ هـ إلى ٦١٥ هـ ، وقد طبع عام ١٩٧٠ م . وسـ .
الفرات انظر : أبو المحاسن : المنهل الصافى (مخطوط) ج ٥ ورقة ٣٠ ٣١ .

الفارقي « لابن الفارقي (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) ، و « الفتح القدسي »
للعقاد الكاتب (ت ٤٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ، و « قوانين الدواوين » لابن
مماق (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) ، و « معجم البلدان » لياقوت الحموي
(ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، و « النوادر السلطانية » لابن شداد
(ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) ، و « الروضتين » لأبي شامة .

هذا بالإضافة إلى ما كتبه الجغرافيون والرحالة ، ونذكر منهم بنيامين التطيلي
(ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) وابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) وابن
بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) والقزويني (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
وابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) وكل هذه المؤلفات لها
قيمتها في دراسة النواحي التاريخية والجغرافية والحربية التي سادت العصر .

أما المراجع الثانوية الأجنبية من كتب المحدثين فأهمها ما كتبه ستيفن
رانسيمان^(١) S. Runciman ، ورنيه جروسيه R. Grousset ، ومجموعة بنسلفانيا
التي يقوم بنشرها ستون Setton ، وكذلك مؤلفات ميشو Michaud ،
ورينهولد رهرشت R. Rohricht . هذا بالإضافة إلى ما كتبه ستيفن ،
Stevenson ، وآرشر وكنجسفورد Archer & Kingsford ، وكلود كاهن
C. Cahen ، والفرد دوجان A. Duggan ، وهارولد لامب H. Lamb ، وكامبل
Campbell ، وباركر^(٢) Barker ، وميمبورج Maimbourg ، ولدلو Ludlow ،
وجيبن Gibbon ، وكالثرروب Calthrop ، ولويس برييه L. Brehier ، ونختتم
هذه المجموعة بالكتب الذي وضعه جوزيف دونفان J. Donovan « بلاجيوس
الحملة الصليبية الخامسة » Pelagius and the Fifth Crusade .

(١) نقل كتاب A Story of The Crusades إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العريني تحت
اسم « تاريخ الحروب الصليبية » وهو يقع في ثلاث أجزاء ، طبع بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩ .
(٢) | نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العريني تحت اسم « الحروب الصليبية » -
القاهرة ١٩٦٠ م .

ويقع ما كتبه دونفان في كتيب من القطع الصغير وقد اكتفى بالرجوع إلى ما كتبه أوليفر أوف بادنبون من بين مصادر هذا البحث ووثائقه ومراسلاته . ويؤخذ على هذا الكتيب أنه لا يعرض تاريخ الحملة عرضاً تفصيلياً دقيقاً ولا يهتم بمشاكل البحث وقضاياها . فضلاً عن أنه تناول الحملة من وجهة نظر غربية|بجته. لذلك فإن استعراضه لتاريخ الحملة كان مبتوراً وانطبع بطابع انصاف الحلول . ثم انه بعد هذا كله لا يزيد بل يقل عما جاء في ثنايا المراجع الأجنبية الأخرى للمؤرخين المحدثين .

ونختتم الحديث عن المصادر والمراجع بالمراجع العربية التي أصبحت تسد فجوة كبيرة في تاريخ الحركة الصليبية . وخير ما جاء فيها أنها تعبر عن وجهة النظر المحايدة البعيدة عن الميول والأهواء . ويتصدر هذه المؤلفات بالنسبة لموضوع البحث مؤلف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور « الحركة الصليبية - صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربى » . أما بقية المراجع الأخرى فهي مؤلفات الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق « مملكة بيت المقدس الصليبية » و « مقدمات العدوان الصليبي » ومؤلفات الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف « العرب والروم واللاتين » و « الوحدة وحركات اليقظة » و « العدوان الصليبي على مصر » و « العدوان الصليبي على الشام » . يضاف إلى ذلك ما كتبه الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور باسم « قبرس والحروب الصليبية » ، وكتاب « الحرب الصليبية الأولى » وكتاب « الشرق العربى بين شقى الرحى : حملة لويس على مصر والشام » و « نور الدين والصليبيون » للأستاذ الدكتور حسن حبشى ، و « حملة لويس التاسع على مصر » للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وكتاب « الحروب الصليبية - إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب » للدكتور أحمد شلبي ، وكتاب « معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية » للدكتور عبد الرحمن زكى ، وكتاب « الشرق الأوسط والحروب الصليبية » للاستاذ الدكتور السيد الباز العربى ، وكتاب « الحروب الصليبية في المشرق والمغرب » لمؤلفه محمد العروسى المطوى ، و « الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها

للدكتور محمد محمد مرسى الشيخ .

وعلى الرغم من أن بعض هذه المراجع لم يتعرض للحملة إلا في بضعة أسطر أو في بضع صفحات ، وعلى الرغم من أن بعضها لم يشر إليها إطلاقاً ، إلا أن لها قيمتها العملية في تاريخ الحركة الصليبية ، فهي تسد فجوات وثغرات عديدة في تاريخ تلك الحركة التي تعرض لها العالم الإسلامى ، وفيها الكثير من المعلومات القيمة .

الفصل الأول

الاطماع الصليبية في مصر في القرن الثاني عشر
الميلادي / السادس الهجري

كان الشرق الأدنى الإسلامي يخضع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي لثلاث قوى رئيسية ، أولهما الخلافة العباسية في بغداد ، وثانيهما الدولة الفاطمية في مصر ، وثالثهما مسيحية رمزها الامبراطورية البيزنطية . وكانت الخلافة العباسية السنية في بغداد قد حل بها الضعف والانهيار وسيطر عليها البويهيون الشيعة تماما ، ولكن الحال ما لبث أن تبدل بها نتيجة قدوم الاتراك السلاجقة الذين ساعدوا الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٧٥ م) على التخلص من البويهيين ، فأضحى السلاجقة بذلك حماة الخلافة العباسية . وقد استطاع السلاجقة بعد ذلك التوغل في آسيا الصغرى وتمكن سليمان بن قتلмыш (٤٧٤ - ٤٧٩ هـ / ١٠٨١ - ١٠٨٦ م) من إقامة مملكة شملت بعض أراضي آسيا الصغرى وقيليقية على حساب الدولة البيزنطية^(١) ، على حين غدت دولة السلطان السلجوقي الأعظم ملكشاه تمتد من إقليم ما وراء النهر إلى الاناضول وللشام كله ، بما في دمشق وحلب وأنطاكية^(٢) .

غير أن وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، أعقبتها تفكك دولته ، إذ أعلن أخوة تتش أمير الشام خروجه على بركياروق ابن ملكشاه ، ولم يعترف بسيادته ، وترتب على ذلك وقوع الحرب بينهما وانتصار بركياروق على عمه تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، بالقرب من الرى حيث لقي تتش مصرعه^(٣) ، ثم ما لبث أن تفكك ملك تتش بالشام بسبب ما وقع من نزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، إذ أراد كل منهما أن يستأثر بملك أبيه بمفرده . فقد كان رضوان يحكم حلب ، على حين سيطر دقاق على دمشق وديار بكر والجزيرة ، وانحاز إلى رضوان قبيلة كلاب العربية وسكمان بن أرتق التركماني صاحب سروج ، على حين انضم إلى دقاق ياغي سيان صاحب أنطاكية والغازي

(١) عمر كال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٢٩ - ١٣٠

(٢) الاصفهاني ، عماد الدين محمد : تاريخ آل سلجوق ص ١١ ، ١٢ ، ٥٥ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣٢ .

الأرتقى ، ثم تحول ياغى سيان إلى جانب رضوان ، واشتعلت الفتنة وجرت الاستعدادات العسكرية لمهاجمة دمشق . وعلى أية حال لم تنته الفتنة بين المسلمين حتى جاءت الأنباء بقدوم الصليبيين ، وبدأ كل فريق يستعد لحماية ممتلكاته من الخطر الجديد ، بدلا من التكتل ضد المعتدى الدخيل مما سهل على الصليبيين عرو بزد انتقام^{١٧} .

والقوة الإسلامية الأخرى هي الخلافة الفاطمية في مصر . ولقد كان لها أكبر الأثر فيما وقع من حوادث بالشرق الأدنى الإسلامى قبيل الحروب الصليبية ، بسبب النزاع على زعامة العالم الإسلامى من الناحية الدينية . ولقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على بلاد الشام لتكون مركز إنطلاق لدعوتهم الشيعية ونجحوا في مد نفوذهم على الشام كله بين ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م وسنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، عدا أنطاكية التي كانت تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية^(١) ولكن المد الفاطمى لم يستمر طويلا وبدأ ينحصر رويداً رويداً بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والحربية والسياسية في مصر . وحاول الفاطميون إستعادة مركزهم في انتقام مره أخرى عن طريق الحملات العسكرية ، إلا أنهم لم يتمكنوا إلا من إستعادة المدن الساحلية حتى مدينة جبيل ، وهى المدن التي ظلت بأيديهم حتى قدوم الصليبيين .

أما القوة المسيحية ومركزها الامبراطورية البيزنطية فكانت قد تعرضت قبل الحروب الصليبية لتغيرات بالغة الأهمية أثرت في تطور مجرى الحوادث في الشرق الأدنى الإسلامى . ذلك أن إنتصار السلطان ألب أرسلان السلجوقى (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) على الامبراطور البيزنطى رومانوس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١١٣ .

(٢) تمكن الامبراطور نففور فوكاس من الاستيلاء على انطاكية عام ١٩٦٧ م ، وضمت إلى الحكم البيزنطى لتبقى خاضعة له حتى ١٠٨٤ / ٥٧٧ هـ ، حين استولى عليها سليمان بن أقطمش السلجوقى . راجع عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٤ .

الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) في موقعة مانزكرت^(١) سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، كان كارثة عظمى على الامبراطورية البيزنطية ، إذ فقدت خيرة رجالها في هذه الموقعة ونتج عن هذه الهزيمة أن إستولى السلاجقة بقيادة سليمان بن قاش على معظم أراضي آسيا الصغرى وأخذ الخطر السلجوقي يحدق بالعاصمة البيزنطية . والمهم أنه لم يبق للامبراطورية البيزنطية عندما تولى عرشها الكسيوس كومنين Alexius Comnen (١٠٨١ - ١١١٨ م) من الأراضي في آسيا الصغرى سوى سواحل البحر الأسود وبعض المدن الداخلية المتناثرة التي إنقطعت صلتها إلى حد ما بالحكومة المركزية في القسطنطينية . ويلاحظ أنه في الوقت نفسه لم تكن القوة السلجوقية في آسيا الصغرى قوة موحدة بل خضعت بعض المدن لأمراء إعتزف بعضهم بسلطان سلاجقة الروم سليمان بن قتلмыш ، على حين أعلنت أغلبية الأمراء الولاء للسلطان السلجوقي ملكشاه في بغداد .

بقى إلى جانب السلاجقة والامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى الامارات العديدة التي أسسها الأرمن ، أهمها إمارة روبان Rouben في قيليقية الوسطى ، وإمارة أوشين Oshin في قيليقية الغربية ، وإمارة فيلاريتوس Philaretus التي إمتدت من جبال طوروس إلى ما وراء نهر الفرات^(٢) . وللأرمن في تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى أهمية كبرى ، إذا إنتشروا في الشام كما إنتقل عدد كبير منهم إلى مصر ودخلوا في صفوف جيش الخلافة الفاطمية . وكان لهم أثر كبير في أحوال الدولة الفاطمية . وفي وسط هذا الصراع بين

١) عن تفصيل هذه الموقعة أنظر : صدر الدين ابى الحسن : أخبار الدولة السلجونية ص ٤٦ وما بعدها ، ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٩٩ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٣٥ Psellos, Histoire d'un Siecl de Byzance, 11, p. 168 ff, William of Tyre, A History of Deeds Done Beyend the Sea, 1, P. 18. وحول نتائج هذه المعركة راجع ، عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٣ حاشية (١) .

Runciman, A History of the Crusades, 1, pp. 73-4.

٢) :

المسلمين بعضهم البعض وبين السلاجقة والإمبراطورية البيزنطية ، قدمت جحافل الصليبيين من أوروبا إلى الشام لتجد أمامها ممتلكات فتتها العداوة ، وحكاما يصارعون بعضهم البعض مما مكّنهم من إقامة أربع إمارات صليبية في الشام هي الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس^(١) .

والواقع أن مصر لم تقف مكتوفة الأيدي أمام الغزو الصليبي ، بل قامت بدور ملحوظ في مقاومته ، فلقد زحفت الجيوش الفاطمية على الشام وانتزعت مدينة بيت المقدس من أيدي حاميتها السلجوقية في رمضان ٤٩٢ هـ / أغسطس ١٠٩٨ م ، ولم تلبث أن إستولت على فلسطين كلها^(٢) إلا أن القوات الصليبية تمكنت من هزيمتها حتى إستولت في آخر الأمر على بيت المقدس كما سبق أن أوضحنا .

وتجدر الإشارة هنا أنه إزاء مقاومة الجيوش الفاطمية المصرية للقوات الصليبية قبل استيلائها على بيت المقدس ، أن الصليبيين فكروا في غزو مصر قبل الزحف على بيت المقدس ، والدليل على ذلك أنهم أثناء تواجدهم في الرملة في أوائل يونيه من عام ١٠٩٩ م (رجب ٤٩٢ هـ) عقدوا مجلسا للحرب انتهوا فيه إلى أن مفاتيح مدينة القدس موجودة بالقاهرة وأن الصليبيين إذا أرادوا أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في الأراضي المقدسة فعليهم أولا الاستيلاء على دلتا النيل^(٣) وهذا يعطى لنا صورة واضحة عن مدى عمق الاستراتيجية العسكرية التوسعية تجاه المنطقة . ومع ذلك لم يوضع تفكير الصليبيين في غزو مصر والسيطرة عليها موضع التنفيذ في حينه ، وربما يكون ذلك بسبب عدم توفر الامكانيات الصليبية للقيام بهذا العمل وقتذاك ، إلا أن هدف غزو مصر ظل باقيا أمام الحكام الصليبيين بعد قيام الإمارات الصليبية وتحاول بعضهم تنفيذه المرة تلو الأخرى كلما لاحت لهم فرصة مواتية لذلك .

(١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ٥٠ وما بعدها

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٣

(٣) سعيد عبد البناح عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٤٩ .

والمهم أنه بعد تأسيس الإمارات الصليبية بالشام، تم إختيار جود فرى أوف بوايون Godfrey of Bouillon (١٠٩٩ - ١١٠٠ م) أول حاكم لمملكة بيت المقدس^(١)، وخلال حكمه قامت مصر الفاطمية بإرسال جيشا كبيرا بغرض إستعادة مدينة بيت المقدس والقضاء على الصليبيين^(٢)، وكان فى هذا خطر كبير عليهم لدرجة أن القيادة الصليبية فى الشام إستدعت كافة قواتها لمواجهة هذا التهديد ، ولم يتخلف عن الاشتراك فى صد هذا الخطر المصرى سوى العجزة والشيخوخ الذين بقوا تحت رعاية بطرس الناسك Peter the Hermit ليقوموا بالابتهالات للرب لنصرة الصليبيين^(٣). وبذلك تأكد لجودفرى فاعلية القوة المصرية فى مقاومتها للوجود الصليبي ، لذلك فكر جود فرى فى الاستيلاء على مصر وأعلن استعداداه للتنازل عن مركزه فى الدولة الصليبية فى بيت المقدس بعد تنفيذ فكرته^(٤)، ولكن مدة حكمه القصير لم تمكنه من تنفيذ ذلك . ومن ذلك يتبين لنا الجهاد المصرى ضد الغزو الصليبي منذ بدايته والاطماع الصليبية فى الاستيلاء على مصر لتأمين الإمارات الصليبية فى الشام التى تم إنشاؤها منذ وقت قصير .

وبعد موت جود فرى ورث بلدوين أوف بلونى Baldwin of Boulogne أميرالها أخاه ، وأعلن نفسه ملكا على مملكة بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨ م)^(٥) . وأدرك بلدوين أيضا أن الدولة الفاطمية فى مصر هى منبع

(٢) . لم يعين جودفرى ملكا على بيت المقدس ولم يلبس تاجا ، بل أعطى لقب حامى الضريح Advocatus Sancti Sepulchri وأثناء حكمه كان يخاطب بالدوق نسبة إلى مركزه فى الغرب كدوق إقليم اللورين السفلى . أنظر ، عمر كمال توفيق ، المرجع السابق ص ٦٢ . ولمزيد من التفاصيل أنظر : Fulcher of Chartres, Chronicle, pp. 71-2.

(٢) / ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) | أعمال الفريخة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) | محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٥) | استعمل بلدوين لقب ملك مملكة بيت المقدس فى عام ١١٠٤ م أنظر ، عمر كمال توفيق المرجع السابق ص ٧٧ . ولمزيد من التفاصيل أنظر : William of Tyre, op, cit, 1, p. 427.

الخطر على المملكة الصليبية ، لذا نجده يقوم ببعض الهجمات على المراكز الفاطمية المتبقية في الشام ، ونجحت هذه الهجمات إلى حد ما بسبب سوء خطط القادة الفاطميين في الشام وعدم تنسيق الأعمال العسكرية في البر والبحر . وبعد أن نجح بلدوين في تأمين ممتلكاته في الشام ، رغب في تأمين حدود المملكة الصليبية في المنطقة الجنوبية في وادي عربة ، وقد تمكن من السيطرة على المنطقة التي تمتد من جنوب البحر الميت إلى ميناء إيلات على خليج العقبة وأكد سيطرته على هذا المكان ببناء قلعة حصينة هي قلعة الشوبك^(١) Mount Royal أو Montreal . وقد قام بلدوين بهذا العمل بغية عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي^(٢) ، فيسهل عليه مهاجمتها وغزوها في الوقت المناسب .

ولم يكتف بلدوين بذلك بل رغب في اكتشاف مزيد من الأراضي المجاورة لمملكته ومصر وهي منطقة صحراء سيناء فاتجه في عام ١١١٦ م (٥٠٩ هـ - ٥١٠ هـ) ومعه بعض الخبراء والمرشدين وحاشية تكفي لهذا الغرض وعبر الصحراء حتى وصل إلى ميناء إيلات . وعندما وصل إليها وجدها خالية من السكان الذين هربوا في القوارب إلى البحر^(٣) . ومن ميناء إيلات اتجه إلى دير سانت كاترين^(٤) ، وأرسل فصيلة من رجاله عدتها أربعون فارسا على ما قيل لمفاوضة رهبان الدير لامتداده بالمعلومات التي تمكنه من الزحف على أطراف الدلتا ولكن الرهبان رفضوا ذلك . وأثناء عودة الفرسان إعترضهم بعض العربان وأبادوهم عن آخرهم ولذلك يعرف هذا المكان باسم الأربعين نسبة

(١) James of Vitry : The History of Jerusalem, pp. 6-7.

(٢) Runciman. op. cit, 11, p. 97.

(٣) William of Tyre. op. cit. 1. p. 619.

(٤) يقع هذا الدير أعلى جبل الطور في صحراء سيناء وسمى باسم القديسة كاترين وهو البتول العظيمة التي حكم عليها الرومان بالموت عام ٣٠٧ م ويقال أن الملائكة نقلوا جسدتها إلى هذا المكان وبني هذا الدير للروم الارثوذكس عام ٥٤٥ . أنظر الشاشي ، الديارات ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، المقرئى ، الخطط ج ٤ ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

إلى عددهم ولا زال معروفا حتى وقتنا هذا^(١) .

وفي عام ١١١٨ م (٥١١ هـ) رأى بلدوين إعادة الكره مرة أخرى على الأراضي المصرية لكشف الطريق الشمالى إلى مصر من ناحية رفح والعريش ، فأعد حملة خفيفة تكونت من مائتى وستين من الفرسان وتسعمائة من المشاة^(٢) ويرى وليم الصورى والرحالة فلكنس فابرى أن بلدوين تقدم بقوة عظيمة للانتقام من المصريين^(٣) ، ولكن سير الحوادث التالية توضح لنا أن القوة لم تكن كبيرة . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن الغرض من هذه الحملة هو مناوشة الفاطميين فى مصر حتى تقوم الحاميات الفاطمية فى صور وعسقلان بعمل عسكري ضد الصليبيين فى الشام فىكون ذلك ذريعة يتخذها الصليبيون للاستيلاء على هذه المعاقل المصرية إذا تيسر لهم ذلك^(٤) .

وعلى أية حال تقدم بلدوين إلى رفح وأغار عليها بغته فى الظلام واستولى عليها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الفرما (بلزيوم) شرقى بور فؤاد الحالية فوصلها فى الحادى والعشرين من مارس فى نفس السنة (٢٥ ذو الحجة ٥١١ هـ) فانزعجت حاميتها ولازت بالفرار^(٥) . فقام بلدوين بالهجوم على المدينة وقتل جميع من فيها وأحرق مساجدها^(٦) ، ثم سار إلى مدينة تنيس وأحرقها^(٧) . ثم تقدم حتى وصل إلى قم النيل^(٨) ، وسبح فيه^(٩) ولم يمكنه التقدم بعد ذلك لصغر

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٦ .

(٢) James of Vitry, op, cit. p. 96.

(٣) William of Tyre, op., cit., 1, p. 515, Fabri, The Book of Wandering,

Vol II, p. 1 p. 314.

(٤) Archer, The Crusades, p 140.

(٥) محمد مصطفى ، المرجع السابق ص ٦ .

(٦) النورى الكندى ، نهاية الارب فى فنون الادب ج ٢٦ لوحة ٨٢ ، مخطوط .

(٧) الحافظ الذهبى ، دول الإسلام ، ج ٢ ض ٢٦ .

(٨) William of Tyre, op cit., 1, p. 515.

(٩) ابن الاثير ، المرجع السابق ح . ١ ص ٣٨١ .

قواته^(١) . وقضى يومى الثالث والعشرين والرابع والعشرين من مارس فى الراحة^(٢) .

وازاء هذا العدوان والأعمال التخريبية التى قام بها الصليبيون ، لم تقف مصر مكتوفة الأيدى ، فقد أرسل الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوس العساكر إلى والى الشرقية يطلب منه أن يتقدم بنفسه والعربان على رأس هذه القوات لمقاومة الصليبيين^(٣) ، ولما علم بلدوين بقدوم القوات المصرية وتحقق أن « الإقامة لا تمكته » ، أمر جنوده بالنهب والتخريب وإحراق المساجد وعزم على الرحيل^(٤) . ولو كان لدى بلدوين قوات كبيرة كما ذكر ولیم الصورى والرحالة فلکس فابرى لما عزم على الرحيل بل تصدى للقوات المصرية ، هذا بالإضافة إلى أن المدة التى قضها بلدوين منذ وصوله إلى مدينة الفرما فى الحادى والعشرين من مارس وقيامه بالاغارة عليها فى اليوم التالى ثم خلوده للراحة فى الثالث والعشرين والرابع والعشرين لم تكن كافية لتحريك جيش كبير فى تلك الأزمنة .

وكان بلدوين أثناء هذه الفترة تناول وجبة افطار من السمك شعر بعدها بألم شديد ، وكان الألم مرجعه إلى جرح قديم ، وذلك فى الوقت الذى أمر جنوده بالعودة ، ولكنه عجز عن إمتطاء فرسه لشدة المرض فأحضر إرفاقه محفة ووضعوه فيها بعد معاناه ، وإتجه الصليبيون حاملين ملكهم المريض إلى العريش فى طريقهم إلى بيت المقدس ، ولكنه مات بين الفرما والعريش^(٥) ، فى المكان الذى يسمى جور^(٦) فى الثانى من أبريل بين يدى روجر Roger اسقف

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٩ .

(٢) Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, P. 119.

(٣) تدل هذه العبارة على تكاتف الجيش والشعب لصد العدوان الصليبي .

(٤) المقرئى ، الخطط ج ١ ص ٣٤٢ .

(٥) Annales de Terre Sainte, P. 41

(٦) النويرى الكندى : المصدر السابق ح ٢٦ لوحة ٨٢ .

الرملة^(١) . وكنتم رققاؤه خبر موته وقاموا بشق بطنه ودفنوا أحشائه بالعريش وقد صار الناس كلما مروا بهذا المكان - المعروف بسبخة البردويل - رجوه^(٢) . ثم حمل الصليبيون جثثان بلدوين إلى بيت المقدس فوصلوه بعد خمسة أيام في السابع من أبريل ودفن في كنيسة القيامة في موضع الجلجثة بجوار أخيه جودفري^(٣) . وهكذا فشلت محاولات بلدوين للنيل من مصر بفضل إمتناع رهبان دير سانت كاترين عن تزويده بالمعلومات التي تمكنه من ذلك وبفضل تكاتف الجيش والشعب في التصدي لقواته وإجباره على الرحيل من البلاد .

وإذا كان مشروع غزو مصر فكرة في رأس جودفري ، وحاول بلدوين الأول تنفيذها المرة تلو المرة ، فانه من الملاحظ أنه في عهد بلدوين الثاني (١١١٨ - ١١٣١ م) وعهد فولك الأنجوى Fulk of Anjou (١١٣١ - ١١٤٤ م) لم تمدد المصادر الأوربية أو العربية المعاصرة للحوادث أو المتأخرة زمنياً بأية محاولة أو فكرة لغزو مصر ، وربما يرجع ذلك إلى مشاكل الصليبيين الداخلية والحروب التي دارت في الشام بينهم وبين المسلمين . وقد طالت هذه الفترة واستمرت إلى ما بعد رحيل الحملة الصليبية الثانية^(٤) - التي إنتهت بالفشل ومغادرتها الأراضي المقدسة ١١٤٩ م - بثلاث سنوات حيث جدد -

(١) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuges. p. 69.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٦٣ .

(٣) William of Tyre, op, cit., 1, p. 516.

(٤) قامت الحملة الصليبية الثانية بسبب سقوط الرها في يد عماد الدين زنكي عام ١١٤٤ م ، وتولى قيادتها لويس السابع ملك فرنسا وكوتراد الثالث ملك المانيا . عن الحملة الثانية أنظر :

Odo of Deuil, De profectone Ludovici VII in Orientem, William of Tyre op. cit., 11, pp. 172 ff.

ومن المصادر البيزنطية أنظر :

Niectas Choniates, Historia, PP. 82 ff., Cinnamus, John, Epitome Historiarum. pp. 76 ff.

الصلبيون غاراتهم مرة أخرى في عهد بلدوين الثالث (١١٤٤ - ١١٦٢ م) وذلك في شهر رجب ٥٤٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ١١٥٢ م) . ذلك أنهم أغاروا على الفرما ونهبوها وأحرقوها وعادوا إلى بلادهم^(١) . ومن الواضح أنها كانت من الغارات التي تهدف إلى السلب والنهب لا إلى غزو مصر ، وربما قام بها الصليبيون للحفاظ على الأوضاع الصليبية في الشام بعد النجاح الذي حققه نور الدين زنكى . والمهم أن الوزير الفاطمي العادل بن السلار لم يغفر للصلبيين فعلتهم ، فجهز في العام التالى في شهر ربيع الأول ٥٤٦ هـ (يونية - يوليو ١١٥٤ م) المراكب الحربية وشحنها بالرجال واتجهوا إلى يافا وأحرقوا وأسروا وقتلوا ما وقع تحت أيديهم كما استولوا أيضا على بعض السفن الصليبية ، ثم اتجهوا إلى عكا وفعلوا بها مثلما فعلوا بمدينة يافا وأرسلوا ما استولوا عليه من سفن وأسرى إلى مصر ثم قصدوا صيدا وبيروت وطرابلس وكان ما فعلوه بتلك المدن لا يقل عما فعلوه بمدينتي يافا وعكا^(٢) ، ولا بد أن مثل هذه الضربات المصرية قد أكدت للصلبيين مرة أخرى أن مصر هي معقل القوى الإسلامية وأن القضاء عليها تأمين للممتلكات الصليبية بالشام .

ولم يكن الصليبيون بالشام هم وحدهم الطامعون في أرض مصر ، بل أن إخوانهم أهل صقلية قد داخلهم الطمع أيضا في مصر وذلك بسبب ضعف القائمين على أمرها في هذه الفترة ، ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٥٤٨ هـ (مارس ١١٥٣ - مارس ١١٥٤ م) نهبت مراكب صقلية مدينة تنيس بالديار المصرية^(٣) .

ويذكر ابن القلانسي فيما هو شبيه بمثل هذه الغارة أنه وقع في أيام من جمادى الأولى ٥٤٩ هـ (يوليو - أغسطس ١١٥٤ م) وأن عدة وافرة من

(١) ابن ميسر ، أخبار مصر ج ٢ ص ٩١ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٣

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٥ ، التويرى : المصدر السابق ج ٢٦ ، ص ٩٣ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٦٥ ، ابن الوردي : تتمه المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٥٤ ، ميشيل أمارى : المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤١٧ .

مراكب صقلية هاجمت مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها وأنزلت فيهم القتل والأسر والسبي طيلة ثلاث أيام وهرب أهلها إلى البحر^(١) ، ويضيف ابن الفارق أن عدد المراكب التي قامت بهذه الغارة كانت /أربعين مركباً وأن الغنائم التي استولوا عليها بيعت في أنحاء الشام أما الأسرى قد ذهبوا إلى صقلية^(٢) .

كما أن المقرئ قد روى مثل هذه الوقائع وذكر أنها وقعت في عهد الخليفة الفاطمي الفائز (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ - ١١٦٠ م) ووزيره الصالح طلائع ابن رزيك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) ، وذلك أنه في شهر جمادى الآخر عام ٥٥٠ هـ (٢ - ٣٠ أغسطس ١١٥٥ م) أغارت نحو ستون مركباً بعث بها صاحب صقلية فعاثوا وقتلوا ونزلوا مدينة تنيس ورشيد والاسكندرية^(٣) .

ولما كانت هذه الروايات الثلاث تكاد تكون متشابهة تقريباً ، وأن ما قام بالهجوم هو أسطول صقلية ، وأن مدينة تنيس هي القاسم المشترك الأعظم مع كل المؤرخين ، فمن الأرجح أنها واحدة حدثت أيضاً مرة واحدة في جمادى الأولى عام ٥٤٩ هـ (يوليو - أغسطس ١١٥٤ م) وذلك إعتياداً على أقوال المؤرخين المعاصرين للحوادث فعلاً . والمهم أن هذه الغارة لم تلق مقاومة سواء من الأهالي أو من القوات المصرية مما يشير إلى أفول نجم الدولة الفاطمية في آخريات أيامها .

ولما كان الصليبيون لمصر بالمرصاد ، فإن ضعف الخلافة الفاطمية وما تعانيه من مظاهر التفكك والانحلال ، لم يكن خافياً على الصليبيين ، لذلك قاموا على ما يبدو بحملة إستطلاعية على الحدود المصرية عند العريش في عام ١١٥٨ م / ٥٥٢ هـ ، ولكن العساكر المصرية تمكنت من التصدي لهم وأنزلت فيهم القتل والأسر والسلب^(٤) ، ومن ذلك يتضح يقظة مصر رغم ضعفها وتصديها لأي

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٣١ .

(٢) ابن الفارق : تاريخ ابن الفارق على هامش ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٢٨ .

(٣) المقرئ : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٦ .

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٥٢ ، ابن ميسر ، المصدر السابق ج ٢ ص ٩٧ .

معتد دخيل .

وفي أخريات عهد بلدوين الثالث كانت الصراعات الداخلية في مصر على أشدها ، وكلما زادت أحوال مصر سوءاً زاد طمع الصليبيين في الاستيلاء عليها والنيل منها ضماناً لسلامة ممتلكاتهم في الشام ، ولقد كان الصليبيون على علم بالأحوال الداخلية في مصر كمعادتهم في تقصى أخبارها لاختيار الوقت المناسب لمهاجمتها ، لذلك نجد بلدوين يهدد في عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) بغزو مصر . ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير طلائع بن رزيك باسم الخليفة الطفل العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧٢ م) بجزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار . ومات بلدوين سنة ١١٦٢ م وتولى بعده أخوه عمورى الأول Amalric 1 حكم مملكة بيت المقدس دون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من هذه الجزية^(١) . وهذا يدل على عدم جدية بلدوين في تهديده بغزو مصر أو عدم توافر الامكانيات العسكرية لقيامه بهذا العمل أو سوء الحالة الاقتصادية في مصر وعدم قدرتها على دفع الجزية ، أو ربما وجدت مصر نفسها في وضع من القوة العسكرية يمكنها من دفع الصليبيين إذا قاموا بالهجوم على مصر .

مات بلدوين الثالث دون وريث من اولاده فقد ماتوا جميعاً في حياته ، وتمكن أخوه عمورى الأول من إعتلاء عرش مملكته بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٣ م)^(٢) وفي هذا الوقت إزدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءاً بمقتل الوزير ابن رزيك وإبنه وحلول شارو حاكم الصعيد في الوزارة ، ولكن ضرغام تمكن من عزله وتولى أمر الوزارة وكان في ذلك الصراع الداخلى فرصة للملك عمورى للتدخل في شئون مصر بحجة عدم دفع الجزية التى وعد بها ابن رزيك^(٣) . لذلك قام عمورى في أوائل سبتمبر سنة ١١٦٣ م أوائل شوال

William of Tyre. op. cit., 1, p. 303.

(١)

James of Vitry, op. cit., p. 77.

(٢)

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨١ - ٦٨٢ /

٥٥٨ هـ) على رأس جيش كبير من الفرسان والمشاة واتجه إلى مصر وحاصر
الفرما ، ولكن ضرغام تصدى له وقطع بعض جسور النيل فغمرت الأرض
المياه ، وحالت بين الجيش المصرى وبين الجيش الصليبي ، فاضطر عمورى إلى
الانسحاب لبلاده^(١) . وإن دل ذلك على شيء فانما يدل على ظهور قوة
عسكرية بمصر دافعت عن أرضها ببسالة وتمكنت من رد المعتدين على أعقابهم
مدحورين .

ومن الملاحظ أن كافة الغارات التى شنّها الصليبيون - منذ تأسيس ملكهم
في الشام - على مصر لم تتعد أطراف البلاد أو موانئها . وربما كان الصليبيون
يقتنعون بمثل هذه الغارات طالما بقيت بمصر حكومة ضعيفة وهى الدولة
الفاطمية الشيعية التى لا يمكنها الاتحاد مع الممالك الإسلامية السنية في الشام
والعراق^(٢) . ولكن الفترة من ٥٥٩ - ٥٦٤ هـ (١١٦٤ - ١١٦٩ م)
شهدت صراعا خطيرا على إمتلاك مصر بين نور الدين محمود بن زنكى أتابك
الشام وبين الملك الصليبي عمورى . وقد مهد لهذا الصراع عدة عوامل بعضها
يرجع إلى الجانب الإسلامى والبعض الآخر للجانب الصليبي ، فقد تمكن نور
الدين في الفترة السابقة لعام ١١٦٤ م من فرض نفوذه على معظم البلاد
الإسلامية بالشام وبلاد الجزيرة ، وكانت الموصل ترسل قواتها لتخدم تحت
إمرته بالشام ، كما كان عمورى شابا طموحا يسعى لتقوية مركزه في المملكة
الصليبية بالاستيلاء على مصر^(٣) .

وبداية هذا الصراع أن شاور كان في صراع مع ضرغام على تولي الوزارة في
مصر ، وقد تمكن ضرغام من الانتصار على خصمه شاور وولده طى ، ففر

(١) William of Tyre, op. cit., II, P. 302.

(٢) المقرئى : اعطاء الحنفا ص ٢٨٧ - ٢٩١ ، راجع أيضا جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين
ص ٢٦٠ .

(٣) عمر كمال توفيق : المرحع السابق ص ١٧١ ، راجع أيضا : جوزيف نسيم : العلوان الصليبي على
مصر ص ٢٥ وحواشيها

شاور إلى الشام واتجه إلى نور الدين لمساندته على ضرغام وإعادةه إلى الوزارة^(١)، وعرض عليه أن يكون نائبه بمصر ويتصرف طبقا لما يراه^(٢)، ويقدم جزية سنوية تعادل ثلث إيراد مصر علاوة على نفقات إقادة العساكر النورية بمصر^(٣).

وقد وافق نور الدين بعد تردد على هذا العرض المغري وأرسل مع شاور أقرب المقربين إليه وأعظمهم ثقة عنده وهو أسد الدين شيركوه على رأس حملة كبيرة إلى مصر وذهب مع هذه الحملة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وخرجت هذه القوة من الشام في جمادى الآخرة عام ٥٥٩ هـ (أبريل - مايو ١١٦٤ م)^(٤)، ورافق نور الدين هذه القوات بعساكره حتى أطراف الشام لحمايتها من تعرض الصليبيين لها ثم واصل أسد الدين شيركوه سيرة تجاه القاهرة، وعندما علم ضرغام بما تم عليه الاتفاق بين شاور ونور الدين أحس أنه هالك لا محالة، فأرسل يطلب النجدة من الملك الصليبي عموري الذي وجد في ذلك فرصة لا تعوض لدخول مصر - وهو الأمل الذي كان يسعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن - فأعد حملة على الفور وتولى قيادتها بنفسه واتخذ طريقه إلى مصر^(٥).

اتجه أسد الدين شيركوه صوب القاهرة وخرج ضرغام لملاقاته والتقى

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٣٠ .

(٣) ابن الشحنة : روضة المناظر بهامش مروج الذهب للمسعودي ج ٢ هامش ص ١٣٠ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٠ ، ويروى أن الاثير أن هذه القوات خرجت من الشام في جمادى الأول ووصلت مصر جمادى الآخرة من نفس العام ، أنظر : ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٩٧ ، ويتفق ابن شداد مع أبي شامة في الشهر ويذكر أن ذلك حدث في عام ٥٥٨ هـ ، أنظر : ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٦ .

William of Tyre, op, cit., II, P. 306

(٥)

وأنظر أيضا ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨٣ .

ولم ينته الصراع على مصر عند هذا الحد ، لأن كل من نور الدين وعموري كان يبنى نفسه بإمتلاكها ، وكان كلاهما يعلم تمام العلم أن فوزه بمصر يعنى إنتصاره الحاسم على خصمه . وتجددت الحوادث مرة أخرى فى السادس من ربيع ثان عام ٥٦٢ هـ (٣٠ يناير ١١٦٧ م) عندما تحرك الجيش الصليبي للمرة الثالثة تجاه مصر بقيادة الملك عموري^(١) . وسبب ذلك أنه منذ عودة شركوه من مصر عام ١١٦٤ م وهو يعمل على إقناع نور الدين بالعودة إلى مصر حتى لا يستولى عليها الصليبيون . وفى الوقت الذى إقنع فيه نور الدين بوجهة نظر شركوه وبدأ الجيش الإسلامى يستعد للقدوم إلى مصر ، علم شارو بهذه الترتيبات فاستنجد بالصليبيين « وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه تمكيننا كلياً » ، وعلم نور الدين بذلك ، لذلك فائناً لجند أن قوات نور الدين بقيادة شركوه ومعه صلاح الدين وكذلك القوات الصليبية يسارعون بالحضور إلى مصر^(٢) ، وكل منهما يخشى أن يسيطر الطرف الآخر على مصر فيهدد من يملكها ممتلكات الطرف الثانى فى الشام .

إستطاع شركوه وقواته أن يصلوا إلى مصر قبل أن يصلها الصليبيون وقصد مدينة أطفيح ومنها عبر النيل إلى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى النواحي التى سيطر عليها وظل منتظراً قدوم الصليبيين وأقام بالمنطقة أربعة وخمسين يوماً^(٣) . أما الجيش الصليبي بقيادة عموري فقد وصل إلى بليس عن طريق العريش ، وقد تشكك شاور فى نواياهم رغم إستنجادة بهم ، وخشى أن تتحول القوات الصليبية للعمل ضده ، فأرسل بعض الكشافين للحصول على بعض المعلومات عن الجيش الصليبي^(٤) . وبعد أن حصل شاور على هذه المعلومات خرج واستقبل عموري خارج القاهرة وأنزله فى موقع ممتاز

William of Tyre, op. cit. II. 314-5.

(١)

ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢)

أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٢ .

(٣)

William of Tyre op. Cit., II, P. 315

(٤)

على النيل في منتصف الطريق بين القاهرة والفسطاط . وفي هذا المكان عقد شاور مع عموري إتفاقا خلاصته أن تدفع مصر لمملكة بيت المقدس مائتي ألف دينار معجلة ، ومثلها فيما بعد بشرط ألا يرحل عموري عن مصر إلا بعد إجلاء شيركوه عنها ، وصادق الخليفة الفاطمي على هذه المعاهدة^(١) . وطبيعيا أن يرحب الصليبيون بهذه الإتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية^(٢) .

وبعد إبرام الاتفاقية إستعد شاور وقواته وعموري والجيش الصليبي لمهاجمة شيركوه فعبروا النيل إلى الضفة الغربية ، فاتجه شيركوه جنوبا حتى وصل جنوب المنيا في المكان الذي يعرف بالباين ، ونظرا لكثرة قوات شارو وعموري فقد أشار بعض قواد شيركوه عليه بعبور النيل إلى الضفة الشرقية والعودة إلى بلاد الشام ، ولكن شيركوه أصر على القتال وأيده في ذلك صلاح الدين ، والتقا الجيشان وانتصر شيركوه في هذه الموقعة المعروفة باسم البابين بفضل الخطة التي وضعها شيركوه . وبعد هذه الموقعة اتجه شيركوه إلى الفيوم ومنها إلى مدينة الاسكندرية التي فتحت له أبوابها عن طيب خاطر لكرهها لشاور^(٣) .

إستطاع شاور وعموري إعادة تنظيم صفوفهما بعد الهزيمة التي لحقت بهما ثم إتجها إلى الاسكندرية في أثر قوات شيركوه وحاصروا المدينة براً وبحراً وكان شيركوه قد ترك صلاح الدين في الاسكندرية وإتجه إلى الصعيد لجمع المال والرجال لمساندته على أعدائه ، واشتد الحصار على صلاح الدين فاستنجد بعمه الذي عاد اليه ، وفي هذا الوقت بدأ شاور وعموري في مراسلة شيركوه لطلب الصلح نظير خمسين ألف دينار سنويا وعدم بقاء الصليبيين بمصر » وألا

(١) | محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ١٦

(٢) | سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق ج ١ ص ٦٩

(٣) | ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٧ ، ابن واصل . المصدر السابق ج ١ ص ١٥٠ - ١٥١ .
William of Tyre op, cit., II, p. 332

يتملكوا منها قرية واحدة»^(١). ويروى وليم الصوري أن شيركوه هو الذى بدأ فى طلب الصلح - وهو رأى الأرجح - وأنه أرسل لهذا الغرض أرنولف Arnulf صاحب تل باشر^(٢)، الذى كان أسيراً لدى شيركوه فى معركة البابين واقترح «أن ينصرفوا كلهم عن مصر» وذلك بسبب الشدائد والأهوال التى عانها شيركوه أثناء إقامته بمصر^(٣). وقد وافق عمورى على الصلح نظراً لما قام به نور الدين من الهجوم على معاقل الصليبيين فى الشام وفتح حصن المنيطرة وبعض القلاع الأخرى^(٤). وعاد شيركوه إلى بلاده فى الثامن عشر من ذى القعدة ٦٦٢ هـ^(٥) (١١٦٦ - ١١٦٧ م) وبعد جلاء شيركوه عن مصر إتفق الصليبيون مع شاور أن تكون لهم حامية بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم للحيلولة دون دخول عساكر نور الدين إليها، هذا بالإضافة إلى مائة ألف دينار من دخل مصر سنوياً^(٦). وبذلك تأكدت الحماية الصليبية على مصر^(٧)، وترتب على هذا سباق نوري صليبي آخر على مصر^(٨).

منذ عودة شيركوه وعمودى من مصر وفكرة العودة إليها لا تغيب عن بال أى منهما. ورأى عمورى الاستعانة بالامبراطورية البيزنطية لتنفيذ هذا المشروع الذى لا يمكنه القيام به بمفرده نظراً لموقف القوات النورية من حملاته السابقة على مصر. فأرسل سفارة إلى القسطنطينية على رأسها المؤرخ وليم الصوري

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢١٥ .

(٢) William of Tyre..op. cit., II, pp. 339 - 340

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٤) Setton, A History of the Crusades, I, p.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٥٢ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ ، الحافظ الذهبي : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٥٤ ،

ابن الوردي : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٢ ، ابن الشحنة : المصدر السابق ص ١٣٧ ، أبو

المحسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦٢ .

(٨) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ص ١٨ .

للاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٤٧ - ٥٧٦ هـ) على قيام حملة صليبية بيزنطية للاستيلاء على مصر وإقسامها فيما بينهما^(١) . وقد تم الإتفاق على ذلك ، ولكن مجرى الحوادث حال دون تنفيذ هذه الاتفاقية - في تلك السنة - وتقدم عمورى بجيشه إلى مصر قبل أن يعود ولیم الصورى إلى بيت المقدس^(٢) .

وبدایة حوادث هذه الحملة أن الحامية الصليبية الموجودة بالقاهرة كتبت إلى عمورى تستدعيه لإمتلاك مصر « وأعلموه خلوها من موانع وهونوا أمرها عليه »^(٣) . ولكن عمورى خشى الإقدام على ذلك خشية مقاومة الشعب المصرى ، ولعل مما يشرف مصر وتاريخها أن يعمل الصليبيون حساباً لشعب مصر فى الوقت الذى يدركون فيه ضعف الحكام وانحلالهم^(٤) . ولما كان الصليبيون يطمعون فى إمتلاك مصر فقد الح الفرسان على ملكهم عمورى بأعداد حملة لغزو مصر وهونوا عليه الامر بأنه كشف عوراتها من قبل^(٥) ، فأعد جيشاً كبيراً لهذا الغرض ناكثاً الوعود التى استقرت من قبل بسبب طعمه فى مصر^(٦) . وتظاهر الجيش الصليبي بأنه قاصداً مدينة حمص ولكنه جد فى السير فى الطريق إلى مصر . ويقال أن عمورى عندما وصل إلى الداروم قرب غزة ، كتب إلى شاور يقول له « إننى قصدت إلى الخدمة ، على ما قررتة إنما جعلته لك منى متى إحتجت إلى نجدةك ، إذا قدم على عدو ، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجة لى إليك »^(٧) . ولكن عمورى كان طامعاً فى مصر ولم

William of Tyre op. cit., II, p. 349.

(١)

(٢) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ١٨ .

(٢)

(٣) ابن الاثير ، المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، أبو شامة ، المصدر السابق ج ١ ص ١٥٤ .

(٣)

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٦ .

(٤)

(٥) أبو المحاسن ، المصدر السابق ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٥)

(٦) ابن شداد ، المصدر السابق ص ٨ .

(٦)

(٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ح ١ ص ٢١ .

(٧)

يكن ما كتبه - إن صح ذلك - إلا حجة واهية لدخولها ، فواصل سيره حتى وصل إلى بليس في صفر ٥٦٤ هـ (نوفمبر ١١٦٨ م) ، وحاصر الصليبيون المدينة واستولوا عليها عنوة وعاثوا فيها فسادا وأقاموا بها خمسة أيام^(١) . وعزم عمورى على السير إلى القاهرة بتشجيع من بعض أعيانها ، فقام شاور باحراق مدينة القسطنطين في التاسع من صفر (١٢ نوفمبر) حتى لا يملكها الصليبيون وظلت النيران مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما^(٢) .

وفي هذه الاثناء كتب الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين يستنجد به على الصليبيين وبذل له ثلث البلاد المصرية وأرسل في الكتب شعور نساء القصر ، ويروى ابن شداد أن شاور هو الذى كـم إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجد به^(٣) ، بينما يذكر أبو المحاسن أن شاور « لم يجد بدا من مكاتبة نور الدين بأمر الخليفة العاضد »^(٤) كما أرسل شاور في نفس الوقت إلى عمورى يعرض عليه الصلح وحقق الدماء والجلاء عن مصر مقابل « أربعمئة ألف دينار وقيل ألفى ألف دينار يعجل منها مائة ألف دينار » . ووافق عمورى على ذلك ونحل إليه شاور مائة ألف دينار على دفعات وأخذ يماطله في الباقي إنتظارا لقدم عساكر نور الدين^(٥) . فجهز أسد الدين شيركوه الذى إصطحب معه صلاح الدين على كره منه ، ولم يتمكن نور الدين من السير بنفسه إلى مصر خوفا على بلاده من الصليبيين وحتى يهاجمهم في الوقت المناسب كعادته إذا ما واجه جيش شيركوه ضغطا صليبيا بمصر كما أنه كان منشغلا بأمر الموصل^(٦) .

وكان عمورى بعد عقد الهدنة مع شاور قد انسحب خارج القاهرة إنتظارا

(١) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢١ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٤٦ .

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٩ ، الحافظ الذمى : ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٥) | أبو شامة : المصدر السابق ص ج ١ ص ١٧١

(٦) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩

للحصول على باقى المبلغ المتفق عليه ولكن شركوه فاجأهم بالهجوم فانسحب الصليبيون إلى بلبس^(١). ولما وجد الصليبيون إتحاد القوات المصرية مع القوات الإسلامية الآتية من الشام بقيادة شركوه شعروا أن بقاءهم بمصر أصبح مستحيلا فاضطروا للانسحاب إلى بلادهم وعادوا بخفي حنين خائبين^(٢)، وهكذا برهنت الحوادث أن إتحاد مصر والشام ضرورى لإبعاد الخطر الصليبي .

زاد إنزعاج الصليبيين لحكم شركوه لمصر وضياعها من أيديهم^(٣)، واتحاد القوات الإسلامية في مصر والشام، وأيقنوا أن ممتلكاتهم بالشام أصبحت « على شفا جرف هاو »^(٤). لذلك فاننا نجد عمورى يعمل على حشد القوى الصليبية ليقوم بعمل عسكري كبير ضد مصر ليقضى على القوة الجديدة الناشئة في مصر . وبدأ تنظيم قواته بالشام وأغرى فرسان الاسبتارية^(٥) للمشاركة مشاركة فعالة في مشروعه الجديد، وذلك بمنحهم بعض الامتيازات الاقطاعية والمالية في مصر^(٦). واتصل بالامبراطور البيزنطى مانويل ليجدد معه اتفاقية عام

(١) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٧١

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٢٣

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٢١

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٧٩

(٥) الاسبتارية : Hospitallers ويعرفون أيضا بفرسان القديس يوحنا . أنظر : جوزيف نسيم يوسف :

العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية (١) ، وهم من الفرسان الصليبيين ، وقد تأسست جماعتهم سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكان هدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم . ولكنها تطورت فأصبح أعضاؤها رجالا يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون من فوق ظهور الخيل في نفس الوقت . راجع : العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ٦٢ حاشية (٧) . وقد لعبت هذه الجماعة دورا كبيرا في تاريخ الحركة الصليبية عندما تحولت إلى القتال . وللمزيد من التفاصيل عن تأسيس هذه الجماعة والدور الذي قامت به ، انظر : حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٩٦ - ٩٧ ، راجع أيضا :

King, The knights Hospitallers, pp. 1-51

King, op. cit., pp. 110-1

(٦) :

١١٦٨ م ، التي أبرمها المؤرخ وليم الصوري من أجل غزو مصر^(١). وفي الوقت نفسه إستتجد بفرسا وصقلية وبقية العرب الأوربي^(٢)، وأخبرهم أن الصليبيين أصبحوا « خائفون على ياب المقدس »^(٣). ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى طعن شركوه من الخلف وكاتب بعض أعيان المصريين لمساعدته على تنفيذ فكرته^(٤)، ويضمن القضاء على شركوه قضاءً نهائياً ، وبذلك هيا الملك عموري الظروف داخليا وخارجيا للقيام بغزوه على مصر .

وبعد أن قام عموري باعداد الترتيبات اللازمة داخل مملكته الصليبية لهذه الغزوة قام الامبراطور البيزنطي بارسال حوالي خمسين ومائة سفينة محملة بالجنود بالإضافة إلى ستين سفينة لنقل المعدات^(٥)، وحوالي عشر أو اثني عشر سفينة أخرى ، ووصلت هذه السفن إلى صور ثم اتجهت منها إلى عكا^(٦). ومن الملاحظ أن أوروبا لم تشترك ولم تستجب لنداء عموري ، وربما يرجع ذلك إلى مشاكلها الداخلية في هذه الفترة ، ورغم ذلك فان عموري صمم على غزو مصر مكثفيا بالتحالف البيزنطي الصليبي . وكانت الخطة الصليبية البيزنطية هو القيام بغزو مدينة دمياط برا وبحرا « ويتخذونها ركابا للاستيلاء على مصر »^(٧) وتنفيذا لذلك يقوم الأسطول البيزنطي بحصار دمياط بحرا ويقوم عموري وقواته بحصارها برا فيسهل عليهم بذلك الاستيلاء عليها . واتجه الأسطول من

(١) William of Tyre, op cit., 11, p 349

(٢) عن رسائل عموري إلى الغرب الأوربي أنظر :

Bouquet, Recueil des Historiens des Gaules et la France, XVI, pp. 187-8.

(٣) ابن الاثير : المرجع السابق ج ١١ ص ٢٣١ .

(٤) المقرئ الأثير : الخطط ج ١ ص ٢٣١ .

(٥) Fabri, op. cit., vol 2, p.I, P. 329.

(٦) Schlumberge, op. cit., 7. 269.

(٧) ميشيل أماري : المكتبة الصقلية ج ٤ الملحق ص ٨ .

عكا إلى دمياط ونصار لمحمورى بجيشه من عسقلان^(١)، في أول ذى الحجة عام ٥٦٥ هـ (١٦ أغسطس ١١٦٩ م) متخذاً الطريق الساحلى ولكنه اضططر للاتجاه إلى الفرما لصعوبة السير على الساحل فوصلها في التاسع من محرم عام ٥٦٦ هـ (٢٥ أغسطس ١١٦٩ م) ومنها إتجه إلى دمياط فوصلها بعد يومين وحاصرها ، أما السفن الصليبية فقد تمكنت من دخول فم النيل ولكنها لم تستطع التقدم أكثر من ذلك - وظلت في موقع بين البحر والمدينة - لوجود برج دمياط ذو السلاسل الحديدية^(٢).

وكان صلاح الدين قد علم بأخبار هذه الحملة من قبل وصولها إلى دمياط ، لذلك قام بتحصين بلبيس والاسكندرية والقاهرة ضناً منه أن الحملة ستسلك إحدى الطرق التى سلكتها في الحملات السابقة^(٣) . وبقي صلاح الدين بالقاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده^(٤) . ولما علم بحصار القوات المتحالفة لدمياط أرسل إليها السلاح والرجال بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين^(٥) ، كما أرسل عددا كبيرا من السفن التى اتخذت طريقها إلى الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة^(٦) . وفي الوقت نفسه أرسل إلى نور الدين في دمشق يخبره بما حدث ، فقام نور الدين بإرسال الإمدادات لمصر كما قام بالاغارة على ممتلكات الصليبيين في الشام كعادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي^(٧).

(١) سقطت مدينة عسقلان في يد الصليبيين عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) أنظر : ابن القلانسي المصدر السابق ص ٣١٩ - ٣٢٠ ، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

William of Tyre, op. cit. 11 p. 363.

(٢) وعن برج دمياط والسلاسل الحديدية أنظر الفصل الخامس من الكتاب .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٢ .

(٤) النويرى الكندى . المصدر السابق ج ٢٦ لوحة ١١٦ ، ابن خلدون . المعبر ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٥) أبو شامة . المصدر السابق ج ١ ص ١٨١ .

(٦) William of Tyre, op. cit., 11. p. 364.

(٧) ابن الأثير . المصدر السابق ج ١١ ص ٢٢١ ، ابن واصل . المصدر السابق ج ١ ص ١٨١ .

ظل حصار القوات الصليبية والبيزنطية بحرا لدمياط مدة خمسين يوما إستمرت خلالها الاشتباكات العسكرية من الجانبين ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها بسبب الإمدادات التي وصلت اليها وقلة المواد التموينية لدى المهاجمين^(١) ، هذا بالإضافة إلى ما أشيع داخل المعسكر الصليبي بأن البيزنطيين ينوون الإحتفاظ بالمدينة لأنفسهم بعد سقوطها^(٢) ويذكر وليم الصوري أن سبب فشل الاستيلاء عليها هو عدم الهجوم عليها برا وبحرا في الوقت المناسب^(٣) .

وعندما أيقن الصليبيون فشل الإستيلاء على دمياط أحرقوا كل آلات الحصار في الحادي والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥ هـ / ١٦ ديسمبر ١٩٦٩ م ، حتى لا يستولى عليها المسلمون ، وجلت القوات الصليبية البيزنطية عن دمياط^(٤) وبهذه الحملة تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع على مصر بين عمورى ونور الدين ، فقد مات كل منهما بعد قليل وظهر على مسرح الحوادث صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية^(٥) .

وإن كان هذا الصراع لانتهى بقيام الدولة الايوبية في مصر فانه في الحقيقة أكد لنا مدى أهمية مصر للشام سواء إلى الجانب الإسلامى أو إلى الجانب الصليبي ، فقد حاول كل من الجانبين إمتلاك مصر ليقوى بها على الآخر ، وبعد أن تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الإسلامية بمصر والشام من أنزل أعنف الضربات بالصليبيين وألحق بهم أشد الهزائم ، وهو ما كان يدركه

(١) Jacque de Vitry, op. cit., P. 25.

(٢) Runciman, op. cit. 11, p. 387.

(٣) William of Tyre, op. cit., 11, p 315.

(٤) Nicetas op cit., pp. 208-210. ولمزيد من التفاصيل أنظر المؤرخ البيزنطى

وابن شداد : المصدر السابق ص ٤٣ .

(٥) ابن واصل ، المصدر السابق ج ١ ص ١٦٨ وما بعدها ، جمال الدين الشيال . تاريخ مصر

الإسلامية ج ١ ص ٢٦١ - ٢٦٦ ، ج ٢ ص ١٢ - ٢٠ ، راجع أيضا : عمر كال توفيق

مملكة بيت المقدس ص ١٨٢ ، حوريف سيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٢٧ .

الصلبيون وعملوا على إمتلاك مصر ليضمّنوا أمّهم في إماراتهم الصليبية بالشام .

بعد أن تمكّن صلاح الدين من مصر طلب منه نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها باسم الخليفة العباسي في بغداد ، وقد وافق صلاح الدين بعد تردد على القيام بهذا العمل ، وتم ذلك في خطبة يوم الجمعة السابع من محرم عام ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر ١١٧٤ م) دون علم الخليفة الفاطمي لمرضه ولم يلبث أن توفي بعد ثلاثة أيام^(١) . وبذلك إنتهى حكم الخلافة الفاطمية لمصر نهائيا . والمهم أنه لم يرض بما حدث بعض كبار رجال الشيعة في مصر لأن الحكومة الجديدة قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم^(٢) ، وهم الذين كانوا يتصرفون في الخلافة الزائلة . لذلك أخذ هؤلاء الشيعة يتآمرون للقضاء على النظام الجديد وإعادة الخلافة الفاطمية وكان على رأس هؤلاء المتآمرين الشاعر عماره اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي الأعز سلامة العوريس ، والقاضي المفضل ضياء الدين ، والشريف الجليس ، ونجاح الحمامي وداعى الدعاة عبد الجبار بن اسماعيل ، والواعظ زين الدين بن نجاشي^(٣) . ومهد المتآمرين لذلك باضعاف قوات صلاح الدين عندما زين الشاعر عماره اليمنى لشمس الدولة توران شاه أخ صلاح الدين فتح بلاد اليمن بسير القوات الصلاحية إليها . وقد وافق صلاح الدين على هذا الفتح لتكون اليمن ملاذ له إذا ما فكر نور الدين في دخول مصر . وبعد أن اطمأن المتآمرون إلى خروج توران شاه بالجيش ، بدأوا يضعون خطة عملهم موضع التنفيذ وذلك باستدعاء القوات الصليبية من ساحل الشام ومن صقلية للقدوم إلى مصر ، وإتفقوا معهم « على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد »^(٤) وكانت فرصة للصليبيين لتحقيق

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٣ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٨٠ .

أطماعهم وغزو مصر لا سيما أنهم « عملوا تغيرات الأحوال بالديار المصرية »^(١). بعد ما زاد يقينهم مرة بعد أخرى أن مصر هي مصدر الخطر الرئيسي على ممتلكاتهم بالشام^(٢)!

ولكى يتصل الصليبيون بالتآمرين في القاهرة أرسلوا رسولا منهم إلى صلاح الدين « بهديه ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن إلى أولئك الجماعة »^(٣) وعن طريق هذا الرسول تم الاتفاق على تنفيذ المؤامرة في « ليلة عيونها .. وقرروا معهم الوصول اليهم في ذلك الزمان »^(٤). ويبدو أن الاتفاق تم على وصول القوات الصليبية من الشرق في الوقت الذي يهاجم فيه الأسطول الصقلي مدينة الاسكندرية ، فيتخرج موقف صلاح الدين ، فان خرج لملاقاة أى من الطرفين سهل على الطرف الآخر غزو البلاد بمساعدة المتآمرين ، وان لم يخرج للقتال وأتاب عنه بعض قواده ، أصبح بدون جيش ويسهل على المتآمرين القبض عليه ، ولكن ابن نجا أخبر صلاح الدين بالمؤامرة^(٥). فطلب منه مسaire المتآمرين وأن يكون على صلة دائمة به ليطلع على ما يدبره المتآمرون في حينه^(٦) وفي الوقت نفسه كلف صلاح الدين أحد الأقباط لثقتة به في مراقبة الرسول الصليبي^(٧) ، وفي ذلك دلالة ذات معنى قوى في تاريخ الوحدة الوطنية في مصر . وبعد أن تأكد صلاح الدين من حقيقة المؤامرة قبض على المتآمرين الذين اعترفوا بما يدبروه فأمر بصلبهم^(٨).

بالقضاء على التآمر في مصر أنهار أحد أركان المؤامرة الثلاثة ، وبقي

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٨ . |
| (٢) | Setton, op. cit. 1. p. 566. |
| (٣) | ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٦٣ . |
| (٤) | أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٠ . |
| (٥) | المقريزي : المصدر السابق ج ١ ص ٥٣ . |
| (٦) | ابن الاثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٦٣ . |
| (٧) | ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٥ . |
| (٨) | أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٠ . |

الجانبان الصليبي والصقلي . أما من جهة الصليبيين بالشام فإن الزمن لم يمهل عمورى لتحقيق أمله وحلمه الكبير وهو غزو مصر ، فلم يلبث أن مات في الحادى عشر من يوليو عام ١١٧٤ م^(١) . وبذلك لإنهار الجانب الثانى فى المؤامرة ولم يبق سوى الجانب الصقلي . ورغم علم وليم الثانى William II ملك صقلية (١١٦٦ - ١١٨٩ م) بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين فقد أعد عدته للاغارة على الاسكندرية تدفعه الرغبة فى الحصول على المجد والثروة^(٢) . وربما يكون ذلك مرجعه إلى الصراع الذى كان دائرا بين صقلية والامبراطورية البيزنطية فى هذه الفترة^(٣) وما رآه وليم الثانى من تحالف بيزنطة والصليبيين لغزو مصر عام ١١٦٩ م ، وكان ذلك يقوى مركز الامبراطور فى الشرق وبالتالى على صقلية فرأى وليم الثانى الاستحواذ على مصر حتى لا تقع فى يد أعدائه البيزنطيين ولكى يقوى بها عليهم . لذلك أرسل وليم الثانى أسطولا عظيما مكونا من مائتى سفينة^(٤) ، تحت قيادة تانكرد Tancred, Count of Lecce إلى الاسكندرية^(٥) . ويذكر ابن شداد أن الأسطول كان مكونا من ستمائة قطعة ما بين شينى^(٦) وطراذه^(٧) وبسطه^(٨) ، وغير ذلك ، وأن جملة العساكر بلغت

William of Tyre, op. cit., II, p. 399.

(١)

أومبرتو رينزيانو : صفحة من تاريخ العلاقات بين وليم الثانى النورمانى وصلاح الدين الأيوبي : انظر : مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - ١٩٤٩ - ص ٤٧ - ٥٨ .

(٢)

Vasiliev, A, A. History of the Byzantine Empire, 11 pp. 76 ff.

(٣)

William of Tyre, Ibid.

(٤)

Runciman, op, cit., II, p. 408.

(٥)

الشينى : أقدم أنواع السفن الرومانية وزادت أهميتها فى العصور الوسطى ، وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة ، وعليها أبراجا وقلاع للدفاع والهجوم وكان متوسط ما يحمل عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا ، ولها حوالى مائة مجداف . انظر ابن ماقى : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .

(٦)

(٧) الطراذه . أو الطريذة ، وهى سفن كانت محصنة لحمل الخيل وتتسع الطريذة الواحدة لحمل أربعين فرسا ، وكانت تفتح عادة من الخلف حتى تصعد اليها الخيل ، كذلك تستخدم لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح ، كما كانت تستخدم لانتقال الناس . انظر : السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٣٥ ، ابن ماقى ، المصدر السابق ص ٣٣٩ .

ثلاثين ألفاً^(١) ، بينما يذكر أبو شامة أن الحملة تكونت من مائتي شينى لحمل الرجال وستة وثلاثين طريده لحمل الخيل وست مراكب كبار لحمل الآلات الحربية وأربعين مركبا لحمل المواد التموينية وأن جملة العساكر كانت إخمسين ألفاً^(٢) ويضيف ابن الأثير إلى ما ذكره أبو شامة ألف وخمسمائة إتركبلى^(٣) . وعلى أية حال فإن ذلك يصور لنا مدى ضخامة الحملة التي هاجمت الاسكندرية ، كما يدل على أن الحملة لم تكن تنوى الاغارة بغية السلب والنهب وإنما كانت تبغى الإقامة بمصر إذا تمكنت من ذلك .

هاجم الاسطول الصقلى مدينة الاسكندرية فى السادس والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٩ هـ (يوليو ١١٧٤ م)^(٤) ، على حين غفلة من أهلها ، فسارع أهل المدينة لمقاومة المعتدين ولكن والى المدينة منهم من ذلك وأمر بملازمة سور المدينة فمكن بذلك الأعداء من إغراق بعض السفن الإسلامية الراسية فى الميناء ، كما تمكنوا أيضا من إنزال جنودهم مما يلي المنارة^(٥) ، وأقاموا ما يقرب

البطسة : نوع من المراكب عظيم الحجم كثير القلوع يصل عددها إلى حوالى أربعين شرعا ، وهى أشهر أنواع السفن الصليبية ، وكانت تزود بالمتجانيقات والمقاتلة والأسلحة والدخيرة وسائر آلات الحرب فضلا عن المؤن اللازمة . وكانت ذات سطح عالية وطبقات متعددة كل منها خاص بفرقة من الجند الذين يصلون إلى ستائة ومخمين جندي أو أكثر . أنظر أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم . المرجع السابق ص ١٣٦ ، سعاد ماهر . البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٤ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٧٢ .

(٤) William of Tyre, op. cit., 11, 399 n6

(٥) منارة الاسكندرية ، وكانت قائمة على الزوابة الشرقية من جزيرة فاروس عند مدخل الميناء وقد شيدها المعمارى اليونانى Tostratos Cnidos سنة ٢٩٠ ق . م . وفرغ منها عام ٢٨٠ ق . م فى عهد بطليموس الثانى ٣٨٥ - ٣٤٧ ق . م وكان لارتفاعها ٤٥٠ قدما وقاعدتها مربعة ووسطها مستدير ، وكانت النار توقد فى أعلاها لمهابة السفن وكانت ترى على أكثر من ٧٠ ميلا أنظر : بنيامين التعللى . رحلة بنيامين التعللى ص ١٧٧ وحاشيه رقم (٣) ، راجع أيضا رحلة ابن جبير ص ١٤٩ . ومقام مكانها حاليا قلعة قايتباى التى شيدت عام ١٤٨٠ م . انظر : محمد عواد حسين وآخرين . تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٣٠ .

من ثلاثمائة خيمة ونصب ثلاث دبابات بكباشها وثلاث منجانيقات كبار لضرب المدينة تضرب بحجارة سوداء إستصحبوها من صقلية ، وتعجب المسلمون من شدة ضربها وعظم حجمها^(١) . ورغم كل هذا لم تستلم المدينة وأبلى أهلها بلاء حسنا في الدفاع عنها وأظهروا رباطه جأش وشجاعة نادرة المثال قبل أن تصل لهم الإمدادات من القاهرة^(٢) . وكان صلاح الدين بمدينة فاقوس عندما كتب إليه أهل الاسكندرية يبلغوه أنباء هذا الهجوم فبلغه الخبر في اليوم الثالث لهجوم الاسطول^(٣) ، فأمر بارسال القوات إلى مدينة دمياط خشية مهاجمة الصليبيين لها أيضا كما أرسل في الوقت نفسه القوات إلى الإسكندرية للدفاع عنها ، فتشجع أهل الاسكندرية بالقوات التي وصلت اليهم وزاد حماسهم في الدفاع عن مدينتهم عندما سمعوا بقرب وصول صلاح الدين اليهم وهاجموا المعتدين وإنقضوا على نحيامهم ، وغنموا ما بها ، وحاول بعض الجنود الصقليين تقريب سفنهم من الساحل لحمل أمتعتهم وزملائهم إستعدادا للفرار ، ولكن المسلمون لم يمكنوهم من ذلك ، إذ غاص بعضهم في الماء وأحرق بعض الشواني ففرقت ، فدب الرعب في قلوب الأعداد وأقلعوا بسفهم وما عليها من الجنود الذين تمكنوا من اللحاق بها ، وبقي حوالى ثلاثمائة من الفرسان تعذر عليهم اللحاق باخوانهم فاحتسوا بأحد التلال ولكن المسلمون قاتلوهم ومن نجا من القتل وقع في الاسر^(٤) . هكذا فشل الجانب الثالث والأخير من المؤامرة .

ويبدو أن الهزيمة التي لحقت بالصقليين جعلتهم يقومون بالاغارة على مصر مرة بعد أخرى ، ورجع ذلك شدة طمعهم في مصر ، ففي عام ٥٧١ هـ (١١٧٥ - ١١٧٦ م) وصل إلى نيس نحو أربعين سفينة وحاصروا المدينة

(١) ابن واصل : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤ .

(٢) أومبرتو ريتزنيانو : المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣) المقرئى : السلوك . ج ١ ق ١ ص ٥٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٧٣ ، راجع أيضا عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس

الصليبية ص ٧٧ ، جوزيف نعيم يوسف . العدوان الصليبي على مصر ص ٢٦

Crousset, Histoire des Croisades, 11, pp. 594-597

مدة يومين ، ولكنهم لم ينالوا منها شيئا فأقلعوا ، وعادوا الكره مرة أخرى على المدينة نفسها عام ٥٧٣ هـ (١١٧٧ - ١١٧٨ م) ، وربما يكون مرجع هذه الغارة الأخيرة هو الترتيبات التي أعدتها الامبراطورية البيزنطية مع بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥ م) ملك مملكة بيت المقدس من قيام حملة مشتركة بتولى قيادتها فيليب كونت فلاندرز Philip Count of Flanders للهجوم على مصر^(١) ، فيقوى نفوذ بيزنطة في الغرب خاصة في جنوب إيطاليا . والمهم أن الصقليين هاجموا مدينة تنيس بحرا وقاتلوا أهلها حتى استولوا عليها ، ولم يتمكن محمد بن إسحق قائد الأسطول المصري من نجدة المدينة في أول الأمر ولكنه تمكن من الوصول إلى المدينة ليلا ومعه بعض العساكر وهجم على المعتدين وهم في غفلة وأسر منهم مائة وعشرين وقطع رقابهم ، ودار قتال بين الفريقين قتل فيه من المسلمين حوالي سبعين رجلا وهرب الباقي إلى دمياط وقد تمكن الصقليون من إحضار النار في مدينة تنيس فأحرقوها وعادوا إلى بلادهم وقد إمتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى بعد أن أقاموا بالمدينة أربعة أيام^(٢) . وهذا يوضح لنا مدى الأطماع الأوربية في مصر لا من مراكزهم الصليبية في الشام بل من المراكز الرئيسية في أوربا .

سبق أن أشرنا إلى تحالف بلدوين الرابع مع الامبراطورية البيزنطية لغزو مصر ، و مرجع هذا التحالف هو أن بلدوين الرابع تبنى فكرة غزو مصر كسلفه عموري الأول . وقد لاحت له الفرصة عندما وصل فيليب كونت فلاندرز ومعه عدد كبير من الاتباع إلى الاراضي المقدسة واستبشر بلدوين والصليبيين بقدومه خيرا لما عرف عن والده من تهمسه للحركة الصليبية^(٣) . ويبدو أن الصليبيين إعتقدوا أنه لا يقل حماسا عن والده وجدد في نفس بلدوين

(١) William of Tyre, op. cit., II. p. 420

(٢) المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٣) Runciman, op. cit., pp. 414-5.

الامل في غزو مصر . ومما شجع بلدوين أيضا على غزو مصر أن سفراء الامبراطور البيزنطي مانويل الأول (١١٤٣ - ١١٨٠ م) كانوا لديه يعرضون عليه القيام بعمل مشترك لغزو مصر ، وقد جاءت هذه السفارة عقب هزيمة مانويل أمام السلاجقة في موقعة ميريو كيفالوم Myriocephalum سنة ١١٧٦ م وربما لجأ مانويل إلى تجديد فكرة غزو مصر بعد هذه الهزيمة أمام السلاجقة في آسيا الصغرى^(١) . واستعد مانويل للمشروع الجديد وأرسل إلى عكا أسطولا مكونا من سبعين سفينة عليها قوة كبيرة من المحاربين لهذا الغرض^(٢) .

ولما كان بلدوين لازال في دور النقاأة من مرض الملاريا ، فقد طلب من فيليب تولى قيادة الحملة^(٣) ، يعاونه في ذلك رينو أف شاتيون Reynald of Chatillon (أرناط) صاحب حصن الكرك^(٤) ، ولكي يغريه للقيام بهذا العمل وعده بالوصاية على مملكة بيت المقدس ، ولكن فيليب خشي القيام بهذا العمل رغم ما عرض عليه من وصاية ومال ومساعدة بيزنطية وتعلل بأنه أتى إلى فلسطين لتزويج ابنتى عمه الاميرتين سيلا Sibylla وإزابيلا Isabella من ولدى أحد أتباعه المخلصين وهو روبرت أف بيتون Robert of Bethune. وأثار رفض فيليب غضب فرسان بيت المقدس الطامعين في الديار المصرية ، ولكنه لم يعبأ بذلك^(٥) . وبذلك فشل المشروع البيزنطي الصليبي في غزو مصر^(٦) .

وبعد فشل المشروع الصليبي البيزنطي قام الصليبيون بالعمل من جانبهم وأغاروا على مدينة تينس والعريش مرتين في عامين متتاليين ، وكانت الأولى عام

(١) عن هذه الموقعة أنظر : Nicetas, op. cit., pp. 236 ff .

Cinnamus ap cit., p. 279 . Roger of Hovenden. Chronicle 11, p. 101.

William of Tyre, op. cit. 11. p. 422. (٢)

Rohricht, op. cit., p. 310 (٣)

Schlumberger, Renau de Chatillon, p. 143. (٤)

William of Tyre, op. cit. II, pp. 421 - 2 (٥)

Setton, op. cit., I, p. 595. (٦)

٥٧٦ هـ (١١٨٠ - ١١٨١ م) حيث نزل إفرنج عسقلان بالسفن على مدينة تنيس وتمكنوا من أسر جماعة من أهل المدينة ، وكان على مصر في ذلك الوقت العادل من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان بالشام في هذه الفترة . وبعد أن نهب المعتدون ما وقع تحت أيديهم تمكن أهل المدينة من القبض على قائدهم فقطعوا يديه ورجليه وصلبوه^(١) ، وذلك جزاء لما اقترفت يده .

أما المرة الثانية فكانت في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ (يوليو - أغسطس ١١٨١ م) عندما استولى الصليبيون على إحدى المراكب المصرية التجارية وقاموا بأعمال السلب والنهب في جمادى الآخرة (أكتوبر - نوفمبر) من العام نفسه ، عندما هاجموا مدينة العريش وقطعوا عددا كبيرا من النخل وحملوه إلى بلادهم^(٢) ومن الواضح أن هذه الأعمال كانت بغرض السلب والنهب ومن الغارات عديمة الجدوى .

والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن فكرة غزو مصر لم تغب عن بال الحكام الصليبيين في مملكة بيت المقدس يشاركونهم في ذلك الامبراطورية البيزنطية ومملكة صقلية . وجدير بالذكر أن هذه الفكرة راودت أفكار ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا عندما أتى إلى الشام عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) مع فيليب أغسطس ملك فرنسا على رأس الحملة الصليبية الثالثة . فقد آمن ريتشارد بضرورة غزو مصر ، وكان يرى أنه لا سبيل لاستعادة بيت المقدس إلا بالاستيلاء على مصر^(٣) . ولذلك خطط مع الجنويين لهجوم مباشر على مصر بعد الاستيلاء على عكا^(٤) ، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ ذلك المشروع ، وربما يكون ذلك بسبب الظروف التي أحاطت بريتشارد نفسه ، وعندما عزم على الرجوع إلى بلاده في أكتوبر ١١٩٢ م ، لم يكن يدور برأسه سوى أن الاستيلاء

(١) القرينى : الخطط ج ١ ص ٢٩٢ .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ق ٢١ ص ٧٢ ، ٧٤ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٣٥ .

(٤) Heyd, Histoire du Commerce, p. 400.

على مصر هو السبيل الوحيد لاستعادة مملكة بيت المقدس كما آمن بهذه الفكرة أيضا بعض رجاله قبل رحيلهم إلى بلادهم^(١).

مما تقدم يتضح لنا بجلاء أن فكرة غزو مصر كانت هدفا رئيسيا من أهداف الحركة الصليبية الماثلة في مملكة بيت المقدس ، فضلا عن المتعصين للحركة الصليبية في أوروبا والامبراطورية البيزنطية طوال القرن الثاني عشر الميلادي - السادس الهجري ، وتبين لنا أيضا الغارات والحملات والمشروعات والأفكار التي دارت في رأس القادة الصليبية بقصد السيطرة على مصر أو النيل منها كلما أمكن لهم ذلك ، ولكنها باءت جميعها بالفشل لصلافة الجبهة المصرية وأصالة الشعب المصري بكل طوائفه - عدا قلة من ذوى الأغراض الشخصية - من جهة أخرى ، هذا بالإضافة إلى تكاتف الجبهة الإسلامية في الشام ومصر ، خاصة بعد زوال الخلافة الفاطمية وتوحيد القيادة الإسلامية في مصر والشام .

ومع بداية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) ظلت مصر هدفا رئيسيا للصليبيين ، وأيقنوا بعد تجارب مائة عام أن مصر هي قلعة الإسلام وحصنه المنيع وأن القضاء عليها يسهل السيطرة على العالم الإسلامي . لذلك قاموا بأعداد حملة صليبية كبرى وهي المعروفة بالحملة الرابعة في عام ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) للاستيلاء على مصر ، ولكن هذه الحملة انخرفت عن هدفها لتستولى على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية وتؤسس بها امارات لاتينية حتى عام ١٢١٦^(٢). ومع ذلك قام صليبو الشام بالإغارة على مصر في العام نفسه (١٢٠٤ م) ، كما أغاروا عليها أيضا عام ١٢١١ م (٦٠٨ هـ) . وربما كانت هاتان الغارتان بغرض السلب والنهب أو للحفاظ على هيبة الأوضاع الصليبية في الشام ، أو ربما كانتا أيضا بغرض الاستكشاف لإستعداداً لحملة صليبية أخرى ، إلا أنهما تصوران أن مصر لم تغب عن أعين الصليبيين وإعداد العدة لضربها في الوقت المناسب ليتمكنوا من سحق باقى القوى

(١) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٥٩ وما بعدها

الإسلامية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، وهذا ما تجلّى في الحملة الصليبية
المعروفة بالخماسة أو حملة جان دي برين .

ويجدر بنا قبل التعرض لأحداث الحملة أن نلقى الضوء على أحوال الشرق
والغرب حتى يكون لدى القارئ خلفية مناسبة تساعد على تفهم أحداثها
والظروف التي قامت فيها .

الفصل الثاني

أوروبا والشرق قبيل الحملة الصليبية الخامسة

- مصر والشام قبيل الحملة .
- إشتباكات ومناوشات غير حاسمة بين المسلمين والصليبيين .
- أحوال الشرق اللاتيني : مملكة بيت المقدس - انطاكية -- طرابلس - أرمينية - قبرص .
- الغرب الأوروبي : إيطاليا والبابوية - ألمانيا - فرنسا - إنجلترا - أسبانيا .
- الدولة البيزنطية : الحملة الصليبية الرابعة وآثارها - موقف البابوية من امبراطورية اللاتين في القسطنطينية .
- حملتا الصبيان .

عندما وصلت طلائع تلك الحملة إلى مصر كان يحكمها سيف الدين
، دن ابن أيوب (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١٢٠٠ - ١٢١٨ م) أخو ورفيق
نضال صلاح الدين الأيوبي مؤسس الأسرة الأيوبية بمصر التي قام على أكتافها
عبء الدفاع عن مصر والعالم الإسلامي ضد الغزو الصليبي .

وإن نظرة مدققة إلى أحوال مصر والشرق الأدنى الإسلامي قبيل الحملة تبين
لنا أن الفترة منذ وفاة صلاح الدين حتى إستيلاء العادل على مصر كانت فترة
معقدة مليئة بالتواريخ والأسماء والوقائع والأحداث التي أشارت إليها المصادر
العربية بالتفصيل . وقد تخللها المناورات والصراعات والضغائن والأهواء .
ونعرف أنه بعد وفاة صلاح الدين في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ
(٤ مارس ١١٩٣ م) قسمت مملكته بين أولاده وأخوته فكان من نصيب إبنه
الأكبر الأفضل دمشق والساحل وبيت المقدس وصرخندوبانياس وهونين ونبين
وجميع الأعمال إلى الداروم^(١) ، بالإضافة إلى بصرى التي كانت بيد إبنه الملك
الظاهر خضر وهو في خدمة أخيه الأفضل^(٢) . أما الملك المجاهد أسد الدين
شيركوه^(٣) فتولى حمص والرحبة كما حكم الملك الأجدد^(٤) بعلبك وكلاهما في
خدمة الملك الأفضل أيضا^(٥) . وتولى حكم مصر العزيز صلاح الدين حيث
كان بها عند وفاة أبيه فاستولى عليها ، وفيما يختص بابنه الملك الظاهر غازي
فقد أخذ حلب وجميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وأعزاز وبرزويه ودر بساك
ومنبج وغير ذلك ، وأقام محمود بن تقي الدين على حماه وهو في خدمة عمه
الظاهر^(٦) . وإذا كان ذلك ما آل لأولاده صلاح الدين من بعده فقد اختص

-
- (١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٣ . انظر هذه المواقع على الخريطة رقم (١) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٤ .
(٣) المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن صلاح الدين . أنظر . العماد الأصفهاني .
الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٦٣٤ .
(٤) الأجدد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . أنظر . أبو المحاسن . النجوم
الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٥) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ص ٦٣٣ .
(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٦٣ .

أخوه الملك العزيز سيف الإسلام باليمن^(١) ، ولم يظفر العادل من هذه التركة إلا بالكرك والشوبك والرها وسميساط والردا^(٢) ، وقلعة جعبر وديار بكر وميفارقين^(٣) . وتوزعت باقي البلاد والحصون على جماعة من أمراء الدولة الأيوبية^(٤) .

ويهمنا في هذا الموضع من البحث الملك العادل الذي تمكن من بسط نفوذه على معظم أملاك أخيه وتولى حكم المملكة الأيوبية . فقد كان العادل يرى أن الاقطاعات التي يحكمها لا تتناسب مع أهميته ونضاله باعتباره رفيق صلاح الدين في الكفاح ضد الصليبيين ، كما أن العادل لم يكن بالذي يتوقع في مكانه تاركا الحوادث تسير على هواها^(٥) . ولأحت له الفرصة عندما بدأ الخلاف يدب بين أولدي أخيه الأفضل والعزيز ، إذ استغل الأفضل تحكمه بأبعاد أكابر أمراء أيه وأصحابه وأقبل على اللهو والشراب تاركا الأمنور لوزيره ضياء الدين ابن الأثير^(٦) . فساء التصرف في أمور الرعية^(٧) ، كما زين للأفضل التنازل عن بيت المقدس لأخيه العزيز لأنها « تحتاج إلى أموال ورجال وكلفة عظيمة » فسر بذلك العزيز وشكر الأفضل . ولكن ولاية القدس خافوا من محاسبة العزيز لهم فاتفقوا مع الأفضل على بقاء القدس بأيديهم دون الحاجة إلى أموال الأفضل فوافق وكتب إلى أخيه بذلك « فتغير لذلك الملك العزيز وتكدر باطنه »^(٨) . وبدأت العلاقات تسوء بين الأخوين . (زين الامراء الصلاحية^(٩) للعزيز

(١) ابن واصل : المصدر السابق ج ٢ ص ٣ .

(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ١٢١ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٤ ، أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٩٢ .

(٤) يروي عن العادل أنه قال أن « الملك ليس بالأرث ، وإنما لمن غلب . وأنه يجب أن أكون بعد أخي » الملك الناصر صلاح الدين « أنظر : المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٢ .

(٥) ولد عام ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) بجزيرة ابن عمر من أسرة شيانية عريقة وهو شقيق المؤرخ عز الدين بن الأثير وكان من نوابغ الفكر العربي وتولى عام ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) . عن ذلك ولزيد من التفاصيل ، أنظر . محمد زغلول سلام : ضياء الدين بن الأثير ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٦) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ عن ١٢٠ .

(٧) ابن واصل : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤ - ١٥ .

(٨) الصلاحية ، هم ممالك صلاح الدين الأيوبي ومقدمهم في هذا الوقت فخر الدين حها .

أنظر ابن واصل : المصدر السابق ج ٢ ص ١١ ، حاشية (١) .

الاستيلاء على دمشق خاصة بعد ما سلم متولى مدينة جبيل المدينة للصليبيين نظير ما بذلوه له من المال ، وتعذر على الأفضل إسترداد المدينة مرة أخرى^(١) . وعندما تحقق للأفضل قصد أخيه كاتبه يسترضيه ويعرض عليه أن تكون الخطبة والسكة باسمه ولكن وزيره ضياء الدين حرضه عليه وشجعه على قتاله فخرج الأفضل لملاقاته واستنجد بآل البيت الايوى وبعه العادل لثقتة به ، ولكن العزيز لم يمهله وفاجأه وهو نازل على الفوار^(٢) . وكاد يتصر عليه ، فأسرع الأفضل وعاد إلى دمشق فدخلها في الخامس من جمادى الآخر سنة ٥٩٠ هـ (٢٨ مايو ١١٩٤ م)^(٣) . وتحين العادل هذه الفرصة بالتوسط في الصلح بين الاخوين وتقابل مع العزيز في صكراء المزه غربى دمشق وعقد الصلح بينهما على أن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ويأخذ العزيز مدينة بيت المقدس وما جاورها من أعمال فلسطين ويأخذ الظاهر جبله واللاذقية وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا^(٤) . وكللت هذه التسوية بأن طيب العادل نفس العزيز وزوجه إحدى بناته^(٥) ، وبذلك أثبت العادل أنه الرجل العاقل الذى يحافظ على مصالح البيت الايوى والمسلمين^(٦) .

ولم ينته الصراع بهذه التسوية لأن بعض الامراء وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس ، مقدم الفرقة الصلاحية ، وهو الحاكم فى الدولة^(٧) ، كانوا لا يزالون يوغرون صدر العزيز على أخيه الأفضل ويزينوا له الاستيلاء على دمشق ، لذلك

(١) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١١٦

(٢) الفوار ، يعرف هذا المكان بوادى الفوار من أعمال طرابلس قريبا من حصن الأكراد وقد سمي بهذا لأن به بئرا يفر يوم واحد كل اسبوع . انظر القاتشندى : صح الاعشى ج ٤ ص ٧٤ ، ابن الشحنة . الدار المتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ٢٦٦ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٧ .

(٥) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٢٧ .

(٦) سعيد عبد اللتاج عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩١٥ .

(٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع ج ٢ ص ١٤٨ .

خرج العزيز في العام التالي ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) قاصدا الشام . ولم يكن أماء
الافضل إلا الاستنجد بعمه العادل وأخيه الظاهر ، وتم الاتفاق بين الثلاثة على
أن يملك الافضل مصر ويملك العادل دمشق ، ولما علم العزيز بذلك الاتفاق
عاد مسرعا إلى مصر مما سهل على الافضل والعادل الاستيلاء على بيت المقدس
ثم إتخذا طريقهما إلى مصر ليتسلما الافضل . ورغم هذا فقد كان العادل
يشك في نوايا الافضل ويخشى إستيلائه على مصر ولا يسلمه دمشق ، لذلك
بادر بمراسلة العزيز سرا وهما في طريقهما إلى مصر يتعهد له بغدم انتزاعها
منه^(١) . وما أن وصل إلى مدينة بلبس حتى بدأ العادل ينفذ ما وعد به العزيز
فمنع الافضل من القتال أو التقدم إلى مصر حرصا على وحدة البيت الأيوبي
وحققا للدماء . وفي الوقت نفسه أرسل إلى العزيز سرا مرة أخرى يطلب منه
إرسال القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني^(٢) للتوسط في الصلح ،
ونفذ العادل ما أراد وتم الصلح وبمقتضاه يكون للأفضل القدس وجميع البلاد
بفلسطين وطبرية والأردن وأن يقيم العادل بمصر^(٣) . وقد أختار العادل البقاء
بمصر لكرامية الفرقة الأسدية^(٤) للعزيز وإنحيازهم إلى جانبه، وبذلك يضمن
مساعدهم له في تنفيذ خطته وحكم الديار الأيوبية مستغلا الخلافات بين أولاد
صلاح الدين والهدنة المعقودة مع الصليبيين بمقتضى صلح الرملة ومدتها ثلاث
سنوات وثلاثة أشهر تنتهي في شهر محرم عام ٥٩٢ هـ (ديسمبر ١١٩٥ م)^(٥)

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ١٢٤ .

(٢) ولد في عسقلان عام ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) وتولى أبوه قضاء مدينة بيسان ولهذا نسب اليها
وخدم في ثغر الاسكندرية وكان وزير صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن وبرز في صناعة
الأنشاء . وبعد وفاة صلاح الدين استمر على ما كان عليه من المنزلة والرفعة حتى ملك العادل
الديار المصرية وتوفي عام ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) . ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٤٠٢
-- ٤٠٥ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٦ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٧٨ .

(٤) الأسدية ، هم مماليك أسد الدين شركوه عم صلاح الدين الأيوبي ومقدمهم في هذا الوقت سيف
الدين أركش . أنظر : أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤٥ .

(٥) Crousset op. cit., III 144.

وأثناء إقامة العادل بمصر أشار العزيز عليه بضرورة الإستيلاء على دمشق وتسليمها له^(١)، خاصة وأن الأفضل تمادى في إهمال شئون الرعية ، فضلا عن استبداد ضياء الدين بالحكم الذى كان له اسوأ الأثر في نفوس أهل الشام حتى ضجوا بالاثنين معا^(٢). ولم يكن العادل بالذى يتراخى في تنفيذ ما أشار به العزيز فخرجوا إلى دمشق واستولوا عليها في السادس والعشرين من شهر رجب ٥٩٢ هـ (٢٥ يونيو ١١٩٦ م)^(٣)، وأخذ العزيز لنفسه لقب السلطنة وأُتُيَ عنه العادل في حكم دمشق ، وأمر بنقل الأفضل إلى صددخ^(٤) : ولكن الحوادث أسفرت بعد قليل عن إستيلاء العادل على دمشق وعودة العزيز إلى مصر^(٥).

وكانت الإمارات الصليبية بالشام وقتها على علم بهذه المنازعات ، كما أنها أعطت الفرصة إلى هنرى كونت شامباني Henry count of Champagne حاكم المملكة الصليبية في عكا (١١٩٢ - ١١٩٧ م) أن يعيد إلى مملكته قدرا من الأمن والطمأنينة . ثم أن هذا الصراع لم يكن أيضا خافيا عن الغرب الأوربي مما أغرى هنرى السادس إمبراطور المانيا (١١٩٠ - ١١٩٧ م) وهو من أشد المتحمسين للحروب الصليبية إلى العمل على إستعادة بيت المقدس وتحقيق أطماعه الواسعة باخضاع الشرق اللاتيني والامبراطورية البيزنطية للامبراطورية العالمية المقدسة في الغرب^(٦)، فأعد حملة صليبية لهذا الغرض بقيادة كونراد Conrad رئيس أساقفة مينز Mainz وأدولف Adolf كونت هولشتين Holfstein وقد وصلت طلائع هذه الحملة إلى عكا في اغسطس ١١٩٧ م (شوال

(١) | أبو الفدا : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) | المقرئى : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) | ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٦٢ .

(٤) | أبو شامة : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣١ .

(٥) | لمزيد من التفاصيل أنظر : ابن الأثير المصدر السابق ج ١٢ ص ٨٠ .

(٦) | Tout, T., The Empire and The Papacy, P. 304.

٥٩٤ هـ (١) ، وبذلك تعكر الهدوء النسبي الذي كان سائداً بين المسلمين والصليبيين (٢) . وكان وصول هذه الحملة في الوقت الذي كان يرى فيه هنري كونت شامباني اتباع سياسة التفرقة بين آل البيت الأيوبي بدلا من سياسة الحرب . وعلى أية حال تقدمت الحملة بدون إذن من هنري من عكا إلى الجليل للاغارة عليها (٣) . ولكن العادل تمكن من رد انقواب المغيرة ثانية إلى عكا كما تمكن من الاستيلاء على يافا في شوال ٩٥٣ هـ (أغسطس - سبتمبر ١١٩٧ م) وإملاأت ايدي المسلمين بالسبي والغنائم (٤) .

وبينا هذه الحوادث تسير في مجراها مات هنري كونت شامباني في عكا في العاشر من سبتمبر ١١٩٧ م (٥) فوكت المملكة الصليبية في ذعر شديد بحيث تعذر عليها إستعادة مدينة يافا التي كان المسلمون قد استولوا عليها (٦) . وأنقذ الموقف بزواج ابرايلا Isabella أرملة هنري من عموري الثاني Amaury II ملك قبرص (١١٩٧ - ١٢٠٥ م) (٧) وبذلك تم توحيد المملكتين (٨) .

وفيما يتعلق بنشاط الحملة الألمانية بعد ذلك فقد كان محدودا ، إذ إقتصرت على بعض الاشتباكات بين الطرفين وعلى هجوم المسلمين على مدينتي صور وصيدا وسقوط بيروت في يد الصليبيين (٩) ثم توقف نشاط الحملة بعد ذلك بسبب وفاة الامبراطور هنري السادس ، وقرر زعماءها العودة إلى أوروبا في

Eracles, op. cit., 11, p. 211.

(١)

(٢) ذكر ابن الاثير أن الملك العزيز جدد الهدنة مع هنري كونت شامباني ملك مملكة بيت المقدس الاسمية (١١٩٢ - ١١٩٧ م) وزاد من مدة الهدنة راجع ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٨٢ .

Runsiman, op, cit., 111, p. 91.

(٣)

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٨٢ - ٨٣ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٧٥

Eracles, op. cit., p. 220.

(٥)

Previté-Orton, C.W., A History of Europe, P. 120.

(٦)

Vitry, History of Jerusalem, P. 166, Eracles, op. cit., p. 223.

(٧)

Mas Latric, Histoire de l'île de Chypre I, P 146.

(٨)

(٩) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٨٤ .

الوقت نفسه الذى تدفقت فيه العساكر الإسلامية من مصر على الشام فساد
الذعر صفوف القوات الألمانية فأسرعت بالرحيل . وعقب مغادرة الصليبيين
سواحل الشام شرع عمورى فى إجراء مفاوضات مع العادل انتهت بعقد
الهدنة بين المسلمين والصليبيين فى الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩٤ هـ
(أول يوليو ١١٩٨ م) وبمقتضاها تكون يافا للمسلمين وجبيل وبيروت
للصليبيين واقتسام صيدا بين الطرفين^(١) .

وبعد توقيع الهدنة بخمسة أشهر مرت الدولة الأيوبية ببعض الحوادث
المتلاحقة أدت إلى توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى تحت قيادة العادل ، فقد
نوفى العزيز فى العشرين من شهر محرم سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ نوفمبر ١١٩٨ م)
كان ابنه الأكبر المنصور ناصر الدين لا يزال فى العاشرة من عمره ، كما كان
الأمر يتطلب وصياً على الملك الصغير فاتفقت الاسدية على تولية الأفضل كما
اتفقت الصلاحية على تولية العادل ، وأرسل أزكش للأفضل يخبره بما تم
الاتفاق عليه وفى الوقت نفسه أرسل إجمار كس للعادل يطلب منه الحضور إلى
مصر . وعلم الأفضل بذلك قبل العادل كما التقى برسول الصلاحية قبل أن
يصل للعادل^(٢) وكانت فرصة لا تعوز بالنسبة للأفضل فأسرع إلى مصر
ووصل بلبس فى السابع من شهر ربيع الأول من العام نفسه مما جعل فخر

Runsiman, op, cit., III, pp. 97.

(١٠)

ومن الملاحظ أن بعض المصادر العربية أشارت بأن مدة الهدنة ثلاث سنوات . أنظر : ابن
واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٧٨ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ٢
ص ١٣٩ ولم تشر بعضها إلى مدتها بل اكتفت بذكر « حتى استقرت الهدنة » راجع . أبو شامة
المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٤ . كما ذكر بعضها أن الهدنة وقعت فى شعبان سنة ٥٩٤ هـ (يونيو
١١٩٨ م) وأوردوا عبارة « انتظم الصلح » . أنظر : ابن الأثير . المصدر السابق ج ١٢
ص ٨٤ . بينما ذكرت المصادر الأجنبية أن مدة الهدنة كانت خمس سنوات وثلاثة أشهر . انظر :
Eracles, op. cit., p. 228. ومن سير الحوادث يتضح أن مدة الهدنة كانت أكثر من خمس
سنوات بدليل أن الحديث عن تجديد الهدنة لم يرد ذكره قبل عام (٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م) كما
يتضح من الصفحات التالية .

(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٧ .

الدين جهار كس | يخاف على نفسه ويتحل الاعذار ايفادر البلاد . وبالفعل اتجه
إلى بيت المقدس وتقابل مع جماعة من أعوانه وأرسلوا للمادل الذي كان يحاصر
ماردين^(١) وأبلغوه بما انتهت اليه الحوادث^(٢).

وفي الوقت الذي كان يدبر فيه فخر الدين جهار كس وأعوانه أمر استدعاء
العادل لحكم مصر زين الامراء الاسدية للأفضل - الذي مالوا اليه في ذاك
الوقت - الخروج إلى دمشق ، فخرج اليها في الثالث من شهر رجب من
العام نفسه أيضاً ، ولما علم العادل بذلك ترك ابنه الكامل على حصار ماردين
وعاد مسرعاً إلى دمشق فدخلها في الحادي عشر من شعبان (٨ يونية) وتمكن
الأفضل من دخولها أيضاً بعد يومين ، وأخذ كل منهما يعزز قواته عسله أن
يحقق النصر على الطرف الآخر . وفي النهاية تمكن العادل من هزيمة الأفضل مما
اضطره للخروج من دمشق ، وانتهت هذه الجولة بعودة الأفضل إلى مصر^(٣) .
ولكنها لم تنه أطماع العادل في حكم أملاك أخيه ، لذلك أخذ يستعد للاستيلاء
على مصر ليكون وصياً على الملك القاصر ويصير الأمر كله بيده ، وعندما علم
الأفضل بذلك بدأ يستعد هو الآخر لخاربة عمه ودفعه عن مصر . ولكن العادل
أتى مسرعاً إلى مصر وهزم الأفضل في السابع من ربيع الآخر عام ٥٩٦ هـ
(أواخر يناير ١٢٠٠ م) ، وعلى ذلك لم يجد الأفضل طريقاً أمامه غير الصلح
بعد ما رأى شاذل أعوانه ، وانتهى الأمر بالاتفاق بين الطرفين على أن يكون

(١) ماردين ، قلعة مشهورة على جبل الجزيرة المشرفة على دنيسر ودارا وبعين وأمامها ريف عظيم به
أسواق وخانات ومدارس ومنازل ذات طوايق . أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤
ص ٣٩٠ . وكان سبب حصار العادل لها هو ما ظهر من مؤامرات في الشمال الشرق من الدولة
الأيوبية بقصد اعادتها إلى حكم الزنكيين بعد موت صلاح الدين : راجع . ابن الأثير . المصدر
السابق ج ١٢ ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٩١ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . أنظر أيضاً : أبو الفدا المصدر السابق
ج ٢ ص ١٠١ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٠ .

«الفضل ميفارقين وحاني»^(١) وجبل جور»^(٢) بالإضافة إلى صرخد . وغادر
الفضل مصر إلى الشام ولكن الأوحى نجم الدين بن الملك العادل لم يسلمه
ميفارقين وسلم إليه ما عداها»^(٣) .

هكذا أصبح العادل مسيطراً تقريباً على معظم الممالك الأيوبية . ولكنه لم
يقتنع بهذا الوضع ، لذلك أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم « انه قبيح لي أن
أكون أتاك صبي صغير ، مع التقدم والشيخوخة » وكان العادل يقصد من
وراء ذلك خلع الملك المنصور وتولي حكم مصر . وفعلاً تم الاتفاق على خلعه
وتمت الخطبة للعادل في الحادي عشر من شوال ٥٩٦ هـ (١٥ يوليو
١١٩٩ م) . وأعقب ذلك قيام العادل بإخراج الملك المعزول ومعه والدته
وأخواته إلى الشام»^(٤) ، فأقام بحلب عند عمه الظاهر»^(٥) .

ومع بداية حكم العادل لمصر واجهته بعض المتاعب الاقتصادية بسبب قلة
الفيضان وندرة الأقوات ، وتزايد الأسعار وعظيم الغلاء إذ بلغ ثمن أردب
القمح خمسة دنائير»^(٦) وقد أدى ذلك إلى هجرة عدد كبير من مصر إلى الشام.

-
- (١) حاني ، مدينة معروفة بديار بكر وتمتاز بوجود معدن الحديد بها : أنظر : ياقوت الحموي .
المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٨ .
- (٢) جبل جور ، كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية ، أهلها نصارى أرمن ، وفيها قلاع
وقرى . أنظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠ .
- (٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ . راجع أيضاً : أبو شامة المصدر السابق
ج ٢ ص ٢٣٧ .
- (٤) المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٣ - ٩٥٣ . أنظر أيضاً . ابن واصل . المصدر
السابق ج ٣ ص ١١١ .
- (٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ١٤١ ، أبو الفدا . المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٨ .
- (٦) الدينار ، مكان من الذهب وبعضه حقيقة وبعضه مسمى كالدينار الجبشي . وكانت فيه لا تلبث
على حال والعبرة في وزنه بالثقال . وضابطة أن كل سبعة مثاقيل تساوي ٢٤ قيراطا وكل قيراط
يزن ٧٢ حبة شعير وسط باتفاق العلماء خلافا لابن حزم فإنه قدره بأربع وثمانين حبة وهذا يعني
أن الدينار يساوي ورن ألف وسبعمائة ثمانية وعشرون حبة من الشعير المتوسط أو الفين وستة
عشر حبة تقديراً لا من حزم . أنظر القلقشندي . صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤٣ . وقد

ظل الحال على هذا طوال ثلاث سنوات ، فكان الناس يموتون جوعا في الشوارع ، وبلغ من كثرتهم العادل مائة وعشرين ألف نسمة^(١) . وزاد سوء الحال بمصر ، أن تفشت الأمراض والأوبئة حتى أن الفلاحين كانوا يموتون وهم قابضين على محاريثهم^(٢) .

وبينا كان العادل يواجه هذه المصاعب الاقتصادية في مصر إتفق الأفضل والظاهر على حصار دمشق . ولكن العادل أسرع اليهما وظلت المناوشات والاشتباكات بين الأطراف المتصارعة حتى نهاية عام ٥٩٧ هـ (سبتمبر ١٢٠١ م) إتبع خلالها العادل سياسة الإيقاع بين الاخوين حتى سيطر على الموقف ، وأسفرت الحوادث عن حكم الأفضل لسميساط وسروج^(٣) ورأس العين^(٤) وغيرها ورحل الاخوان من دمشق في أول المحرم سنة ٥٩٨ هـ (أول أكتوبر ١٢٠١ م)^(٥) . وبذلك أصبح العادل حاكما لمصر ودمشق وبيت المقدس بالاضافة إلى أملاكه في الشرق^(٦) .

وما أن استتب الامر للملك العادل سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢ م)

= قدرت قيمة بحوالى ستون قرشا في عام ١٩٣٤ م . أنظر . جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ص ٢٣٠ حاشية (٧) .

- (١) قد يكون في هذا نوع من المبالغة ولكنه يدل على كثرة عدد من ذهبوا ضحية هذه المجاعة .
- (٢) المقرئى ، المصدر السابق ج ١ ق ١٥٦١ - ١٥٨ . ولزبد من التفاصيل عن هذه الفترة العسيرة أنظر أيضا . النويرى الكندى . نهاية الارب في فنون الأدب (مخطوط) ج ٢٧ لوحة ١ مرعى المقدسى نزهة الناظرين (مخطوط) ورقة ٣٢ أو أبين الاثير . المصدر السابق ج ١٢ ص ١١٢ ، ابن الفرات . المصدر السابق المجلد الرابع ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ، أبو المحاسن ، المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، المقرئى ، اغاثة الأمة يكتف الغمة ص ٢٩ - ٣٣ .
- (٣) سروج ، بلد قرية من حران . أنظر ، ياقوت الحمورى ، المصدر السابق ج ٣ ص ٨٥ .
- (٤) رأس العين ، وتسمى أيضا رأس عين ، وهى مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر وبها عيون كثيرة . ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٣١ - ٧٣٢ .
- (٥) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٠٧ .
- (٦) النويرى الكندى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٥ .

حتى بدأ في إعادة تنظيم المملكة بعد التفكك الذي انتابها أثر وفاة صلاح الدين ، فولى ابنه الأكبر الكامل محمد حكم مصر نيابة عنه ، كما أناب عنه المعظم عيسى ثانياً أبنائه في حكم دمشق ، بينما تولى ابنه الثالث الإشراف موسى حران والرها وابن الرابع الأوحى نجم الدين ميفارقين ، واستقر بقلعة جعفر ابنه الحادي عشر الحافظ نور الدين ، في حين بقي الظاهر في حلب والافضل في سميساط وأعمالها وهما تابعين له . أما المنصور ابن العزيز - ملك مصر السابق - فقد أقطعه العادل حماة وأعمالها^(١) .

وبصرف النظر عن هذه الصراعات التي قامت بين أفراد البيت الأيوبي والآثار التي ترتبت عليها ، فقد اُتميز عهد العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد الصليبيين ، ولم يأخذ بسياسة الهجوم لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبيين في الشام ربما يؤدي إلى قيام حملة صليبية جديدة^(٢) ، قد تكون عواقبها غير مضمونه في الوقت الذي انشغل فيه بأموره الداخلية . لذلك نجده لا يمانع في عقد هدنة جديدة مع الصليبيين كلما إنقضت مدة الهدنة السابقة . ومما هو جدير بالذكر أن العادل لم يكن أقل من غيره من أمراء البيت الأيوبي حرصاً على الجهاد ضد الصليبيين على الرغم من سياسة المهادنة التي انتهجها حيال الصليبيين في بداية حكمه والتي كان لها مبرراتها وقتها . ولذلك فإن الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين كانت لا تكاد تنقطع طوال الفترة السابقة للحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة (٦١٥ - ٦١٨ هـ) (١٢١٨ - ١٢٢١ م) .

ومن هذه الاشتباكات ما حدث عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبيين حيث نزلوا بعكا متشجعين بامتلاك أخوانهم

أ (١) المقرري : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٥٩ . ويلاحظ أن عدد أولاد العادل كانوا تسعة عشر ولداً عدا البنات ولمزيد من التفاصيل أنظر : النجوم الزاهرة ، المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٢ وحواشيها وص ١٧٣ .

Duggan, A., The story of The Crusades, pp. 211-2.

(١)

الصلبيين لمدينة القسطنطينية في العام نفسه^(١). وكانوا عازمين على الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وأخذها من المسلمين ، فقاموا بأعمال النهب والسبي بنواحي الأردن^(٢) وكان العادل حين ذاك بدمشق فخرج منها واتجه إلى جبل الطور^(٣) الذي يقع في الجنوب الشرقي من عكا ليمتع الصليبيين من التقدم إلى الممتلكات الإسلامية . وأرسل في الوقت نفسه يطلب النجدة من مصر ومن كافة البلاد الإسلامية فوصت إليه من كل ناحية في الوقت الذي أغار فيه الصليبيون على كفر كنا^(٤) ، وأسروا من كان هناك ، وسلبوا ونهبوا^(٥). ولم يطق الأمراء الذين كانوا مع العادل صبرا إزاء هذه الأعمال فأخذوا يحثونه على الهجوم على الممتلكات الصليبية . ولكن العادل المسالم لم يوافق الأمراء على رأيهم . وظل الحال على هذا المنوال « والعادل قبالتهم مرابط لهم » ، والرسول متردده بينهم وبينه في الصلح^(٦) وأخيرا تم الصلح وتقررت الهدنة بين الطرفين وفي هذه المرة أيضا لم تشر المصادر العربية إلى مدة الهدنة ، بينما ذكرت المصادر الأجنبية ان مدتها كانت ست سنوات^(٧) وبمقتضى هذا الصلح أصبحت يافا للصلبيين وتنازل العادل عن النصف الخاص بالمسلمين في اللد والرملة^(٨).

-
- (١) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٩ .
(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ .
(٣) جبل الطور ، جبل مطل على طبرية والاردن ، بينهما أربعة فراسخ ، بنى عليه الملك المعظم عيسى بن العادل قلعة حصينة ثم هدمها عام ٦١٥ هـ (١٥١٨ م) أثناء حصار الصليبيين لدمياط .
ياقوت الحموي . المصدر السابق ج ٣ ص ٦٥٥ .
(٤) كفر كنا ، بلد بين طبرية والناصرية . انظر - ياقوت الحموي - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٠ .
(٥) المقريزي : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٦٣ ، ابن الفرات - المصدر السابق المجلد الخامس ج ١ ص ١٣ .
(٦) ابن واصل المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٣ .
(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور - المرجع السابق ج ٢ ص ٩٤٦ حاشية ٢ ، ٣ ، ٤ والواقع أن مدة الهدنة كانت ست سنوات لأن الحديث عن تجديد الهدنة بين العادل والصلبيين لم يذكر قبل عام ٦٠٦ هـ (١٢١٠ م) .
(٨) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٢ .

ويضيف ابن الأثير أن العادل أعطى لهم الناصرة^(١) وغيرها^(٢).

وربما يكون الملك عمورى هو الذى سعى إلى هذا الصلح بعدما ذهب بعض الفرسان الصليبيين إلى القسطنطينية طمعا في إمتلاك أراضيها في الوقت الذى كان فيه العادل حريصا على إنهاء القتال بسبب تفوق البحرية الصليبية التى أعاقت حركة التجارة بين مصر والممتلكات الإسلامية في الشام^(٣). وعلى أية حال ، فقد عاد العادل بعد توقيع الهدنة إلى مصر^(٤).

وكان ما توقعه العادل من تفوق البحرية الصليبية قد تجلى في الهجوم على مصر ، ففي شهر شوال ٦٠٠ هـ (يونية ١٢٠٤ م) عندما دخلت عشرون سفينة صليبية فرع رشيد وتوغلت حتى وصلت إلى مدينة فوه^(٥) ، وأقاموا بها « يسبون وينهبون »^(٦). ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب^(٧) ، وأسربت العساكر المصرية وعسكرت في الضفة المقابلة لهم على النيل ، ولكنها لم تستطع الاشتباك مع الصليبيين « لعدم وجود الأسطول العادلى »^(٨). وعاد الأسطول الصليبي بعد خمسة أيام من « حيث دخل غائما سالما »^(٩). وربما ترجع أسباب هذه الغارة إلى أن الملك عمورى حاول أن يحافظ على مكانته بين

(١) الناصرة ، قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا ، ومنها اشتق اسم النصارى لأن المسيح عليه السلام سكنها فنسب لها . انظر ياقوت الحموى المصدر السابق ج ٤ ص ٧٢٩ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٣١ ص ١٢٨ .

(٣) Runciman, op. cit., III, P. 103

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٣١ ص ٢١ .

(٥) فوه ، بليده على شاطئ النيل ، من نواحي مصر ، قرب رشيد بينها وبين البحر خمسة أو ستة فراسخ . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٣ ص ٩٢٤ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٣٠ ، أبو الفدا . المصدر السابق ج ٢ ص ١١١ .

(٧) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١١٨ ، ابريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ١٩٤ .

(٨) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٦٣ .

(٩) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٥٠ .

الصلبيين بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة وإخرافها إلى القسطنطينية وكان المفروض أن تقوم بالهجوم على مصر تحقيقاً للأطماع الصليبية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي^(١) . ويحتمل أيضاً أن تكون للانتقام من المسلمين بسبب الاعتداء الذي قام به والى صيدا المسلم على سفن الصليبيين من قبل^(٢) . وربما كانت غارة إستكشافية تمهيدا لفتح الديار المصرية^(٣) .

كذلك لم تنقطع المناوشات في أعالي الشام بين المسلمين والصلبيين ، وكان يتزعم هذه الغارات فرسان الاستتارية في كل من حصن الأكراد^(٤) وحصن المرقب^(٥) ضد الملك المنصور صاحب حماء ليجبروه على تسليم حصن بعرين^(٦) ولكنهم هزموا مرتين في عام ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) مما اضطرتهم إلى توقيع الهدنة . ثم عادوا مرة أخرى في العام التالي للانتقام وأغاروا على حماء خاصة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٣ ص ٩٤٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٣٧ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) حصن الأكراد ، حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ويقع بين بعلبك وحمص من جهة العرب . ياقوت الحموري : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٦ . وكانت قلعة هذا الحصن تابعة لفرسان الاستتارية وتمتاز بمناعتها وتعميرها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحيطان بها وقد استولى عليها الاستتارية سنة ١١١٠ م واستعادها الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٧١ م) راجع أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٩ ، راجع أيضاً : جوزيف سيم يوسف : المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥) حصن المرقب ، قلعة على قمة جبل يشرف على بانياس وعلى سواحل حر الشام ، وهي الأخرى من قلاع الاستتارية الحصينة تحرسها الأبراج ، ولها أسفلها صحور صحمة ، وكانت هندستها خليطاً من هندسة الحصون الواقعة جنوبي فرنسا والهندسة المرنطية ، وقد استولى عليها الصليبيون حوالى عام ١١١٧ - ١١١٨ م وسلمت للسلطان علاء الدين سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٥ م) أنظر : أبو الفدا : المصدر السابق ص ٢٥٥ ، أنظر أيضاً : جوزيف سيم يوسف : المرجع السابق نفس الموضع .

(٦) بعرين ، بلدة بين حمص والساحل ، وهكذا تطلقه العامة وهو خطأ ، العيوب هو ما بين ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج ١ ص ٦٧٢ .

وأن هدتهم مع الملك المنصور كانت قد انقضت^(١). وفي هذه المرة انضم إلى الاستتارية عدد كبير من الصليبيين وقاموا بأعمال النهب والقتل والسلب وعادوا إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبائا^(٢). وفي الوقت نفسه أغار الصليبيون في طرابلس على جبله واللاذقية حمص وفعلوا بتلك البلاد مثلما فعلوا بحماه. وإزاء هذه الغارات قامت قوات الملك الظاهر صاحب حمص بهجوم كبير على حصن المرقب وكادوا يستولون عليه بعد ما هدموا برجه ثم عادوا محملين بالغنائم^(٣).

كذلك شارك الأرمن الصليبيين في الهجوم على الممتلكات الإسلامية وهو امتداد للدور نفسه الذي قامت به منذ بداية الحركة الصليبية في آخريات القرن الخامس الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) عندما بادروا بمساعدة الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى ضد المسلمين^(٤). وفي هذه المرة قام ملكها ليو الثاني Leo II (١١٧٧ - ١٢١٩ م) بالهجوم على حلب « فنهب وحرق وأسر وسبي » ، وجمع الظاهر عساكره كما أرسل في طلب النجدة فتوافدت عليه القوات وتقدم لملاقاة ليو ، وجعل على رأس جيشه ميمون القصري^(٥). وعسكر ليو في موقع حصين يتعذر الوصول إليه إلا عن طريق جبال وعره . وأمر الظاهر قائده ميمون بإرسال المؤمن والسلاح إلى حصن دريساك^(٦).

(١) ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٥٢٣ - أبو شامة ، المصدر السابق ص ٥١ ، ابن الفرات ، المصدر السابق المجلد الخامس ج ١ ص ٢٠ .

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) المقريزي ، المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٦٤ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٢٣٥ .

(٥) ميمون القصري ، من كبار الأمراء الصلاحية . وكان في خدمة الأفضل ، وبعد فساد أحواله

اتصل بالعزيز في مصر فولاه حكم نابلس بعد زوال ملك الأفضل وتولى عام ٦١٠ (١٢١٤ م)

عن ذلك انظر ، ابن واصل المصدر السابق ج ٢ ص ١١ ، ٧٤ ، ١٢٠ .

(٦) | دريساك ، قلعة مرتفعة حصينة لها أعين وبساتين ولها في شرقها مروج كثيرة العشب وهي في شمال

بغراس يميله إلى الشرق وبينهما عشرة أميال راجع العباد الأصفهاني : المصدر السابق ص ٣٥٤

حاشية (٢) ، أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦١ .

اقرب من معسكرهم ليتمكن من الصمود أمام قوات ليو ، نفذ ميمون ما طلب منه وأرسل مع هذه المؤن والأسلحة أكثر عساكره ، وبقي معه العدد القليل . وعلم ليو بهذه الخطة فلم يهاجم القوات الرئيسية بل هجم على ميمون وعلى من تبقى معه من العسكر واشتد القتال بين الفريقين وسقط عدد كبير من القتلى من كلا الجانبين ، وإنتهت المعركة بهزيمة ميمون وعوده ليو وقواته محملين بالغنائم . وأثناء عودتهم التقوا بالقوات التي كانت في طريقها إلى حصن دريساك فهزموها أيضا وقللوا عائدتين إلى بلادهم^(١) .

ويروى ابن الجوزي أن الملك الظاهر خرج من حلب ونزل إلى مرج دابق^(٢) واتجه إلى حارم^(٣) وهزم الملك ليو وقام بتخريب قلعة دريساك^(٤) . أما ابن واصل فيؤكد هزيمة المسلمين ويروى أن الملك الظاهر حاول التحالف مع بوهمند الرابع Bohemond IV أمير أنطاكية وطرابلس (١١٨٧ - ١٢٣٣ م) على أن يمدّه بعشرة آلاف رجل ويقصدون معا ممتلكات ليو في أرمينية بهدف « استئصال شأفته » . ولكن ليو علم بهذه الاتصالات فبادر بارسال الأسرى الذين عنده إلى الظاهر وتم الصلح بينهما^(٥) .

وتجددت الاشتباكات مرة أخرى في أوائل عام ٦٠٣ هـ (أواخر ٢٠٦ م) عندما زحف الصليبيون تجاه حمص وأغاروا عليها . فأرسل الظاهر لنجدتها المبارك يوسف بن خطنج^(٦) . ووصل الخبر إلى العادل بمصر كما بلغه أمر مغادرة

-
- (١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ابن الفرات ، المجلد الخامس ج ١ ص ٤١ .
- (٢) مرج دابق ، قرية قرب حلب من أعمال أحرار أو عزاز تعد عن حلب أربعة فراسخ . أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٣ ص ٥١٤ .
- (٣) حارم ، حصن وكوره بجبلية تجاه أنطاكية ، وهي من أعمال حلب في هذه الفترة وفيها أشجار كثيرة . أنظر ، ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٤ .
- (٤) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٣ ق ٢ ص ٥٦٣ .
- (٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٧٠ - ١٧١ .
- (٦) من كبار الأمراء الصلاحية ، وكان في خدمة الملك الظاهر نخل وبعد وفاة الملك الظاهر عام ١١٨٧

الصلبيين في حصن الأكراد وطرابلس وأغارتهم على حمص فأسرع إلى الشام^(١) ويرى ابن الأثير أن خروج العادل من مصر قاصدا الشام كان بسبب إستيلاء القبارصة على بعض قطع الأسطول المصري وأسر من فيها . وتقاعس يوحنا أف إبلين John of Iblin سيد بيروت والوصي على مملكة بيت المقدس (١١٠٥ - ١٢١٠ م)^(٢) عن رد الأسرى بحجة عدم خضوع مملكة قبرص له^(٣) . وعلى أى حال ، فقد خرج العادل من مصر واتجه إلى عكا فصالحه أهلها وأطلقوا سراح ما عندهم من أسرى المسلمين ، وتوجه بعد ذلك إلى دمشق وأعد العدة للجهاد . ومنها ذهب إلى بحيرة قدس^(٤) حيث صام رمضان ٦٠٢ هـ (أبريل ١٢٠٧ م) ، ثم أغار على حصن الأكراد وفتح برج أعناز^(٥) وأسر منه خمسمائة شخص بالاضافة إلى الأموال والسلاح^(٦) . ثم هاجم بعض القلاع القريبة من طرابلس وأخذها صلحا ثم خربها بعد أن حصل على ما فيها من الدواب والسلاح وأغار بعد ذلك على طرابلس « فنهب وأحرق وسبى وغنم »^(٧) ، وعاد بعد هذه العمليات الناجحة إلى بحيرة قدس مرة أخرى في أوائل ذي الحجة من السنة نفسها (أواخر يونية ١٢٠٧ م)^(٨) .

٦١٣ هـ (١٢١٦ م) تولى حكم حلب من بعده الأشرف موسى ابن الملك العادل ، وظل في خدمة الأشرف أيضا وهو من الأمراء الذين حضروا لنجدة الملك الكامل أثناء مهاجمة الصليبيين دمياط عام ٦١٥ هـ (١١١٨ م) . أنظر : أبو المحاسن المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ .

- (١) أبو شامة : المرجع السابق ص ٥٧ ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٢ ق ٢ ص ٢٥٩ .
- (٢) مات عمورى سنة ١٢٠٥ م وعين يوحنا أف ابلين وصيا على وريثه العرش ايزايلا وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٢١٠ م .
- (٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١٨١ .
- (٤) بحيرة قدس ، قرب حمص طولها اثنا عشر ميلا وعرضها أربعة أميال تقع بين حمص وجبال لبنان ويخرج منها شمالا نهر العاصي . راجع ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ١ ص ٥١٦ .
- (٥) حصن أعناز ، يقع بين حمص والساحل . أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ١ ص ٦١٣ .
- (٦) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٢ .
- (٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، نفس الجزء ونفس الصفحة .
- (٨) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الخامس ج ١ ص ٥١ .

وقد أدت هذه الغارات إلى انزعاج بوهمند الرابع فأرسل إلى العادل « يلتبس الصلح ، وسير مالا وثلاثمائة أسير وعده هدايا » . ووافق العادل على عقد الصلح بعد أن ملت عساكره من طول القتال^(١) .

وكيفما كان الأمر ، فبعد أن تقرر الصلح بين العادل وبوهمند عاد العادل إلى جبل الطور المطل على الناصره ، وطلب من ابنه المعظم إقامة قلعة على هذا الجبل لتكون بمثابة خط دفاع أمامي ضد الجبهة الصليبية . فشرع في بنائها وجلب إليها الصناع من كل البلاد وباشروا عملية البناء في وجود أبيه . وساهمت العساكر في عملية البناء ونقل الحجارة ، وكان يعمل بها خمسمائة من البنائين بخلاف القلعة والنحاتين ، وأنفق عليها الكثير من الأموال . وظل العمل في بناء القلعة إلى قبيل وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، وأصبحت قلعة منيعة مزودة بالرجال والسلاح^(٢) .

وجدير بالذكر أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين كانت قد انتهت في شهر المحرم من سنة ٦٠٧ هـ (يوليو ١٢١٠ م) أثناء بناء قلعة الطور وقبل وصول جان دي برين - الملك الاسمي الجديد لمملكة بيت المقدس - بشهرين . وأرسل العادل إلى عكا يطلب تجديد الهدنة . ولم تتفق جماعة الفرسان الاسبتارية والداوية^(٣) على رأى في هذا الموضوع بسبب مشكلة الوراثة في انطاكية ، إذ رأت جماعة الداوية عدم تجديد الهدنة حتى لا يرتبط الملك المنتظر

(١) المقريزي : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٦٦ .

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٢ ق ٢ ص ٥٤٥ ، ابو شامة : المصدر السابق ص ٧٧

(٣) الداوية ، جماعة من الافرنج أسسها هيودي بايتر Hugh de Pyens وجودفري أف سانت أوامر Godfrey of St. Omer في سنة (١١١٨ - ١١١٩) ووضعت قواعدها في مؤتمر تروى Troyes في فرنسا سنة ١١٢٨ م وكان لها دور كبير في الحروب الصليبية . ويطلق عليها أيضا اسم فرسان المعبد Templers . أنظر : العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ٦٢ حاشية ٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٣ حاشية (٣) ، حوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٤٥ حاشية (٤) . وللمزيد من التفاصيل أنظر :

Bongses, Gesta Dei per Francos, pp. 819 ff., Thatcher, O., A., Source Book for Medieval History, pp. 492- 4.

بسياسة معينة . وترتب على ذلك أن قامت المناوشات الحربية بين الطرفين . وفزع الصليبيون عندما رأوا العادل يقوم بعمارة حصن الطور واضطه . للموافقة على عقد الهدنة لمدة خمس سنوات وكان ذلك بعد وصول حان ديه برين إلى عكا^(١) . وأرسل الملك الحديدي في هذا الوقت رسالة إلى بابا روم . إنوسنت الثالث يطلب منه العمل على إعداد حملة صليبية تكون مستعدة للوصول إلى فلسطين عند انقضاء أجل الهدنة^(٢) .

وجدير بالذكر أن جزيرة قبرص التي كانت في قبضة اللاتين وقتذاك قد ساهمت هي الأخرى في الإغارة على ممتلكاته المسلمين . إذا حدث في أوائل عام ٦٠٨ هـ (يونيو ١٢١١ م) أن أغار ولتراف مونتيلارد Walter of Montbeliard على دمياط^(٣) . ولتر هذا هو الوصي السابق على عرش قبرص وتذكرهم المصادر العربية باسم البال القبرصي ، ونزل بألف ومائة من الفرسان والجنود^(٤) ، ووصل حتى قرية بورة^(٥) وهاجمها فجرا وسبى أهلها واستولى على ذخائرها . وعندما بلغ الخبر أهل دمياط توجهوا إليه ولكنه عاد مسرعا إلى سفينته « وامتنع عن طالبيه » ووصل بالأسرى والغنائم إلى عكا^(٦) . وكانت هذه الغارة شأنها شأن غيرها من الغارات السابقة قليلة الجدوى وغير فعالة .

(١) حدد رانسيمان مدة الهدنة بخمس سنوات تبدأ من أول يوليو ١٢١٢ م (٢٩ محرم ٦٠٩ هـ) أنظر : Runciman op. cit., III, p. 133.

(٢) Vitry, The History of Jerusalem, p. 119.

(٣) Eracles, op. cit., p. 316

(٤) King, op. cit., p. 183.

(٥) بورة ، بلد مندرسه على الضفة العربية لليل جنوب غرب دمياط بمسب إليها السمك البوري ومكاسها اليوم كفر الطيخ . والظاهر أنه لكثرة زراعة صنف البطيخ بأراضيها انتشرت به وتغلب عليها واختفى اسم بوره . محمد رمزي : القاموس الجغرافي في البلاد المصرية ج ١ ص ١٧٦ . ١٧٩ . وكانت مساحتها مائة وتسعة وستون فدانا . أنظر : ابن الجيعان : التهمة السية ص ٦٣ وقد احتلها الصليبيون عام ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) أثناء تواجد الحملة الصليبية الخامسة فمصر وسرد ذكرها في الفصل الرابع . أنظر أيضا الخريطة رقم (٤) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ص ٧٧ . أنظر أيضا Grousset, op. cit., III p. 194

ومما تجدر الإشارة إليه أنها تمت بموافقة جان دي برين^(١).

ورغم الهدنة المعقودة بين المسلمين والصليبيين فإن الصليبيين من قبرص وعكا وطرابلس وأنطاكية اجتمعوا بالاضافة إلى من انضم اليهم من قوات أرمينية لقصد بلاد المسلمين بسبب قتل الاسماعيلية^(٢) ريموند بن بوهمند الرابع صاحب انطاكية وطرابلس^(٣). فحاصروا حصن الخوالي^(٤) عام ١٢١٤ م (٦١١ هـ) حصارا شديدا، فخرج الظاهر للدفاع عن الحصن وفك الحصار وبدأ في ارسال النجادات إلى الحصن كما أرسل إلى الصليبيين يعلمهم انه لن يمكنهم من الاسماعيلية، فرحلوا إلى انطاكية بعدما أخذوا منهم حوالي ثلاثمائة أسير^(٥). وأخيرا تم عقد الصلح بين الاسماعيلية والصليبيين بعد تدخل ووساطة الملك الظاهر^(٦).

لعلنا نلمس مما سبق أن الفترة منذ وفاة صلاح الدين كانت فترة معقدة مضطربة فهي عبارة عن مناورات وصراع بين خلفاء مؤسس الأسرة الأيوبية

Runciman. Ibid

(١)

(١) الاسماعيلية، تنسب هذه الطائفة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ) الذي لم ينجح أتباعه في إقامة الدولة الفاطمية. وحدث أن انشق إسماعيلية الشام بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) على الدعوة القديمة ونادوا بإمامة ابنه نزار. وعرف فرع الشام باسم الاسماعيلية النزارية وباسم الحشيشية أيضا. عن ذلك أنظر: ابن الشحنة: المصدر السابق ص ٢٦٤ - ٣٣٥، جوزيف نسيم يوسف: العنوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٢٥ وما بعدها، كما سموا أيضا بالباطنية. ابن واصل: المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٩، محمد كرد علي: حطاط الشام ج ٦ ص ٢٦٠، وللمزيد من التفاصيل راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة (تناسخ).

Oliver of padenborn, op. cit., p. 51

(٢)

- (٤) الخوالي، أحد قلاع طائفة الاسماعيلية ويقع في جهة الشمال من طرابلس. أنظر: القلقشندي: المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٦ - ١٤٧، جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص ٢٣٣ حاشية (٣) وعن قلاع الاسماعيلية في بلاد الشام أنظر الخريطة رقم (٥) من المرجع نفسه. /
- (٥) أبو شامة: المصدر السابق ص ٨٩.
- (٦) ابن واصل: المصدر السابق ج ٣ ص ٢٣٢. أنظر أيضا: المقرئ: المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٨٠.

من ابنائه وأخوته . واستمر الصراع والخلاف بين العادل وأفراد أسرته عدة سنوات عمل فيها جاهدا على إعادة تشييد مملكة أخيه الأمر الذى شغله بعض الوقت عن مواجهة الصليبيين . ولكن بعد أن إستقر له الأمر بدأت فترة من المناورات والمصادمات بين المسلمين والصليبيين فى مصر والشام امتدت بضع سنوات ، ولم تكن بينهما هجمات حاسمة بالمعنى المفهوم فى الوقت الذى كانت فيه سياسة العادل ترمى إلى الدفاع دون الهجوم تجنباً لأى حرب كبيرة قد تكون عواقبها فى غير صالح المسلمين ، وحتى تنهياً له فترة من الأمن والهدوء والاستقرار تمكنه من تحصين دولته والعمل على حمايتها من مفاجآت الفرنج وشر هجومهم عليها . وقد صبح ما توقعه العادل فقد كان الغرب اللاتينى والصليبيون فى الشام يستعدون لحملة صليبية كانت مصر وجهتها هذه المرة .

وإذا كانت أحوال مصر والشام قبيل حملة جان دى برين تمكنها من مواجهة الصليبيين بعد أن أستتب الأمر للعادل ، فماذا كانت أحوال الامارات الصليبية بالشام ؟ هل كانت ظروفها الداخلية والخارجية تساعد على القيام أو المساهمة فى حرب صليبية جديدة تضاف إلى زميلاتنا من الحملات التى تعرضت لها بلاد الشام أو مصر منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) بهدف الإستيلاء على مزيد من الممتلكات الإسلامية أو الاستحواز على مدينة بيت المقدس بعد أن استردها المسلمون ؟

كان يحكم مملكة بيت المقدس الاسمية فى أخريات القرن الثانى عشر الميلادى هنرى كونت شامباني . وبعد أن لقي مصرعه تزوجت أرملته ابزابيلا من عمورى الثانى ملك قبرص ، وبذلك تم توحيد عرشى قبرص ومملكة بيت المقدس^(١) ولكن هذا التوحيد لم يشمل سوى العرش والسياسة الخارجية فقط . وفيما يتعلق بالناحيتين الادارية والاقتصادية فقد أعلن عمورى فى بداية الأمر أن المملكتين ستكونان تحت إدارتين منفصلتين ، وأن أموال قبرص لا تنفق من

Vitry, op. cit., p. 116.

(١)

أجل الدفاع عن مملكة بيت المقدس^(١) . ومن الملاحظ أنه في العام نفسه الذي تولى فيه عمورى عرش مملكة بيت المقدس تجددت الهدنة بين المسلمين والصليبيين^(٢) واحترم عمورى الهدنة ، ولم يقيم بأى عمل من شأنه استفزاز المسلمين حتى تصل الحملة المرتقبة التى دعا إليها البابا انوسنت الثالث سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ - ٥٩٥ هـ) وهو العام نفسه الذى أعتلى فيه الكرسي البابوى . ولكل هذا لم يوافق عمورى الفرنسان الفلمنكيين الثلاثمائة الذين أتوا إلى عكا في عام ١٢٠٢ م (٥٩٨ - ٥٩٩ هـ) والجموع الفرنسية القليلة التى لحقت بهم في مطلع العام التالى ، لم يوافقهم على مهاجمة المسلمين لقلة عددهم، وحتى يدخر قواته لعمل عسكري شامل كان يعد العدة له^(٣) فاتجه فريق منهم إلى انطاكية حيث دخلوا في خدمة أميرها بوهمند^(٤) ، وكانت انطاكية آنذاك في حالة حرب مع ليو الثانى ملك أرمينية بسبب مشكلة الوراثة على عرش انطاكية .

وبعد عقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين مرة أخرى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) ، لمدة ست سنوات لم يعيش عمورى طويلا ، إذ مات في أول أبريل عام ١٢٠٥ م (٩ شعبان ٦٠١ هـ)^(٥) ، كما ماتت أرملة ايزابيلا وابنه الطفل عمورى الثالث في العام نفسه أيضا ، وأصبحت ماريا Maria الابنة الكبرى لايزابيلا من كونراد أف مونتفرات^(٦) Conrad of Montferrat وريثة للعرش ، وتقرر تعيين يوحنا أف أبليس سيد يهروب وصيا عليها، وعندما بلغت

(١) Runciman, op. cit., III, p. 95.

(٢) أنظر ما سبق ص ٩٤ - ٩٥ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٤١ .

(٤) Vitry, op. cit., pp. 118 - 9.

(٥) Mas Latrie, op. cit., I, p. 166.

(٦) أختبر كونراد في أبريل ١١٩٣ م لعرش مملكة بيت المقدس ولكنه مات في الثامن والعشرين من الشهر نفسه . وللمزيد من التفاصيل راجع سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق ج ٢ ص ٨٨٥ وحاشية (٤) .

الملكة ماريا السابعة عشر من عمرها في عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ - ٦٠٥ هـ) أصبح الأمر يتطلب البحث لها عن زوج مناسب يتولى حكم مملكة بيت المقدس . فأرسل الوصي عليها إلى فيليب أغسطس Philippe Auguste ملك فرنسا (١١٨٠ - ١١٩٣ م) سفارة مكونة من ايمار أف لا يرون Aymar of Layron سيد قيسارية وولتر الفلورنسي walter of Florence أسقف عكا لترشيح من يراه مناسباً لإزواجها ، ووقع إختيار الملك الفرنسي على جان دي برين^(١) .

وفي الواقع لم يحز إختيار جان دي برين القبول لدى البارونات الصليبيين ، إذ كان مفلساً ، لذلك زوده البابا أنوسنت الثالث والملك فيليب بمبلغ كبير من المال . ثم إنه كان في الستين من عمره . ورغم هذا فقد كان ذكياً وصليبياً متحمساً للفكرة الصليبية مع أنه قضى حياته في خمول نسبي كواحد من قواد فرنسا القدامى . ويقال أن المقصود بهذا الإختيار هو إبعاده عن فرنسا بسبب ما أشيع عن علاقة غرامية بينه وبين إحدى الكونتيسات . وعلى أية حال ، فقد وصل جان دي برين إلى عكا في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٢١٠ م (٢١ ربيع ثاني ٦٠٧ هـ) ومعه حوالي ثلاثمائة فارس صليبي^(٢) . وفي اليوم التالي زوجة البرت Albert بطريق بيت المقدس الأسمى ماريا وتوج الملكان في كاتدرائية صور في الثالث من أكتوبر من نفس العام^(٣) ووعده جان دي برين بأن يعيد الأراضي المقدسة إلى حدودها السابقة^(٤) . وكتب إلى البابا يطلب منه إعداد حملة صليبية تصل إلى الأراضي المقدسة عند إنتهاء وقت الهدنة التي كان قد عقدها مع الملك العادل^(٥) .

Eracles, op. cit., p. 306.

(١)

Grousset, op. cit., 111. pp. 192-3. Mas Latrie, op. cit., p.179.

(٢)

Cambridge Medieval History, Vol, 5.p. 314.

Annales de Terre Saint, of, A, O, L., 11, p. 436.

(٣)

King, op. cit. i p. 182.

(٤)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 12.

(٥)

المال . ثم إنه كان في الستين من عمره . ورغم هذا فقد كان ذكيا وصليبيا متحمسا للفكرة الصليبية مع أنه قضى حياته في خمول نسبي كواحد من قواد فرنسا القدامى . ويقال أن المقصود بهذا الاختيار هو إبعاده عن فرنسا بسبب ما أشيع عن علاقة غرامية بينه وبين أحدى الكونتيسات . وعلى أية حال ، فقد وصل جان دي برين إلى عكا في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٢١٠ م (٢٩ ربيع ثاني ٦٠٧ هـ) ومعه حوالي ثلاثمائة فارس صليبي (١) . وفي اليوم التالي زوجه البرت Albert بطريق بيت المقدس الأسمى ماريا وتوج الملكان في كاتدرائية صور في الثالث من أكتوبر من نفس العام (٢) ووعد جان دي برين بأن يعيد الأراضي المقدسة إلى حدودها السابقة (٣) . وكتب إلى البابا يطلب منه إعداد حملة صليبية تصل إلى الأراضي المقدسة عند إنتهاء وقت الهدنة التي كان قد عقدها مع الملك العادل (٤) .

ولم يكد جان دي برين يستقر في مملكته حتى تزعزع مركزه بوفاة زوجته ماريا عام ١٢١٢ م (٨ ٦٠٩ هـ) بعد أن أنجبت منه طفلة تدعى إيزابيلا Isabelle كما كان يطلق عليها اسم يولانده Yolande (٥) . وبذلك لم

(١) Grousset, op. cit., 111. pp. 192 - 3. Mas Latrie, op. cit., 1

p. 179. Cambridge Medieval History, Vol, 5.p. 314

(٢) Annales de Terre Saint, cf, A.O.L., 11, p. 426.

(٣) King, op. cit. i p. 182.

(٤) Oilvar, of padenborn, op. cit., P. 12.

(٥) هي الأميرة التي تزوجها الامبراطور فريدرىك الثاني عام ١٢٢٥ م . عن

Eracles, op. cit., p. 320

ذلك أنظر :

(٥٨٧ هـ)^(١) . فانحازوا إلى جانب بوهمند في الوقت الذي انضم فيه
الاستبارية إلى ليو الأرميني^(٢) .

وأدرك الفرنج الدخلاء أنه من الضروري تسوية هذه المشاكل الداخلية
وتوحيد الجبهة الصليبية من أجل نجاح الحركة الصليبية نفسها . كما أحس البابا
انوسنت الثالث أن من واجبه التدخل لفض هذا النزاع ، فأرسل مندوبا عنه
للقيام بهذه المهمة يدعى سوفرد أف سانت براكسيدس Sofred of Saint
Praxedis ، ثم أوفد مندوبا ثانيا إلى أرمينية وانطاكية هو بطرس أف سانت
مارتل Peter of Saint Martel وسعى كل منهما على حده ، ثم كلاهما متجمعين
للتوصل إلى حل لمشكلة الوراثة في انطاكية وكذلك مشكلة قلعة بغراس . وقد
أظهر ليو التجاوب مع المندوبين ولكنه رفض إعادة القلعة إلى الداوية ، كما أن
بوهمند أنكر حق البابوية في التدخل في مشكلة تعتبر إقطاعية بحتة ، ولذا فشل
المندوبان في مهمتهما^(٣) .

وبالإضافة إلى مشاكل بوهمند مع ليو وحلفائه فقد كان يعاني من
الاضطرابات الداخلية . ذلك أن سلطانه لم يكن كاملا على كل من إماره
أنطاكية وطرابلس خاصة في الريف رغم تأييد حكومة انطاكية له . ويتضح
ذلك من حركة التمرد التي قام بها أحد أفصاله ويدعى رينوارت Reneart
صاحب نفين أو أنفة^(٤) ، عندما تزوج بدون إذن منه|وريثه حصن عكار^(٥) في
نهاية عام ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ) . وقد تصاعد هذا التمرد عندما انحاز إلى
جانب رينوارت كثير من السادة الصليبيين من بينهم رالف Ralph الطبري

(١) Jussot, op. cit., 111, p. 194,

(٢) Runciman, op. cit., 111, p. 136,

(٣) Cahen, C., La Syria du Nord, p 615,

(٤) أنفة ، Nephin وتسمى أيضا رأس الشقة وتقع على الساحل جنوب طرابلس ومعظمها داخل
في البحر و دلت حصن أمير انطاكية . أنظر .

Burchard, A Description of The Holy Land, p. 16.

(٥) حصن عكار ، يقع في جنوب - شرق القاع في منتصف الطريق بين طرابلس وحصن الكراد تقريبا .

الذى كان أخوه أوتو Otto قد لحق ببيلاط ليو الأرمنى عدو بوهمند^(١). وزاد من تعقيد المشكلة أن هذا التمرد قد لقي التأييد من الملك عمورى ملك قبرص والملك الاسمى لمملكة بيت المقدس آنذاك . وبذلك تخرج مركز بوهمند فى الداخل مع السادة الصليبيين وفى الخارج مع كل من البابا وليو وعمورى والاستبارية ، ولم يقف معه سوى الداوية .

واستغل ليو هذه الحوادث وحاصر أنطاكية فى الرابع من ديسمبر سنة ١٢٠٤ م (٢٧ ربيع أول ٦٠٠ هـ) فى الوقت الذى كان فيه بوهمند يسعى للقضاء على تمرد رينورات ومؤيديه . فاستتجد بوهمند بالملك الظاهر صاحب حلب . وخرج الظاهر من حلب متجها إلى حارم ، وسرعان ما انسحب ليو عندما علم بقدوم الملك الظاهر وعاد مسرعا إلى بلاده ، كما عاد الظاهر أيضا إلى حلب . ولكن ليو أعاد الكرة مرة أخرى على أنطاكية عندما راسله أهلها ، وضمنوا له تملكها « فهاجمها فجأة فى السابع عشر من ربيع الثانى من العام نفسه » (٢٤ ديسمبر) . وتحصن بوهمند فى قلعة المدينة ونادى بشعار الملك الظاهر ، فخرج بعساكره وقصد انطاكية^(٢) ، فعاد ليو إلى بلاده دون أن يشتبك مع قوات بوهمند أو الظاهر لما وجده من تجمعات عسكرية كبيرة ضده^(٣) ، وكان من الطبيعى أن يبادر الظاهر إلى تلبية نداء بوهمند عساه أن يحقق من وراء ذلك نصرا إسلاميا على حساب الفريقين الصليبيين المتخاصمين .

- ١ -

هو حصن منيع على ارتفاع سبعمائة متر فوق سلسلة جبال لبنان وقد استولى عليه الفرنج عام ١١٠٩ م (٥٠٢ - ٥٠٣ هـ) واختص به الفرسان الاستبارية واستعاده المسلمون عام ٦٥٨ هـ (١٢٧١ م) عن ذلك ولزيد من التفاصيل انظر :

Dussaud, R, & Others, La Syrie Antique et Medival Illustrée, planche 146, 7.

Runciman, op. cit., III., p. 136.

(١)

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد

(٣) الخامس ج ١ ص ٢ - ٣ .

King, op, cit., p. 182.

وارتاح بوهمند من مساندة عموري للمتمردين عند مماته عام ١٢٠٥ م (٦٠١ هـ) وإمتناع يوحنا أف أبلين الوصى على عرش المملكة عن مساندة الثوار . وانتهر بوهمند هذه الفرصة وأنزل الهزيمة بالتمردين وفرض سيطرته الكاملة على أنطاكية وطرابلس ، ولم يبق أمامه سوى ليو وحلفاؤه من الاستتارية . وفي هذا الوقت كان بوهمند يبحث عن مساندة خارجية ضد ليو . ولذلك سارع لاستقبال ماري Marie كونتييسة شامباني وزوجه بلدوين Baldwin الامبراطور اللاتيني بالقسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٠٥ م) في عكا وهي في طريقها إلى زوجها - وقدم لها يمين الولاء تأكيداً لما أعلنه من قبل تبعية أنطاكية إلى إمبراطور القسطنطينية^(١) . وقد زادت سياسة بوهمند هذه من غضب البابوية التي كانت غير راضية عن حكام القسطنطينية اللاتين الذين إنحرفوا بالحملة الصليبية الرابعة .

وتشجيع بوهمند بعد إعلان ولائه للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وعزل بطرس Peter بطريق أنطاكية بسبب إنحيازه للملك ليو وعين بدلا منه البطريق اليوناني سيمون Simon . وساندت روما البطريق المعزول فأنزل قرار الحرمان الكنسي على بوهمند وحكومته . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى تدبير المؤامرات ضده وإستطاع بطرس في نهاية عام ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) أن يدخل إلى أنطاكية بعض الفرسان الموالين له الذين حاولوا الاستيلاء على جنوب المدينة، ولكن بوهمند تمكن من رد المعتدين إلى خارج أنطاكية وقبض على بطرس وألقى به في السجن دون طعام أو شراب وعندما استبد ببطرس اليأس شرب زيت مصباحه ومات بعد عذاب أليم^(٢) .

وتجددت الحرب بين ليو وبوهمند مرة أخرى في عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ - ٦٠٥ هـ) إذ قام ليو بتخريب ضواحي أنطاكية كما قام الاستتارية بالإغارة على طرابلس^(٣) . ولم يلجأ بوهمند إلى الاستنجاد بالملك الظاهر كما سبق ، وربما

Runciman, op cit., 111, p. 136

Cahen, op cit., pp. 612-3

Runciman, op. cit., III, p. 137.

(١)

(٢)

(٣)

يكون ذلك بسبب حرصه على عدم إغضاب العادل - الذي وقع الصلح في أواخر عام ٦٠٣ هـ (يوليو ١٢٠٧ م) - لاختلافه مع الظاهر في ذاك الوقت^(١). لذلك لجأ بوهمند إلى السلاجقة لمساندته ضد ليو . وإنزعج البابا الروماني من ذلك ، فاستنجد بالظاهر صاحب حلب لإنقاذ أنطاكية من تدخل السلاجقة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أمر استنجد البابا بالملك الظاهر لم يرد في المصادر العربية على الإطلاق . كما أن لجوء البابا للظاهر وهو الحاكم المسلم أثار دهشة الكتاب الغربيين^(٢) ويبدو أن البابا فضل أن يستنجد بالظاهر لحماية أنطاكية على دخول السلاجقة فيها حتى تبقى المملكة الصليبية على حالها أملا في الوصول إلى حل بين ليو وبوهمند تمهيدا لحملة صليبية أخرى وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد .

وقد زادت الخلافات بين ليو وبوهمند من قلق البابوية فعادو البابا التدخل لفض هذا النزاع وطلب من البرت بطريق بيت المقدس الإسمي في مارس ١٢٠٩ م (رمضان ٦٠٥ هـ) التوسط لحل هذه المشكلة ، في الوقت نفسه الذي سعى فيه بوهمند للتقرب من البابوية وقبل تعيين بطريق لاتيني على الإمارة من قبل البابا . وقد أدى التقارب بين البابا وبوهمند إلى غضب ليو ، وتفاخر بأنه عقد تحالف مع امبراطورية نيقية nicaea البيزنطية في المنفى ، كما تقرب إلى Hugh ملك قبرص (١٢٠٥ - ١٢١٨ م) . وتم زواج ريموند المطالب بعرش أنطاكية من هلفيس Helvis أخت هيو^(٣) ولعل ليو قصد بذلك ضمان مساندة قبرص له ولابن أخته ريموند في المطالبة بعرش أنطاكية ، كما منح ليو

(١) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الخامس ج ١ ص ٥١ .

Cahen, op. cit., p. 617.

Runciman, op. cit., III, pp. 137- 8.

(٢)

(٣)

طائفة التيوتون^(١) بعض القلاع في قيليقية^(٢) ، وتعقد الموقف أكثر من ذى قبل .

ولكن هذه الخلافات ما لبثت أن تبددت عندما قتل الاسماعيلية ريموند أكبر أبناء بوهمند في كاتدرائية أنطربوس^(٣) ، فتجمعت القوات الصليبية من قبرص وعكا وطرابلس وأنطاكية وأرمينية لقصد بلاد المسلمين ، ولم يتراجعوا إلا بعد خروج الظاهر لملاقاتهم . وزاد التقارب بين كل من مملكة بيت المقدس وأرمينية وقبرص عندما تزوج جان دى برين من إستيفانى ابنة ليو الذى ظل يتحين الفرص لتنصيب ابن اخته ريموند أميرا على أنطاكية وتمكن الملك ليو فى عام ١٢١٦ م (٦١٣ - ٦١٤ هـ) من إحتلال أنطاكية بالتآمر مع بطريق المدينة أثناء غياب بوهمند فى طرابلس ونصب ريموند فى الرابع عشر من فبراير ١٢١٦ م وأعاد قلعة بغراس إلى الداوية وتصلح مع البابا^(٤) « وأطلق جماعة من أسرى المسلمين » وتصلح مع الملك الظاهر^(٥) فى الوقت الذى كانت فيه الاستعدادات قائمة على قدم وساق فى أوربا لإرسال الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر .

أما فيما يتعلق بقبرص فقد تولى أمرها عمورى الأول فى الفترة : من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٠٥ م كما حكم أيضا مملكة بيت المقدس الإسمية من سنة ١١٩٨ إلى سنة ١٢٠٥ م نتيجة زواجه من ايزابيلا . وعند موته انفصلت

(١) يرجع أسس طائفة التيوتون : Teutoni إلى الأراضى المقدسة الى زمن الحملة الصليبية الثالثة .

(٢) ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) وقد زاد نموها بقدوم حملة الألمان عام ١١٩٧ م (٥٩٣ - ٥٩٤ هـ) ،

لأن بعض الفرسان الألمان رفضوا العودة إلى بلادهم . وفى سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ - ٥٩٥ هـ)

اعترف بهم البابا أنه مست الثالث كهنة عسكرية وهى مثل جماعة الاستتابة والداوية . انظر :

Runciman, op. cit., pp. 98-9.

Cahen, op. cit., p. 6-8

(٢)

(٣) اس واصل : المصادر السابق ح ٣ ص ٢١٩ أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع

السابق ح ٣ ص ٩٥٣ .

Cahen, op. cit., p. 621.

(٤)

(٥) اس الخوزى . المصادر السابق ح ٢ ص ٥٧٢ .

المملكتان عن بعضهما وحكم قبرص ابنه هيو وكان صبيا دون العاشرة من عمره . فتولى أمر الوصاية عليه ولتر أف مونتبيليار^(١) الذى تزوج من برجنديا Burgundia أخت هيو الكبرى . وفى عام ١٢١٠ م تسلم هيو مقاليد الحكم وتزوج بعد ذلك من أليس Alice أميرة بيت المقدس وهى ابنة زوجة أبيه . واشتهر هيو بحدة المزاج ، ولذا ظلت علاقاته عاصفة مع جيرانه وأتباعه وكنيسته والبابوية . إلا أنه تمكن من تثبيت دعائم الحكم فى مملكته^(٢) وقد شارك هيو فى الحملة الصليبية على الشام عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ) ، ومات فى فبراير ١٢١٨ م (ذو القعدة ٦١٤ هـ) قبل أن يعود إلى بلاده^(٣) ، ودفن فى قلعة طرابلس^(٤) .

هكذا ظل الصراع حادا بين الحكام الصليبيين فى المناطق والإمارات التى كانت لا تزال فى قبضتهم ، وكان ذلك بسبب المنافسة على السلطة والأرض . ولا شك أن هذا الصراع كان من العوامل التى أنهكت الوجود الصليبي فى الأراضى المقدسة وساعدت فيما بعد على تقلصه وزواله . ولا يعنى هذا أن الحروب بين المسلمين والصليبيين قد توقفت خلال تلك الفترة من الزمن التى سبقت وصول طلائع الحملة الصليبية الخامسة إلى الشام ، إذ كانت المصادمات بين الفريقين تكاد لا تنقطع منذ مطلع القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثالث عشر الميلادى) كما كانت أيضا من قبل . فالصليبيون فى نظر المسلمين أعداء إحتلوا أرضهم واستولوا على ديارهم . ومن الطبيعى ألا يهنا للمسلمين بالا إلا إذا إستردوا أرضهم المغتصبة وأجلوا الغزاة عنها . وما كانت الهدن التى تعقد بين الطرفين إلا وقتا لإلتقاط الأنفاس حتى يستعد المسلمون لطرد العدو الغاصب من بلادهم .

Eracles, op, cit., p. 305.

(١)

Runciman, op. cit., III, pp. 134-5.

(٢)

Annales de Terre Saint, p. 437.

(٣)

Histoire des Archeveques Latins de L'île de Chypre C.A.O.L.

(٤)

p. II, 126.

هكذا فتت الصراعات الشرقى اللاتينى وإن كان قد ساد هدوء نسبي قبيل قيام الحملة ، بينما كان الجانب الإسلامى فى حالة تمكنه من مهاجمة الغزاة ودفعهم . وإذا إنتقلنا إلى الجانب الأوربى وهو الجانب الذى قام بإمداد لحملات الصليبية بالرجال والمال والسلاح ، فاننا نجد أن البابوية لعبت دورا رئيسيا فى الحوادث التى سادت أوروبا فى الفترة السابقة لقيام الحملة الخامسة . فقد إعتلى كرسى البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦ م) ، وكان على درجة واسعة من العلم والمعرفة ، إذ درس اللاهوت فى باريس كما درس القانون فى بولونيا^(١) . ولم يكن للملوك أوروبا وأباطرتها المعاصرين له قوته وبصيرته ، فقد برهن على أنه سياسى ماهر سريع البديهة متطور لمقتضيات الظروف والاحوال^(٢) . وكانت آمال إنوسنت الثالث تنحصر فى العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك ليسودها السلام كى يتمكن من تسخير كافة القوى الأوربية فى غزو مدينة بيت المقدس التى إستردها صلاح الدين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٨٥٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٧٨ م) خاصة بعد أن نجح أخوه العادل فى جمع شمل البيت الأيوبى وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر^(٣) التى كانت مصدر قوة المسلمين ومقلهم المنيع ومركز تموينهم بالمال والمؤمن والسلاح^(٤) . وغير خاف أن البابا إنوسنت الثالث كان يرمى من وراء ذلك إلى رفع شأن البابوية وأن يكون له السلطة العليا الدنيوية . وكان فى الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق تلك الآمال ، فضلا عن الهدف البعيد المدى الذى ينحصر فى فرض سيطرة الغرب الأوروبى على العالم الإسلامى

لذلك بدأ البابا إنوسنت عهده بالكتابة إلى البنادقة يطلب منهم الا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال فى الحرب وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع

(١) Miller, W., Mediaeval Rome, p. 55

(٢) Stephenson, C., Mediaeval History, p. 333.

(٣) Grousset, op. cit., III, pp. 164- 6

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٦٨ .

أشد العقاب عليهم^(١). كذلك سارع بالكتابة في عام ١١٩٩ م إلى بطريق بيت المقدس الإسمي أymar Monaco يطلب منه تقريراً مفصلاً عن الحالة في بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكافة البيانات التي تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض ، كما طلب الشيء نفسه في عام ١٢١٣ م من الداوية والاستبارية^(٢) ، ويبدو أن هذه التقارير كانت ترسل إليه من آن لآخر . فقد أرسل إليه بطريق بيت المقدس الإسمي أيضاً تقريراً في عام ١٢١٤ م ، وقد اشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الأهمية تضمنت بعض النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية الخاصة بالمسلمين . فمن الناحية السياسية تضمن الحديث عن البلاد التي يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم ، وإشتمل الجانب الإقتصادي الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية في مصر ، وعن الناحية الاجتماعية تناول الحديث أحوال المسيحيين واليهود وعلاقتهم الطيبة بالمسلمين . والجانب الخطير في هذا التقرير هو الجانب العسكري ، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن هي مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسلة وكيفية دخول السفن من دمياط التي كانت مفتاح مصر آنذاك^(٣) . والواضح من هذا أن البابا انوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتيني وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الآمال الكبار التي رسمها لنفسه وللكنيسة .

وإذا كان البابا قد إستهل عهده بالعمل على دعم الحركة الصليبية التي بدأ يشوبها الفتور ، فإن الحوادث التي جرت في أوروبا أثناء تولية كرسي البابوية ، مكنته من أن ييسط نفوذه على معظم ربوع أوروبا تقريباً . واستطاع أن يعلى

(١) Innocent III, Letter to The People of Vencie, of. Thatcher op. cit., pp. 335-7.

(٢) Luchaie, La Question d'Orient, p. 15.

(٣) Patriarche de Jerusalem, Raport an Pape Innocent III, G.F.Y, Kamal, Mon. Cart. t. III, face. IV. p. 992.

شأن البابوية لما قام به من جهد طوال فترة بابويته حتى أصبح السيد الأوحـد الذى لا منازع له مما هيا الجـو للدعـوه إلى الحملة الصليبية الخامسة بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت فى تحقيق أغراضها^(١).

هذا عن البابوية ومشروع الحملة الصليبية أيام انوسنت الثالث ، أما أوربا فقد كانت فى ذلك الحين نهبا للانقسامات والاضطرابات والمشاكل التى صرفتها عن الاشتراك بصورة فعالة فى الحملة التى كانت البابوية تستعد للدعوة لها . ففى المانيا تمكن هنرى السادس إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١١٩٠ - ١١٩٧ م) من الحصول على موافقة الأمراء الألمان بأن يخلفه على العرش ابنه فريدرىك الثانى . ومات هنرى وهو يستعد للحاق بالحملة الصليبية التى وصلت طلائعها إلى الشام فى أغسطس ١١٩٧ م (شوال ٥٩٤ هـ) ورفض الأمراء الألمان إعتبار فريدرىك الذى كان لا يزال فى الثالثة من عمره مرشحا للعرش . ولم تبذل أية محاولات لحصول فريدرىك الصغير على تاج المانيا وصقلية ، وأثرت والدته كونستانس Constance الوصية عليه - أن تحتفظ بعرش نابلى وصقلية وأن تدفع جزية سنوية للبابا وأن تبتعد عن ألمانيا ومشاكلها وأعلنت تبعيتها للبابا^(٢).

ومن الطبيعى أن يرتاح البابا لهذا الوضع الذى ضمن به ولاء صقلية للنفوذ البابوى فى وقت كان فيه إنوسنت الثالث يسعى سعيا حثيثا لفرض نفوذه الدينى والدينى على الغرب المسيحى كله . وظل فريدرىك تحت وصاية والدته ، ولكن الوصاية إنتقلت إلى البابا نفسه بعد وفاتها عام ١١٩٨ م . وكان ذلك بناء على رغبته^(٣) وقد أعطى ابتعاد كونستاس عن المانيا الفرصة إلى فيليب Philip دوق سوابيا - عم فريدرىك الثانى - الذى تسانده فرنسا ، فتوجه مسرعا إلى المانيا عساه أن يتمكن من الحصول على عرش الامبراطورية لنفسه

(١) Mahmud, F., A Short History of Islam, P. 223. |

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٩ .

Tout, The Empire and The Papacy, p. 317. ١٣

وأيده في ذلك حزب الجبلين^(١) الإمبراطوري وانتخبوه إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية في العام نفسه . ولكن حزب الجلف البابوي المعزز بالنفوذ الإنجليزي انتخب أوتو أف برونزويك Otto of Brunswick وهو الابن الثاني لهنري الثاني Henry II ملك إنجلترا ١١٥٤ - ١١٨٩ م . وفي الوقت نفسه كونت مدن شمال إيطاليا إدارة لنفسها ، وعلى ذلك سادت الحرب الأهلية كلا من لمبارديا وتسكانيا وألمانيا^(٢) .

وتدخل البابا إنوسنت الثالث مؤيدا أوتو نظرا لوعده بالخضوع للبابوية ، ولكن فيليب دوق سوابيا لم يذعن للأمر وظل يتحين الفرصة للقضاء على أوتو . وتمكن في عام ١٢٠٧ م من هزيمته فاضطر إلى الفرار واتخذ من حليفته إنجلترا مأوى له . ولم تستقر الأمور على هذا الحال فقد قتل فيليب في العام التالي ، وأنعش ذلك الأمل في نفس أوتو للعودة للمطالبة بالعرش وأيده أمراء الهوهنشتاوفن الألمان في طلبه بشرط زواجه من ابنة غريمه فيلب . ووافق أوتو على ذلك وذهب إلى روما وأعلن ولاءه للبابا وتوج في أكتوبر ١٢٠٩ م^(٣) ، وارتاح البابا لهذه النتيجة لأن كل ما كان يعنيه هو خضوع السلطة الزمنية للسلطة البابوية في وقت اشتد فيه الصراع بين البابوية والإمبراطورية حول المسائل الدنيوية .

ولكن العلاقات تأزمت بين البابا وأوتو عندما قام الأخير بغزو جنوب

(١) الجبلين ، هم دوقات أسرة هوهنشتاوفن | نسبة إلى قلعة في إقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم ، والجلفيون هم أمراء سكسونيا . عن ذلك أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٣٧٦ . وكان لهذين الحزبين أثر كبير في سير الحوادث في ألمانيا في هذه الفترة بالذات حتى أن الإمبراطور فريدريك الثاني أنشأ في عام ١٢٢٤ م جامعة نابلي في صقلية لتكون تابعة للحزب الجبلين بدلا من ذهاب طلاب صقلية إلى التعليم في مراكز حزب الجلف البابوي ، وبذلك يضمن ولائهم للإمبراطورية . راجع : جوزيف نسي : نشأة الجامعات في العصور الوسطى ص ٢٥٤ .

(٢) La - Monte, The World of Middle Ages. P. 417.

(٣) Stubbs, W., Germany in The Early Middle Ages, p. 219

صقلية في عامي ١٢١٠ ، ١٢١١ م^(١) ، وهو ما لم تكن ترضى عنه البابوية لما يترتب عليه من توحيد المانيا وصقلية ، فأصدر البابا قرار الحرمان ضد أوتو . ويبدو أن الأمراء الألمان قد ضايقهم حكم أوتو ، فاستغلوا قرار الحرمان واعتبروه قرارا بعزلة واختاروا فريدريك الثاني ملك صقلية ملكا عليهم^(٢) ، وكان لا يزال تحت وصاية البابوية . فعاد أوتو مسرعا من إيطاليا إلى المانيا وسانده حنا ملك إنجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) وأمير فلاندرز ، وفي الوقت نفسه ساند فريدريك الثاني فيليب أوغسطس ملك فرنسا بحكم عدائه القديم لملك إنجلترا وحتى لا يكون على الأراضي الأوربية قوة يخشى بأسها على فرنسا فيما بعد ، كما أبدته البابوية ، وبدأت أوربا وقد انقسمت إلى معسكرين . ويلاحظ أن النبلاء الانجليز لم يساندوا مليكهم حنا ، فاعتمد على بعض الجنود المرتزقة في ذلك الصراع^(٣) . وانتهى الأمر بوقوع الحرب بين القوتين المتحالفتين وهزم أوتو وحلفاؤه في موقعه بوفان Bovines في سهول بلاد الفلاندرز في السابع والعشرين من يوليو عام ١٢١٤ م . وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول كبير في تاريخ أوربا الوسيط ، أبرزت كلا من فرنسا وألمانيا المؤيدين من البابوية كأعظم قوة في أوربا وقتذاك^(٤) .

وليس معنى ذلك أن فيليب أوغسطس ملك فرنسا كان على وفاق دائم مع البابوية فقد تعرض لقرار الحرمان عام ١٢٠٠ م بسبب تنكره لزوجته الأولى إنجبرج Ingeberg وزواجه مرة أخرى من ابنة دوق إشرق بافاريا المسماه أجنس أف ميران Agnes of Meran^(٥) وقاوم فيليب في أول الأمر ولكنه استسلم

(١) La-Monte, op. cit., p. 418.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

(٣) Matthew of Westminster, The Flowers of History, II, p. 11

(٤) للمزيد من التفاصيل عن موقعة بوفان أنظر :

Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 120, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 298-304.

(٥) Ency. Inter., Vol. 9, p. 302.

في العام التالي وأعاد زوجته الأولى^(١). وكان ذلك انتصارا لكلمة البابوية نمشي مع سياسة البابا أنوسنت الثالث التي كان يرمى اليها^(٢). وبعد أن ضمن البابا ولاء الملك فيليب له استغله في التهديد لغزو إنجلترا عندما تأزمت مشكلة تعيين رئيس أساقفة كانتيري في عام ١٢٠٥ م كما استغله أيضا في ضرب أوتو أف برونزويك عندما تمرد على البابوية وقام بغزو صقلية ولجأ اليه أيضا في القضاء على الهرطقة في جنوب فرنسا .

وكان ظهور حركات الهرطقة من الأمور التي شغلت بال البابوية خاصة بعد أن استفحل أمرها . وحاول أنوسنت في أول الأمر إقناع الهرطقة بالعودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية في ررما وإتباع تعاليمها ولكن مبعوثيه فشلوا في هذه المهمة . وتعاطف ريموند Raymond كونت تولوز مع الهرطقة وتقبل آراءهم ورفض إمداد البابوية بالقوة الكافية للقضاء عليهم . وأخيرا إتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا في عام ١٢٠٤ م ، إلا أن فيليب كان مشغولا بصراعه ضد حنا ملك إنجلترا . وكرر البابا نداءه لملك فرنسا عام ١٢٠٥ م وأيضا في عام ١٢٠٧ م^(٣) دون جدوى .

وتطورت الحوادث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ريموند التولوزي لرفضه إعادة الكنائس التي استولى عليها ، فضلا عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا . ولم يطق البابا صبرا على هذا التمرد الذي من شأنه القضاء على النفوذ البابوي في الممالك الأوروبية ، فدعا إلى حملة صليبية ضد هؤلاء الهرطقة وهي المعروفة بالحملة الأليجنسية^(٤)، وكافى على رأس الداعين لها جاك دي فترى

La- Monte, op. cit., p. 419.

Matthew of Westminster, op. cit., II p. 131.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) هي نوع من الحروب التي لا صلة لها بالحركة الصليبية بمفهومها الدقيق لعدم توفر الصفات الهامة التي تعتبر من مستلزماتها ومع ذلك أطلق عليها تجاوزا اسم الحرب الصليبية . أنظر : جوزيف نسيب يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٥٠ وحاشية (٢) وعن هذه الحملة انظر :

Roger of Wendover, of, cit., II, pp. 278 ff.

الذى عين فيما بعد أسقفا لعكا وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) وأرخ لها أيضا^(١). ولبنى بعض الأمراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أف مونتفرت Simon of Montfort وتوليا قيادة الحملة^(٢)، واستطاع هزيمة ريموند في عام ١٢١٣ م ، لذلك كافأه البابا بأن ولاه بعض الإمارات الاقطاعية المجاورة له وهذا يدل على مدى النفوذ البابوي وسيطرته على السلطة الزمنية . ولم يستطع فيليب أن يقف مكتوف الأيدي ويصم آذانه عما يحدث حتى لا تضيق هيئته أمام البابوية وأوربا فأرسل ابنه لويس Louis للمشاركة في هذه الحملة عام ١٢١٣ م ، وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب ، إلا أن سلوك سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونه تولوز في استرداد أملاكه ، ثم قتل سيمون في عام ١٢١٨ م^(٣) . وهى السنة التى وطأت فيها أقدام الصليبيين مدينة دمياط ، ومشكلة الهراطقة قائمة في جنوب فرنسا .

أما فيما يتعلق بالوضع في إنجلترا فقد تولى الملك حنا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) حكم البلاد^(٤) ، وهو الذى إختاره المجلس الكبير دون معارضه داخل إنجلترا. نفسها ، رغم أن المقاطعات الانجليزية في فرنسا كانت تؤيد آرثر Arther دوق بريتانى ضد عمه الملك حنا. ليكون ملكا على إنجلترا . وكان في ذلك قرصة إستغلها فيليب ملك فرنسا للاستيلاء على أملاك إنجلترا في شمال فرنسا ، لذلك قام بتشجيع آرثر على مهاجمة مقاطعة أكويتين الانجليزية الواقعة إلى الجنوب من مقاطعة برتانى . وفى الوقت نفسه قام فيليب بنفسه بغزو مقاطعة نورمانديا . وقد أيد البابا الملك الفرنسى في موقفه حتى يكسبه - وهو الأقوى - إلى جانبه . ونجح حنا في السيطرة على أكويتين وقبض على آرثر فى

(١) Vitry, op. cit., Preface. IV. cf, also : Setton, KM., The History of The Crusades, II, p. 281.

(٢) Fout, op. cit., p. 400

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) جيمس دورثي : العهد الأعظم الأعظم ترجمة مصطفى حبيب طه ص ٥٦ وما بعدها .

عام ١٢٠٢ م الذى لم يلبث أن أعتيل بعد ذلك . أما إنورمانديا فقد سقطت قلاعها الواحدة تلو الأخرى فى يد فيليب ، وحتى عام ١٢٠٤ م كانت إنجلترا قد فقدت كل أملاكها فى شمال فرنسا وآلت هذه المناطق إلى فرنسا نفسها^(١) .

والحدث الثانى الذى وقع فى إنجلترا فى هذه الفترة وكان فرصة مواتية للبابوية لترمى فيه بكل ثقلها ، هو موضوع تعيين رئيس أساقفة كانتربرى . وفى التاسع والعشرين من شهر يونية عام ١٢٠٥ م مات هوبرت والتر Hubert Walter رئيس أساقفة كانتربرى ، وانتهر رجال الدين فى إنجلترا هذه الفرصة واختاروا سرا مرشحا لهذا المنصب وهو ريجنالد Reginald وأرسلوه إلى البابا فى روما ، وعندما علم الملك حنا بذلك رشح من جانبه حنا أف جراى John of Grey أسقف نوروتش Norwich ولكن البابا أعرض عن المرشحين وتم انتخاب ستيفن لانجتون Stephen Langton لشغل هذا المنصب^(٢) . وغضب الملك حنا لرفض مرشحه وأدى ذلك إلى سوء التفاهم بين البابا والملك الإنجليزى وانتهى الأمر بأن أصدر البابا ضده قرار الحرمان فى عام ١٢٠٨ م^(٣) . ولما كانت الغالبية من رجال الدين تدين بالولاء للبابوية فقد قام الملك باضطهادهم ومصادرة أملاكهم كما قام أيضا بنهب الكنائس الإنجليزيتا^(٤) ، الأمر الذى أثار البابا ضد الملك ، وحرّض فيليب أوغسطس العدو القديم للملك حنا على غزو إنجلترا نفسها .

ورحب فيليب بهذه الفكرة لا سيما أن ابنه لويس كان يطالب بعرش إنجلترا عن طريق زوجته بلانش Blanche صاحبة قشتالة ابنة هنرى أخى الملك حنا

(١) Roger of Wendover, o. cit' II' pp 205, 213, cf, also, Muir, R., British History, p. 59. |

(٢) Matthew of Westminster, p. cit., II, pp. 102-3, 106.

(٣) Roger of Wendover, op cit., II, pp. 250-1, Matthew of Westminster, Ibid.

(٤) La-Monte, op. cit., p. 421. :

وبدأ لويس يستعد لهذا الغزو ، ولكننا نجد الملك الإنجليزي يستلم في إذلال للبابوية في عام ١٢١٤ م ويقبل تعيين ستيفن لانجتون - مرشح البابا - رئيسا لأساقفة كانتربري^(١). كما قام الملك باعادة جميع رجال الدين إلى مناصبهم وقبل الخضوع للنفوذ البابوي مع دفع جزية سنوية ضخمة للبابا عن كل من إنجلترا وويلز^(٢). ويتضح أن هذا التصرف من قبل الملك حنا قد زاد من هبة البابوية وأضاع على فرنسا فرصة القيام بعمل عسكري ضد إنجلترا لتحقيق أطماعها فيها .

وكان لهذه النكبات أثر بالغ الأهمية على سلطة الملك في إنجلترا . فقد بدأ سخط النبلاء على الملك يزداد يوما بعد يوم خاصة عندما بدأ الملك في المطالبة بفرض ضرائب جديدة تساعد على استئناف القتال مع حليفه أوتو أف برونزويك ضد فرنسا وألمانيا . ولكن النبلاء تكتلوا ضد الملك وأجبروه في النهاية على توقيع الوثيقة المعروفة باسم العهد الأعظم Magna Carta في عام ١٢١٥ م التي سلبت الملك الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها ، ويبدو أن الصراع بين الملك حنا والنبلاء لم ينته عند هذا الحد لعدم إحترام العهد الأعظم من كلا الجانبين^(٣). وتطور الأمر واتخذ شكلا مسلحا واحتل النبلاء لندن دون مقاومة في السابع عشر من مايو ١٢١٥ م وانتخبوا لويس بن فيليب أوغسطس ملكا على إنجلترا وأرسلوا اليه يطلبون منه الحضور^(٤). ولكن البابا الذي كان يحرص فيليب بالأمس على غزو إنجلترا لم يرض عن التدخل من جانب فرنسا بعد أن أعلن الملك حنا ولاءه للبابوية وهو كل ما كان يأمله البابا. لذلك أخذ يتعاطف مع الملك الإنجليزي ويسانده وكتب إلى النبلاء في إنجلترا يعنفهم على مقاومتهم للملك ويأمرهم بالإنصياع لأوامره وتأدية الخدمات له

Roger of Wendover, op. cit, II, pp. 265 ff,

(١)

Matthew of Westminster, op cit., II, pp. 118-9

(٢)

Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 308 ff, Matthew of Westminster, op. cit., II. pp. 121-2.

(٣)

Roger of Wendover, op cit., pp. 337- 8

(٤)

طبقا لما كان متبعا من قبل^(١) . ولم يكتف بذلك بل أرسل أيضا الكاردينال جوالو Gualo مندوبا عنه لحماية الملك حنا . وقد قام هذا المندوب وهو في طريقه إلى إنجلترا ، بزيارة فرنسا وطلب من الملك فيليب عدم إرسال ابنه لغزو إنجلترا ولكن فيليب لم ينصت لقول المندوب وأرسل ابنه لويس لغزو إنجلترا متحديا بذلك رغبات البابا . ونزل لويس في خليج ساندويتش Sandwich واستولى على المنطقة بما فيها مدينة دوفر^(٢) وتقدم تجاه لندن^(٣) . وكان لهذا الغزو العسكري ضد إنجلترا أسوأ الأثر في نفس البابا مما دفعه إلى إصدار قرار الحرمان ضد لويس^(٤) .

وعندما تقدم لويس إلى لندن كان الملك حنا يهاجم أمراء الشمال المتمردين. وفي هذا الوقت العصيب من تاريخ إنجلترا مات الملك حنا في قلعة نيوارك Newark عام ١٢١٦ م . وبعد موته تقابل المندوب البابوي مع كثير من النبلاء الانجليز وتم الاتفاق على إعلان هنري الثالث أكبر أبناء حنا ملكا على البلاد . وبادر لويس بالعودة إلى فرنسا للحصول على المزيد من المعونة من والده بعدما تخلى عنه النبلاء الانجليز . ولم يلبث أن عاد مرة أخرى إلى إنجلترا ، ولكنه هزم في موقعة بحرية بالقرب من دوفر وأرغم على عقد معاهدة سلام مع إنجلترا^(٥) .

وعن الموقف في اسبانيا قبيل الحملة فان البابا إنوسنت الثالث لم تسنح له فرصة إلا وإنتهزها لدعوة الممالك المسيحية في أسبانيا لطرح عداواتها جانبا وأن تجمع نفسها لتمكن من إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية . ولم يكتف بذلك بلى دعا إلى حملة صليبية في عام ١٢١١ م لطرد المسلمين من أسبانيا^(٦) .

(١) Innocent III, Letter to The English Barons, of., Thatcher, op. cit., pp. 219- 220

(٢) Roger of Wendover, op. cit., pp. 371-5.

(٣) Matthew of Westmenister, op. cit., pp. 126- 8.

(٤) Monte, op. cit., p. 419.

(٥) Matthew of Westmenister, op. cit., II. pp. 129 - 132

(٦) Runciman, op. cit., III, p. 139

ونجحت جهود البابا إذ إتحدت أراجون ونافار وقشتاله وتمكنت من هزيمة المسلمين في موقعة العقاب في السادس عشر من يوليو عام ١٢١٢ م (١٤ محرم ٦٠٩ هـ) وهو الانتصار الذي رجح الكفة المسيحية على المسلمين ، وأعقبه عديد من الانتصارات التي إنتهت بخروج المسلمين نهائيا من اسبانيا^(١) ولكن هذه الحروب شغلت الممالك المسيحية في الشمال الاسباني عن المساهمة الفعالة في الحملة الصليبية التي كان البابا يستعد لإرسالها لاستعادة مملكة بيت المقدس .

وهكذا كان الغرب الأوربي في أواخر القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر للميلاد مسرحا للقلق والاضطرابات والمشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين . وكان على رأس البابوية في ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا انوسنت الثالث الذي كان يعتبر نفسه خليفة الله على الأرض وأن الحكام والملوك إتباعه وعماله ، وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه . وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن أصبحت أوروبا تحت رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء . وأتاحت له هذه الظروف الفرصة للتفكير في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد العالم الإسلامي تحقق اغراض البابوية ومطالعها وتعيد مدينة بيت المقدس إلى حظيرة اللاتين التي فشلت الحملة الصليبية الثالثة في استعادتها .

وإذا رجعنا على شرق أوروبا نجد أنه عندما اعتلى البابا انوسنت الثالث كرسي البابوية كان يجلس على عرش الامبراطورية البيزنطية الكسيوس الثالث Alexis III (١١٩٥ - ١٢٠٣ م) وكان هذا الامبراطور قد استولى على العرش أثر ثورة قام بها ضد أخيه وسمل عينيه وزج به وبابنه في السجن . وفام

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٨ ، ينشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج ١ القسم الثاني ترجمة زيادة ، العربي ص ٣٩٤ أنظر أيضا : يوسف شاخ : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ١٣٦ وما بعدها .

الامبراطور الجديد باغداق الأموال على من عاونوه في الاستيلاء على العرش فارهمق خزينة الدولة^(١) ، في الوقت الذي كانت فيه هيئة الامبراطورية قد ضاعت من قبل في الخارج بسبب ثورة بلغاريا^(٢) ، بالإضافة إلى ضياع قبرص واستيلاء ريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩ م) عليها في مايو ١١٩١ م وهو في طريقه إلى عكا مع الحملة الثالثة^(٣) . ويعتبر ضياع قبرص أول إشارة إلى ضياع هيئة الاباطرة البيزنطيين في القسطنطينية^(٤) .

وعلى أية حال ، لم يقم الامبراطور البيزنطي الجديد بأي عمل ناجح من شأنه إعادة أملاك دولته الضائعة في قبرص وإعلاء شأن الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى ، فقد واصل الحرب البلغارية بنفس القشبل الذي صاحب سلفه ، كما تنازع مع الامبراطور الألماني هنري السادس بسبب إدعاء هنري بالعرش بيزنطة عن طريق والد زوجته روبرت الصقلي Robert of Sicily^(٥) . واستعد هنري فعلا لغزو بيزنطة إلا أن المرض داهمه وأصيب بالحمى التي قضت عليه عام ١١٩٨ م^(٦) .

وإن كانت الامبراطورية البيزنطية قد أمنت شر هنري بمحاته ، فإنها تعرضت بعد قليل إلى ما هو أشد فتكا عندما إجتاحتها جحافل جنود الحملة الصليبية الرابعة واستولت على معظم أراضيها في الفترة من سنة ١٢٠٤ إلى سنة ١٢٦١ م . وقد بدأت فكرة هذه الحملة في عام ١١٩٩ م ، عندما ظهرت في

(١) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشي ص ١١ .

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية تعريب مصطفى طه بلر ص ٢١٦ .

(٣) Richard of Devlzes & Geoffrey de Vinsauf, Crusade of Richard Coeur de Lion, cf, Crusades. Bohns ed. pp. 165-198

هذا وقد سلم ريتشارد جزيرة قبرص إلى جاي لوزجنان في عام ١١٩٢ م عوضا عن مملكة بيت المقدس الأسمية وقام بها حكم أسرة لوزجنان . وللمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٨٧ - ٨٨٨ .

(٤) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 298.

(٥) Mahmud, op. cit., II, p. 234.

(٦) أومان : المرجع السابق ص ٢١٦ .

أوروبا مجموعة من المتحمسين للحركة الصليبية على رأسهم فولك Fulk أسقف نيلى Neuilly يدعو لحملة صليبية ضد المسلمين . وقام بنفس الدور الذى قام به بطرس الناسك من قبل^(١) ومن الطبيعى أن يوافق البابا أنوسنت الثالث على مثل هذه الحملة طالما ترمى إلى تحقيق الآمال التى تصبو إليها نفسه^(٢) وقد انضم إليها عدد كبير من الأمراء الفرنسيين على رأسهم ثيبوت الرابع Thibaut IV كونت شامباني الذى أخذ على عاتقه تمويل الحملة وبلدوين التاسع Baldwin IX كونت فلاندرز وفلهاردوين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة وغيرهم . واستمرت الإستعدادات لهذه الحملة مدة عامين (١١٩٩ - ١٢٠٠ م) ، وتم اختيار ثيبوت ممول الحملة قائدا لها^(٣) . كما تم الاتفاق على نقل قوات الحملة بحرا وأن تكون وجهتها مصر باعتبارها زعيمة العالم الإسلامى ومقل القوى الإسلامية ، ولأن غزوها يجعل الصليبيين يستولون بسهولة على فلسطين^(٤) وأرسل القادة ضمن خطة عملهم سفارة إلى البندقية على رأسها فلهاردوين لاجراء الترتيبات اللازمة لنقل الحملة بحرا . واتصلوا بهزى داندلو Henry Dandolo دوج البدقية وعقدوا معه الاتفاقية المعروفة باتفاقية مارس ١٢٠١ م . وبموجب هذه الاتفاقية تعهد البنادقة باعداد السفن اللازمة لنقل الحملة المكونة من أربعة آلاف وخمسمائة فارسا وتسعة آلاف مقاتلا وعشرين ألفا من الجنود المشاة مع تموينهم لمدة تسعة أشهر فقط ، وذلك مقابل خمسة وثمانين ألف مارك^(٥) ، وبشرط أن تكون نصف الغنائم للبنادقة . ووافق البابا أنوسنت

(١) بطرس الناسك من الذين كرسوا نشاطهم لنشر الفكرة الصليبية ومن الذين قادوا الحملة الشعبية التى سبقت الحملة الصليبية الأولى . انظر : عمر كال رفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٣١ ، ٣٦ .

(٢) Les Patriarches Latins d'Antioche, cf, R.O.L., P. 195.

(٣) روبرت كلارى : المصدر السابق ص ١٢ .

(٤) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ ص ١٠٢ . أنظر أيضا :

Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin, II, p. 101.

(٥) المارك ، كان هناك نوعان من المارك ، المارك الذهبى والمارك الفضى وكل مارك ذهبى تتراوح قيمته من ٨ إلى ١٠ ماركات فضية وكل مارك فضى يساوى حوالى ٢,٣ جرام . أى أن المارك =

نتالت على هذه الاتفاقية بعد تردد وذلك بسبب إشترك آل مونتفرات فى هذه الحملة باعتبارهم أصدقاء لأسرة الموهنشتافن الألمان أعداء الباباوية^(١) ، كما تم الاتفاق أيضا على أن يكون أسطول البنادقة معدا لنقل الحملة فى موعد غايته السادس والعشرين من يوليو عام ١٢٠٢ م^(٢) .

ولكن الأمور لم تسر طبقا للخطة الموضوعة بسبب موت ثيوت قائد الحملة وممولها فى مايو سنة ١٢٠١ م ، لذلك عقد اجتماع فى مدينة سواسون فى يونيو من العام نفسه تم فيه اختيار بونيفاس Boniface ماركيز مونتفرات قائدا للحملة^(٣) . وعجز القائد الجديد عن دفع كل المبلغ المتفق عليه . عندما أعد البنادقة السفن اللازمة لنقل الحملة ولم يتمكن إلا من دفع تسعة وأربعين ألف مارك فقط . ووجد داندلو فرضته فى عجز القادة عن دفع باقى المبلغ المتفق عليه فعرض عليهم إعفاءهم من باقى المبلغ إذا ساعدوه فى إخضاع مدينة زارا Zara الواقعة على ساحل دالماشيا - التى تمردت عليه واصلت خضوعها للملك هنغاريا^(٤) ويرى بعض المؤرخين أن داندلو قصد توجيه الحملة وجهة أخرى غير مصر حتى لا يفسد العلاقات التجارية معها وهو أمر له أهميته بالنسبة للبنادقة ، ويؤيد هذا الفريق من المؤرخين ذلك بقوله أنه فى اللحظة التى كان يتم فيها التفاوض بين البنادقة والصليبيين على نقل الحملة كان سفراء البنادقة يوقعون معاهدة تجارية مع مصر ، وقد تم توقيعها بالفعل فى (ربيع عام ١٢٠٢ م - منتصف عام ٥١٦ هـ)^{(٥) (٢)} .

الدهى على أقل مقايير يساوى ١٨.٤ حرام وعلى أقصى تقدير ٢٣ جراما من الفضة . أنظر :
المعمه التاريخية . نحث فى التاريخ الاقتصادى ترجمة توفيق اسكنلر ص ٢١ وحاشية (٣)
وص ٢٥ وحاشية (٢) . وعن المارك راحم أيضا حسن عبد الرحمن : النقود ص ٤٢٠ سليم
أمن حداد : الرياضات المحاربة والمالية مجلد ١ ص ١٨٤

(١) Runciman op. cit., II. 113.

(٢) : المصدر السابق ص ١٣ .

(٣) Grousset, op cit, III p. 110

(٤) Les Patriarches Latins d'Antioche, op. cit., p. 195.

(٥) Runciman, op, cit., III, p. 113.

وعلى أية حال وافق الصليبيون على عرض داندلو الخاص بمدينة زارا ، ولكن البابا هدد بقرار الحرمان عندما علم بذلك . ولم يعبأ الصليبيون بهذا التهديد واتجهوا إلى مدينة زارا وحاصروها وسقطت في أيديهم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٠٧ م^(١). ويعتبر سقوط هذه المدينة فاتحة عهد جديد في تاريخ الحروب الصليبية انجبت فيه إلى قتال المسيحيين بدلا من المسلمين^(٢) . وثار البابا على ما حدث وأصدر قرار الحرمان على الحملة بأكملها . وعندما تيقن أن الصليبيين كانوا ضحايا قاداتهم ساعهم وابقى قرار الحرمان على البنادقة فقط الذين تعارضت سياستهم مع سياسة البابا في الشرق الإسلامي^(٣) وربما قصد البابا برفع قرار الحرمان عن الحملة نفسها هو أن يكسبها إلى جانبه وتقوم بالاتجاه إلى مصر .

وكان المفروض أن تتجه الحملة بعد سقوط مدينة زارا إلى مصر طبقا للخطة الموضوعة ولكنها انحرقت مرة أخرى واتجهت إلى القسطنطينية . ويرجع ذلك إلى أن الكسيوس ابن الامبراطور البيزنطي السابق إسحق - استطاع الفرار من سجنه ولجأ إلى زوج أخته فيليب أف سوايا الامبراطور الألماني في ذاك الوقت . وقد وجد فيليب في مساندة الكسيوس وإعادةه إلى عرشه فرصة لتحقيق أمنيته الموروثة عن هنري السادس وهي احتواء عرش بيزنطة . ولكي يتم ذلك دبر أمر الاتصال بين الكسيوس والصليبيين أثناء تواجدهم في مدينة زارا ، وعرض الكسيوس على الصليبيين مائتي ألف مارك نظير مساعدته في استرداد عرش بيزنطة ، كما تعهد بتبعية الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية اللاتينية وأن يقدم عشرة آلاف جندي للمساهمة في استرداد الأراضي المقدسة . ولقد لقيت

(١) | روبرت كلاري : المصدر السابق ص ١٥ ، ٤٦ وعن سقوط مدينة زارا أنظر أيضا :
Eracles, op. cit., p. 253 Balazani, U., Early Chronicles of Europe, p.
257, Ostrogorsky G., History of The Byzantine State. p. 366.

(٢) | سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٦٨ .
(٣) | Brehier, L., [L'Eglise et L'Orient] au Moyen Age : Les Croisades, p.
190, Ency, inter., Vol. 5, p. 340

مهاجمة بيزنطة التأييد من معظم كبار المسئولين الأوربيين بالإضافة إلى موافقة البابا نفسه على هذا المشروع طالما أنه يحقق فكرة البابوية العالمية في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيادة روما بعد قطيعة سنة ١٠٥٤ م^(١) . ووافق فيليب أف سوابيا على ذلك لأنه يحقق سيطرته على عرش بيزنطة إلى حد ما ، كما وافق البنادقة على ذلك لإبعاد الضربة عن مصر بعد أن منحهم الملك العادل امتيازات تجارية قيمة في ميناء الاسكندرية جعلت جميع التجاره مع ممالك الهند في ايديهم^(٢) ومن جهة أخرى اقتنع البنادقة بأنه طالما بقيت هذه الامبراطورية في القسطنطينية فانهم لا يأمنون بقاء مراكزهم التجارية الإحتكارية في حوض البحر المتوسط ، وان الحل الوحيد لتأمين تجارتهم هو تسخير هذه الحملة للقضاء على الامبراطورية البيزنطية^(٣) . كذلك وجب قادة الحملة الصليبية بهذه الفكرة لارضاء البابوية بعد تمردهم عليها عندما هاجموا مدينة زارا . وتم الاتفاق في يناير عام ١٢٠٣ م على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية^(٤) ، ومما تجدر الإشارة اليه هو أن أغلبية الحملة وافقت على أن تكون مصر هي وجهتهم بعد ذلك^(٥) . أما بعض المتحمسين للحركة الصليبية وهم الأقلية فقد رفضوا الاشتراك في هذا العمل|غير المقدس من وجهة نظرهم ، وأصرروا على تنفيذ هدف الحملة الأصلي وهو مهاجمة مصر مباشرة ، ولكنهم كانوا قلة بحيث لم يستطيعوا أن يؤثروا في مجرى الحوادث . وهكذا انخرفت الحملة رسميا عن هدفها الأصلي واتجهت صوب القسطنطينية واستولت عليها في الثالث عشر من ابريل عام ١٢٠٤^(٦) ، وهرب الامبراطور البيزنطي الكسيوس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٢٤ .

(٢) أومان : المرجع السابق ص ٢١٧ ، راجع أيضا :

Heyd, Histiore du Commerce du Lavant, I, pp. 401-2.

Ostrogorsky, op. cit., pp. 365-9 (٣)

(٤) روبرت كلاري - المصدر السابق ص ١٦ .

Vasiliev, op. cit., II, p. 103. (٥)

(٦) عن سقوط القسطنطينية أنظر : ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٤ وما بعدها ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٠ ، راجع أيضا : روبرت كلاري : المصدر السابق =

الثالث وجلس على العرش إسحق الثاني وإلى جانبه ابنه الكسيوس الرابع الذى ما لبث أن انفرد بالعرش ، ولكنه عجز عن الوفاء بوعوده المالية لقادة الحملة فانهى الأمر بعزله وإقامة الإمبراطورية اللاتينية التى جلس على عرشها بلدوين التاسع كونت فلاندرز . وقسمت الامبراطورية الزائلة إلى حين على القادة الصليبيين والبنادقة كما طرد البطريق البيزنطى ونصب بدلا منه أسقفا من البنادقة وأرسلت الأخبار إلى البابا تنبئه بتوحيد الكنيستين^(١) ، وهو أمل طالما كان يتمناه ويسعى اليه بعد قطيعة سنة ١٠٥٤ م .

وعندما نصب بلدوين وعد بتحرير الأرض المقدسة ، ولكنه لم يفعل وربما يرجع ذلك إلى حروبه مع البلغار التى انتهت بوقوعه أسيرا فى يد قيصر البلغار الذى قتله بعد أشهر من أسره . وتولى بعده أخوه هنرى (١٢١٥ - ١٢١٦ م) الذى واجهته متاعب كبيرة رغم انتصاره على الامبراطورية البيزنطية المتقلصة فى بروسه ، لأن البلغار لم يتركوه يهناً بهذا النصر ، وظل الصراع مع البلغار حتى عام ١٢٠٧ م عندما مات قيصر البلغار جوهانتزا Johannitza وعقد هنرى معاهدة مع بلغاريا^(٢) ، وقد اعطت هذه المعاهدة للامبراطور اللاتينى الفرصة للسيطرة على أملاكه إلى حد ما . ولكن موت هنرى عام ١٢١٦ م أضاع كل أمل فى استقرار دولة اللاتين فى القسطنطينية^(٣) الأمر الذى لم يسمح لها بالمساهمة الفعلية فى الحملة الخامسة .

أما عن موقف البابا من الامبراطورية فى القسطنطينية فانه حتى عام ١٢٠٦ م كان لديه الأمل بأن تستعيد الحملة وتتجه إلى مصر ، ومما شجع على هذا الاعتقاد أن الامبراطور هنرى عبر فى خطباته للبابا عن حماسه للحملة وأنه

Eracles, op. cit., pp. 251-2

ص ١٦ وما بعدها :

Les Patrieches Latins d'Antioche, p: 195.

(١) أومان : المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) عمر كال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٢ .

Foord, E., The Byzantine Empire, p. 381.

(٣)

على استعداد للمساهمة بجيشه لتحرير بيت المقدس . ولكن شيئا مثل هذا لم يحدث. ويرجع ذلك لعدة أسباب ، منها فتور الحماس الصليبي عن ذي قبل بعد أن أصبح الناس يتشككون في جدوى حرب صليبية ضد المسلمين والصراع بين هنرى وأتباعه من جانب وبين هنرى وبلغاريا من جانب آخر ، بالإضافة إلى الصراع بين هنرى وتيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذى كان يحاول إستعادة عرش بيزنطة من منافاه فى بروسه . كما أن صليبي الحملة الرابعة أنفسهم لم يفضلوا ترك مواقعهم الجديدة بعد مارأوا هجرة إخوانهم الصليبيين من الشام إليهم . يضاف إلى ذلك الأوضاع السياسية التى سادت أوربا فى ذاك الوقت والتى جعلت الحكام ينشغلون بتأمين ممتلكاتهم عن أى عمل آخر^(١) .

وبينا تجرى الحوادث على هذا النحو فى الشرق والغرب وفى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ظهر فى مايو سنة ١٢١٢ م عند كنيسة سانت هيلين بفرنسا صبي من رعاة الغنم - من مدينة كلويس Cloyes - فى الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن Stephen وقدم إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا - حيث كان يعقد مجلسا مع رجال بلاطه - قدم خطابا ذكر فيه أن السيد المسيح أتاه وأمره بالدعوة لحملة صليبية جديدة^(٢) . ولم يهتم الملك بالصبي وطلب منه العودة إلى منزله . ولكن ستيفن لم ينصاع للأمر وأعلن أنه سينجح فى إنقاذ المسيحية وفى إسترداد الأراضى المقدسة^(٣) ، وأن البحر سينشق أمام مؤيديه ويتمكنوا من عبوره من أوربا إلى بيت المقدس كما عبر موسى عليه السلام البحر الأحمر^(٤) . وبدأ فى الدعوة لحملة وبالفعل تجمع حوله عدد كبير من الصبيان من بينهم كثير من أبناء وبنات الأمراء وبلغوا فى مجموعهم حوالى خمسين ألف

(١) للمزيد من التفاصيل راجع : عمر كال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤ . راجع أيضا :

Brchier, op. cit., pp. 178-7.

Stevenson, W.B., The Crusaders in The East, p. 301.

Runciman op. cit., III. p. 139

(٢)

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٥٤ - ٩٥٥ .

Brentano, Les Croisades, p. 114

(٤)

صبيا ، وانضم إليهم بعض القساوسة والشبان والحجاج وتجمعوا في وسط باريس استعداداً للرحيل^(١).

ورحل الجميع عن طريق تولوز وليون إلى مرسيليا سيرا على الأقدام ، وهلك عدد كبير منهم بسبب مشقة الطريق وطول المسافة . وما أن وصلوا إلى مرسيليا حتى رحب بهم أهلها وشجعوهم على المضي لتنفيذ فكرتهم ووفروا لهم ما أمكن من المأكل والإيواء . وعندما تجمع الصبيان أمام البحر لم تحدث المعجزة ولم ينشق البحر أمامهم كما كانوا يظنون ، فثار البعض على ستيفن ، وعاد من تمكن منهم العودة إلى وطنه ، بينما ظل البعض الآخر مع ستيفن ، إنتظارا لحدوث المعجزة التي لم تحدث لهم . وفي هذا الوقت عرض تاجران هما هيو أف إرون Hugh of Iron ووليم الخنزير William the pig أن يضعوا السفن تحت تصرف الصبيان وينقلونهم بدون أجر إلى فلسطين^(٢) ، وقد تم ذلك وركب الصبيان وظل مصيرهم مجهولا لفترة من الوقت .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أحد الرحالة الغربيين الذين عاشوا في القرن الخامس عشر الميلادي ذكر أن مقدم الاسماعيلية^(٣) في الشام إستغل إثنين من الأساقفة المنشقين على الكنيسة اللاتينية في أن يهبطوا لستيفن ولصبي آخر في ألمانيا يدعى نيقولاس Nicolas ، هذه الرؤية الباطلة^(٤) التي أدت إلى هلاكهم أو بيعهم كعبيد في مصر أو تونس^(٥) . ومن وصل منهم سالما إلى جبكا آثار دهشة

King, op. cit., p. 186.

(١)

Runciman, op. cit., III, p. 111.

(٢)

(٣) هو كبير اسماعيلية الشام ويعرف لدى مؤرخي الحروب الصليبية باسم شيخ الجيل أو هجوز الحمل The Old Man of The Mountain وربما ترجع تسميته بهذا الاسم هو أن قلاع الاسماعيلية كانت مشيدة فوق الجبال . عن ذلك انظر انظر حوريف سيم العروان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٢٩ حاشية (١) وربما سمي بهذا الاسم لحكمته وليس لكبر سبه . أنظر :

Burchard, op, p. 105, Sanuto, op. cit, 5.

Fabri, F. The Book of The wanderings, Vol 2 prat I, pp. 351- 2 (٤)

Tompson J.W., History of The Middle Ages p, 206. (٥)

أهلها، الذين إعتقدوا بعدم وجود حكومات أو قوانين في أوزبا تمنع هذا الجنون الذي أعتبر عارا على أوروبا بأسرها^(١).

أما نيقولا الذي ظهر في كلوني بألمانيا في الوقت نفسه الذي ظهر فيه ستيفن في فرنسا ، فانه أدعى أيضا أنه سيخلص بيت المقدس عن طريق نشر المسيحية بين المسلمين . ونجح في أن يجمع حوله بضعة آلاف من الصبيان الذين إنضم اليهم أيضا كثير من العاهرات والرجال الذين لا أخلاق لهم^(٢) وإدعى أيضا أن البحر سينشق أمامهم مثلما إدعى ستيفن . وتولى نيقولا بنفسه قيادة ما يقرب من عشرين ألفا وأخذوا طريقهم إلى إيطاليا عبر جبال الألب وقابلوا البابا في روما ، لكنه فشل في إعادتهم إلى أوطانهم . وكان لابد أن يهلك الكثير منهم في الطريق ، فلم يصل إلى اجنوه . إلا الثلث فقط . ولم تحدث لهم البحجرة التي كانوا ينتظرونها . وانتهى بهم الأمر بأن أبحر بعضهم من بيزا وبرنديزي إلى الشرق وتبنى الايطاليون من تبقى منهم . ولم يختلف مصير هؤلاء الصبيان عن مصير الصبيان الذين صاحبوا ستيفن . وعندما علم آباؤهم بهذه الكارثة ثاروا على والد نيقولا لتشجيع ابنه وشنقوه^(٣).

هذه هي أحوال مصر والشام الإسلامية والشرق اللاتيني بأقسامه الخمسة ، مملكة بيت المقدس الاسمية وإماره كل من انطاكية وطرابلس ومملكة أرمينية بالاضافة إلى مملكة قبرص ، في بدايات القرن السابع الهجرى (أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) ، فضلا عما كان يسود الغرب الأوروبي والدولة البيزنطية في نفس هذه الفترة التي سبقت قيام الحملة الصليبية الخامسة . ومن الملاحظ أيضا أنه بسبب انحراف الحملة الصليبية الرابعة ولأسباب أخرى عديدة سنتناولها في الفصل التالى بدأ الاستعداد والدعوة لحملة صليبية أخرى

Michaud, op. cit., I, p. 203.

Brentano, op. cit., p. 114.

Runciman, op. cit, 111, pp. 142-3.

(١)

(٢)

(٣)

هي الحملة الصليبية الخامسة لتحقيق الهدف الأصلي للحملة المنحرفة وهو غزو مصر توطئة للاستيلاء على الأراضي المقدسة بعد ما فشلت كافة المشروعات السابقة للقيام بهذا الغرض .

الفصل الثالث

أسباب الحملة الصليبية الخامسة والاعداد لها

- أسباب الحملة .
- مجلس اللاتيران الكنسى .
- الدعوة للحملة والتبشير بها .
- موقف البابوية والغرب الأوربى من الحملة .
- الحملة الهنغارية .

تنقسم الأسباب المباشرة إلى أقسام ثلاثة : الأول منها يتعلق بالجانب الإسلامي ، والثاني يختص بالجانب الصليبي في الشام والثالث يرجع إلى الجانب الأوربي . وعن الجانب الإسلامي فإن صلاح الدين الأيوبي تمكن من ضرب الصليبيين وإنزال الهزيمة تلو الأخرى بهم وذلك بعد توليه حكم مصر والشام . أما بعد وفاة صلاح الدين فإن الدولة الأيوبية كانت تعاني من التمزق والاضطراب بسبب الفرقة والخلاف بين أفراد البيت الأيوبي . وربما إرتاح الصليبيون والغرب الأوربي إلى ما وصلت إليه حالة الممالك الإسلامية من التفكك والانقسام ، ولكن بعد أن تمكن العادل من جمع شمل البيت الأيوبي تحت لوائه ومن أن يحتل إلى حد ما مكانة أخيه صلاح الدين من الناحية السياسية على الأقل ، فإن ذلك أزعج أهل الغرب الأوربي والصليبيين في الأرض المقدسة وجعلهم يعجلون بضربة أرادوها أن تكون قاصمة للعالم الإسلامي قبل أن يتمكن العادل من تطويق الإمارات الصليبية في الشام والقضاء على البقية الباقية من الوجود الصليبي في المنطقة، في الوقت الذي لم تكن فيه الإمارات الصليبية المتقلصة لا تتحمل ضربة أخرى مماثلة لضربة صلاح الدين بسبب ما كان يعترها من ضعف وتفكك وانقسام نتيجة الخلافات التي قامت بينها ، فضلا عن عوامل الإنهيار الأخرى الكامنة فيها .

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي نجد أن بعضها يتعلق بشخصية العادل وسلوكه تجاه الصليبيين . فالمعروف أن العادل كان يبادر أو يوافق على عقد هدنة جديدة كلما إنقضت مدة الهدنة السابقة . كما أنه لم يقم بالهجوم على الممتلكات الصليبية ، وإنما التزم واجب الدفاع عن ممتلكاته إذا ما أغار الصليبيون عليها . وربما لجأ العادل إلى هذه السياسة في أول الأمر بسبب المشاكل الداخلية التي إعترت الدولة الأيوبية - بعد وفاة مؤسسها - من نزاع على الحكم أو بسبب المجاعات التي وقعت في مصر^(١) . أما عن التزام العادل بهذه السياسة بعد أن استقر له الأمر ، فإن ذلك مرجعه إلى طبيعة العادل

(١) المقرئى : اغاثه الأمة بكشف العمة ص ٢٩ وما بعدها .

القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية . ومما لا شك فيه أن إبحراف الحملة عن هدفها الأصلي وفشل البابا في السيطرة عليها وتوجيهها إلى مصر قد أضاع الكثير من هبة البابوية في الوقت الذي كان يسعى فيه البابا جاهدا لإعلاء شأنها باحتوائها الحركة الصليبية والسيطرة على الغرب الأوربي دينيا ودينيويا . وإذا كانت هذه الحملة قد أضاعت بعضا من النفوذ البابوي ، فإن حملتي الصبيان اللتين قامتا في عام ١٢١٢ م وما آلت اليه من نتائج قد قضيتا أيضا على جزء كبير من هبة البابوية ، لدرجة أن بعض المؤرخين الغربيين اعتبروها عارا على أوروبا بأسرها . وإذا أمعنا النظر في الحملة الرابعة وحملتي الصبيان نجد أن البابوية قد فشلت فشلا ذريعا في القيام بأي عمل عسكري تجاه الشرق ، وكان على البابا إنوسنت الثالث أن يقوم بعمل صليبي ضخم عساه يجنى من ورائه نصرا يعوض به فشل الحملة الرابعة ويمحو الآثار التي ترتبت على حملتي الصبيان وأخيرا ليستكمل به إنتصاراته على ملوك أوروبا وأباطرتها .

ويتضح من ذلك أن العوامل المباشرة للحملة تنحصر في توحيد العادل للقوى الإسلامية في مصر والشام وبناء حصن الطور ، وإقتناع الغرب الأوربي والقادة الصليبيين بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم في الشام وإستعادة السيطرة على البيت المقدس . وبالإضافة إلى العوامل المباشرة التي أسلفنا إليها ، هناك بعض العوامل الأخرى التي مهدت السبيل لقيام الغزو الصليبي ، ويرجع بعض هذه العوامل إلى النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت أوروبا قبيل قيام طلائع الحملة الصليبية الخامسة في عام ٢١٧ م .

فالعامل السياسي الذي ساعد على قيام الحملة هو أن البابا إنوسنت الثالث سعى جاهدا طوال فترة بابويته إلى فرض سلطانه على الممالك المسيحية في أوروبا . وقد نجح في ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيدا على كل ربوع أوروبا تقريبا خاصة بعد ما تمكن من فرض سلطانه على الملك حنا ملك إنجلترا ، وعلى فيليب أغسطس ملك فرنسا الذي يعتبر القوة المتفذة لإدارة البابا ، وتأيينه للامبراطور فريدريك الثاني في إعتلائه عرش ألمانيا . وتجلت السيادة

البابوية في موقعة بوفان عام ١٢١٤ م^(١) . كما يبدو أيضا أن البابا قد تشجع للدعوة إلى الحملة الخامسة بعد إنتصار المسيحيين على المسلمين في أسبانيا في موقعة العقاب عام ١٢١٢ م (٦٠٨ - ٦٠٩ هـ)^(٢) ، فأراد أن يكمل هذا النصر في الغرب بنصر آخر في الشرق بغزو مصر .

والجانب الاقتصادي الذي ساعد على قيام الحملة هو ترحيب أهل المدن الإيطالية كالمعتاد بالحملات الصليبية لما يعود عليهم من منافع اقتصادية^(٣) . حقيقة أن العادل قد منحهم بعض الامتيازات في بعض الموانئ الإسلامية وبصفة خاصة مدينة الاسكندرية ، إلا أنهم كانوا يطمعون في الاستيلاء على الموانئ نفسها ، وتتضح أطماع الإيطاليين في ميناء دمياط في معارضتهم الجلاء عنها عندما تقدم الكامل بعرض السلام إلى قادة الحملة الصليبية الخامسة قبل وبعد استيلاء الصليبيين على المدينة^(٤) .

أما عن العامل الاجتماعي فرغم معارضة الرأي العام الغربي المعاصر للحركة الصليبية^(٥) ، إلا أن العامة كان ينخرطون في صفوفها لما يعود عليهم من فوائد . فقد كانت الحملات الصليبية هي الوسيلة الوحيدة التي يهربون عن طريقها من وطأة الظلم الاجتماعي ومن دفع الديون وفوائدها فضلا عن البحث عن مناخ أفضل للحياة ، بالإضافة إلى التكفير عن خطاياهم بالاشتراك في هذا العمل المقدس من وجهة نظرهم^(٦) . وقد ساعد على ذلك الجهد الكبير الذي قام به

(١) Roger of Wendover op, cit., II, pp. 298- 302.

(٢) Cambridge Medieval History, Vol. VI, p. 410.

(٣) السيد الباز العرينى : مصر في عهد الأيوبيين ص ٩ .

(٤) Roger of wendover, op. cit., II, p. 420 . وستناول ذلك بالتفصيل في الفصل

الخامس والسادس .

(٥) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي والرأي العام العربي ، أنظر سلسلة المحاضرات العامة

بجامعة الاسكندرية للعام الجامعي ١٩٦٨ / ٦٧ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٦) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٣١ - ٣٣ ، جوزيف نسيم يوسف . الدافع

الشخصي في قيام الحركة الصليبية ص ١٨٣ وما بعدها .

يطالبه تسليم ست المقدس^(١) . ويبدو أن العادل لم يعبأ بمثل هذا الخطاب ولم يتوقع وصول حملة صليبية في القريب العاجل بدليل أنه لم يستعد عسكرياً للقاء الحملة المرتقبة . وأنه كان بمصر عندما وصلت طلائع الحملة إلى الشام في صيف عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ)^(٢) .

وبعد أن قام البابا بالدعاية المبدئية للحملة والدعوة لمجلس اللاتيران الكنسي^(٣) ، انعقد المجلس في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٢١٥ م (٢٠ رجب ٦١٢ هـ) . ويعتبر هذا الاجتماع من أعظم الاجتماعات المسيحية لم ينعقد مثله منذ سبعة قرون قبل ذلك التاريخ كما أنه لم يكن مثل مؤتمر نيقية أو القسطنطينية أو خلقدونية^(٤) ، لأنه لم ينظر في خلافات وإنشقاقيات مذهبية وإنما نظر في بعض الشؤون المتعلقة بالكنيسة وكذلك مسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية فضلاً عن الإعداد للحملة الصليبية الخامسة^(٥) وهو الهدف الرئيسي الذي من أجله عقد المؤتمر ، وحضر المجلس كبار رجال الدين من الشرق والغرب وعلى رأسهم جاك دي فترى وأوليفر أف بادنبورن كما حضره أيضاً يوستورج|Eustorge رئيس أساقفة نيقوسيا بقبرص^(٦) ، ورادلف أف ميرنكورت Rodulph of Merencourt بطريق بيت المقدس^(٧) ، أما جرماس

(١) Iorga, Histoire des, Croisades p. 152.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٠٩ .

(٣) عقدت خلال القرن الثاني عشر الميلادي ثلاثة مجالس دينية في كنيسة لاتيران : الأول عام ١١٢٣ م في عهد البابا كالسكستن الثاني والثاني في عام ١١٣٩ م في عهد البابا انوسنت الثاني والثالث في عام ١١٧٩ م في عهد البابا الكسندر الثالث عن ذلك أنظر :
Tout, op. cit., pp. 149, 269.

Combridge Medieval History, V, pp. 108, 368, 451.

(٤) عن هذه المؤتمرات : انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ٣٩ ، ٤٨ .

Runciman, op. cit., III, p. 144.

Histoire des Archeveques Latine de L'île de Chypre, p. 216.

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 343.

Jeremias بطريق أنطاكية فلم يتمكن من حضور هذا المؤتمر لمرضه^(١) ولذلك أناب عنه في الحضور بلدوين أسقف أنطربطوس^(٢) وعلاوة على بطارقة وأساقفة الشام وقبرص فقد حضر فولك أسقف تولوز بفرنسا والقديس دومنيك^(٣) Dominic وبطريق القسطنطينية^(٤).

ولم يقتصر الأمر على حضور رجال الدين لهذا المؤتمر ، فقد أعلن البابا في جميع أنحاء العالم المسيحي عن رغبته في عقد هذا المجلس وأنه يوسع الحكام الدينيين حضور هذا الاجتماع وأن الذين لا تسمح لهم الظروف بالحضور فيمكنهم إرسال مندوبين عنهم . وبالفعل حضر يوحنا التوري John of Tours مندوبا عن الملك جان دي برين^(٥) ، بالإضافة إلى مندوب عن كل من الإمبراطورية الرومانية في الغرب وفرنسا وإنجلترا وأسبانيا ، فضلا عن مندوب الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ومندوب هنغاريا^(٦) .

ولم يترك جانب رجال الدين البارزين والمندوبين الممثلين عن الأباطرة والملوك ، فقد حضر المؤتمر أيضا جمع كبير من المهتمين بالشئون الدينية والسياسية . واختلف المؤرخون في تحديد عدد الذين حضروا المؤتمر فيذكر روجر أوف

عين رادلف أو رالف أراؤل بطريقا لبيت المقدس في ١٤ سبتمبر ١٢١٤ م خلفا للبطريق البرنت أف فرسي Albert of Veiceil أنظر :

Les Patriarches Latine de Jerusalem, p. 21.

Roger of Wendover, Ibid. (١)

Rohricht, op, cit., 14. (٢)

عاش القديس دومنيك في الفترة من ١١٧٠ إلى ١٢٢١ م وهو من أصل أسباني أسس جماعة الوعاظ أو الاخوان السود أو جماعة الدومنيكان Dominican Order في عام ١٢١٥ م بقصد القضاء على الهرطقة التي كانت سائدة في عصره ، أنظر :

Ency. Brit. Vol. 7, p. 518.

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ١٩٤ حاشية (٥) .

Roger of Wendover, Ibid, Fabri op. cit., Vol. 2, part I, pp. 350-1. (٤)

Eracles, op. cit., pp. 318-9. (٥)

Roger of Wendover, op, cit., II. pp. 343-4, Fabri, Ibid, Michaud, op. cit., II, p. 210. (٦)

وندوفر أن عدد الحاضرين كان يزيد عن ألف ومائتين وتسعة وثمانين وأشار أن من بينهم كان إثنان من البطارقة وسبعة وسبعون من المطارنة وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديرة^(١). ويشير المؤرخ متى أف وستمنستر أن عدد الحاضرين كان يزيد عن ألف ومائتين ثلاثة وستين منهم واحد وستون من رؤساء الأساقفة وأربعمائة وإثنان من الأساقفة بالإضافة إلى ثمانمائة من رؤساء الأديرة^(٢). بينما يروى الرحالة فلكنس فابري أن جملة من حضروا بلغ ألف وثلثمائة^(٣). ويسجل رهرشت أن الذين تجمعوا في هذا المؤتمر يزيد على ألف ومائتين ثلاثة وثمانين، منهم سبعون من المطارنة وأربعمائة واثني عشر أسقفًا وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديرة^(٤). ويشير آرشر وكنجزفورد | Archer & Kingsford أن عدد الأساقفة بلغ أربعمائة واثني عشر ولم يذكر باقي الطوائف الأخرى^(٥). كما ذكر جون لامونت J. La Monte أن عدد من حضروا هذا المؤتمر بلغ ألف وثلثمائة ويتفق في ذلك مع ما ذكره الرحالة فلكنس فابري - بينما بلغ مجموع الفئات التي ذكرها لامونت ألف ومائتين ثلاثة وثمانين وهي تتفق في تفاصيلها مع ما ذكره رهرشت^(٦)، وكتب كارل ستيفن أن جملة الحاضرين بلغت ألفا ومائتين وخمسين من الأساقفة ورؤساء الأديرة والوعاظ ورجال القانون الذين حضروا لصياغة قرارات المؤتمر^(٧) ومن ذلك يتضح أن مجموع من حضر المؤتمر يتراوح بين ألف ومائتين وخمسون وألف وثلثمائة.

ومن الواضح أن عقد مثل هذا المؤتمر بهذه الصورة قد رفع من شأن البابوية إلى حد كبير، لأن الأباطرة والملوك الذين أرسلوا نوابا عنهم لحضور المؤتمر قد

Reger of Wendover, Ibid.

(١)

Matthew of Westminster, op cit., II, pp. 121-2.

(٢)

Fabri, op, cit., Vol 2, part I p 35.

(٣)

Rohricht, op. cit., p 194.

(٤)

Archer & Kingsford, | op. cit., p 374.

(٥)

La- Monte, op cit., p 402.

(٦)

Stephenson, Medieval History, p 337.

(٧)

إعترفوا ضمننا بالسادة البابوية على سلطانهم ، علاوة على ما ساد جو هذا المؤتمر من الاعتقاد بأن الكنيسة هي الطريق الوحيد للخلاص وأن رضاء الكنيسة من رضاء الله^(١) . ١

وفي وسط هذه العظمة التي أحاطت بالبابوية إفتتح البابا إنوسنت الثالث أعمال المجلس في الحادى عشر من نوفمبر عام ١٢١٥ م^(٢) . وألقى على المجتمعين خطابا عبر فيه عما تقاسيه مدينة القدس تحت حكم المسلمين ، وأن المسلمين ينتهكون حرمت كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد المسيح^(٣) . كما أشار البابا إلى أن الوقت قد حان للقضاء على المسلمين ، وطالب الحاضرين بمساعدته في القيام بهذا العمل المقدس^(٤) ، من وجهة نظره ونظر المجتمعين . ومن الواضح أن البابا المعروف بفصاحته حاول جذب أذهان الحاضرين عندما بدأ خطابه بهذا الجانب الدينى ليؤثر تأثيرا مباشرا في قلوب وعقول الناس لا سيما في هذه الفترة من الزمن التي ساد فيها التزمت الدينى المجتمع الغربى الوسيط^(٥) . ومما لا شك فيه أن ما ذكره البابا عن سلوك المسلمين في بيت المقدس يعد كل البعد عن الحقيقة . والدليل على ذلك هو حسن معاملة صلاح الدين للأسرى الصليبيين بعد إسترداد مدينة القدس والمدن الأخرى وقد شهد المؤرخون الصليبيون أنفسهم بذلك^(٦) . وعلى أية حال ، فقد إستطاع البابا أن يهيئ الجو المناسب في المؤتمر حتى يضمن تحقيق أهدافه لدرجة أنه أعتذر شخصا لرجال الدين الذين إشتكوا من تصرف

La- Monte, op. p,405.

(١)

Les Patriarches Latine de Jerusalem, Ibid. Cf. also, Eracles, op. cit., p. 318.

(٢)

(٣) : يلاحظ أن هذه النغمة إكان الغربيون يلجأون إليها عندما يفكرون في حملة صليبية جديدة ضد المسلمين بقصد إثارة الغرب الأوربي ضد العالم الاسلامى .

Michaud, op. cit., II, pp. 202-3, 211, 215

(٤)

جوزيف نسيم يوسف : العلوان الصليبي على مصر ص ٥٣ ، العرب والروم واللاتين : ص ٦٤

(٥)

Eracles, op. cit., pp. 98-99.

(٦)

أنظر أيضا : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٩٧ .

روبرت أف كورسن بسبب تحديه لحقوقهم أثناء قيامه بعملية الدعاية للحملة في فرنسا قبيل انعقاد المؤتمر^(١) .

ودارت عدة مناقشات في المؤتمر يهمنها ما يتعلق بالحملة الصليبية الخامسة . فقد تحدث يوحنا التوري مندوب جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس الاسمية فتكلم عن الحالة السيئة التي وصلت اليها المملكة وأشار بأن الهدنة مع المسلمين سوف تنتهي في صيف عام ١٢١٧ م^(٢) . وناقش المؤتمر عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس ، وكان من بينها مشروع مهاجمة مصر ، وانتهى الأمر بأن قرر المجلس غزو مصر^(٣) . وتسهيلا لأعمال المؤتمر فوض الحاضرون البابا إنوسنت الثالث في وضع الخطة اللازمة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ^(٤) .

وبعد أن تحددت مصر لتكون هدف الحملة الصليبية المقبلة بدأ رجال القانون الذين حضروا المؤتمر في صياغة القرارات التي تضمنت موعد تجمع الحملة ، وواجبات رجال الدين ، والحكام ، ومصادر تمويل الحملة والامتيازات التي تعود على المشتركين فيها ، مع تحريم الاتجار مع المسلمين والتهديد لمن يخالف هذه القرارات^(٥) .

وفيما يتعلق بتاريخ تجمع الحملة فقد تحدد أول يونية من عام ١٢١٧ م موعدا لذلك على أن يكون الالتقاء في ميناء برنديزي أو مسينا في صقلية أو أى مكان آخر على خليج مسينا للابحار منه إلى الشرق . أما الذين سيذهبون

Setton, op. cit., p, 380.

(١)

Eracles, op. cit., p., p, 319.

(٢)

Oliver, of Padenborn op. cit., p. 22.

(٣)

Setton, op. cit., II, p. 382.

(٤)

(٥) عن البنود الواردة في قرار مجلس اللاتيران الكنسي البالغ عددها سبعة عشر بندا أنظر :

Thatcher, op. cit., pp. 538-544, Cf. Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 344- 6.

بالطريق اليرى فعلهم أيضا أن يكونوا مستعدين في الوقت نفسه ، وأنفق على أن يتولى المسئولون إبلاغهم بخطة العمل وعلى أن يرافقهم المندوب البابوي^(١) .

وعن واجبات رجال الدين فقد طلب منهم البابا أن يتخلوا عن منازعاتهم وأحقادهم وأن يكونوا قدوة للصليبيين قولاً وعملاً ، وأن يحثوا الذين يتعهدون بالذهاب مع الحملة على الوفاء بوعدهم^(٢) . وأما الفرسان والادواق والأمرأ والكونتات ومن في مستواهم فعلهم الكف عن المنازعات والحروب لمدة ثلاث سنوات حتى يسود السلام كافة أنحاء أوربا وتتمكن الحملة من القيام في الموعد المحدد^(٣) .

وإذا انتقلنا إلى مصادر تمويل الحملة ، فإن البابا بدأ بنفسه وقدم ثلاثين ألف جنيه ، علاوة على ثلاثة آلاف مارك فضي . كما فرض على نفسه وعلى كافة الكرادلة في الكنيسة الغربية أن يقدموا عشر دخلهم ، أما باقي الطوائف الدينية فيتحملوا ١/٢٠ من دخلهم . كما طلب البابا من الذين سوف لا يذهبون مع الحملة بكافة طبقاتهم أن يمدوا لإخوانهم الصليبيين المتوجهين مع الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاثة سنوات . وعهد البابا إلى بطريق بيت المقدس وإلى رئيس جماعة الفرسان الداوية والاستتارية أمر الصرف من هذه الأموال لصالح الحملة^(٤) .

وأوضحت القرارات التي صدرت عن المؤتمر بعض الامتيازات الروحية للذين يساهمون في الحملة بطريق مباشر أو غير مباشر . فقد وعد البابا الذين يقدمون سفنهم لحمل الجنود أو الذين يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقات الحملة بغفران خطاياهم ، فضلاً عن الإعفاءات المادية للذين سيذهبون مع الحملة على نفقتهم الخاصة . فقد قرر البابا إعفاءهم من دفع

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 345.

(١)

Thatcher op. cit., pp. 538-9.

(٢)

Thatcher, op. cit., pp. 539-40. 543.

(٣)

Thatcher, op. cit., pp. 540-2, Roger of Wendover op. cit., II, p.344.

(٤)

الضرائب بمجرد حمل الصليب ، بالإضافة إلى وضع أملاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم وإرجاء دفع ما عليهم من ديون لليهود . وكلف البابا رجال الدين بتنفيذ ذلك^(١) .

كذلك تقرر منع الاتجار مع المسلمين مع تهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارتهم . وفوق هذا وذاك فقد أعطت القرارات الحق لمن يقبض على أى تاجر لاتينى يتعامل مع المسلمين أن يعامله معاملة الأسرى^(٢) .

ومن الطبيعى أن يهدد البابا بقرار الحرمان كل من يخالف أى بند من البنود السبعة عشر التى صدرت عن مجلس اللاتيران فى التاسع عشر من يناير عام ١٢١٦ م ، كما وعد كل من يعمل على تنفيذ هذه التعليمات بنصيب من الغفران كل بقدر إسهامه فى تخليص الأرض المقدسة . كذلك أمر البابا بإعلان هذه القرارات فى أيام الآحاد والأعياد الرسمية فى كافة أنحاء البلاد الخاضعة للكنيسة اللاتينية فى روما^(٣) .

ولكى يضمن البابا تنفيذ هذه القرارات وقيام الحملة فى الموعد المحدد ، قام بارسال الدعاة والمبشرين للدعوة لها فى كافة أرجاء الغرب حتى يعملوا على تهيئة أذهان المسيحيين للانخراط فى سلكها . وانتشر الوعاظ فى معظم ربوع أوروبا لتهيئة رأى العام الغربى عن طريق الخطب والاجتماعات لحشد الصليبيين . ولجأ الوعاظ إلى دفع النبلاء على حمل الصليب ليكونوا قدوة للعامة ، كما لجأ

(١) Thatcher, op, cit., pp. 515-4, Roger of Wendover, op. cit., II. p. 355.

(٢) لجأ بعض الباباوات والأباطرة إلى إصدار مثل هذا التحريم من وقت لآخر والخاص بمنع التعامل مع المسلمين ومن ذلك ما لجأ إليه البابا أنوسنت الثالث عام ١١٩٨ م . أنظر ما سبق ص ١١٥ . كما أصدر الامبراطور يوحنا تريمكس نفس هذا التحريم فى يوليو ١٩٧١ م عن ذلك أنظر عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ص ١٧٨ وما بعدها . ومن الملاحظ أن هذا التحريم لم يكن يحترم فى كثير من الأحوال ، وقد فاعلته بعد كثرة استخدام البابوية فى الغرب له ضد معارضتها فى ميدان السياسة تحقيقاً لأغراضها أو مصالحها الدينية .

(٣) Thatcher, op. cit., II. p. 211.

بعضهم إلى الإشارة بأن القوة الإلهية قد وعدتهم بالنصر على المسلمين^(١) .

والمنابع الغربية مليئة بالأمثلة الدالة على إستغلال النعرة الدينية لدى أهل الغرب للاشتراك في الحملة ، من ذلك ما ذكره أوليفر وروجر أوف وندوفر في أحداث سنة ١٢١٧ م ، من أنه في شهر مايو من السنة المذكورة (محرم - صفر ٦١٤ هـ) ، ظهر في السماء المسيح مصلوبا على خشبة الصليب ثلاث مرات في ثلاث مناطق متفرقة بمقاطعة كولوني بألمانيا ، الأمر الذي جعل الشعب الأوربي يهب عن بكرة الانخراط في صفوف الحملة وتخليص بيت المقدس . ويزودنا الكاتب بتفاصيل هذه الظاهرة قائلا أنه لاح في السماء شيئا أشبه ما يكون بالصليب في ثلاثة أماكن ، الأول تجاه الشرق وكان الصليب أبيض اللون والثاني تجاه الجنوب وبنفس اللون والشكل ، أما الثالث فكان يتوسطهما ولكن لونه كان أسود . والصليب الأوسط الأسود هو الذي يمثل السيد المسيح مصلوبا والآخرين للصين كما هو معروف عند المسيحيين . ويستطرد موضحا أن المسيح كان مثبتا عليه وقد دقت المسامير في يديه وقدميه بينا رأسه متدلية إلى أسفل . ويقول أن هذه الظاهرة تكررت أكثر من مرة في سماء المقاطعة وفي إحدى المرات ظهر بالقرب من الشمس صليب أزرق اللون وأن العديد قد شاهدوه ، وفي مرة أخرى ظهر صليب أبيض كبير الحجم شاهده كثير من الناس ويضيف بأن هذا الصليب كان يتحرك ببطء من الشمال إلى الجنوب^(٢) .

ومن الواضح أن مثل هذه الظواهر هي أقرب إلى الاساطير والخرافات التي كان المسئولون في الغرب يستغلونها لتحريك الشعور الديني لدى مواطنهم ضد المسلمين في وقت كان عامة الشعب في الغرب الأوربي يغط في الجهل كما كانت

Michaud, op. cit., II, p. 211.

(١)

Oliver, of Padenbom of cit., p.21

(٢)

Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 388-9

انظر أيضا :

الكنيسة الكاثوليكية متسلطة على مصائر الأفراد تحركهم كيفما نشاء

كما لعب الشعر دورا في الدعاية للحملة الصليبية فضلا عن أن بعض الوعاظ أعلن أن البابا إنوسنت الثالث سيتوجه بنفسه على رأس هذه الحملة لزيادة حماس الصليبيين ، وازداد التبشير والدعاية للحملة خاصة في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيرلندا وأسكتلندا والمدن الإيطالية فضلا على الإمارات الصليبية في الشام .

وفيما يتعلق بالدعوة للحملة والتبشير بها في فرنسا . نجد أن ذلك بدأ قبل انعقاد مجلس اللاتيران عندما أوفد البابا روبرت أف كروسون اليها ولكن نظرا لاستياء رجال الدين من تصرفات روبرت ، فقد أرسل البابا إلى فرنسا بعد انتهاء المؤتمر جاك دي فترى الذي يعتبر أشهر من قام بالتبشير للحملة^(٢) . فقد سبق له الدعاية للحملة الأليجنسية في جنوب فرنسا ، وقد أعطته هذه التجربة السابقة خبرة واسعة في مثل هذه الأمور . لذلك نجح نجاحا كبيرا في المهمة التي كلف بها واكتسب صفة شعبية واسعة أثناء جولاته في فرنسا . والمعروف أنه بذل جهداً كبيراً لحث أهل فرنسا على حمل السلاح والتوجه إلى الشرق مشجعا إياهم على الوفاء بوعدهم للاشتراك في الحملة^(٣) . ورغم هذا ، فقد صادف جاك دي فترى بعض الصعوبات أثناء إقامه بواجبه ، ذلك أن الفرنسيين كانوا

(١) ومن الوسائل التي كانت البابوية تلجأ اليها لاثارة النعرة الدينية لدى الغربيين وحشهم على الاشعراك في الحملات الصليبية ضد المسلمين ، الاسطورة التي تقول أنه ظهر لكثيرة من الغربيين خلال الحملة الصليبية الأولى قتال عنيف بين المسيحيين والمسلمين انصرف فيه الأولون ، وعاترائى للويس التاسع قبل قيامه بحملته على مصر بأن مسيحيا ومسلما يقتاتلان وأن المسلم انتضر على المسيحي ، وقد فسرت الرؤيا عن حاجة بقايا الامارات اللاتينية في الشرق إلى الغرب . عن ذلك أنظر : Bray, A. E., The Good Saint Louis and his Times, p. 54.

راجع أيضا : جوزيف نشيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٦٤ ، العلوان الصليبي على مصر ٥٣ .

(٢) Eracles, op, cit., p, 319

(٣) Vitry, op, cit., pp, III-V

لا يرغبون في العمل إلى جانب الألمان في الحملة المرتقبة أو حتى التجمع معهم في مدينة برنديزي أو مسينا للتوجه إلى الأرض المقدسة . وعلى أية حال ، فقد استمر جاك دي فترى يعظ في فرنسا حتى عين أسقفاً لمدينة عكا التي وصل إليها في الرابع من نوفمبر عام ١٢١٦ م^(١) . وخلفه في فرنسا سيمون Simon أسقف مدينة صور التي كانت في أيدي الصليبيين وقتها ، وقد بدأ عمله في فرنسا في الشهر التالي من العام نفسه^(٢) .

ويبدو أن سيمون لم يكن بليغاً كسلفه جاك دي فترى . فلم تكن إجاباته على تساؤلات المواطنين الفرنسيين مقنعة خصوصاً فيما يتعلق بقرارات المؤتمر . وكثيراً ما كان يكتفى بذكر أن البابا لم يغير شيئاً من خطته . والمهم أن عملية الوعظ والتبشير في فرنسا قد أتت أكلها ، وتجمع عدد كبير من الصليبيين . ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض رجال الدين في فرنسا سمحوا لبعض النبلاء الذين سجلوا أسماءهم في سجل الحملة بتأجيل الوفاء بوعدهم ورحيلهم إلى الشرق في الموعد المحدد ، في الوقت الذي كانوا يهددون فيه العامة بقرار المحرمان إذا ما طلبوا الشيء نفسه ، وقد سبب هذا التصرف من قبل رجال الدين قلقاً كبيراً للبابا شخصياً ، علاوة على الغضب الذي ساد صفوف العامة^(٣) . وربما لجأ رجال الدين إلى هذا الإجراء للحصول على المال من النبلاء . هذا يفسر فتور الروح الصليبية بين أهل الغرب من ناحية وعلى أن رجال الدين اتخذوا من الفكرة الصليبية ذريعة لاكتناز المال من ناحية أخرى .

هذا وقد قام بالتبشير بالحملة في فرنسا أيضاً الكاردينال جريفاس Grivas الذي حث أودو Odo دوق برجنديا وتيبوت Thibaut دوق اللورين على حمل الصليب والذهاب مع الحملة حتى يستفيدا من كافة الامتيازات التي يتمتع بها كل من إنخرط في سلك الحملة^(٤) .

(١) Vitry, Lettres de Jacques de Vitrys, p. 1.

(٢) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge in Umriß, p. 195.

(٣) Setton, op. cit., II, p. 385.

(٤) Runciman, op. cit., III, p. 145.

وانضم إلى طائفة الوعاظ في فرنسا القديس دومنيك الذي أطلق لحيته من
إنعقاد مجلس اللاتيران كدليل منه على الذهاب مع الحملة ، وقام بالتبشير لها في
فرنسا إلى جانب زملائه ، كما استغل وجوده في فرنسا وقام بالدعوة للحملة
الليجنسية في جنوب فرنسا في الوقت نفسه^(١).

وبالإضافة إلى هؤلاء الوعاظ فقد توجه إلى فرنسا - عقب الانتهاء من
أعمال المؤتمر - يوحنا التوري مندوب الملك جان دي برين ليبلغ الملك فيليب
أوغسطس وابنه لويس والبارونات الفرنسيين بقرارات المجلس ، وليحثهم على
التشاور فيما بينهم من أجل استعادة بيت المقدس^(٢) . ويبدو أن الملك الفرنسي
وباروناته لم يكونوا على استعداد للذهاب مع الحملة ، فاكثفوا بتقديم
المساعدات المالية . فقدم فيليب ١/٤٠ من دخله لدعم الحركة الصليبية
ومساهمة منه في نفقات الحملة^(٣) ، وقد حذا حذوه كثير من النبلاء في تقديم
المساعدات المالية للحملة^(٤).

وصفوة القول أنه رغم إهتمام البابا بالدعوة للحملة في فرنسا وإرسال
مشاهير رجال الدين وأكثرهم فصاحة إليها ، فقد وجدت في فرنسا بعض
المشاكل ، منها افتور الروح الصليبية عند النبلاء بعكس العامة رغم شعورهم بعدم
وجود النبلاء إلى جانبهم . وثانيا عدم رغبة الفرنسيين في العمل إلى جانب
الألمان ، وثالثا جشع رجال الدين في ابتزاز أموال النبلاء للترخيص لهم بتأجيل
الوفاء بوعدهم كما أسلفنا .

وأسند البابا مهمة الدعوة إلى الحملة في ألمانيا إلى بعض الأساقفة ورؤساء
الأديرة وبعض رجال الدين الآخرين . ولكن أعظمهم نجاحا كان أوليفر أف

1. Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 351.

2. Bracles, op. cit., p. 319.

3. Conder, op. cit., p. 307.

4. Michaud, op. cit., II, p. 20.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

بادنبورن الذى كان يتولى أسقفية بادنبورن فى ألمانيا . وقام أوليفر بالتبشير للحملة فى أقاليم فريزيا وفلاندرز وبارابانت وأترخت وبعض المناطق الأخرى، ونجح فى مهمته نجاحا كبيرا واستطاع أن يجمع ما يقرب من خمسين ألفا من الصليبيين وأن كان هذا العدد مبالغ فيه إلى حد ما^(١) . ويبدو أن أعمال أوليفر قد حازت رضا البابا لذلك عينه كاتبا لاجندوب البابوى فى الحملة^(٢) .

وقام ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كاتربرى فى إنجلترا بتعبئة الشعب الإنجليزى للمشاركة فى الحملة^(٣) ، رغم ما كان يسود إنجلترا فى ذاك الوقت من الإضطرابات . ووعد الملك يوحنا بحمل الصليب والذهاب مع الحملة ، ولكنه قصد من وراء ذلك أن يضع تاجه تحت حماية الكنيسة والحصول على مزيد من رضا البابوية^(٤) ، لمساندته ضد باروناته الثائرين عليه . وكان النبلاء الإنجليز أوفى عهدا من ملوكهم ، فقد رحل مع الحملة النبلاء الذين وعدوا بحمل الصليب وبروا بوعدهم^(٥) .

كما طاف المبشرون بايرلندا وأسكتلندا للدعاية للحملة وتشجيع أهل هذه البلاد للانضمام إلى صفوفها . أما المدن الإيطالية فان التنافس التجارى بينها وبخاصة بين كل من بيزة وجنوة لم يجعلهما قادرتين على العمل جنبا إلى جنب فى صفوف الحملة . وقد أخذ البابا على عاتقه تسوية هذا النزاع ، ولكنه مات وهو فى طريقه إلى الجنويين والبيازنة للعمل على قض هذا النزاع^(٦) .

وكان لابد أن تحظى الدعاية للحملة والتبشير بها بعناية خاصة فى الإمارات الصليبية بالشام باعتبارها محصلة الحركة الصليبية ومنطقة المواجهة مع

Setton, op. cit., II, p. 381.

(١)

Ruuciman, op, cit., III, pp. 483-4

(٢)

Michaud, |op. cit., 11, p. 208.

(٣)

Conder, op. cit., p. 307.

(٤)

Mattew of Westminster, op. cit., II, p 134

(٥)

Roger of Wendover, op. cit, II, p. 393

(٦)

المسلمين بـفضلًا على أنه يوجد بالشام الأماكن المقدسة التي قامت من أجلها الدعوة للحركة الصليبية منذ أكثر من مائة عام قبل ذلك التاريخ . لذلك رأى البابا هونوريوس الثالث الذي خلف البابا إنوسنت الثالث أن يرسل إلى تلك الإمارات الكاردينال جاك دي فترى نظراً لفصاحته وبلاغته وتحمسه الزائد لمشروع الحملة . فعينه البابا هونوريوس أسقفاً لمدينة عكا ليتولى مهمة الوعظ والتبشير والدعوة للحملة المقبلة، ووصل جاك دي فترى إلى عكا في الرابع من نوفمبر عام ١٢١٦ م ليتولى مهام منصبه الجديد . وإستاء جاك دي فترى مما وجدته في المجتمع الصليبي في بلاد الشام ، فقد وجد مجتمعاً صليبيّاً غير مترابط يحوى في طياته كثيراً من التناقضات . كما شاهد التنافس الشديد بين أهالي المدن الإيطالية الذين إنضموا إلى المجتمع الصليبي في الشام لا بدافع الولاء للفكرة الصليبية ولكن سعياً وراء الأرباح التي تعود عليهم من وراء التجارة . وقد أدت هذه المنافسة إلى المشاجرات الدامية بينهم مما كان له أسوأ الأثر في الإمارات الصليبية خاصة في كل من صور وعكا^(١) . ولذلك أطلق عليهم جاك دي فترى إسم المرتزقة ، كذلك عالى الكثير من الأفرنج المتمشقين الذين كان يطلق عليهم إسم بولان^(٢) والذين تأثروا بالمادات الشرقية خاصة في ملبسهم وإستخدامهم اللغة العربية في حياتهم اليومية ، هذا بالإضافة إلى افتقارهم للروح الصليبية واعتيادهم على حياة الكسل والترف والفساد . ولذلك اعتبرهم جاك دي فترى جماعة من الخونة الغشاشين الأفاقين لتفشي الفجور والدعارة بينهم فضلاً عن كونهم جواسيس للمسلمين^(٣) . أما المسيحيون الشرقيون في الشام فقد كانوا يكرهون حكم الصليبيين ويفضلون عليه حكم المسلمين^(٤) . وربما

(١) Vitry, op. cit., p. 86. Cf. also Vitry, History of Jerusalem, pp. 65-7.

(٢) يطلق اسم البولانيين Poulains على سلاة الصليبيين الذين ولدوا ونهروا في الأراضي المقدسة بعد سقوط مدينة القدس في أيدي اللاتين كما يطلق أيضاً على الطفل المولود من أم فرنسية وأب شرقي وذلك على سبيل السخرية والتحقير . أنظر :

Joinville, Jean de, Saint Louis; King of France, p. 322 n.3

راجع أيضاً : جوزيف نسيب يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ١٠٦ حاشية (٣) .

Vitry, op. cit., pp. 57-8

Runciman, op. cit., III, p. 146

(٣)

(٤)

يرجع ذلك إلى إختلافهم مع الصليبيين مذهبيا ، فقد كانوا من السرياد واليعاقبة والنساطرة والموارنة والأرمن^(١) .

هذا علاوة على الخلافات السياسية بين الامارات الصليبية نفسها . لذلك كانت المهمة الملقاة على كاهل جاك دي فترى صعبة ومعقدة ، ولكنه رغم ذلك كله فقد استطاع أن يجدد الحماس الصليبي بعض الشيء في الامارات الصليبية^(٢) .

ولم يقتصر الأمر على أصوات الوعاظ ومندوبي البابا ورجال الدين في التبشير بالحملة ، فقد لعب الشعر دوراً كبيراً في حث الأوربيين على حمل الصليب . واختار الشعراء فكرة الحملات المقدسة لتكون موضوعاً لأشعارهم^(٣) . وقد عبر الشاعر بونز أف|كابدول Pons of Capdol في شعره عن رغبته في عقد الصلح بين ملكي إنجلترا وفرنسا ليسود بينهما السلام ، وأن يتصافى كل من فريدريك الثاني وأوتو الرابع في المانيا من أجل إستعادة بيت المقدس . كما أعجب الشاعر|إمري Aimery بتحمس البابا للحملة ، وأرسل أشعاره إلى الماركيز وليم أف|مونتفerrat William of Montferrat يحثه على التوجه إلى الأرض المقدسة ، فضلا عن الأشعار التي رفعت غفلا من الامضاء إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وأوتو منافس الامبراطور فريدريك الثاني في المانيا ، ويوحنا ملك إنجلترا تحثهم على إنهاء الحروب الدائرة بينهم والتوجه إلى الأرض المقدسة^(٤) .

وإذا كان الوعظ للحملة والدعوة لها قد تطلب جهدا كبيرا من البابا ورجاله ، فإن عملية جمع الأموال طبقا لقرار مجلس اللاتيران قد واجهت بعض

Rohricht, op. cit., p. 195.

(١)

Setton, op cit., II, p. 282.

(٢)

Michaud, op. cit., II. p. 213.

(٣)

Setten. Ibid.

(٤)

للتعاب أيضا . ففي أسبانيا كانت الحرب دائرة بين المسلمين والمسيحيين وهي الحرب التي دعا اليها البابا أنوسنت الثالث في عام ١٢١١ م^(١)، وقد تطلب ذلك جمع الأموال اللازمة لتغطية نفقاتها . ولذلك فإن جمع أية مبالغ أخرى للحملة الصليبية الخامسة قد قوبل باحتجاج شديد . كما أن تحصيل الأموال في اسكتلندا لم ينفذ بكل دقة . أضف إلى هذا أن بعض الناس في أنحاء أوربا كانوا يتساءلون عن فائدة الأموال المردوعة في خزانة البابا والأموال التي يدفعها رجال الدين . ورغم هذا كله فقد تم جمع مبلغا كبيرا من المال للانفاق على الحملة المرتقبة . وتجمعت هذه الأموال لدى أمين مال الفرسان الداوية في باريس ، ثم أرسلت إلى أمين مال الداوية وإلى رئيس هيئة الاستتارية في الأرض المقدسة وإلى القادة الصليبيين ليوزعوها بمعرفتهم بالعدل على جثودهم^(٢) . ومن الملاحظ أن الأموال لم تسلم من الاختلاسات ، فقد أتهم روبرت أف كورسون باختلاس بعض هذه الأموال ولعل هذا هو السبب الرئيسي في أبعاده عن مهمة الوعظ في فرنسا . كما أن البابا قد استاء أيضا من هذا التصرف وأمر بإجراء التحقيق معه في هذه الواقعة^(٣) . وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على ضعف الروح الصليبية حتى لدى كبار رجال الدين وإتخاذهم من الحركة الصليبية ، وسيلة لا ابتزاز الأموال .

هكذا نجح البابا إنوسنت الثالث في عقد مجلس اللاتيران الكنسي وفي إرسال الوعاظ إلى كافة أنحاء أوربا للدعوة للحملة والتبشير بها ، يساعدهم في ذلك رجال الدين ، بل أنه كان على إتصال دائم بهم للوقوف على مدى إستجابة أهل الغرب الأوربي للحملة ، وتلقى وجهات نظرهم^(٤) . فضلا عن أنه تبني موضوع تسوية الخلافات التي كانت قائمة بين المدن الإيطالية ، ولكنه مات في

Runciman, op. cit., III, p. 139

Setton, op cit., II, p. 386.

Michaud, op. cit., II, p. 308.

Runciman, op. cit., III. p. 145.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

بروجيا Perugia في شمال إيطاليا وهو في طريقة لتسوية هذه الخلافات عام ١٢١٦ م عن ست وخمسين عاما بعد أن تولى كرسي البابا لمدة ثمانية عشر عاما^(١) ، قضاها في عمل دائم ومستمر من أجل سيادة البابوية ونجاح الحركة الصليبية دون أن يتطرق إلى نفسه اليأس أو الملل . وتولى بعده الكاردينال سنسيوس Censius تحت إسم البابا هونوريوس الثالث . وسار هونوريوس على هدى المبادئ التي اتخذها مجلس اللاتيران فيما يتعلق بالحملة . وربما يرجع ذلك إلى أن البابا الجديد كان هادئ الطبع ولم يرغب في الدخول في صراعات مع الحكام الزميين . ولذلك فضل توجيه جهده وجهد العالم الأوربي نحو الحرب الصليبية^(٢) ، خاصة بعد أن هيا له سلفه الجو المناسب لقيامها ، ووضع كافة الخطوط الرئيسية الخاصة بها .

ولما كان على البابا هونوريوس الثالث أن يطلع العالم الصليبي على موقفه من الحملة فقد كتب إلى الملك جان دي برين يشجعه ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة وأنه سيتم العمل الذي بدأه سلفه إنوسنت الثالث بنفس الحماس والإخلاص ، كما كتب أيضا إلى جميع الأساقفة ورجال الدين يحثهم على الإستمرار في الدعوة للحملة والتبشير بها والعمل على زيادة حماس البارونات والفرسان استعدادا للذهاب إلى الأرض المقدسة^(٣) . هذا ، فضلا عن إيفاده جاك دي فترى إلى الأراضي المقدسة ليتولى منصب رئيس أساقفة عكا بالإضافة إلى الدعوة للحملة المقبلة في الإمارات الصليبية بالشام . ومن الملاحظ أن موت البابا إنوسنت الثالث لم يؤثر تأثيرا كبيرا على قيام الحملة^(٤) . فقد عمل البابا هونوريوس الثالث بكل جهده لقيام الحملة في موعدها للسيطرة على بيت المقدس^(٥) ، ورغم هذا فقد صادف البابا الجديد كثيرا من الصعاب ، أهمها

Matthew of Westminster, op cit., II, p. 132.

(١)

Lamb, op, cit., p. 240.

(٢)

Michaud, op, cit., II, pp. 215-6.

(٣)

Stephenson, op. cit., p. 301.

(٤)

Duggan op, cit., p. 213.

(٥)

الصراع الحاد الذى تجدد فى إنجلترا بين الملك هنرى الثالث والبارونات عقب موت الملك يوحنا عام ١٢١٦ م ، ومطالبة أوتو الرابع بعرش المانيا مرة أخرى ، وعدم وفاء الامبراطور فريدريك الثانى بوعده فى قيادة الحملة^(١).

وإذا كان موقف البابا هونوريوس من الحملة هو نفس موقف البابا إنوسنت الثالث فما هو موقف الملوك والأباطرة فى أوروبا من الحملة ؟ من الملاحظ أنه حتى قبيل إجتماع مجلس اللاتيران الكنسى فى عام ١٢١٥ م كان الصراع والتطاحن بين الملوك والأباطرة يسود القارة الأوربية من أقصاها إلى أقصاها تقريباً. هذا بالإضافة إلى الحملة الأليجنسية القائمة فى جنوب فرنسا والحرب بين المسلمين والمسيحيين فى شبه جزيرة إيبيريا مما شغل الأوربيين إلى حد ما .

وفيما يتعلق بموقف الملك يوحنا ملك إنجلترا فنجد أنه قد وعد بحمل الصليب ، وبهذا لاح الأمل للبابوية فى الملك الانجليزى لقيادة الحملة^(٢). ولكن الملك يوحنا كان يعلم جيداً أنه لو ترك إنجلترا فان البارونات الانجليز سينجحون فى الحصول على مزيد من الامتيازات على حساب الملكية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الملك الانجليزى لم يكن على وفاق مع البابا ، وإن ما حدث من تقارب بين الرجلين هو تقارب ظاهرى قصد البابا والملك من ورائه مصلحتهما فقط . وعلى أية حال فقد مات إنوسنت ويوحنا قبيل قيام الحملة وخلف يوحنا الملك هنرى الثالث^(٣) . وقد وعد الملك الجديد بحمل الصليب لا رغبة منه فى الذهاب مع الحملة بل رغبة فى الحفاظ على رضاء البابوية فقط^(٤).

وبالنسبة لموقف فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد كان أمل البابا فيه أكثر من أمله فى الملك الانجليزى يوحنا وذلك لارتباط فيليب إرتباطاً كبيراً بمملكة

Setton, op. cit., p. 384.

Michaud, op, cit., II, p. 216.

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 379

Michaud, Ibid,

(١) أ

(٢) ١

(٣)

(٤)

بيت المقدس الصليبية الاسمية فقد كان مستعشرا للصليبيين ، وهو الذي رشح جان دي برين لعرش مملكة بيت المقدس الاسمية بالزواج من ماريا وريثة عرش بيت المقدس، كما أن يوحنا التوري مندوب الملك حان دي برين توجه إلى فيليب أوغسطس بعد انتهاء أعمال مجلس اللاتيران ليحثه على إنقاذ مملكة بيت المقدس. علاوة على هذا ، فقد وجه البابا إلى فرنسا إهتماما زائداً للدعوة للحملة والتبشير بها قبل وبعد انعقاد مجلس اللاتيران الكنسي في عام ١٢١٥ م .

وبالإضافة إلى هذا كله فإن العلاقة بين البابا وفيليب كانت طيبة إلى حد بعيد في معظم الأوقات . ورغم هذا فقد إعتذر فيليب أوغسطس عن حمل الصليب وقيادة الحملة . وكان عذره في ذلك هو إنتشار الهرطقة في جنوب فرنسا وأن إبنه لويس يحارب مع عساكره في الحملة الأليجنسية للقضاء على هؤلاء الهرطقة^(١) .

أما في النرويج فقد لجحت الدعوة للحملة ووعد الملك إنجي الثاني Ingi II بحمل الصليب والتوجه إلى الأرض المقدسة ولكنه مات في ربيع عام ١٢١٧ م^(٢) .

ورغم أن البابا كان يأمل في ذهاب الملك يوحنا والملك فيليب أوغسطس مع قواتهما إلى الأراضي المقدسة ضمن الحملة المزمع قيامها فإن أمله الكبير كان معقودا على الامبراطور فريدريك الثاني . ذلك لأن فريدريك يعتبر صنيعة البابوية ، فقد كان البابا إنوسنت الثالث وصيا عليه بعد وفاة والدته أيام كان صبيا بحكم صقلية ، كما أن البابا سأنده بكل ثقله في صراعه ضد أوتو عندما قام الأخير بغزو صقلية عامي ١٢١٠ و ١٢١١ م، مما ترتب عليه عزل أوتو وإختيار فريدريك الثاني ملكا على المانيا، وعندما توج فريدريك الثاني في عام ١٢١٢ م في مدينة إكس لاشابل رد هذا الجميل للبابا إنوسنت الثالث ووعد بحمل

Tilly, A, Mediaeval France, p 57.

(١)

Runciman, op. cit., III p. 146.

(٢)

الصليب^(١) وما لا شك فيه أن هذا الاعلان من قبل فريدريك الثاني قد زاد الأمل في نفس البابوية ، فضلا عن ذلك فان الامبراطور فريدريك الثاني كان ابنا بارا للبابوية - قبل قيام الحملة - وكان يعمل دائما للحصول على رضا البابوية . ففي عام ١٢١٢ م أعلن ولاءه للكنيسة وجعل البابا المرجع الأخير في كافة الأمور التي تتعلق بالكنيسة في مملكته^(٢) ، ولذلك ساندته البابوية مرة أخرى ضد أوتو وحلفائه^(٣) . وما أكد أمل البابا في فريدريك لقيادة الحملة هو ما أعلنه الأخير - بعد ما توجه سيفريد Sifride رئيس أساقفة مينز إمبراطورا للامبراطورية الغربية^(٤) - عن إشتراكه في الحملة التي قررها مجلس اللاتيران الكنسي^(٥) . وأضاف أنه ليس لديه عمل أفضل من محاربة المسلمين^(٦) . وكان لموقف فريدريك الثاني من البابوية ومن قرارات مجلس اللاتيران الكنسي ووعده بالذهاب إلى الأرض المقدسة أثرا كبيرا في نفوس الأمراء الألمان ، فقد حذوا حذو إمبراطورهم وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض كما انضم إليهم كبار رجال الدين وبدأوا يعملون جميعا جنبا إلى جنب ، وزاد من اطمئنان البابوية أن فريدريك كان يجلس بنفسه في الكنيسة ويطالب المواطنين الألمان بالانضمام إلى صفوف الحملة^(٧) ، أوكل هذا النشاط الكبير الذي تزعمه الامبراطور فريدريك بانضمام عدد كبير إلى الحملة من البافاريين والفريزيين والسكسون وأهل مورافيا وبرابانت وستراسبورج وآخرين^(٨) .

ورغم الآمال المعقودة على فريدريك ونشاطه الملحوظ في الدعوة للحملة

Eracles, op. cit., p. 299.

Fiedrick. II, Promis|to The Pope Innocent III. cf.

Thatcher, op. cit., pp. 230-2.

Eracles, op. cit., p 400.

Maimbourg, P., Histoire Universelle des Croisades, p. 275.

Iorga, op cit., p 152.

Cambpell, op cit., p. 381.

Rohricht, Leitage Zur Geschichte der Kreuzzuge, pp. 3-4.

Michaud, op. cit., II. P. 217.

فلم تظهر عليه بوادر الوفاء بوعده للقيام مع الحملة في أول يونيه من عام ١٢١٧^(١)، ثم اعتذر عن الذهاب على رأس القوات الصليبية ووعده باللاحاق بها وعلل ذلك بأن أوتو الرابع ظهر مرة أخرى ليطالب بعرش ألمانيا وأنه مضطر للبقاء في أوروبا لحماية ممتلكاته^(٢). وكان هذا الموقف من جانب الامبراطور الألماني بمثابة صدمة كبيرة للبابا هونوريوس الثالث، ولكنه لم يفعل شيئا من شأنه أن يسيء إلى العلاقات بين الامبراطور والبابوية وأكتفى بعتاب فريدريك وأمرائه على أمل أن يلحقوا بالحملة^(٣).

وهكذا ضاع الأمل أيضا في قيادة الامبراطور الألماني للحملة الصليبية الخامسة ولم يبق في أوروبا ممن وعدوا بحمل الصليب سوى أندرو الثاني Andrew II ملك هنغاريا (١٢٠٥ - ١٢٣٥ م). فقد تعهد بحمل الصليب وفاء لعهد قطعه أبوه على نفسه لم يتمكن من الوفاء به^(٤). فاتصل البابا بالملك الهنغاري ولكن الملك اعتذر في أول الأمر بسبب الحرب الأهلية الدائرة في بلاده^(٥). وهكذا ضاع الأمل في كافة الحكام الأوربيين في تولى قيادة الحملة. ولا شك أن ذلك كان له أسوأ الأثر في نفس البابا وعلى نتائج الحملة كلها. ولكن البابا لم ييأس وعاود الإتصال مرة أخرى بالملك أندرو الثاني فوافق آخر الأمر على قيادة الحملة^(٦). وهي المعروفة في التاريخ باسم الحملة الهنغارية والتي تعتبر من وجهة التخطيط العام طليعة الحملة الصليبية الخامسة أو مقدمة لها. ويلاحظ أن الحملة التي قادها أندرو تختلف عن الحملة التي قادها جان دي برين للهجوم على مصر.

هكذا استقر الأمر أخيرا على قيام الملك أندرو الثاني على رأس الحملة التي

Wiegler, The Infidel Emperor. p. 89.

Brehier, op. cit., 197.

Wiegler, Ibid

Vambery, Hungry. p. 126

Runciman, op. cit., II. p. 146.

Lamb, op. cit., p. 240.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

تحدد لها أول يونيه من عام ١٢١٧ م موعداً لقيامها ، حسب ما تقرر في مجلس اللاتيران الكنسي وهو نفس موعد انتهاء الهدنة مع المسلمين^(١). وكان على أندرو إعداد السفن اللازمة لنقل الجنود من مراكز تجمعها إلى الأراضي المقدسة ، فبدأ بإرسال سفارة من جانبه على رأسها الكسندر سينبرجن Alexandre Sibenburgen وفوضه بسلطات واسعة في عقد إتفاقية مع بطرس أزياني Peter Ziani دوج البندقية لنقل جنود الحملة إلى سواحل الشام . وتم الاتفاق ، وبموجبه تنازل أندرو نهائياً عن مدينة زارا وإطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية . مقابل أن تمدهم البندقية بعشر سفن كبيرة الحجم نظير خمسمائة ماركا فضيا عن كل سفينة ، بالإضافة إلى بعض سفن أخرى أقل حجماً من السفن العشرة على أن يدفع لكل سفينة مبلغاً من المال يعادل نسبة حجمها . وقد تم الاتفاق على دفع مجموع المبالغ على ثلاث دفعات . تدفع الدفعة الأولى منها في عيد العنصرة^(٢) (٥ مايو ١٢١٧) ، ويتم دفع الثانية قبل نهاية مايو ، أما الأخيرة فيتم دفعها عند قيام الحملة . وقد تم إعداد السفن اللازمة لنقل الجنود وأصبحت مستعدة للابحار إلى عكا في الخامس والعشرين من يوليو من العام نفسه وبذلك تأخر موعد قيام الحملة حوالي شهرين تقريباً . ولهذا السبب فإن الملك الهنغاري بدأ السير من بلاده في بداية شهر يوليو في

Eracles, op, cit., pp. 321-2.

(١)

(٢) عيد العنصرة ، Whitsunday هو العيد الذي يحتفل به المسيحيون عامة بعد عيد القيامة بخمسين يوماً بمناسبة حلول روح القدس في تلاميذ السيد المسيح وليس له تاريخ محدد فهو متغير تبعاً لتغير عيد القيامة . ويختلف تحديد عيد القيامة عند المسيحيين الشرقيين والغربيين ، فبالنسبة للغرب يحدد عيد القيامة يوم الأحد الذي يلي اكتمال القمر - حتى يصبح بدرًا - الذي يلي الاعتدال الربيعي (٢١ مارس) سواء أكان قبل أو بعد أو مع عيد فصح اليهود . عن ذلك أنظر :

Ency, Brit, Vol, 7 p 865, Vol 23, pp 293-4

وعلى ذلك حدد الباحث عيد العنصرة في عام ١٢١٧ م يوم (٥ مايو) . أما المسيحيون الشرقيون فيحتفلون بعيد القيامة في يوم الأحد الذي يلي عيد فصح اليهود لمعرفة مواعيد عيد القيامة عند الشرقيين : أنظر : القديس أنبا ديمتريوس الكرام : شرح حساب الكنيسة القبطية ص ٤٣ وما بعدها والجدول رقم (١٩) .

طريقه إلى مدينة سبلاتو Spalato - التي أختيرت أخيرا كمنطقة لتجمع الحملة - يرافقه ليوبولد Leopold دوق أستريا وعديد من الأساقفة والكوثات بالإضافة إلى جموع الصليبيين ، واتخذ الجميع طريقهم إلى سبلاتو عن طريق موانئ ساحل دلماشيا^(١).

وأخيرا وبعد هذه الأحداث وصل أندرو ورجاله إلى سبلاتو حيث إستقبله أهل المدينة إستقبالا رائعا وأكرموا ضيافته ومن معه من الجنود^(٢). وقد تأثر أندرو بهذه الحفاوة فأهدى إلى المدينة قلعة سليسا Clissa المجاورة لهم ، كما أهدى إليهم أيضا الجزيرة المقابلة لهذه القلعة . ولما كان عدد الفرسان الصليبيين يزيد على عشرة آلاف فارس بالإضافة إلى عدد كبير من المشاة فكان على الملك الهنغاري الانتظار لعدة أسابيع حتى يتم توفير السفن الكافية لنقل كل هؤلاء الجنود ، لذلك فضل بعض الفرسان العودة إلى بلادهم على أن يلحقوا بالحملة في الربيع القادم^(٣). أما عن الفرنسيين الذين انضموا إلى قوات أندرو فكانوا قليلي العدد ، ذلك لأن القوات الفرنسية جاءت إلى الشرق على فترات امتدت حوالى سنتين قبل وبعد ذلك التاريخ فضلا عن أنهم كانوا لا يفضلون العمل إلى جانب الهنغاريين والألمان^(٤). وفيما يتعلق بالقوات الألمانية فلم تنضم إلى قوات الملك الهنغاري ولم تعمل في صفوف الحملة الهنغارية في الشام لأنها اتخذت الطريق البحرى في الشمال حتى وصلت إلى اسبانيا وهناك انضمت إلى قوات الملك الفونسو الثاني Alfonso II (١٢١٢ - ١٢١٣ م) وحاربت المسلمين ، ثم اتجه بعضها بعد ذلك إلى إيطاليا ومنها إلى عكا فوصلتها في ربيع عام ١٢١٨ م^(٥)، أى بعد انتهاء أعمال الحملة الهنغارية وعودة أندرو إلى بلاده . والمهم أن الملك الهنغاري وجنوده ظلوا ينتظرونهم على ساحل دلماشيا حتى

Setton, op. cit, pp. 387-8.

Michaud, op. cit., II, p:224.

Setton, op. cit., II, P 388.

Eracles, op. cit., p 322.

Oliver of Podenborn, op. cit., pp 20-21.

(١) -

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

نفذت أموالهم^(١) ، فاضطر أندرو إلى فرض بعض الضرائب والاستيلاء على بعض الأوعية المقدسة من الكنائس فضلا عما تم بيعه ورهنه من العقارات لمواجهة نفقات الحملة المتزايدة^(٢) . وبعد أن مل أندرو ورجاله إنتظار إخوانهم الألمان تحركت دفعة منهم تحت قيادة ليوبولد دوق أستريا ووصلت إلى عكا في بداية سبتمبر من عام ١٢١٧ م^(٣) ، يدفعهم الأمل في نجدة الأراضي المقدسة والسيطرة على بيت المقدس^(٤) .

وما أن وصل ليوبولد إلى عكا حتى أرسل سفارة إلى بوهمند الرابع أمير طرابلس يدعوهُ للانضمام للحملة . وقد لبى بوهمند الدعوة وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين منهم جى الثانى صاحب جبيل Guy II of Jebail وشخص يدعى برتران Bertran وآخر يدعى وليم William وهما من جبيل أيضا بالإضافة إلى مارشال طرابلس . وبعد أن التقى هؤلاء الزعماء اتفقوا على إرسال سفارة إلى قبرص لدعوة الملك هيو للانضمام للحملة . وتكونت السفارة من فري دي بيتو Feri de Beto وهو من أعيان المانيا وجارنييه Gournier وهو من أعيان الصليبيين . كما انضم إلى الحملة أيضا جوتييه الثالث Gautier III صاحب قيسارية (١٢١٧ - ١٢٢٩ م) ويوحنا أف إبلين صاحب بيروت (١٢٠٥ - ١٢٣٦ م) - الوصى السابق على عرش مملكة بيت المقدس الإسمية وإبنيه فيليب^(٥) ، فضلا عن رادلف بطريق بيت المقدس وعدد آخر من كبار رجال الدين على رأسهم جاك دي فري وسيمون أسقف صور وغيرهم ، بالإضافة إلى رؤساء جماعات الفرسان الدائرية الاستبارية والتوتون وآخرين غيرهم^(٦) .

Michaud, op. cit, II. p. 218.

Setton, op. cit., II, p. 387.

Rohricht, Geschichte per Kreuzzuge in Umriss. p. 196.

Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 352.

Eracles, op. cit., p. 322.

Oliver op Pedenborn, op. cit., pp, 12 ff.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

وفي تلك الأثناء واجه الزعماء المجتمعون في عكا إنتظارا لوصول الملك أندرو والملك هيو ، واجهوا مشكلة نقص المواد الغذائية لتموين الحملة . وتفاقت الأزمة حتى بيع الرغيف الصغير بحوالي اثني عشر دينارا مما دفع الجند إلى السلب والنهب ، فسلبوا ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم ولم يتورعوا عن سلب المنازل والأديرة^(١) . وكانت هذه الأزمة سببا في هلاك عدد كبير من الصليبيين وضعف الروح المعنوية بينهم فأشار بعض الأساقفة والقادة على الصليبيين بالعودة إلى أوطانهم . وفعلا رحل عدد كبير منهم إلى ديارهم^(٢) .

ونتيجة لما حدث سادت الفوضى المعسكر الصليبي ، ورأى القادة الصليبيون ضرورة القيام ببعض الأعمال العسكرية ضد المسلمين لشغل الصليبيين عن الحالة التي وصلوا إليها^(٣) . وفي هذا الوقت وصل هيو ملك قبرص ومعه قائد الجيش القبرصي وعدد كبير من التركوبول^(٤) والفرسان ، هذا بالإضافة إلى يوستورج إرئيس أساقفة نيقوسيا^(٥) . كما وصل أيضا في الوقت نفسه الملك أندرو الذي بدأ رحلته من ميناء سيلاتو في أوائل سبتمبر سنة ١٢١٧ م تاركا ورائه الجزء الأكبر من جيشه^(٦) . وربما يكون ذلك بسبب قلة امكانياته المالية .

على أية حال ، فانه عقب وصول الملك أندرو عقد القادة مجلسا للحرب حضره الملوك الثلاثة أندرو وجان دى برين وهيو ، كما حضره يوهنند الرابع

Michaud, op, cit., II, p. 225.

Setton, op. cit., II, p. 389.

Eracles, op. cit., pp. 322-3

(٤) التركوبول ، Turcopoles من العناصر التركية التي كانت تعمل كجند مرتزقة في خدمة أي

- حاكم أو أمير يدفع لهم المبلغ الأكبر ، ومن هذه العناصر أيضا البجناكيه Pechenegs والكومان

Kumans . أنظر عن ذلك : Setton, op. cit., I, pp. 215, 261, 354 ff.

(٥) Histoire de Archevques Latins de E'ile de Chypre, p. 216

ونيقوسيا Nicosia تعرف في المصادر العربية باسم الاقوسية وكانت عاصمة لجزيرة قبرص

(٦) Runciman, op. cit., III. pp. 147-8.

أمير طرابلس وانضم اليهم جمع كبير من الاساقفة على رأسهم جاك دي فترى أسقف عكا وسيمون رئيس أساقفة صور وروبرت Robert رئيس أساقفة الناصرة ورادلف أف ميرنكورت بطريق بيت المقدس (الاسمى) هذا بالإضافة إلى إيوستورج رئيس اساقفة نيقوسيا وعدد آخر من رجال الدين والفرسان ، وعرض على هذا المجلس الخطة التى سبق أن تدارسها - قبل وصول الحملة الهنغارية - جان دي برين مع رؤساء الداوية والاسبتارية والتوتون^(١) .

وتتلخص هذه الخطة فى قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة الرئيسى وهو غزو مصر . وفى الوقت نفسه تقوم القوات الرئيسية للحملة بمهاجمة مدينة دمياط تمهيداً للاستيلاء على مصر كلها باعتبارها الطريق الوحيد لهزيمة المسلمين فى الشام واستعادة الأرض المقدسة ، ولكن مجلس الحرب المنعقد أرجأ تنفيذ هذه الخطة لوقت لاحق وذلك بسبب قلة القوات وعدم توافر السفن اللازمة لنقل جنود الحملة إلى مدينة دمياط استعداداً للقيام بهذا الغزو الكبير^(٢) . وبعد أن طرحت هذه الخطة جانباً تدارس المجلس خطة أخرى تهدف إلى مهاجمة مدينة بيت المقدس . ولكن المجلس إرتأى عدم إمكان تنفيذها لعدم توفر الماء الكافى لقواتهم عند المدينة المقدسة^(٣) . وبعد أن تعذر على القادة المجتمعون تنفيذ خطة مهاجمة دمياط أو بيت المقدس قرر المجلس مهاجمة مدينة دمشق^(٤) وبدأ القادة الصليبيون فى إعداد الجيش تمهيداً للقيام بهذا الهجوم . ولما أصبحت القوات الصليبية على أهبة الاستعداد فى السادس من نوفمبر ١٢١٧ م الرابع من شعبان ٦١٤ هـ لمنازلة المسلمين قدم رادلف - بطريق بيت المقدس الاسمى - فى خشوع واحترام شظية الصليب إلى الملك أندرو باعتباره قائد القوات المجتمعمة علامة على بداية الحرب^(٥) .

Eracles, Ibid.

Setton, op, cit., II, pp. 389-90.

Rohricht., Geshichte des konigreichs Jerusalem, pp. 722-3.

Iorga. op. cit., p. 153.

Oliver of Padenborn op. cit., p. 14.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

وفي هذه الأثناء كان الملك العادل مقيماً بالقاهرة ، وقد بلغه نزول الصليبيين بالشام واجتماعهم لمهاجمة المسلمين . فخرج من مصر متجهاً إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد . وعندما علم الصليبيون بقدمه | غيروا خططهم ، وبدلاً من مهاجمة دمشق خرجوا من « عكا ليقصده » . وساروا في طريقهم إلى مدينة بيسان في الوقت نفسه الذي سار فيه العادل إلى بيسان أيضاً « لحماية أطراف البلاد مما يلي عكا » ، ونجح العادل في الوصول إلى بيسان قبل أن يصل إليها الصليبيون^(١) . وصعد العادل إلى تل المدينة وأخذ يراقب الصليبيين وهم في طريقهم إليه عن طريق عين جالوت يتقدمهم الملك أندرو ، وقد بلغ عددهم ما يقرب من خمسة عشر ألفاً^(٢) . ورأى العادل أنه من الأفضل عدم الاشتباك مع الصليبيين لكثرتهم العددية . وقلة عساكره ، لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد^(٣) ، وقرر التراجع مدينة بيسان . ولما استعد للانسحاب من المدينة قال له ابنه الملك المعظم « إلى أين ؟ فشتمه بالعجمية وقال بمن أقاتل أقطعت الشام ممالكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول »^(٤) . ويرى أبو شامة أن العادل أضرم النار في مدينة بيسان قبل أن ينسحب منها^(٥) . بينما يذكر أوليفر أنه عندما وطأت أقدام الصليبيين مدينة بيسان وجدوها خالية من السكان فنهبوها واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم^(٦) . وهذا يوضح أن العادل لم يشعل النار في المدينة لأنه لو اشتعلت المدينة لما وجد الصليبيون فيها ما ينهبوه . أما ابن الأثير فيروي أن أهل مدينة بيسان إطمأنوا إلى وجود العادل بينهم فلم يفارقوا المدينة ففاجأهم الصليبيون ولم يستطع النجاء منهم إلا القليل^(٧) . وتؤكد هذه الرواية أن العادل لم يحرق المدينة . وتتفق رواية كل من

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٠٩ .

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٥٨٣ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق | الموضع نفسه . وتدل هذه الجملة على أن العادل لم يكن مستعداً للحرب .

(٤) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٦ .

(٥) أبو شامة : الدليل على الروضتين ص ١٠١ .

(٦) Oliver of padenborn./Loc. cit.

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق | الموضع نفسه .

آبن واصل^(١) والمقریزی^(٢) مع ما ذكره كل من ابن الاثير وأوليفر . والأرجح أن العادل انسحب فجأة من بيسان - دون أن يشعل النار فيها - في الوقت الذي وطأت فيه أقدام الصليبيين المدينة . ويبدو أن انسحاب العادل بهذه الصورة قد شجع الصليبيون على التمدد في مهاجمة المنطقة الواقعة بين بيسان وبانياس . وليس ذلك فحسب ، بل إنهم توغلوا داخل الأراضي الإسلامية وانتشرت جنودهم في القرى حتى وصلت إلى خسفين^(٣) ونوى^(٤) وأطراف السواد^(٥) وقاموا بأعمال النهب والسلب ، بالإضافة إلى أنهم قتلوا خلقا عظيما^(٦) ، كما حاصروا مدينة بانياس لمدة ثلاثة أيام ثم عادوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى^(٧) ، سوى « ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا » وذلك في الوقت الذي أقام فيه العادل بمرج الصيفر بعد انسحابه من بيسان^(٨) .

وبعد أن إستراح الصليبيون بمرج عكا ثلاثة أيام إتجهوا شمالا إلى مدينة صور الصليبية ومنها إتجهوا إلى مدينة صيدا الإسلامية فأغاروا عليها ونهبوها ، ثم أغاروا على الشقيف^(٩) وأنزلوا بها ما أنزلوه بصيدا ثم عادوا إلى عكا مرة أخرى

-
- (١) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥٠ .
(٢) المقریزی : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٨٦ - ١٨٧ .
(٣) خسفين : قرية من أعمال حوران ، بعد نوى ، في طريق مصر ، بين نوى والأردن وبين دمشق وعمر فرسخا . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٢ .
(٤) نوى ، ويسمى ياقوت (نوا) وهي بلدة من أعمال حوران وقيل هي نصفها بينها وبين دمشق منزلان . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٤ ص ٨١٥ .
(٥) السواد ، وهو رستاق العراق وضياها التي اتصحها المسلمون وسمى بذلك لسواده بالزرع والنخيل والاشجار . وحد السواد مدينة الموصل طولا إلى عبادان ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان عرضا . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٤ . والسواد المقصود هنا هو المنطقة الواقعة شرق بحيرة طبرية .
(٦) السلامی : مختصر التواريخ (مخطوط) ورقة ٣٢١ .
(٧) [Oliver of Padenborn, loc. cit.]
(٨) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
(٩) الشقيف ، والمقصود به شقيف تيرون ، والشقيف كالكهف أضيف إلى تيرون ، اسم رجل ، وهو حصن وثيق بالقرب من صور . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩ .

في الرابع عشر من نوفمبر / الثاني عشر من شعبان^(١) .

ومن الواضح أن أعمال القتل والسلب والنهب التي مارسها الصليبيون في هذه الغارات قد ازعجت المسلمين وتسببت في غلاء الأسعار . وخاف الناس على أنفسهم « وعزموا على ترك البلاد » وامتألت المساجد بالضجيج والدعاء ولم يطمئن أهل دمشق إلا بعد أن رأوا الملك المجاهد صاحب حمص وقد أتى إلى دمشق على رأس عساكره لنجدة عمه العادل ، لذلك خرج لاستقباله وكان يوما مشهودا^(٢) .

كما أن العادل نفسه قد إنزعج أيضا لدرجة كبيرة حتى أنه بعث « بأثقاله ونسائه إلى بصرى »^(٣) . ومهما يكن أمر هذا الإنزعاج ، فإن الملك العادل بدأ يستعد لملاقاة الصليبيين بعد أن وافته الامدادات . فقام بتجهيز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق بطائفة من الجنود وأرسله إلى نابلس لكي يمنع الصليبيين من الوصول إلى مدينة بيت المقدس^(٤) .

ويبدو أن ما أحرزه الصليبيون من نصر في الغارات السابقة قد أغراهم على مزيد من الهجمات ضد القلاع والحصون الإسلامية . وكان حصن الطور من القلاع المتقدمة التي تهدد كيان الصليبيين والذي من أجله طلب الملك جان دي برين من البابا إنوسنت الثالث إعداد الحملة الصليبية الخامسة . وكان إيجان دي برين غير مقتنع بضياع الجهود الصليبية في الغارات التي لا تعود إلا بالاسلاب والغنائم فحسب ، بل كان يرى القيام بعمل عسكري ضد حصن

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٩ . انظر أيضا :

Oliver of Padenborn, pp. 14-5.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق الموضع نفسه . ومدينة بصرى من أعمال دمشق وهي قبة كورة حوران وهي مشهورة عند العرب منذ القدم . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ١ ص ٤٦٥ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٠ .

الطور الذى يهدد أمن مملكته ، ويبدو أن هذا العمل لم يحظ بموافقة الجميع لذلك نجده يقوم من جانبه باعداد حملة لمهاجمة هذا الحصن وتدميره ، ومن الملاحظ أن الملك أندرو والملك هيو لم ينضما إلى هذه الحملة ، كما أن جان دي برين لم ينتظر مساعدة الهيئات الدينية^(١). ولم يلحق به سوى يوهنند الرابع^(٢) واتجهت هذه الحملة الجزئية إلى حصن الطور فوصلته يوم الأربعاء ثامن عشر من شعبان عام ٦١٤ هـ (٢٠ نوفمبر ١٢١٧ م) . ويبدو أن الظروف لم تساعدهم على شن هجوم سريع على الحصن ، وربما يرجع ذلك إلى مناعا حصن الطور . فانتظروا إلى يوم الأحد الثاى من رمضان (٣ ديسمبر) من العام نفسه حيث ساعدهم وجود ضباب كثيف على مهاجمة الحصن . ولم يشعر المسلمون الذين بالداخل إلا برماح الصليبيين وقد التصقت بجدار الحصن . ورغم ذلك لم يستسلم المسلمون بل فتحوا باب الحصن وانقضوا على المهاجمين « بالفارس والراجل » مما جعل الصليبيين يرتدون إلى أسفل الحصن ، وبدأوا فى إعادة تنظيم صفوفهم لإستعداد لمهاجمة الحصن مرة أخرى . وفى الرابع من رمضان (٥ ديسمبر) هاجموا الحصن من الناحية الشمالية الشرقية وإستخدموا سلما كبيرا زحفوا به وألصقوه بجدار الحصن ، ودار بين الفريقين قتال عنيف^(٣) ، ورجحت كفة الصليبيين لدرجة أنهم كادوا يستولون عليه^(٤). ولم يستسلم المسلمون اليأس ، وأبدوا شجاعة فائقة فى الدفاع . وتمكن أحد الزرايين^(٥) من ضرب السلم بالنقط^(٦) فأحرقه ، كما قتل أيضا عددا من أعيان

(١) King, op. cit., p. 188.

(٢) Rohricht, op. cit., p. 726.

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٢٨٤ ، أهر شامة : المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٠ ، ابن وأصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٧ .

Oliver of padenborn, op. cit., p. 15.

(٥) الزرايين . جمع زراق وهو الذى يتولى صناعة قوارير وقود النفط ونحو ذلك : أنظر : العماد الأصفهاى . المصدر السابق ص ٣٧١ .

(٦) النفط ، ومنه تصنع قوارير وتدور النفط التى يرمى بها على الحصون والقلاع للاحراق على أن القوارير فى اللغة أسم للزجاج وإنما استعملت فى آلات النفط مجاز . كما كانت هذه القدور أو :

الصلبيين فصاحوا وكسروا رماحهم . وفي الوقت نفسه استشهد بعض المسلمين منهم الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم^(١) . ولما كان المسلمون يقدرّون أهمية حصن الطور بالنسبة لهم والصلبيين فقد قرروا القتال حتى الموت^(٢) . ومن الواضح أن إنتصار المسلمين قد فت في عضد الصليبيين فلم يتمكنوا من مهاجمة الحصن مرة أخرى فقرروا الانسحاب . وقاموا بإشعال النار حول الحصن لتغطية إنسحابهم ، ورحلوا في فجر يوم الخميس السادس من رمضان (٧ ديسمبر) ومعهم بعض الأسرى . وكان من بين الأسرى بعض الأبطال فعمدهم رادلف بطريق بيت المقدس وجاهك دى فترى أسقف عكا^(٣) . وتكشف فكرة التعميد هذه عن التزمت الدينى عند الصليبيين ، وإرتباط الناحية التبشيرية بالفكرة الصليبية نفسها بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضهما وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى بعد فشل الحملات الصليبية العسكرية خلال القرن الثالى عشر في تحقيق أهدافها في رقعة الشرق الأدنى الإسلامى^(٤) .

والهم أن الصليبيين فشلوا فى الاستيلاء على حصن الطور الذى يعتبر أحد الأسباب المباشرة لقيام الحملة الصليبية الخامسة - التى كانت الحملة المنغارية طليعة لها - وذلك بسبب عدم شجاعة الفرسان الصليبيين ، وقلة المياه عند الحصن^(٥) ، فضلا عن بسالة المسلمين فى الدفاع عنه . أما تاريخ هرقل فيروى

القوارير يرمى بها بالمدايع التى كانت تسمى مكاحل البارود أنظر : القلقشندى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٨ ، أنظر أيضا . عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول المصرى ص ٨ ، ٢٣ .

(١) هو محمد بن أبى القاسم بن محمد أبو عبد الله الهكاري الأمير بدر الدين وكان من المجاهدين وله مواقف مشهورة فى قتال الفرنج . وكان من أكابر أمراء الملك المعظم وكان يستشيره ويصدر عن رأيه ويتلقى به لصلاحه إوتدبته . وكان سمحا جوادا ، وبعد استشهاده نقل جثثانه إلى القدس ودفن بها . أنظر : ابن الجوزى . المصدر السابق ج ٨ فى ٢ ص ٩٥٢ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 16.

(٤) جوزيف نسيه يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٦٩ - ٧٠ .

(٥) Michaud, op. cit., II, p. 228.

أن سبب فشل الصليبيين يرجع إلى عدم وجود آلات الحصار اللازمة ، لذلك انسحبوا بعد عشرة أيام من الحصار^(١) وعلى أية حال ، فإنه بعد إنسحاب الصليبيين حضر الملك المعظم وصعد إلى الحصن « وأطلق المال وطيب قلوب الناس »^(٢) ، وشكر لهم ما صنعوه^(٣) .

وبعد عودة الصليبيين من غاراتهم الفاشلة على حصن الطور رأى بعضهم القيام بعمل عسكري آخر عليهم | يحققون من ورائه نصرا يستردون به كرامتهم المهدورة^(٤) . فالتجّهوا إلى مرج عيون^(٥) وشقيف أرنون^(٦) . وأثناء تواجد الصليبيين في هذه المنطقة صمم ديونيس Dionise ابن أخت أندرو ملك هنغاريا على مهاجمة جبل صيدا^(٧) . وقد نهاه صاحب صيدا الصليبي وقال له هؤلاء رماه وبلد وعر ولكن ديونيس لم يقبل النصيحة وقام معه خمسمائة من أبطال الصليبيين واتجهوا إلى الميادنة^(٨) ، فأخلاها أهلها فنزل بها الصليبيون وترجلوا عن خيولهم ليستربحوا . ولكن أهل الميادنة لم يتركوهم ينعموا بهذه الراحة فنزلوا عليهم من الجبال وفاجأوهم واستولوا على خيولهم ، وأعملوا فيهم الأسر والقتل . وكان ديونيس من بين القتلى ، ولذا الباقون بالفرار بعد أن تمكنوا من

(١) Eracles, op. cit., p. 324.

(٢) العيني : عقد الجمان (مخطوط) مجلد ٥١ ج ١٧ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٣) ابن ابيك : كنز الدرر (مخطوط) ج ٧ ورقة ١٧٦ .

(٤) Michaud, op. cit., II, p. 228.

(٥) مرج عيون ، مرج واسع بين نهر اليرموك وشقيف أرنون . انظر : العماد الاصفهاني : المرجع السابق ص ٢٨٥ ، ابن شداد : المصدر السابق ص ٩٧ أنظر أيضا : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٤ ص ٤٨٨ .

(٦) شقيف أرنون ، قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٧) Eracles, op. cit., p. 325.

(٨) الميادنة ، جزيرة بالقرب من قرية مشفرا ، وتقع مشفرا على سفح جبل لبنان . انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٤ ص ٥٤٠ .

وبعد ذلك غاد أندرو إلى عكا بعد أن حصل على بعض الآثار المسحوية ومنها أحد الأواني السبع التي أحال فيها السيد المسيح الماء إلى خمر^(١) ورأس كل من القديسة مارجريت والقديس ستيفن بالإضافة إلى اليد اليمنى للقديس توماس^(٢) ومن عكا اتجه إلى أرمينية حيث رتب زواج ابنته من ابنة ملك أرمينية^(٣) أو منها أبحر إلى أكويلا Aquila ثم إلى بلاده^(٤) .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية دون أن تحقق عملا ذا أهمية بالنسبة للموقف في الشام^(٥)، كما أن الملك أندرو تسبب في إلحاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى وطنه ومعه عدد كبير من جنوده^(٦). فقد كان الموقف يحتم عليهم البقاء بالشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة لتهاجم دمياط أو البقاء بالشام للدفاع عن الممتلكات الصليبية أثناء تواجد إخوانهم في مصر^(٧). ويسجل أحد المؤرخين الغربيين المحدثين أن رحيل أندرو تسبب في فشل الحملة الصليبية الخامسة بأكملها^(٨).

وبعد موت هيو ورحيل الملك الصليبي إلى بلاده تشاور جان دي برين وليوولد دوق استريا وبعض الزعماء الآخرين فيما يجب أن يفعلوه حتى تصل باقي الحملة الصليبية . واستقر رأيهم على تحصين مدينة قيسارية وبناء قلعة ضخمة في عثليت جنوبي يافا فوق جبل الكرمل^(٩)، وهي القلعة التي عرفت باسم

Michaud, op. cit., II, p. 230.

(١)

Runciman, op. cit., III, p. 149 & n. 3.

(٢)

Setton, op. cit., II, pp. 393-4.

(٣)

Eracles, Ibid.

(٤)

(٥) عهد عبد الفتاح اعاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨ .

(٥)

Oliver of Padenborn, op, cit., p.17.

(٦)

Setton, op. cit., II, p. 394.

(٧)

(٨) الكرمل ، وهو الجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام وكان عليه مسجداً في الاسلام يعرف باسم مسجد سعد الدولة . أنظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٤ ص ٣١٧ . وعن جبل "الكرمل أنظر أيضا :

قلعة الحجاج^(١). وقد قام بهذا العمل فرسان الداوية والاسبتارية والتوتون .
ويرى أنه أثناء قيام الصليبيين بعملية الحفر عثروا على كمية كبيرة من العملة
الذهبية التي لم يعرفوا زمانها ولا الدولة التي صكتها ، فقام الصليبيون بصهرها
واستغلوها في دفع مرتبات جنودهم^(٢) . وبعد أن أتموا أعمال التحصين والبناء
عادوا إلى عكا^(٣) ، وظلوا ينتظرون قدوم باقي القوات الصليبية الآتية من أوروبا
وهم يتدبرون الأمر للهجوم على مدينة دمياط تمهيدا لغزو مصر كلها

Ludolph von Suchem, Description of The Holy Land, p. 63.

Burchard, op. cit., pp. 46-7.

Annales de Terre Sainte, p. 437.

Oliver of padenborn, op. cit., p. 17.

Eracles, op. cit., p. 326.

.(١)

.(٢)

.(٣)

الفصل الرابع

الجيش الصليبي في جيزة دمياط

- دمياط : تخطيطها وأسباب توجه الحملة إليها .
- رسو الحملة في جيزة دمياط .
- الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين .
- سقوط برج دمياط .
- وفاة الملك العادل .
- وصول الإمدادات الصليبية .
- اشتباكات في البر والبحر .
- مؤامرة ابن المشطوب وآثارها .
- عبور الصليبيين إلى الضفة الشرقية للنيل وحصار دمياط .

بينما كان القادة الصليبيون عاكفين في عكا يخططون لغزو مصر بأمل إسترداد البيت المقدس بدأت القوات الصليبية القادمة من أوروبا تتوافد على عكا، ففي السادس العشرين من أبريل عام ١٢١٨ م (٢٧ محرم ٦١٥ هـ) وصل النصف الأول من أسطول الفريزيين إلى عكا ، كما وصلت الأنباء مع هذه القوات بأن بقية الحملة في سبيلها للحاق بهم فور تدبير السفن اللازمة لنقلها . من إيطاليا^(١) ، ولم تلبث هذه الأخبار أن تأكدت بوصول موجه كبيرة من الصليبيين عدتهم حوالى ثلاثين ألف من المحاربين في أوائل مايو من العام نفسه (أوائل ربيع أول ٦١٥ هـ) . وكانت هذه القوات في مجموعها تتألف من الهنغارين^(٢) والاسكندنافيين والتمساويين ، وهم من الجنود المشاه المسلحين بالسهم ومدربين على استعمال المنجنيقات^(٣) والصمود أمام هجمات المسلمين^(٤) ، ثم تلتها دفعة أخرى تحت قيادة هنرى-كونت هولندا ، وهذه هي القوات الألمانية التي اتخذت طريقها البحرى إلى اسبانيا حيث ساعدوا اخوانهم في القتال ضد مسلمى أسبانيا^(٥) ، وقد غادرت لشبونة في آخر مارس من العام نفسه (محرم عام ٦١٥ هـ)^(٦) .

-
- (١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٤ .
(٢) هي بقية القوات الهنغارية التي لم تتمكن من الحضور مع الملك أندرو ملك المجر في حملته التي عرفت باسم الحملة الهنغارية .
(٣) المنجنيقات : جمع منجنيق وهي كلمة فارسية ، وهي عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه طويل وذنبه خفيف ، وفيه فجوة تجعل كفه المنجنيق التي توضع فيها الحجر يجذب حتى ترتفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفه فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا إلا أهلكه . وما يلتحق بالمنجنيق اللوب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر . ومنه الفارسي والتركي والعربي والأخير أفضلها من الصناعة والآتقان : أنظر : القلقشندي : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٦ . الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ١٩٤ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ٢ ص ٥ حاشية (٢٠) .

Lamb, op, cit., p. 242.

(٤)

Roger of Wendover, op. cit., II, p 404.

(٥)

Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge in Umriss, pp. 197-8.

(٦)

وهكذا تجمع بالشام عدد كبير من الصليبيين القادمين من أوروبا فضلا عن القوات الصليبية بالامارات اللاتينية وعلى رأسها فرسان الداوية والاستبارية والتوتون وهي جماعات الفرسان المتمرسه على فنون القتال مع المسلمين والتي كانت تشكل قوة عسكرية فعالة رغم قلة عددها^(١)؛ وليس ذلك فحسب فقد انضم إلى هذه الجماعات أيضا بعض القوات القبرصية تحت قيادة إيوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا^(٢). وبعد أن اجتمعت القوات الصليبية بهذه الصورة عقد الملك جان دي برين مجلسا انضم اليه ليوبولد دوق أستريا ورؤساء الداوية والاستبارية والتوتون^(٣). ومن الواضح أن هذا المجلس لم ينعقد لتحديد وجهة الحملة وهي مصر، فقد كانت قد تمهدت في مجلس اللاتيران الكنس عام ١٢١٥ م^(٤) بل انعقد لعدة أمور أخرى تتعلق بوضع الخطة اللازمة لتنفيذ الهجوم على مصر كوضع خطط سير الحملة وتدبير مسألة التموين وإعداد العدد الكافي من السفن لنقل الجنود وتوفير المعدات العسكرية كآلات الحصار وغيرها وتحديد مهام كل مجموعة من الجنود وكافة ما يلزم من الترتيبات لمثل هذا الهجوم الكبير الذي كانت أوروبا تخطط له منذ زمن بعيد. ومما لا شك فيه أن مثل هذا المجلس لم ينعقد إلا بعد أن تأكد للقادة الصليبيين أن لديهم من القوات ما يكفي للقيام بمثل هذا العمل^(٥).

أما من ناحية خطط سير الحملة، فقد تقرر أن تتجه الحملة عن طريق البحر إلى مدينة دمياط باعتبارها أنسب المواقع للهجوم على مصر كلها. فقد رأى الصليبيون أنهم لو استطاعوا الاستيلاء عليها لأمكنهم غزو الدلتا كلها والتقدم إلى القاهرة وتخريبها باعتبارها قلعة الإسلام القوية في الشرق كلها^(٦). وليس

Lamb, op. cit., pp. 242-3.

(١)

Histoire des Archeveques latine de L'île de Chypre p. 216.

(٢)

Eracles, op. cit., p. 323.

(٣)

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 405.

(٤)

Maimbourg, Histoire Universelle des Croisades, p. 282.

(٥)

Brehier, op. cit., p. 192. cf Lamb | op. cit., p. 243.

(٦)

ذلك لحسب ، فقد روى الكاردينال جاك دي فترى أن ذلك سيمكن الغرب
الأوربي من نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية في الشرق الإسلامي عامة^(١) .
وهذا يدل على مدى أبعاد أفكار رجال الدين الأوربيين في هذه الفترة .

وفيما يتعلق بمسألة تموين الحملة فقد زودت بالمؤن التي تكفيها لمدة ستة
أشهر^(٢) . هذا في الوقت الذي تبعد فيه دمياط عن مراكزهم بالشام مسيرة
يومين بليتين أو أكثر قليلا^(٣) . وهذا يكشف عن مدى الاستعداد الضخم
لغزو مصر ، وهو الحلم الذي راود الصليبيين منذ أكثر من مائة عام قبل ذلك
التاريخ . وتحملت مملكة قبرص العبء الأكبر من هذه المواد التموينية ، ويرجع
الفضل في ذلك إلى هونستورج إرئيس أساقفة نيقوسيا لأن هنري الأول ملك
قبرص كان طفلا لم يتجاوز عمره تسعة أشهر^(٤) .

كذلك تقرر إستغلال السفن الفريزية - الراسية بسواحل الشام - التي بلغ
عددها حوالي ثلاثمائة سفينة^(٥) . لنقل الجنود الصليبيين ودوابهم وآلاتهم وكل
ما يحتاجون إليه إلى سواحل مصر . وحدد القادة الصليبيون قلعة الحجاج
مركزا لتجمع القوات الصليبية ، وبما أختيرت هذه المنطقة لقربها من عكا الميناء
الرئيسي الصليبي بالشام حيث تجمعت السفن الفريزية^(٦) وربما للتمويه أيضا
على المسلمين وإخفاء تحركات الحملة .

وبينا تدور هذه الاستعدادات قام البابا هونوريوس الثالث في الثامن عشر
من مايو عام ١٢١٨ م ، بالكتابة إلى جميع رجال الدين وإلى ملك بيت المقدس
والأمراء الصليبيين يخبرهم بأنه عين الكاردينال البرتغالي الأصل بلاجيوس

Vitry, Lettres des Jacques de Vitry, p. 103.

(١)

Éracles, op. cit., p. 3-6.

(٢)

Vitry, Ibid.

(٣)

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٤٠ .

Roger of Wendover, op. cit., II. p. 404.

(٥)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 22.

(٦)

Pelagus أسقف البانو مندوبا عنه في الحملة الصليبية، وطلب من الجميع إطاعته^(١). وهكذا إستعدت القوات الصليبية من كافة الوجوه ولم يبق أمامها إلا أن تأخذ إشارة البد بالتحرك إلى هدفها وهو دمياط .

وعن دمياط فإن الأمر يتطلب الوقوف وقفة فاحصة وعميقة لإلقاء الضوء على هذه المدينة التي ستدور رحى الحرب أمامها وحولها أكثر من ثلاث سنوات . فإن دراسة الأسباب التي من أجلها إختار الصليبيون مدينة دمياط والبحث في موقعها ومدى حصانتها : هو أمر ضرورى قبل الدخول في تفاصيل المعارك العسكرية وخطوط سير الحملة .

أما عن إختيار الصليبيين للمدينة فرما يرجع ذلك لأنهم إختبروها من قبل ، إذ سبق لهم مهاجمتها عدة مرات . وقد يكون إختيار الصليبيين لها أنهم فضلوا إجتياز الطريق البحرى مباشرة إلى دمياط بدلا من الطريق البرى الذى سلكه من قبل كل من بلدوين الأول وعمورى الأول . ذلك أن القوات الصليبية كانت تعتمد من قبل على مراكز إمداداتها في جنوب الشام وهى التى سهلت لها دخول مصر .

أما في هذا الوقت ، وهو وقت قيام الحملة ، فقد حرم الفرنج من هذه المراكز^(٢) ، ولهذا أصبح الطريق أمامهم شاقا وطويلا ، وربما تعرضوا لهجمات المسلمين وهم في طريقهم إلى مصر . ولذلك فإن إختيارهم الطريق البحرى يعطيهم قدراً كبيراً من الأمان يجعلهم يصلون بقواتهم كاملة بدون التعرض لأخطار الطريق البرى . هذا فضلا عن أن القوات الصليبية تصل إلى دمياط وهى في حالة من الراحة تمكنها من القيام بعملياتها العسكرية وهى محتفظة بحيوتها ونشاطها خاصة أن القوات الرئيسية للحملة أتت من أوروبا بحراً فلا يضيرها تلك المسافة القصيرة من عكا إلى دمياط .

^(١) Donovan, op. cit., p. 44.

^(٢) King, op. cit., p. 190.

وقد فضل الصليبيون الهجوم على دمياط بالذات لأنها أحد الثلاث مدن الرئيسية في مصر بالإضافة إلى الاسكندرية والقاهرة ، وإذا سقطت واحدة منها سقطت مصر كلها على حد تعبير جاك دي فترى^(١) ، وقفل الديار المصرية كلها حسب مارواه أوليفر أف بادنبون^(٢) . وليس هناك من سبيل للوصول إلى القاهرة باعتبارها تقع في قلب مصر ولا يمكن الوصول إليها بحراً إلا عن طريق دمياط أو الاسكندرية أو رشيد . واستبعد الصليبيون مدينة الاسكندرية فلم يسبق لهم الاغارة عليها بحراً ، فضلاً عن بعدها عن مراكز إمدادهم في عكا . كما أن الصليبيين لا يمكنهم الإتصال من الاسكندرية باماراتهم في الشام إلا عن طريق البحر . أما من دمياط فيمكن الإتصال بها عن طريق البحر كما يمكن الاتصال بها عن طريق البر إذا تيسر لهم ذلك . وربما لنفس الأسباب أى صعوبة الاتصال من الاسكندرية باخوانهم في الشام إستبعد الصليبيون مدينة رشيد أيضاً^(٣) . كما أن هذه المدينة لم تكن في تعداد المدن الهامة في مصر وأن الاستيلاء عليها لا يؤثر كثيراً في الخطة العسكرية بعكس الحال بالنسبة لدمياط باعتبارها قفل الديار المصرية^(٤) ، ثم أنه بإمكان النجيدات المصرية أن تصل إلى رشيد من دمياط أو الاسكندرية بحراً لقرب المسافة فتسبب للقوات الصليبية المهاجمة الكثير من المتاعب . وهذا غير متيسر إلى حد ما بالنسبة لمدينة دمياط . وهكذا

Vitry, op. cit., p 102.

(١)

Oliver of Padenborn. op. cit., p. 47.

(٢)

أرسل نيقولا Nicolas بطريق جماعة الملكانيين بالاسكندرية خطاباً إلى البابا هونوريوس الثالث في عام ١٢٢٣ م ، أى بعد حلاء القوات الصليبية ، يخبره فيه أن أسلم طريق لغزو قصر هو دخول السفن الصليبية عن طريق فرع رشيد باعتباره أوسع وأعمق من فرع دمياط . فضلاً عن خلوه من أى عائق . أنظر :

Nicolas I, Lettre au Pape Honeré III, cf., Michaud. Histoire des Croisades, III, pp 697-9.

Patriarche de Jerusalem, Rapport au Pape Innocent III, dated 1214, cf., Y, Kamal, op. cit., t. III, face. IV, p. 932., Roger of Wendover, op. cit., II, p. 422.

(٣)

يمكن القول بأن إختيار الصليبيين لدمياط مرجعه إلى قربها من عكا ، كما سبق لهم سير أهوارها فضلا على أنها من المدن الرئيسية الهامة وأن سقوطها في أيديهم يسهل عليهم الاستيلاء على مصر كلها .

وإذا نظرنا إلى دمياط القديمة نجد أنها كانت تقع إلى الشمال من دمياط الحالية : وموضعها حول جامع أبى المعاطى القديم وقبة فاتح الأسمر وقرانه دمياط^(١) . وكانت تبعد حوالى ميلين من البحر^(٢) ، على الضفة الشرقية لفرع دمياط .

ويلاحظ أن المدينة تعتبر كشبه جزيرة ، إذ يحدها البحر المتوسط شمالا ونهر النيل غربا وبحيرة تنيس^(٣) شرقا . وأن المنفذ البرى الوحيد إليها هو الطريق الجنوى ، كما أكسب النيل منطقة دمياط المراعى الخضراء والحدائق والحقول . وقد أدخلت الحملة في إعتبارها أن إنتاج هذه الأراضى سوف يكون مصدر تموين لها يوفر عليها الوقت والمال اللازم والجهد للحصول على كل هذه الضروريات من مصادر أخرى . وقد راعت الحملة أيضاً أن النيل نفسه ، فضلا على مساحات المياه الشاسعة المحيطة بالمدينة الغنية بأسمائها الوفيرة^(٤) ، سوف يكون مصدر غذاء آخر لقواتها .

أما فيما يتعلق بحصانة المدينة فإن موقعها^(٥) الطبيعى قد أكسبها مناعة طبيعية

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٥ ، حاشية (١) .

(٢) Setton, op. cit., II, p. 397.

(٣) بحيرة تنيس ، وهى بحيرة المنزلة حاليا ، ويلاحظ أنه إذا امتد النيل في منتصف الصيف عذب ماؤها وإذا جدد في الشتاء أو أوان الحر غلب عليها ماء البحر للمنع ماؤها وغاص فيها ماء النيل ، وهى مدن كالجزائر ولا طريق إليها إلا في السفن . انظر : ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٦ ، الاصطخرى : مسائل ص ٥٢ .

(٤) Vitry, op. cit., p. 104,

(٥) ومن البحوث الهامة القيمة عن مدينة دمياط القديمة وموقعها بحث ب . جوليان المعن :

Jullien, p., Note sur L'emplacement de L'ancienne Damiette,

Bulletin de l'Institut Egyptien, pp. 72-7.

إلى حد كبير^(١)، فضلا عن التحصينات العسكرية التي إختصت بها دمياط باعتبارها ذات أهمية كبرى من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية . لذلك إهتم حكام مصر بتحصينها خاصة بعدما هاجمها الروم فى التاسع من ذى الحجة عام ٢٣٨ هـ (٢٩ أغسطس ٨٥٢ م) حيث أمر الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) والى مصر عنبسه بن إسحق ببناء حصن دمياط . ورغم هذا لم تسلم المدينة من هجوم الروم عليها مرة أخرى فى العاشر من رجب عام ٣٥٧ هـ (١٠ يونيه ٩٦٧ م) . كما لم تسلم أيضا من الهجوم الصليبي عليها بعد ذلك عدة مرات . لذلك أهتم صلاح الدين الأيوبي عندما تولى أمر مصر بتحصين مدينة دمياط فرتب فى عام ٥٧٧ هـ (١١٨٢ م) المقاتلة على البرجين وأمر بترميم سورها الذى كان يبلغ محيطه أربعة آلاف وستائة وستين ذراعا كما تم حفر خندق حول المدينة وعمل جسر عند سلسلة البرج^(٢) .

ومن ذلك يتضح أن وسائل تحصين المدينة كانت تتمثل فى البرجين والسور والخندق . والمقصود بالبرجين برج السلسلة الذى يقع فى وسط النيل وبرج آخر من أبراج المدينة مقابل له تمتد بينهما سلسلة من الحديد تزن حوالى مائة وثلاثين قنطارا^(٣) مصريا^(٤) . وكان رجال برج المدينة يرخون السلسلة إذا أرادوا أن تصعد السفن فى النيل ويشدونها إذا أرادوا منعها من ذلك . ومن الطبيعى أن يحرس البرجين الرجال الأشداء المزودون بالسلاح . ويعرف البرج الذى فى وسط النيل باسم برج السلسلة وهو أقرب إلى الضفة الغربية من

وأشار أنها كانت تقع شمال دمياط الحالية ولكنه لم يتمكن من تحديد مكانها تحديداً دقيقاً .

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 47. (١)

المقريزى: الخطوط ج ١ ص ٣٤٧ . (٢)

كان الحديد يوزن بالقنطار الجروى فى عهد الدولة الأيوبية : أنظر ابن ماقى : قوانين الدواوين ص (٣)

٣٦١ . والقنطار الجروى يزن مائة رطل كل رطل يساوى ٣١٢ درهما ، أى ٩٦,٧ كيلو جرام .

راجع : فالتر هنتس : المكايل والأوزان الإسلامية ترجمة كامل العسلى ص ٤١ . وعلى ذلك

يكون وزن السلسلة حوالى ١١٥٧١ كيلو جرام تقريبا .

Hist. Part. Alex. pp. 241-2, (٤)

الضفة الشرقية وهو في غاية المتانة والمنعة^(١). وكان من الحجارة ويتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الذي في الوسط الطابق الرئيسي لهذا البرج . ويعلموا البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة . | وفي أسفل البرج توجد السلسلة المتصلة ببرج المدينة^(٢) ومن الطبيعي استخدام هذا البرج مرشداً للسفن الآتية إلى دمياط والغادية منها . ونظراً لأهمية هذا البرج فقد أطلق المؤرخون عليه قفل دمياط أو قفل الديار المصرية^(٣). ويروى بعض المؤرخين أنه كان يوجد برج آخر على الضفة الغربية للنيل يتصل بسلسلة من البرج الرئيسي القائم وسط النيل . وعندما تغلق السلسلتان تمنع المراكب من الدخول أو الخروج من النيل^(٤). والأرجح أنه كان يوجد برجان وسلسلة واحدة وليس ثلاثة أبراج وسلسلتين وذلك حسب وقائع وأحداث هذه الحملة وشهود العيان لأحداث ذلك الزمان .

والوسيلة الثانية من وسائل التحصين هي السور . ويلاحظ أن السور كان يحيط بالمدينة من كافة الجهات . فمن الناحية البحرية الغربية كان يحيط بالمدينة سوران^(٥) ، كما أنه كان يحيط بالمدينة في بقية الجهات الأخرى ثلاثة أسوار^(٦) ويلاحظ أن هذه الأسوار لم تكن متساوية في الإرتفاع فكان السور الخارجي

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ ، راجع ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٠ ، ومن المصادر الأجنبية راجع أيضاً Vitry, op. cit. p 105

Roger of Wendover, op. cit., II. p. 406, Esacles, op. cit, pp. 326-7.

Vitry, Ibid, Oliver of Padenborn, op. cit., p.54. (٢)

Vitry, op. cit., p. 108 أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٩ : أنظر أيضاً (٣)

أبو شامة : نفس المصدر والصفحة ، راجع أيضاً : العيني : المصدر السابق مجلد ٥١ جـ ١٧ (٤)

لوحة ٣٧٤ ، ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٧٩ ، الحافظ الذمى المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٨ .

Vitry op. cit., pp. 125-6. | Patriarche de Jerusalem, Rapport au Pape Innocent III, Ibid. (٥)

Vitry, | Historia Orientalis. cf, Y. Kamal, op. cit., t. III, face. IV, P. 944. (٦)

أقل إرتفاعا ومهمته حماية الخندق المائي الذي يسير متوازيا حول السور الخارجى . وكان السور الأوسط أكثر إرتفاعا عن الخارجى ومحصن بثنائية وعشرين برجا بكل برج منها برجان أو ثلاثة أبراج صغيرة ، أما السور الثالث وهو الداخلى فهو أكثرهم إرتفاعا^(١) ، وكان بالمدينة أربعة أبواب وذلك طبقا للخريطة المعاصرة للحوادث^(٢) .

وكانت مدينة دمياط من المدن التجارية الهامة فضلا عن كونها ميناء كبير يحكم فى السفن المحملة بالبضائع الآتية من الهند وهى فى طريقها إلى سواحل الشام أو إلى أوربا وذلك بعد سداد ضريبة المرور^(٣) . وقد تراوحت هذه الضريبة بين عشرين وخمسة وثلاثين فى المائة من قيمة البضائع^(٤) . ولذلك فهى تدر دخلا عظيما لمصر . كما أنها كانت مدينة غنية مملوءة بالبضائع فضلا عن أنها كانت مأهولة بالسكان الذين بلغ عددهم وقتذاك حوالى سبعين ألف نسمة^(٥) ، ومن ذلك يتضح أهمية المدينة سواء بالنسبة للمسلمين أو للصليبيين .

نعود مرة أخرى إلى القوات الصليبية المتجمعة فى قلعة الحجاج بالقرب من عكا ، فقد صدرت إليها الأوامر للابحار جنوبا إلى عتليت حتى تتم الاستعدادات النهائية قبل الرحيل . وعندما حان الوقت المتفق عليه لرحيل الحملة بأكملها لم تكن بعض السفن قد جهزت تماما ومع ذلك صدرت الأوامر فى الرابع والعشرين من مايو ١٢١٨ م (٢٦ صفر ٦١٥ هـ) ، للسفن المستعدة للابحار بالتحرك تجاه دمياط ، وبقي الملك جان دى برين ورؤساء

Vitry, Lettres des Jacques de Vitry, p. 125.

(١)

Oliver of Padenborn, Ibid.

(٢) أنظر الخريطة رقم (٣) وبلاحظ أن المصادر العربية لا تشفى غليل الباحث فى الحصول على المعلومات الكافية عن مدينة دمياط القديمة .

(٣) Gesta Gruoigerorum Rhemanorum, cf. Y. Kamal, op. cit., t. III, face IV, p. 938.

(٤) وهى المعروفة بأخماس السفن : أنظر : ابن عماد : المصدر السابق ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، راجع أيضا القلقشنندى المصدر السابق ج ٣ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

Jullien, Ibid, Campbell, op. cit., p. 283.

(٥)

الهيئات الدينية ومعظم رجال الدين بسواحل الشام حتى تستعد باقي السفن الصليبية^(١). وربما تعجل الصليبيون دفع السفن التي تم تجهيزها بسبب قيام بعض الرياح الشمالية في هذا الوقت ، وقد استغلها الصليبيون في تسيير سفنهم عبر البحر إلى دمياط ، وكان على رأس طلائع الحملة يوستورج| رئيس أساقفة نيقوسيا ، والكونت سيمون الثاني أف ساربروكن Simon II of Saarbruken ، فضلا عن جاك دي فترى^(٢). وقد وصلت هذه الطلائع في السابع والعشرين من مايو ١٢١٨ م (آخر صفر ٦١٥ هـ) قبالة مدينة دمياط . ولكن الصليبيين لم يخاطروا بالنزول إلى البر لعدم وجود قائد معين عليهم من قبل الملك جان دي برين ، وعلى ذلك ظلوا في عرض البحر حتى التاسع والعشرين من مايو (٢ ربيع أول) ، ولعدم ظهور بشائر وصول بقية الأسطول الصليبي اقترح يوستورج| على الصليبيين إختيار الكونت سيمون أف ساربروكن قائدا عليهم^(٣). ويبدو أن هذا الاقتراح لم يقبله الجميع على الفور ، فقد وجدت بعض المعارضات البسيطة ولكن لم يلبث أن اقتنع به الجميع قائدا عليهم ، وكان على هذا القائد العمل على إنزال القوات الصليبية على الضفة الغربية للنيل^(٤).

وبدأ القائد المؤقت في إعداد الترتيبات اللازمة لانزال قواته على المنطقة المقابلة لمدينة دمياط وهي المعروفة بجيزة^(٥) دمياط^(٦). ويذكر تاريخ هرقل أن

Donovan, p. cit., p. 38.

(١)

Vitry, op. cit., p. 103-4 Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 223.

(٢)

Oliver of Padenborn, Ibid.

(٣)

Oliver of Padenborn, Ibid.

(٤)

(٥) الجيزة ، وهي الناحية أو جانب الوادي ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماة بهذا

الاسم عند مجاز النهر . أنظر : المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٨ حاشية (١) . وكانت

جيزة دمياط| تقع على الشاطئ الغربى للنيل تجاه مدينة دمياط وعرفت بعد ذلك باسم منه سنان

الدولة وسميت/ باسم السنانية . عن ذلك أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٦

حاشية (٢) . راجع أيضا : ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٦٣ ، المقرئى : الخطط مج ١

ص ٢١٦ ، جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٢٠ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافى

ج ٢ ق ٢ ص ٧٧ م

Vitry, op. cit., p. 103, Oliver of Padenborn, op. cit., p, 23

(٦)

الملك العادل كان يعلم بأمر رحيل الحملة ولكنه لم يعتقد أن تكون وجهتها مصر ، ولذلك لم يتخذ أى إجراء لمواجهة القوات الصليبية ومنعهم من تحقيق هدفهم^(١) ، لذلك تمكن الصليبيون من النزول إلى البر دون عائق يذكر^(٢) وكان إختيار جيزه دمياط إختيارا موقفا للغاية باعتبارها شبه جزيرة مثلثة ضلعها الشمالى البحر المتوسط وضلعها الشرقى نهر النيل والضلع الثالث هو خليج قديم يعرف باسم الخليج الأزرق^(٣) ، وتعتبر من الوجهة العسكرية منطقة محصنة تحصينا طبيعيا .

على أية حال بدأ الصليبيون فى إقامة معسكرهم فى هذا المكان ، وقد انتهوا من نصب خيامهم بعد ظهر نفس يوم الرسو^(٤) . أما فيما يتعلق بالملك بجان دى برين وبقية الحملة فقد أبحروا بعد إبحار الطلائع بثلاثة أيام ، أى فى السابع والعشرين من مايو (آخر صفة ٦١٥ هـ) ويلاحظ أنه نفس اليوم الذى وصلت فيه الطلائع أمام دمياط . كما وصلت إلى جيزة دمياط فى نفس اليوم الذى رست فيه الطلائع على أرض جيزة دمياط^(٥) ، وكان يرافق الملك الصليبي ليوبولد دوق النمسا ووليم أف بواسيه William of Poissé رئيس الفرسان الداوية وهرمان فون سالزا Hermann von Salza رئيس الفرسان التيوتون

Eracles, op, cit., p, 336.

(١)

Vitry, op, cit, p, 104: Oliver of Padenborn Ibid.

(٢)

Roger of Wendover, op, cit, II, P. 406.

ويلاحظ أن ما حدث فى هذه الحملة يختلف عما حدث فى حملة لويس التاسع على مصر فقد استعدت الجيوش الإسلامية لمنع لويس ورجاله من الرسو على جيزة دمياط . راجع : حوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٩٦ وما بعدها .

(٣) أنظر الخريطة رقم (٤) .

Vitry, Ibid.

(٤)

Vitry, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II. p. 405.

(٥)

وجارين أف مونتاجو Guerin of Montaigu رئيس الفرسان الاسبتارية^(١)، وقد أناب الأخير إسمبارد Isembard عنه في الشام^(٢). هذا بالإضافة إلى وليم كونت هولندا^(٣).

أما عن القوات الصليبية التي أتت إلى دمياط فقد ذكر المقریزی أن عددها بلغ أربعين ألفاً من المشاة ومائة وسبعين ألفاً من الفرسان^(٤). كما ذهب البعض إلى القول بأن عددها أكثر من ذلك، فذكروا أن عدد القوات بلغ مائتي ألف جندي^(٥). وبما لا شك فيه أن مثل هذه الأعداد مبالغ فيها لدرجة كبيرة حيث يتعذر على مثل هذه القوات الإقامة في جزيرة دمياط^(٦) كما أنه لم تكن هناك وسائل كافية لنقلها دفعة واحدة، وقد رأينا من قبل متاعب الفرنج بالنسبة لمشكة المواصلات وأعداد السفن اللازمة لهم، خاصة بعد أن زاد عددهم زيادة كبيرة. بينما ذكرت مراجع أخرى أن عدد القوات كان يتراوح بين عشرين وثلاثين ألفاً^(٧). وربما لا يكون مثل هذا العدد متناسباً مع ما قامت به الحملة من أعمال. والأرجح أن هذه القوات بلغت في جملتها ما يقرب من أربعين ألف جندي^(٨).

وعلى أية حال فقد وصل الفرنج إلى بر جزيرة دمياط، وبعد أن أطمأنوا برسوهم في هذا المكان دون مقاومة تجمعوا وامتطى فرسانهم الجياد وسار الجميع مدججين بالسلاح وبجانبهم سفنهم تسير بحذائهم في النيل، وساعدهم

Vitry, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 435-6

(١)

Delaville|Leroux, J. Les Hospitaliers|en Terre Sainte et a Chypre,

(٢)

-p. 144.

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 20.

(٣)

المقریزی : الخطط ج ١ ص ٢٤٨ .

(٤)

Gibbon, op. cit., p. 71.

(٥)

عبد الرحمن زكي : معارك حاسمة في تاريخ مصر ص ١٤ حاشية (٢) .

(٦)

King, op. cit., p. 191.

(٧)

Campbell, op. cit., p. 283.

(٨)

على ذلك إتساع النيل عند مدخل فرع دمياط^(١) . ولكن وجود برج السلسلة حال دون تقدم صفوفهم لتصبح في مواجهة المدينة لأن البرج يقع موازيا تقريبا للسور الشمالى لدمياط^(٢) ، لذلك فإن العمل الأساسى الذى واجه الحملة فى أول أمرها هو ضرورة الاستيلاء على برج السلسلة ليتمكن رجالها من تمرير صفوفهم داخل النيل لتكون فى مواجهة المدينة فيسهل عليها مهاجمتها من ناحية النيل ، كما يكون فى وسعهم أيضا إذا ما تخطوا السلسلة ، إنزال جنودهم مباشرة على الضفة الشرقية للنيل جنوبى دمياط^(٣) ، وقد حال برّج السلسلة دون حصار دمياط برا أو بحرا واستحق أن يسمى قفل الديار المصرية .

وإذا كان هذا هو موقف الجيش الصليبي فى جيزة دمياط ، فإن موقف أهل دمياط تجاه الحملة كان يتسم بالدفاع عن بلادهم دون إتباع سياسة الهجوم ، فقد فوجئ سكان المدينة بتواجد الصليبيين أمامهم مرابطين فى جيزة دمياط يتحفظون للهجوم عليهم . فاستعدوا للدفاع عن مدينتهم كما قاموا أيضا بتخزين الدقيق والقمح والخبز وكافة المؤن الأخرى^(٤) . وفى الوقت نفسه أرسلوا إلى الملك الكامل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) الموجود بالقاهرة نائبا عن والده الملك العادل - المقيم فى هذا الوقت بمرج الصفر بالشام - وأخبروه عن طريق الحمام الزاجل بتواجد الصليبيين فى جيزة دمياط . فخرج الكامل مسرعا فى اليوم التالى واتخذ طريقه إلى دمياط ، كما طلب من والى الغربية^(٥) وهو فى الطريق أن يجمع سائر العربان وينضم إلى قواته وسار الجميع حيث استقروا فى المكان الذى سمي بالعادلية^(٦) جنوبى دمياط ، كما سار

(١) Eracles, op. cit., p. 326

(٢) Roger of Wendover, op. cit., II. p. 404.

راجع أيضا الخريطة رقم (٣) .

(٣) Vitry, op. cit., p. 105 : Oliver of Padenborn, op. cit., p. 23.

(٤) Hist. Pate. Alex., p, 240

(٥) الغربية ، أحد أقسام مصر الادارية فى ذلك الوقت ، أنظر ابن ممالى : المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٦) العادلية ، تقع بين دمياط وفارسكور على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل قرية بورة أنظر : ابن

واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٠ حاشية (٢) .

الأسطول الإسلامي في فرع دمياط واستقر في شارمساح^(١). وبدأ الكامل في إدارة العمليات العسكرية ضد الصليبيين من العادلية، كما صار يتنقل بين دمياط والعادلية عدة مرات في اليوم لتدبير أمور الحرب. وكان ما يشغل بال الكامل في هذا الوقت هو عدم تمكن الصليبيين من العبور إلى الضفة الشرقية للنيل^(٢)، والحيلولة بينهم وبين الاستيلاء على برج السلسلة.

أما الملك العادل فعندما علم بنزول الصليبيين قبالة دمياط إنتقل من مرج الصفر إلى عالقين^(٣)، وبدأ في إرسال ما عنده من العساكر إلى مصر^(٤). وبدأت العساكر تتوافد على مصر أولاً بأول حتى أنه لم يبق عنده من العساكر إلا القليل^(٥). ولم يكتف بذلك بل طلب من ابنه المعظم عيسى ملك دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م) بالتقدم إلى معاقل الصليبيين بالشام ليشغلهم عن دمياط^(٦). ومن الملاحظ أن سياسة الضغط على أملاك الصليبيين بالشام كانت سياسة قديمة إتبعها نور الدين زنكي عندما كان الصليبيون يقومون بالهجوم على مصر. كما طلب أيضاً من ابنه المعظم تخريب

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٩ ، ابن الوردي : تمة المختصر ج ٢ ص ١٣٤ . Hist. Part. Alex. Ibid وكانت شارمساح قرية كبيرة كالمدينة من كور الدقهلية مساحتها : ١٢٩ فدانا . بينها وبين دمياط خمسة فراسخ (حوالى ٣٩ كيلو) انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٢ ، ابن عمادى : المصدر السابق ص ١٥٣ ، ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٧٣ ، راجع أيضاً : جوزيف نعيم يوسف العنوان الصليبي على مصر ص ١٤٧ حاشية (٢) .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١١ ، راجع أيضاً : ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٠ ، ابن بهادر : فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر (مخطوط) ورقة ١٠١ .
(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١١ . وعالقين قرية بظاهر دمشق . انظر : المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية (٢) ، لى سترايج ، فلسطين في العهد الإسلامى [ترجمة محمود عمادى ص ٤١٥ .

(٤) أبو شامة . المصدر السابق ص ١٠٨ ، ابن الجوزى . المصدر السابق ج ٢ ق ٢ ص ٥٩٢ .
(٥) ابن واصل . المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦١
(٦) أبو المحاسن . المصدر السابق ج ٦ ص ٢٠ .

حصن الطور رغم أهميته البالغة وذلك لسبيين ، أولهما ، إستغلال ما فيه من الرجال والعتاد في إنجاد دمياط ، وثانيهما ، خشية إستيلاء الصليبيين عليه إذا ملكوا دمياط فيكون « سببا في خراب الشام » . والواقع أن المعظم لم يرض عن تخريب الحصن لدرجة أنه « بقي أياما لا يدخل إلى أبيه العادل » . ولكن العادل بعث إليه واسترضاه بالمال « ووعدته في مصر ببلاد » ويبدو أن هذا العرض من قبل العادل قد أراح الملك المعظم فبدأ في هدم الحصن^(١) ، وبعث من كان فيه إلى القدس وعجلون^(٢) والكرك^(٣) ، تمهيدا لإرسالها إلى مصر . وفي الوقت نفسه أمر العادل ابنه الأشرف موسى أن يدخل إلى بلاد الصليبيين أيضا لمهاجمتها . ولبي الأشرف نداء والده ورحل في عساكره إلى بلاد الفرنج ودخل صافينا^(٤) « فخرّب ربضها ونهب رساقها وهدم ما حول الحصن » . ثم توجه إلى ربض حصن الأكراد ونهبه وحاصر القلعة حتى كاد يستولى عليها ، وعاد بعدها إلى بحيرة قدس (الحولة) ، مرابطا للصليبيين . ولكنه اضطر للعودة إلى حلب لعلمه أن ابن عمه الملك الأفضل إستغل فرصة إنشغاله بأمر الصليبيين وطمع في إمتلاك المدينة ، فأرسل العادل الملك المجاهد أسد الدين شركوه صاحب حمص بدلا منه^(٥) . وبعد عودة الأشرف إلى حلب أرسل من جانبه الأمير سيف الدين كهذان والمبارز بن خطلخ على رأس جماعة من العساكر إلى

(١) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٥٩٣ ، أبو شامة . المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٢) عجلون ، تقع في قضاء جرش وتتبعها قلعة خصينة جدا تمتاز بالمياه الجارية والفواكه المتوفرة والحاجيات الرخصية الكثيرة . أما قلعتها فتقع على مكان مرتفع جدا يمكن رؤيته على بعد رحلة أربعة أيام . لي ستراخ . المرجع السابق ص ٤١٦ .

(٣) ابن أبيك : كنز الدرر (مخطوط) ج ٧ ورقة ١٧٨ .

(٤) صافينا ، من أشهر قلاع الفرسان الداوية ، وبها برج يسمى الفرنج القصر الأبيض ، ويقع فوق جبل مرتفع إلى الجنوب الشرق من جزيرة ارواد ، وقد فتحه الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ .

(١٢٧١ م) . ابن الشحنة : الدرر المتخبط ص ٣٦٧ ، جوزيف نعيم يوسف : المدون

الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية (١) .

Dussaud, op. cit., Planche 148.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٥ - ٢٦٦

دمياط لنجدة أخيه الكامل^(١) . ويضيف ابن واصل اليهما مبارز الدين سنقر الحلبي ، ويذكر أن الأشرف أرسل هؤلاء الثلاثة إلى دمياط للتخلص منهم لأنهم كانوا « يضمرون الغدر به »، ويسبب ميلهم إلى الملك الأفضل أيضا^(٢) .

أما تاريخ هرقل فقد جاء فيه أن العادل لما علم بتزول الصليبيين على دمياط أحضر ابنه الملك المعظم وأبلغه خوفه على الديار المصرية من الصليبيين وأبلغه أن الحل الوحيد لإخراج القوات الصليبية من مصر هو التنازل لهم عما كانوا يملكونه قبل فتوحات صلاح الدين، وأضاف أنه يمكن التضحية بالجزء لانقاذ الكل وهي مصر^(٣) . ويلاحظ أن المصادر العربية لم تتعرض بكلمة واحدة لمثل هذه النصيحة التي أسداها العادل لابنه المعظم . ومن المستبعد إلى حد ما صدور مثل هذا الرأي عن العادل شريك صلاح الدين في الجهاد ضد الصليبيين . فضلا عن أن المصادر الإسلامية المعاصرة والمتأخرة أسهبت في ذكر استعداداته لمواجهة الأعداء ودفعهم عن البلاد . فلا يقبل الأمر هكذا أن يفكر بكل سهولة في التنازل لهم عن البلاد التي إستردها منهم مؤسس الأسرة الأيوبية .

وعلى أية حال ، فإن الكامل ظل يواصل إستعداداته للدفاع عن دمياط بمساعره والمساكر التي كانت تصل اليه تباعا من الشام في الوقت الذي كان يقوم فيه المعظم والأشرف والمجاهد بالضغط على أملاك الصليبيين بالشام لصرف نظرهم عن مصر . كما أن الصليبيين بعد أن تمكنوا من الإقامة في جيزة دمياط شرعوا في بناء سور حول معسكرهم « وجعلوا حندقا يمنعهم ممن يريدهم »^(٤) وفي الوقت نفسه أرسلوا إلى البابا هونوريوس الثالث في الخامس عشر من يونية (١٩ ربيع أول) من العام نفسه يطلبونه برسوهم بأرض مصر

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٢٢ . ابن أبيك . كنة الدين . ج ٧ . ق ١٧٩ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣ ٢٢

(٣) Eracles, op, cit., pp, 349 330.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٠ ٢١١

دون مقاومة . كما أرسلوا أيضا إلى الامبراطور فريديريك الثاني كتابا بنفس المعنى^(١). ولعل القادة الصليبيون قصدوا بذلك أن يستحثوا الامبراطور الألماني على القدوم إلى مصر باعتباره قد وعد أن يلحق بالحملة ويهونوا عليه الأمر وحتى يستفيدوا من القوات التي تأتي معه من مواصلة الهجوم على مصر .

والواقع أن المناوشات العسكرية بين الطرفين لم تنقطع منذ أن وطأت أقدام الصليبيين جيزة دمياط ، ولكنها كانت غير فعالة^(٢). وربما يرجع ذلك إلى أن كل طرف منهم يواصل استعداداته لهجوم أفضل ، أو ربما بسبب سير أغوار القوات الأخرى . ولما كان الهدف الأول للصليبيين هو الاستيلاء على برج السلسلة فقد جهزوا المنجنيقات لضرب البرج وضرب دمياط في الوقت نفسه لشغلها عن إنجاد البرج . وظلت الأحجار تتساقط ليلا ونهارا في وسط المدينة وقد تسبب ذلك في جرح عدد كبير من سكانها^(٣). ورغم هذا ظلت المدينة تقاوم الهجوم الصليبي بشدة . ويلاحظ أن أبواب مدينة دمياط كانت مفتوحة والمؤن والعساكر تخرج وتدخل منها وذلك لبعدها عن أيدي الصليبيين والكامل يتردد عليها من آن لآخر لترتيب أمور الدفاع عنها، ولتشجيع أهلها على الصمود^(٤).

وإزاء مناعه البرج والمدينة قام الصليبيون بهجوم مكثف على دمياط استعدادا له بما يقرب من سبعين أو ثمانين سفينة مزودة بسائر^(٥) من الخشب

(١) L.F Crusade, op. cit., dated 15th June 1218, p.40

(٢) Hist. Patr. Alex., P. 241.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 407-9

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٢ .

(٥) الستائر : وهي آلات الوقاية من الطوارئ ، وما في معناها مما يستر به على الاسوار والسفن التي

يقع فيها القتال ونحو ذلك . القلقشندي : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٨ . ويذكر عبد الفتاح

عبادة : أن من المبالغة من الاختفاء وضع قلوعا زرقاء على السفن فلا تظهر من بعيد وهذه القلاع

كانت تسمى الستائر . سفن الاسطول المصري ص ٩ . وعن الستائر أنظر أيضا التقرير السلوك

ج ١ ق ١ ، ص ١٠٢ حاشية (٣) .

لحمايتها من رماح المسلمين وقذائفهم ، وشنوا هجوما على المدينة يوم الجمعة الثاني والعشرين من يونية ١٢١٨ م (٢٦ ربيع أول ٦١٥ هـ) من الناحية الشمالية، في الوقت الذي كان يحمى فيه السفن المهاجمة غطاء من قذائف المنجنيقات المثبتة على الشاطئ الغربي حيث يعسكر الصليبيون . وتمكنت السفن من الاقتراب من أسوار المدينة، وقد تسبب هذا الهجوم الكبير في إثارة الرعب في نفوس المسلمين . ولكنهم صمدوا للدفاع عن مدينتهم^(١) ، مما أعجز الصليبيين من تسلق أسوار المدينة أو التمكن منها . وعند أدرك الصليبيون أنهم عاجزون عن الوصول إلى المدينة عادوا أدراجهم إلى معسكرهم في جزيرة دمياط ، بينما ظلت قذائف المنجنيقات تنال على المدينة لإلحاق الضرر بها^(٢) .

ولما كانت السلسلة هي العقبة الأساسية التي تعوق تقدم السفن الصليبية^(٣) ، لذلك أخذ فرسان الداوية إحدى سفنهم وزودوها بأربعين فارسا من فرسانهم بالإضافة إلى بعض الرجال الآخرين المسلحين وقد بلغوا في جملتهم حوالي ثلاثمائة من الصليبيين . وكانت خططهم تنحصر في تسيير السفينة بمن عليها ويجعلوها تصطدم بالسلسلة وتحطمها . وبدأوا في تنفيذ خططهم ، وما لبثوا أن إقربوا من السلسلة حتى استقبلهم المدافع عن البرج بالحجارة والنبال فانتابهم الدعر^(٤) . وحاولوا التراجع بسرعة إلى حيث كانوا ، ولكن شدة القذف أذهلتهم . وساقوا السفينة إلى الضفة الشرقية للنهر تجاه المدينة . ولكنهم تداركوا الأمر وإستطاعوا أخيرا الابتعاد عن أسوار المدينة . وقد شجعت الصورة التي ظهر بها الصليبيون على مهاجمة المسلمين لهم فاستقلوا سفنهم وإنقضوا على سفينة الداوية ، ولما أدرك الداوية أنهم هالكون لا محالة ، ثقبوا السفينة ففرقت بمن عليها من الصليبيين ويقدر عددهم بحوالي مائة وأربعين

Roger of Wenbover, op. cit., II, p. 407.

Hist. part. Alex., P. 241.

Oliver of Padenborn, p. 24.

Roger of Wendover. Ibid

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

رجلا . وكذلك استشهد عدد من المسلمين وقدر عددهم بحوالى الف وخمسمائة من الرجال كما جاء فى تاريخ هرقل ، وساد الحزن المعسكرين الإسلامى والصليبي للخسارة الناجمة عن هذه المحاولة^(١) ولا شك أن عدد الفرق من المسلمين مبالغ فيه بصورة واضحة .

وبعد ما فشل الصليبيون فى تحطيم سلسلة البرج عاودوا الهجوم مرة أخرى على المدينة والبرج معا فى وقت واحد ، ففى الأسبوع الأخير من شهر يونية ١٢١٨ م (أواخر ربيع أول وأوائل ربيع ثالى ٦١٥ هـ) قام ليوبولد دوق أستريا ومعه بعض الفرسان الاسبتارية بمحاولة لتسلق أسوار المدينة وإستعمل فى هذه المحاولة السلام المتحركة^(٢) المثبتة على السفن . ولكن هذه المحاولة فشلت عندما كسرت هذه السلام تحت ثقل القوات الصليبية المهاجمة مما أدى إلى غرق كثير من الجنود . أما فيما يتعلق بالهجوم على البرج فقد قام بهذه العملية أدولف Adolf كونت برج Berg ومعه بعض الفريزيين والألمان فى نفس الوقت الذى كان يقود فيه ليوبولد دوق أستريا عملياته الفاشلة على المدينة . واستخدم أدولف فى هذه المحاولة إحدى السفن الصليبية ، وقد منيت هذه المحاولة هى الأخرى بالفشل بفعل النار الأغريقية^(٣) التى قذف بها المسلمون السفينة

(١) Eracles. op. cit., p. 327.

(٢) نوع من السلام ترتفع وتنخفض بواسطة عجلة دائرية متصلة بالسلام عن طريق الحبال وتستخدم بالارتفاع المناسب للمكان المراد مهاجمته بعد أن يصعد عليها المهاجمون أنظر :

Hist. Patr Alex., p. 241.

(٣) النار الاغريقية ، سُميت هكذا لأن مخترعها مهندس اغريقى يدعى كالينيكوس/Callinicus من مواطنى مدينة هليوبولس بسوريا ، اخترعها فى عهد الامبراطور قسطنطين الرابع . وكانت بعض عناصرها مكونة من مزيج من النفط والكبريت بمجمد بنوع من الصمغ القابل للاشعال . وكان هذا المزيج يوضع فى أنابيب من النحاس لما فم توقد منه ، وفى مؤخرتها قوس يدفعها حين توتره إلى الإمام . وكانت تلك الانابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلة مستديرة ، وتلقى فى مدافع المنجنيق ، ثم تقذف على العدو فتصلبه نارا حامية وتحدث به اضرار جسيمة . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

Joinville, Memoirs of Saint Louis IX., pp. 405-7, n. I.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العنوان الصليبي على مصر ص ١٥٦ حاشية (٢) .

المهاجمة^(١) . ورغم الخسائر التي لحقت بالقوات الصليبية في هاتين المحاولتين فقد أعدوا عدتهم مرة أخرى للهجوم على المدينة والبرج في آن واحد أيضا ، ولكن بتركيز أكثر على البرج منه على المدينة . ففي أول يوليو من نفس العام ز ٥ ربيع ثاني ٦١٥ هـ) زود الصليبيون أربع بطسات^(٢) ببعض الأبراج الصغيرة ، وثبتوا فوق هذه الأبراج بعض السلام المتحركة لتضيف إلى الأبراج مزيدا من الارتفاع يجعل في استطاعتهم الوصول إلى المدافعين عن البرج وقد أخفيت هذه السلام بقطع من القماش حتى لا تراها حامية البرج . وبعد هذه الاستعدادات إتجهت ثلاثة من البطسات لمهاجمة البرج في حين قامت الرابعة بمهاجمة المدينة^(٣) وقد بذل الصليبيون المكلفون بمهاجمة البرج مجهوداً كبيراً حتى تمكنوا من الرسو أمامه وجاولوا إسناد أحد السلام المغطاة بالقماش إلى جدار البرج^(٤) . وفي الوقت نفسه قام المكلفون بالهجوم على سور المدينة بتنفيذ نفس الخطة ، وكان الفشل حليف هاتين المحاولتين بسبب بسالة المدافعين عن البرج وعن المدينة . فقد انهالت القذائف من البرج ومن المدينة على المهاجمين مما اضطرتهم إلى التراجع^(٥) ، كما كسرت السلام المثبتة أعلا الأبراج بفعل ثقل الجنود المزودين بالدروع الحديدية^(٦) . وكانت خسارة الصليبيين كبيرة لأن

(١) Vitry, op. cit., p, 106, Oliver of Padenborn, cit., p, 24.

(٢) البطسة ، ومعناها بالاسبانية مركب للتجارة أو للحرب وهي نوع من المراكب البحرية عظيمة الحجم كثيرة القلوع يصل عددها إلى حوال اربعين شراعا في البطسة الواحدة وهي أشهر أنواع السفن الصليبية وقد لعبت دورا كبيرا في الصراع الإسلامي الصليبي وكانت تزود بالمنجنيات والمقاتلة والأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب والحصار فضلا عن المؤن اللازمة . وكانت ذات أسطح عالية وطبقات متعددة كل منها خاصة بفرقة من الجنود الذين يصلون إلى ستائة وخمسون رجلا أو أكثر . انظر السيد عبد العزيز وأحمد مختار العبادي : المرجع السابق ص ١٣٦ ، سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٢١ - ٣٢٢ ، عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول المصري ص ١١ ، ٢٢ .

(٣) Hist. Patr, Alex., P. 241.

(٤) Eracles, op. cit., pp. 328-9.

(٥) Vitry, op. cit., p. 106, Olive of Padenborn, op cit., pp. 24-5.

(٦) Hist. Patr. Alex. Ibid.

السلام قد كسرت من وسطها فأدى ذلك إلى سقوط النصف الأعلى منها وما عليه من الجنود في النهر^(١) ففرق منهم عدد كبير^(٢) ، وإبتهج المسلمون بهذا النصر ودقت الطبول داخل مدينة دمياط والقاهرة كما زينت الشوارع بالأعلام^(٣) . أما الصليبيون فقد ملأهم الغيظ وتراجعوا بسفنهم إلى الخلف وعادوا إلى معسكرهم المقام في الضفة الغربية لليل في الوقت الذي ظلت فيه القذائف الصليبية تنال على البرج وعلى المدينة^(٤) ، لتغطية انسحاب إخوانهم بعد محاولتهم الفاشلة وإنكسار آلائهم^(٥) ، ولا شك أن ذلك قد فت في عضدهم وثبط من روحهم المعنوية إلى حد كبير .

ونتيجة للتجارب السابقة لمحاولة الوصول إلى أسوار المدينة أو البرج والتي انتهت جميعها بالفشل ، بدأ الصليبيون يعملون على هجوم مكثف وبتركيز أدق على البرج . فقد أشار أوليفر أف بادنبورن إلى فكرة تعتبر جديدة في الفنون العسكرية في ذلك الوقت المبكر^(٦) . وهذه الفكرة هي وضع بطستين جنباً إلى جنب وربطهما مع بعضهما بعروق من الخشب حول محيطهما وبذلك تصبح قطعة واحدة ، ثم يقام فوقهما أربع صواري من الخشب يشيد أعلاها برجا من الخشب تضاف إليه الستائر الخشبية لحمايته ، ثم يوضع فوق البرج سلما متحركاً ينخفض ويرتفع عن طريق عجلة من المعدن^(٧) . وهكذا أصبحت البطستان كالقلعة العائمة ، ثم غلفوها بالنحاس الأحمر وجلود الحيوانات حتى لا تتأثر بالنار الأغريقية وأضافوا إليها أحد المنجنوقات الذي ثبتوه فوق البرج^(٨) . وبهذا البرج العائم الذي استحق عليه أن يسمى أوليفر وهو من

(١) Eracles. op. cit., p. 328.

(٢) Vitry, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II, P 407

(٣) Hist. Patr, Alex. Ibid.

(٤) Eracles, op. cit., p. 329.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١١ .

(٦) Vitry, op. cit, p. 106, Roger of Wenpover, op, cit., II, p. 408.

(٧) Hist. Patr. Alex., pp. 242-3, Oliver of Padenborn op. cit., p. 25.

(٨) Roger of Wendover, Ibid.

سقطت مصر كلها على سخذ تعبير جاك دي فترى (١) ، وقتل الديار المصرية كلها حسب مارواه أوليفر أف بادنبورن (٢) . وليس هناك من سبيل للوصول إلى القاهرة باعتبارها تقع في قلب مصر ولا يمكن الوصول إليها بحرا إلا عن طريق دمياط أو الاسكندرية أو رشيد . واستبعد الصليبيون مدينة الاسكندرية فلم يسبق لهم الاغارة عليها بحراً ، فضلا عن بعدها عن مراكز إمدادهم في عكا . كما أن الصليبيين لا يمكنهم الاتصال من الاسكندرية باماراتهم في الشام إلا عن طريق البحر . أما من دمياط فيمكن الاتصال بها عن طريق البحر كما يمكن الاتصال بها عن طريق البر إذا تيسر لهم ذلك . وربما لنفس الأسباب أى صعوبة الاتصال من الاسكندرية باخوانهم في الشام استبعد الصليبيون مدينة رشيد أيضا (٣) . كما أن هذه المدينة لم تكن في تعداد المدن الهامة في مصر وأن الاستيلاء عليها لا يؤثر كثيراً في الخطة العسكرية بعكس الحال بالنسبة لدمياط باعتبارها قفل الديار المصرية (٤) ، ثم أنه بإمكان

Vitry, op. cit., p 102.

- ١

Oliver of Padenborn. op. cit., p. 47.

- ٢

٣ - أرسل نيقولا Nicolas بطريق جماعة الملاكانيين بالاسكندرية خطابا الى البابا هو نوربوس الثالث في عام ١٢٢٢ م ، أى بعد جلاء القراة الصليبية ، يخبره . فيه أن أسلم طريق لغزو مصر هو دخول السفن الصليبية عن طريق فرغ رشيد باعتباره أوسع وأعظم من فرع دمياط . فضلا عن خلوه من أى عائق . أنظر :

Nicolas I, Lettre au Pape Honéré III, cf., Michaud: Histoire des Croisades, III, pp 697-9.

Patriarche de Jerusalem, Rapport an Pape Innocent III, - ٤

dated 1214, cf., Y, Kamal, op. cit.; t. III, face, IV, p. 932.,

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 422.

الذى كان يبلغ خمسة وأربعين قدما وما عليه من ثقل الجند ، وفضلا عما انتابهم من الذعر من جراء النيران المشتعلة ، سقط حامل الراية لدوق استريا وبعض الجنود الآخرين في النهر وابتلع المسلمون بهذا النصر في الوقت الذي رقد فيه رادلف بطريق بيت المقدس على الأرض حاملا شظية الصليب يصلى بصوت عال طالبا المساعدة الإلهية لنجدة اخوانه الصليبيين ، ولم تفت هذه الهزيمة في عظم الصليبيين ، فقد تمكنوا من أخماد النيران بعد جهد متواصل ، وتمكنوا من تجميع أنفسهم مرة أخرى واستعادوا مواقعهم على قلعتهم العائمة بعد أن أعدوها مرة أخرى للهجوم على البرج^(١) .

وفي هذه المرة تقدم المهاجمين أحد فرسان التوتون الألمان يدعى ليتوت Nitot ، وصعد أعلا السلم ممسكا بيده مقلاعا مكونا من عصا مكسوة بالحديد يبلغ طولها حوالي ثلاثة أقدام مثبت في نهايتها سلسلة من الحديد يصل طولها إلى ما يقرب من قدمين تنتهى بكرة من الحديد ذات ستة أسنان بارزة . وتقدمت القلعة العائمة إلى البرج وهو يلوح بالمقلع بعنف شديد لدرجة أن أحدا من رجال حامية البرج لم يحرز على مهاجمته أو الإقتراب منه وفي الوقت نفسه تمكن اثنان من الجنود الصليبيين المزودين بالرماح من دفع عساكر البرج المواجهين لهم بعد ما طعنوهم برماحهما مما ساعد ليتوت على الوصول إلى البرج ، خاصة وأن الصليبيين استعملوا ستارا من الدخان في هذه العملية لحجب الرؤية عن المدافعين عن البرج ، وتحت هذا الستار تتابع الصليبيون في الوصول إلى الطابق الرئيسى للبرج وأعملوا القتل فيمن وجدوه به من العساكر الإسلامية ، ومن نجا من القتل وقع في قبضتهم أسيرا ، وألقى الباقيون بأنفسهم في النهر وتمكن الصليبيون من انتشال بعضهم وضموهم إلى قائمة الأسرى ، ونجح الباقيون في الوصول سباحة إلى بر دمياط^(٢) ، كما استولى الصليبيون على علم

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., pp- 26-7, Vitry, op. cit., p. 106.

(٢) Oliver of padenborn, op- cit., pp. 27-8. Eraclee, op. cit., p. 528.

Vitry, op. cit., p, 107, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 409-410.

• Hist. patr. Alex.,p. 243.

الملك الأيوبي ، ورفضوا مكانه على البرج العلم الصليبي . . وهكذا نجح الصليبيون في الإستيلاء على البرج في الرابع والعشرين من أغسطس ١٢١٨ م (٢٩ جمادى الأولى ٦١٥ هـ) بهذه الصورة التي صورها المؤرخون الأوروبيون على أنها عمل من أعمال البطولة غير العادية التي الصقوها بالجنود الصليبيين . ونما يجعلنا نأخذ بهذه الرواية مع شيء من التحفظ لا في نتائجها ، بل في تفاصيل حوادثها ، هو أن المصادر الإسلامية صمتت عن ذكر تفاصيل هذه الحادثة . ولكنها متفقة في النتيجة التي أوردتها المصادر والمراجع الأجنبية وهي سقوط البرج في أيدي الصليبيين بعد قتال دام حوالى أربعة أشهر .

والمهم أن الصليبيين إستولوا على البرج كما استولوا أيضا على كل ما وجدوه بداخله من السلاح والمؤن والعتاد^(١)، وذلك بفضل إقتراح أوليفر بإنشاء القلعة العائمة^(٢)، وتحكموا في مدخل فرع دمياط . وكان أول ما فعلوه هو تحطيم سلسلة البرج التي عاقت تقدمهم منذ أن وطأت أقدامهم جيزة دمياط وتمكنوا من تسيير مراكبهم في النيل^(٣) . كما قام الدخلاء بإغلاق باب البرج المواجه للمدينة وفتحوا الباب المقابل لمعسكرهم في الضفة الغربية للنيل ، كذلك شيدوا جسراً من السفن ليصل بين معسكرهم والبرج بعد ما حطموا الجسر القائم الذي كان يصل بين البرج والمدينة^(٤) . وعلاوة على ذلك فقد زود الصليبيون البرج بكل ما يحتاجون اليه من أدوات القتال^(٥) .

وفي الوقت نفسه كان لأخبار إستيلاء الصليبيين على البرج أسوأ الأثر في

(١) ابن الأثير : المصدر السابق انظر : نفس الجزء والصفحة ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٩ - ٢٦١ ، ج ٤ ص ١٥ ، أنظر أيضا : أبو الحسن : المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٠ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٠ .

(٢) Hist. Part. Alex., p. 242.

(٣) Rohricht, Geschichte du Kreuzzuge im Umriss, P. 200

(٤) Vitry, op. cit., p. 109.

(٥) Hist. part. Alex., P, 242.

Eracles op. cit., p. 323

نفوس المسلمين وأرسل الملك الكامل إلى أبيه العادل الذي كان لا يزال مقيما
 بمرج الصفر رسولا من قبله هو شيخ الشيوخ صدر الدين^(١) يخبره بسقوط
 البرج ويستصرخ به . ووقع الخبر على العادل وقوع الصاعقة ودق بيده على
 صدره أسفا وحزنا ومرض بساعته^(٢) ، وكان مرض الموت^(٣) . ورحل من مرج
 الصفر إلى عالقين ولكنه لم يلبث أن توفي يوم الخميس السابع من جمادى
 الآخرة عام ٦١٥ هـ (٢١ أغسطس ١٢١٨ م)^(٤) ، ورغم كثرة أولاده فلم
 يكن أحدا بجانبه ساعة وفاته فقد كانوا متفرقين في البلاد^(٥) . ولم يعلم بوفاة
 حينئذ سوى كريم الدين الجلاطى^(٦) فأرسل بطاقة إلى نابلس حيث كان الملك
 المعظم يخبره فيها بوفاة والده ، وقد حضر المعظم على الفور « واحتاط على
 الخزائن وصبر العادل »^(٧) .

ونظرا لما قد يحدثه خبر وفاة الملك العادل من تأثير على الروح المعنوية

(١) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام ، ويرجع أصله إلى
 أسرة فارسية متصوفة وكان أفرادها فقهاء شافعية ، هاجر فرع منها إلى الشام وتمتعوا بنفوذ كبير
 في زمن بني أيوب الأواخر خاصة الملك الكامل وأولاده وكان صدر الدين لقيها فاضلا وصوفيا
 صالحا وقد توفي سنة ٦١٧ هـ . عن ذلك أنظر : ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩١ .
 وقد استمع منه المؤرخ ابن الجوزي إلى ما دار من حوادث في دمياط . أنظر : ابن الجوزي :
 المصدر السابق ج ٨ ق ٣ ص ٧٠٥ - ٧٠٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق : ج ٦ ص ٢٤٣
 - ٢٤٤ .

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٨ ص ٥٩٣ .

(٣) المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٠ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٩٢ ص ٢٣٩ . أنظر أيضا :

Oliver of Padenborn, of. cit., pp. 30-1 .

(٥) ابن أبيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٧٠ ، البغدادى : عيون الأخبار (مخطوط) ج ٢ لوحة
 ٤١٠ .

(٦) كريم الدين الجلاطى ، من أخص أصحاب الملك العادل وقد أخفى خبر وفاته . أنظر : ابن
 واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧٥ . ثم صار من أخص أصحاب الملك المعظم أنظر : المصدر
 نفسه ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٧) السلامى : مختصر التواريخ (مخطوط) ورقة ٣٢١ .

لعساكره المسلمين المرابطين في دمياط وخاصة بعد سقوط برج السلسلة . فقد أخفى خبر وفاة الملك ، وحمله في محفة^(١) وصور الناس عن طريق الخدم والأطباء أنه لازال حيا . وحمل جثمانه إلى دمشق حيث غسل وكفن ودفن سرا في القلعة ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة العادلية بدمشق أيضا^(٢) وجدير بالذكر أنه بعد وفاة العادل ثبت أولاده كل منهم في المملكة التي أعطاهما له أبوه . ويلاحظ أن الأولاد « إتفقوا إتفاقا حسنا » في هذا الوقت ولم يحدث بينهم من الاختلافات ما جرت عليه العادة بين أبناء الملوك بعد وفاة آبائهم ، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق في الآخر ثقة عمياء ، فكانوا نعم الملوك في الجهاد والدفاع عن الإسلام^(٣) . وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على هزيمة الصليبيين .

ويهمنا في هذا الموضع أن الملك الكامل خلف والده في حكم مصر ووقع عليه العبء الأكبر في الدفاع عنها وطرد المعتدين . وكان أول ما فعله هو إقامة جسر عظيم بعرض مجرى النيل بدلا من السلاسل لمنع الصليبيين من صعود النهر^(٤) . وقد أقيم هذا الجسر جنوب برج السلسلة وليس يبعد عن المعسكر

(١) محفة : وهي حمل على أعلاه قبة أوله أربعة سواعد ، ساعدان في الامام وساعدان في الخلف وتغطى بالجوخ أو الحرير ، وتعمل على بغلين أو حمارين يكون أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة والراكب فيها يشعر كأنه في سريره ، وكان من عادة الملوك والأمراء اصطحابها معهم في أسفارهم . أنظر : صبح الاعشى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٣٠ . وعن حياة العادل وسيرته ووفاته راجع : أبو الحسن : مورد اللطافة (مخطوط) ورقة ٥٣ ، ابن ابيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٧٩ ، العيني : المصدر السابق ١٧ لوحة ٣٧٦ . انظر أيضا : ابن أبي السرور : النزعة الزهية (مخطوط) ورقة ١٣ ب ، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٥ ، ابن الشحنة : روضة المناظر ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ابن الصناد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٦٥ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ ، ابن مطروح : ديوان ابن مطروح ص ١٧٥ - ١٧٦ ، ابن الياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٧ .

(٤) المقرئ : المخطوط ج ١ ص ٣٤٩ ، السلوك : ج ١ ق ١ ص ١٩٤ .

الصلبي في الضفة الغربية^(١) ولكن الصليبيين قاتلوا على هذا الجسر قتالا شديدا متواصلا حتى تمكنوا تحطيمه^(٢) ، وتمت لهم السيطرة على مجرى النيل مرة أخرى .

بولا وجد الكامل أن الطريق النهري أصبح مفتوحا أمام السفن الصليبية قام بعمل ثقب في بعض السفن بعد أن ملأها وأغرقها بعرض النيل لتكون عوضا عن السلسلة الحديدية وعن الجسر^(٣) . وكانت فكرة عملية نفذت بتعقل وأحكام^(٤) ، وأعادة للمسلمين السيطرة مرة أخرى على مجرى النيل .

وهكذا عجز الصليبيون عن تمرير سفنهم في النيل رغم إستلاتهم على البرج إ، وكل ما أصبح في إمكانهم عمله هو مهاجمة أسوار المدينة من الناحية الغربية ، ولكنهم لم يقوموا بذلك في الأيام القليلة التي تلت سقوط البرج . فقد اعتقد كثير من الصليبيين أنهم قد وفوا بوعدهم وعادوا إلى أوطانهم ، وكان من الضروري على الصليبيين انتظار الامدادات التي لا تأتي إلا في الخريف أو الربيع وهي الفصول المناسبة لسير السفن في البحار ، وجنح باقي الصليبيين إلى الكسل والخمول في انتظار وصول اخوانهم^(٥) .

وبما لا شك فيه أن حالة الرقود هذه من قبل الصليبيين قد أعطت الفرصة للمسلمين لالتقاط أنفاسهم بعدما صدموا بسقوط البرج و وفاة العادل . ولو أن معظم الصليبيين لم يعودوا إلى بلادهم ووصلوا المهجوم على المدينة مباشرة بعد

Settoon, op. cit. III, 404.

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١١ .
(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٤٩ .

Grousset, op. cit., III, p. 211.

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 28.

يذكر إرنستمان أن معظم العائدين من الصليبيين كانوا من الفريزيين وقد هوقبوا بالموت غرقا على تركهم الحملة وذلك عندما طغى البحر على بلادهم في العام التالي لعودتهم : أنظر

Runciman op. cit., III. p. 164

سقوط البرج لربما تغيرت نتائج حملة^(١). هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان المسلمين لو أدركوا أن بعض قوات الجيش الصليبي قد رحلت إلى بلادها ، وتمكنوا من إعادة تنظيم أنفسهم بسرعة وهاجموا بقية الصليبيين لربما وفر ذلك على المسلمين جهدا وعناء ومالا فضلا عن الرجال طوال إقامة مدة الحملة .

نعود مرة أخرى إلى الحوادث التي تلت سقوط البرج في أيدي الصليبيين ، ففي الوقت الذي عمت فيه الفرحة المعسكر الصليبي في جيزة دمياط حمل الخبر إلى عكا فارس صليبي يدعى رولان دي لوك Roland de Luque فسر لإفرنج الشام بذلك سرورا عظيما ، وبينما هم في غمرة هذا السرور وصل اليهم خبر قدوم المسلمين لمهاجمتهم ، فخرج بعض الفرسان والتركوبول وحاولو مطاردة المهاجمين واندفعوا خلفهم حتى تل قيمون^(٢) متشجيعين بالخلف الصليبية الموجودة في عكا . وكان على رأس هذه القوة جاك دي دور Jacque de Durnai الذي وصفه تاريخ هرقل بالتخاذل^(٣) . وفي هذا الموضع تمكنت القوات الإسلامية بقيادة الملك المعظم من هزيمتهم في جمادى الآخرة عام ٦١٥ هـ (أغسطس - سبتمبر ١٢١٨ م) وقتل منهم عددا كبيرا ، كما أسر المسلمون حوالي مائة وعشرين من فرسان الداوية وأدخلوهم القدس وأعلامهم منكسة^(٤) وربما تكون هذه الغارة الإسلامية للانتقام مما حل ببرج السلسلة أو للضغط على الصليبيين بالشام كما جرت العادة لرفع أو تخفيف الخطر المحيط بدمياط . ومن الطبيعي ألا تؤثر مثل هذه الواقعة في مجرى حوادث القوات الرئيسية المرابطة في جيزة دمياط . فقد ظلت في مكانها تنعم بالنصر الذي أحرزه رجالها على المسلمين ، يتمتع العامة منهم بقسط من الراحة بينما يشغل

Runciman, Ibid.

(٢) تل قيمون ، ويسمى أيضا بالقيمون . وهو حصن يقع قرب الرملة في فلسطين ويقال أنه على بعد ستة أميال من عكا . أنظر : ياقوت الحموي المصدر السابق ج ٤ ص ٤١٨ . أنظر أيضا :

(٣) Eracles, op. cit., p. 330.

(٤) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٥٩٢ ، راجع : أبو شامة المصدر السابق ص ١٠٩ .

بالملك جان دي برين والقادة الصليبيين الاعداد اللازمة من العساكر
لمواصلة الهجوم على دمياط .

وعلى أية حال ، لم يستمر هذا الوضع طويلا فسرعان ما وصل في التاسع
من سبتمبر ١٢١٨ م (١٥ جمادى الآخرة ٦١٥ هـ) دفعه كبيرة من
الصليبيين محمولة بحراً بعد ما دفع البابا مبلغ عشرين ألف مارك فضي نظير
نقلهم من برنديزي حيث كانوا مجتمعين منذ عام تقريبا إلى جيزة دمياط . وقد
وضع البابا على رأسها الكاردينال بلاجيوس المندوب البابوي للحملة^(١) . الذي
سبق أن عين في هذا المنصب في الثاني عشر من يولية الماضي^(٢) . كما وصل معه
أيضاً الكاردينال روبرت أف كورسون بعد ما شفع أوليفر أف بادنبورن لدى
البابا عن الأخطاء التي ارتكبها في فرنسا أثناء عملية الوعظ للحملة فضلا عن
إختلاسه بعض أموالها^(٣) . وعين روبرت في منصب القائد الروحي للحملة على
ألا تعلوا سلطته سلطة بلاجيوس^(٤) ، هذا بالإضافة إلى لفيف من فرسان فرنسا
البارزين منهم هيو دي لوزجنان Hugh de Lusignan وسيمون دي جنفي
Simon de Gienville ، وجان دارسيس Jean d'Arcis ، وأخيه جي دي ييجي
Gui de Pigi وايرارد دي شاسينه Erard de Chacenai ، وميل دي مانتى Mile
de Mantueil وأخيه أندريه Andre وكذلك أندريه دي إسبس Andre de
Esbisses ، وجوتيه Gautier أحد رجال البلاط الفرنسي ، وابنه آدم Adem
وغيرهم من الفرسان ، كما حضرت معهم مارجريت Margerite ابنة أخي الملك
جان دي برين^(٤) .

كذلك وصلت الامدادات الانجليزية ومعها بعض الايرلات والبارونات
منهم وليم ايرل أرونديل Arowndel ، والبارون روبرت فتر والتر Robert Fitz

Oliver of Padenborn. op. cit., p., 29.

(١)

Runciman, op, cit., III, p. 145.

(٢)

Donovan, op, cit., p. 41, Setton, op..cit., II, p, 402

(٣)

Eracles, op. cit., pp. 331-2

(٤)

Walter ، ووالف ايرل تشستر ، ووليم أف هاركورت William of Harcourt بالاضافة إلى أوليفر^(١) Oliver ابن ملك إنجلترا^(٢) : وفي الواقع كانت الأعداد الصليبية الانجليزية قليلة بعكس ما كان متوقع لها ، وذلك بسبب السماح لبعض الانجليز بتأجيل رحيلهم حتى الخريف التالي^(٣) .

وتجمعت كل هذه الامدادات مع العساكر الصليبية في جزيرة دمياط واستعادت القوات نشاطها وحيوتها مرة أخرى استعداداً لاستكمال غزو مصر. وفي الواقع فقد واجهت الحملة مشكلتين اساسيتين بعد وصول هذه الامدادات ، أولهما وهي الأسهل حلاً أن هذه المجموع الغفيرة تتطلب مزيداً من المؤن التي كانت تحتاج إليها القوات الصليبية . وقد تحمل جي صاحب جليل نفقات هذه المؤن وإحضارها من قبرص باعتباره من أغنى كبار رجال الشرق اللاتيني^(٤) . أما الثانية وهي الأكثر تعقيداً هي مشكلة الصراع على السلطة الذي نشب بين المندوب البابوي وبين الملك جان دي برين . فقد كان بلاجيوس متفطرساً بطبعة متعصبا لرأيه ، وقد أعطى لنفسه سلطة تفوق بكثير السلطة التي تحولها له البابا هونوريوس الثالث وتعالى على الملك جان دي برين وأعلن أن الصليبيين جنود الكنيسة ويجب ألا يخضعوا إلا لسلطة الكنيسة ، وبالتالي فهم خاضعون له باعتباره ممثل البابا . كما أن بلاجيوس لم يتقبل الملك جان دي برين قائداً للحملة . وليس ذلك فحسب بل كان يرى أن الملك الصليبي ليس ملكاً حقيقياً بل وصياً على الملكة إيزابيلا ابنة زوجته الراحلة^(٥) . وعلى ضوء هذه التفسيرات اعتبر بلاجيوس نفسه قائداً للحملة كلها ، وأعلن

(١) هو ابن غير شرعي للملك الانجليزي حنا . أنظر :

Setton, op, cit., II, p, 402.

Oliver and padenborn, op cit., pp. 29-30, Matthew of Westmenistr, (٢)
op. cit., II, p. 131.

Setton Loc, cit., (٣)

Grousset, op. cit., III, p. 221 & n. 6 (٤)

Duggan, op, cit., p. 215. (٥)

أنه عندما يأتي الأمبراطور فريدريك الثاني - الذي وعد باللاحاق بالحملة - سيتولى قيادة الحملة^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الصراع ظل باقيا طوال مدة إقامة الصليبيين في مصر وزاد من هذه المشكلة إنحياز رجال الدين إلى جانب بلاجيوس وإنضمام القادة العسكريين إلى الملك جان دي برين مما جعل الجبهة الصليبية تبدو وقد إنشقت إلى قسمين يخضع كل منهما لطرف من الأطراف المتصارعة^(٢). وعلى أية حال فقد تمكن بلاجيوس من فرض رأيه وسلطته على الحملة كلها تقريبا^(٣). ومما لا شك فيه أن هذا الصراع كان له أسوأ الأثر على الحملة بأكملها^(٤).

والمهم أن الامدادات الصليبية توالى على جيزة دمياط . ففي نهاية أكتوبر من نفس العام (٩ شعبان ٦١٥ هـ) وصلت مجموعة كبيرة من الفرنسيين . بعد ما أبحرت من جنوه في الشهر السابق . وكان على رأس هذه القوات أنجوس Angers أسقف باريس ووليم أسقف بوردو Bordeaux^(٥).

ولم يكن وصول هذه الامدادات بخافيا على القادة المسلمين المرابطين في العادلية في مواجهة الصليبيين . وكان المفروض على الملك الكامل ألا يترك القوات الصليبية تنعم بالراحة والهدوء في الوقت الذي يتزايد عددها يوما بعد يوم . فأخذ يستعد لمهاجمتها قبل أن تهاجمه^(٦)، أى أنه بدأ يأخذ بسياسة الهجوم لا بسياسة الدفاع . لذلك أعد لهجوم شامل بالبر والبحر على المعتدين وجهر جيشا مكونا من أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة . وفي الوقت نفسه

Runciman, op. cit., III. p. 155.

(١)

Rohricht, op. cit., p. 200

(٢)

Setton. op. cit., II. p. 402.

(٣)

Grousset. op, cit., III, p. 211

(٤)

Oliver of Padenborn, op, cit., p, 29.

(٥)

Eracles, op. cit., p. 332.

(٦)

أعد لهم حوالى خمسين أو ستين سفينة من الشوالى^(١) . والحراريق^(٢) فى نهر النيل إستعداد للهجوم المنتظر . وفى يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رجب ٦١٥ هـ (٩ أكتوبر ١٢١٨ م) قام الملك الكامل بانزال قواته على الضفة الغربية للنيل جنوبى المعسكر الصليبي فى المكان المعروف ببوره وتقدمت الفرسان الإسلامية بحذاء النيل حتى وصلت إلى الجزء الجنوى من خندق المعسكر الصليبي ، ويلاحظ أن وجود هذا الخندق قد حال دون تقدم الفرسان الإسلامية أبعد من ذلك . وفى الوقت نفسه تقدمت المشاة الإسلامية بحذاء النهر فى المواجهة الشرقية للقوات الصليبية . ورغم قلة عدد العساكر الإسلامية من المشاة إلا أنها تمكنت من التوغل داخل المعسكر الصليبي . وأيقن الصليبيون أنهم هالكون لا محالة نظر لما أبداه المسلمون من شجاعة فائقة فى هذا الهجوم^(٣) . لذلك قام الملك جان دى برين بتجهيز فرقة من الجنود الصليبيين بلغ عددها حوالى سبعة آلاف جندي وخرج على رأس هذه الفرقة تاركا الكونستابل أودو أف مونتيليار Odo of Montbeliard فى مكانه ، واصطحب

(١) الشوالى ، جمع شينى وتسمى بالفرنسية Galere وبالإيطالية Calera وهى من أقدم أنواع السفن التى كان يتكون منها الاسطول الرومان وزادت أهميتها فى العصور الوسطى عند الغرب والشرق ، وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة للجهاد ، وعليها أبراجا وقلاع للدفاع والهجوم . وكان متوسط ما عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا ، ولها حوالى مائة مجداف . انظر : ابن مائى . المصدر السابق ص ٣٤٠ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٠٦ حاشية (٢) ، أحمد مختار العبادى : السيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ص ١٢٢ - ١٢٣ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٢) الحراريق ، جمع حراقة Brutot وبها مرامى النيران ويقال هى المرامى نفسها وتستخدم فى حمل الأسلحة والنار الأغريقية واستعملت فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، واستعملت أيضا فى العصر الفاطمى والمملوكى فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية . انظر مائى : المصدر السابق نفس الصفحة ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ٢ نفس الصفحة حاشية (٣) ، السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى : البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ص ٣٠٢ حاشية (٢) ، سعاد ماهر . المرجع السابق ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٣) Hist. Patr. Alex., p. 244., Oliver of Padenborn, op. cit., p. 31.

معه **إيملار دى لا يرون** - صاحب قيسارية السابق - وأحد ماريشالات الفرسان الاستبارية ، كما خرج معه أيضا **جودفرى موسى** Godfrey Most وهو من الفرسان المشهود لهم بالشجاعة . وأعطى الملك أوامره إلى الجنود الصليبيين بالخروج من الخنادق والمراكب لمقاتلة المسلمين . كما توغل بنفسه داخل صفوف العساكر الإسلامية حتى رأى حامل رايه الملك الكامل وكان رجلا طويل القامة مرتديا درعا ويحمل رمحا طويلا غليظا بأعلاه الراية الملكية ذات اللون الأزرق والهلل والنجوم الذهبية ، فاسرع اليه جان دى برين بجواده . وطعنه طعنه قوية برمحه فخر صريعا على الأرض ومعه الراية الملكية . وقد أثر هذا المشهد فى صفوف المسلمين وعادوا مسرعين إلى سفنهم هربا من الصليبيين . وعندما رأى الجنود الصليبيون هروب المسلمين اشتدوا فى الهجوم عليهم وقتلوا منهم عددا كبيرا^(١) . وعندما شاهد الملك الكامل ذلك بدأ فى الانسحاب ، ومن الملاحظ أن الاسطول الإسلامى لم يقم بأى عمل ايجابى فى هذه الغارة للأسباب التى أسلفنا اليها . وانتهت هذه الجولة بفرق بعض عساكر المسلمين اثر انسحابهم من أمام الصليبيين ، وكان أكثرهم من أهل الشام لعدم قدرتهم على السباحة إلى الضفة الشرقية للنيل^(٢) . ورغم ذلك فإن هذه النتيجة لم تؤهل الصليبيين إلى خيوض معركة شاملة ضد المسلمين .

ولكن غرور المندوب البابوى جعله يقوم ببعض العمليات الاستكشافية للهجوم على المعسكر الإسلامى أملا فى العبور إلى الضفة الشرقية للنيل^(٣) . وقامت إحدى السفن التى أرسلها جاك دى فترى وعليها مائتان من الجنود بعملية الاستطلاع . ولكنها لاقت مقاومة عنيفة من قبل المسلمين وعادت ادراجها من حيث أتت بعد أن لازمها الفشل . وقام الصليبيون بمحاولة أخرى بعد أن غطيت السفينة بالقماش للتمويه ، ولكن المسلمين تمكنوا من أسر ستة

Oliver of Padenborn, Ibid, Eracles, op, cit., pp. 333-4.

(١)

Hist. Patr. Alex., p. 244, Roger of Wendover, op. cit., II, p. 412.

(٢)

Setton, op. cit., II, p. 405.

(٣)

من ملاحيا وهلك الباكون بعد أن تحطمت السفينة^(١) .

وتشجع الملك الكامل بعد إحباط هذه المحاولات الاستكشافية من قبل الصليبيين واستعد للاغارة على المعسكر الصليبي مرة أخرى . ففي يوم الجمعة الرابع من رجب ٦١٥ هـ (٢٦ أكتوبر ١٢١٨ م) عبرت القوات الإسلامية إلى البر الغربي لنهر النيل يحميا حوالي ألف من الفرسان . والتحمت هذه القوات مع الصليبيين ودار اشتباك عنيف بين الطرفين انتهى بهزيمة القوات الإسلامية وقتل عدد كبير منهم ، ولم يستطع النجاة إلا الذين يجيدون السباحة الذين تمكنوا من الوصول إلى الضفة الشرقية للنيل ، وقد تركت هذه الهزيمة أثرا سيئا في نفوس المسلمين^(٢) . واضطر الملك الكامل بعد هذه المحاولات الإسلامية الفاشلة للعودة مرة أخرى إلى سياسة الدفاع تاركا سياسة الهجوم . فبدأ في تشييد مزيداً من الاستحكامات على الضفة الشرقية للنيل وأقام عليها المنجنيقات لضرب السفن الصليبية التي تحاول استكشاف طريقة للعبور إلى حيث يعسكر المسلمون^(٣) .

ورغم التجاء الكامل إلى سياسة الدفاع فان الصليبيين لم ينعموا بالراحة . فقد اجتمع العربان على إختلاف قبائلهم وهاجموا معسكرات الصليبيين « في كل ليلة بحيث إمتنعوا عن الرقاد » وزاد طمع البدو في الصليبيين بحيث كانوا يهاجمونهم نهارا ويختطفون منهم ما يقع تحت أيديهم . وقد لجأ الصليبيون إلى إقامة الكمائن لتصيد هؤلاء العربان ، وتمكنوا من قتل عدد كبير منهم^(٤) ، كما لم يسلم المسلمون أيضاً من هجمات هؤلاء البدو فانهم كثيرا ما هاجموا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق ، « وأفسدوا وبالفوا في الإفساد فكانوا أشد

(١) Roger of Wendover, Ibid, Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, p. 733.

(٢) Hist. Patr Alex., P. 244, Oliver of Padenborn, op cit, p. 31

(٣) Eracles, op. cit., p. 335.

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٤٩ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٥ .

الصلبيين ودفعت بها إلى الشاطئ الشرقي للنيل حيث يعسكر المسلمون ، وكانت من عجائب الدنيا مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها حوالى خمسمائة ذراع وبها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً^(١) ويلاحظ أن هذه المرمة كانت تخص فرسان الداوية وهى تشابه القلعة العائمة التى استولى بها الصليبيون على برج السلسلة ومزودة بكافة المعدات اللازمة للقتال^(٢) . فاستولى عليها المسلمون بعد ما قتلوا حوالى أربعة عشر صليبياً وأسروا الباقين ، ولم يتمكن من الفرار سوى إثنين ، فقد ألقيا بنفسيهما فى النيل وسبحا إلى الضفة الغربية ، وقد حوكمَا بتهمة الجبن وعدم تنفيذ الأوامر المكلفين بها مما تسبب عنه فقدان هذه المرمة^(٣) ، وعوقبا بالموت شنقا بأمر الملك جان دى برين^(٤) .

والكارثة الثانية كانت أشد من الأولى ، فان هبوب هذه العاصفة دفع بمياه نبحر حتى وصلت إلى المعسكر الصليبي فى جزيرة دمياط ففرقت الخيام والمؤن كما أنها تسببت فى انفوق عدد كبير من الخيول وتحطيم عدد كبير من الزوارق صليبية ، بالإضافة إلى الخسائر البشرية^(٥) . ويبدو أن الإعصار كان شديداً سرجه أن الجرحى لم يتمكنوا من النجاة فهلكوا جميعاً^(٦) . كما أن كمية المياه نبت تدفقت على المعسكر الصليبي كانت هائلة بدليل أن الأسماك كانت ملقاه على الأرض داخل وخارج المعسكر بعد جفاف المياه^(٧) ولم يستطع الصليبيون

كانت تغطى بالحديد وتصير مصفحة لا تتأثر بالنيران . أنظر : ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٠ حاشية (١) ، سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٦٨ .

(١) | المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٥ .

(٢) | Oliver Scolastique, Letter to Angelbert, cf. Bongars, op. cit., p. 1168

(٣) | Hist. Patr. Alex., p. 245.

(٤) | Setton, op. cit., II, p. 406.

(٥) | Roger of Wendover, op. cit., II, p. 412, Matthew of Westmenister, op. cit., II, p. 134.

(٦) | Hist. Patr. Alex., Ibid.

(٧) | Oliver Scoastique, Ibid, Roger of Wendover, Ibid

مقاومة هذه الكارثة الطبيعية إلا بعد هدوء العاصفة وانحسار المياه . فقد أمر بلاجيوس بإقامة حاجز بين البحر والمعسكر على وجه السرعة ، وتم استخدام كافة مخلفات الكارثة بما فيها حطام السفن وجثث الخيول النافقة في إقامة هذا الحاجز^(١) .

وإذا إنتقلنا إلى الجانب الإسلامي نجد أن مياه بحير تنيس قد طغت على المنطقة الواقعة من جنوب دمياط حتى العادلية بما فيها المعسكر الإسلامي وتسبب ذلك في تخريب هذه المنطقة وهلاك عدد من المسلمين والدواب^(٢) . ويبدو أن خسارة المسلمين كانت أقل بكثير من الخسارة التي لحقت بالمعسكر الصليبي ، وربما يرجع ذلك إلى بعد المعسكر الإسلامي إلى حد كبير عن البحر وإلى حد ما عن بحيرة تنيس .

ورغم ما سببته هذه العاصفة من كوارث فإنها أفادت الصليبيين فائدة كبرى فقد امتلأ الخليج الأزرق بالمياه وأصبح في مقدور الصليبيين أن يسفروا سفنهم في هذا المجرى الجديد من البحر إلى نهر النيل عند قرية بوره . وهو ما كان يسعى من أجله الصليبيون^(٣) .

ومما هو جدير بالذكر أنه في أعقاب هذه الكوارث داهمت الحمى والأمراض الجلدية القوات الصليبية . وتفشت هذه الأوبئة داخل المعسكر الصليبي . وقد قاس العديد من هذه الحمى ، كما تسببت في موت حوالي ستين على الأقل من بينهم روبرت أف كورسون الواعظ الروحي للحملة^(٤) .

وكان لهذا كله أسوأ الأثر في نفوس الصليبيين ، وتبلور في زيادة حده

(١) Archer & Kingsford, op. cit., p. 376, cf. also, Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriß p. 211, Runciman op. cit., III, p. 156.

(٢) Hist. Patr. Alex., P, 245

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٦ .

(٤) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 32-3 Roger of Wendover, op. cit., II, p. 413.

الصراع بين المندوب البابوي والملك الصليبي . فمن الواضح أن الصراع بدأ بين الطرفين منذ أن وطأت أقدام بلاجيوس المعسكر الصليبي في الخريف السابق لهذه الأحداث . وبدأ الصراع يتصاعد يوماً بعد يوم . ومما زاد من حدته حالة الخمول النسبي التي مرت بها الحملة بعد سقوط برج السلسلة . بالإضافة إلى فشل كافة العمليات العسكرية للعبور إلى الضفة الغربية للنيل . وقد أدى هذا الفشل إلى المنادة بزعامة جديدة تتولى قيادة الحملة، واستغل المندوب البابوي هذه الحالة النفسية التي تسيطر على المعسكر الصليبي ، وتمكن من السيطرة على الموقف وتولى أمر قيادة الحملة يسانده في ذلك كافة رجال الدين ، وأعلن بلاجيوس الصيام لمدة ثلاثة أيام داخل المعسكر الصليبي ، وأمر رجال الدين بالوقوف حفاة أمام الصليب مبتلين لله طالبيين العون للقوات الصليبية ، وفي أوائل فبراير عام ١٢١٩ م (أوائل ذي القعدة ٦١٥ هـ) لاحظ بلاجيوس إرتفاع الروح المعنوية للجيش الصليبي وأن هناك نشاطاً ملحوظاً بين قواته ، فبدأ يستعد للهجوم على المعسكر الإسلامي ، وأعد الصليبيون لهذا الغرض قلعة عائمة أطلق عليها الصليبيون الأم المقدسة Holy Mother وهي مكونة من ست سفن مثبتة مع بعضها في شكل ثلاث صفوف متوازية . ثم ثبتوا عليها الصواريخ وزودوها بالآلات والرجال . وبدأ الهجوم على المعسكر الإسلامي عن طريق الخليج الأزرق يوم السبت الموافق الثاني من فبراير عام ١٢١٩ م (١٥ ذو القعدة ٦١٥ هـ) وتصدت لهم القوات الإسلامية وأجبرتهم على العودة ثانية من حيث أتوا . وبعد أن استعدوا مرة أخرى للهجوم هطلت الأمطار ، فضلاً عن أن هذا اليوم كان قارص البرودة ، فاضطر الصليبيون إلى تأجيل عملية الهجوم لوقت لاحق . ورغم أن المسلمين والصليبيين كانوا مستعدين للقتال في يومي الأحد والإثنين ، إلا أن رداءه الجوع عاقت كلا الطرفين عن القيام بأية عملية عسكرية^(١) .

وإذا كان الملك الكامل قد تمكن من دفع الأخطار الصليبية واحداً تلو الآخر

(١) Hist. Patr. Alex., pp. 245-6, Oliver of Padenborn, op. cit, pp. 33-4

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 415.

فان الخطر الكبير الذى هددته عندئذ جاء من جانب أحد قواده^(١) . ذلك أنه بعد وفاة الملك العادل طمع بعض الأمراء فى الملك الكامل^(٢) ، وتآمر عليه عماد الدين بن المشطوب^(٣) ، ولقيف من الأمراء الأكراد الذين يتقادون اليه ويطيعونه^(٤) . وكان على رأس هؤلاء الأمراء الأمير عز الدين الحميدى والأمير أسد الدين الهكارى^(٥) والأمير مجاهد الدين^(٦) . واتفق هؤلاء على خلع الملك الكامل وتولية أخيه الملك الفائز ، وكانوا قد اتفقوا معه على أخيه الكامل واستحلفوا له العساكر^(٧) . ذلك لأن عماد الدين كان يرى أن الفائز صبي خفيف لا يتأتى منه شر . وقد تسربت أخبار هذه المؤامرة إلى الملك الكامل وهو مرابط للصليبيين فى معسكره بالعادية . فأنجه إلى المتآمرين ودخل عليهم فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف وهم يحلفون عليه لأخيه الفائز . فعندما

-
- (١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٢ .
 (٢) Hist. Patr. Alex, p. 46, cf, also. Eracles, op. cit., p. 335.
 (٣) هو أبو العباس أحمد بن الأمير سيف أوى الحسن على بن أحمد بن أوى الهيجاء ابن عبد الله بن أوى الخليل بن مرزبان الهكارى المعروف بأبن المشطوب والمقب عماد الدين ، والمشطوب لقب والده وإنما قيل له ذلك لشطبه بوجهه ، وكان من أجل الأمراء الهكارية وله لقيف من الأمراء والأكابر وله حرمة وافرة عند الملوك . وكان صلاح الدين الأيوبي قد أقطعه ثلثى نابلس بعد وفاة والده بطل الدفاع عن عكا سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . عن ذلك انظر : ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٨١ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٥ ، راجع أيضا : العماد الاصفهاني المصدر السابق ص ٥٠٥ ، ٥١٣ .
 (٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٦ - ١٧ .
 (٥) نسبة إلى الهكارية إحدى قبائل الأكراد الذين عاشوا فى أعالي الجزيرة حياة مستقلة فى تحصيناتهم الجبلية وسط غيرهم من قبائل الأكراد . ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٧٠ ، ٩٧٨ . أنظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٦ حاشية (٤) .
 (٦) ابن الفرات : تاريخ الأمم والملوك (مخطوط) ج ١٠ لوحة ٢٠١ ب ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٦ .
 (٧) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٦٠٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٦ . أنظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١١ - ٢١٢ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٦ - ١٧ ، ابن خلكان : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٢ .

بذلك أدركوا أنهم « فقدوا سلطانهم » أو ساد الفرع أرجاء المعسكر الإسلامى .
ولعل ابن الأثير قد عبر خير تعبير عن الصورة التى اجتاحت العادلية بقوله
« فركب كل إنسان منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه » . وهو وصف
يوضح لنا المهرج الذى ساد المعسكر الإسلامى ، مما ترتب عليه أن العساكر
تركت خيامها وأسلحتها وأموالها ودوابها وكافة تجهيزات المعسكر ، ولم تتمكن
إلا من حمل اليسير من هذه المعدات واتخذت طريقها إثر الملك الكامل تاركة
العادلية على حالها تقريبا^(١) .

هذا ما ورد فى المصادر العربية عن مؤامرة ابن المشطوب ، أما تاريخ هرقل
المعاصر لهذه الأحداث فيروى أن سببها مرجعه أن الكامل استدعى إثنين من
الأمراء الأكراد منهما عماد الدين بن المشطوب ، وطلب منهما الدخول إلى
دمياط بعساكرهما - الذين يبلغ عددهم حوالى سبعمائة فارس من خيرة
الفرسان - لحمايتها وذلك لثقلته فيهما أكثر من غيرهما ، فاجابه الأميران بأنهما
قد قدما لخدمته وأنهما لا يمانعان فى دخول المدينة ورجواه فى أن يدخل معهما
أحد أولاده حتى يهتم بالمدينة ولا يهملها ، كما فعل عمه صلاح الدين الأيوبي
عندما ترك سيف الدين بن المشطوب والد عماد الدين ومعه حاكم عكا^(٢) ،
أثناء حصارها وتركها تسقط أمام عينيه . ويضيف المصدر نفسه أن الكامل
غضب عندما سمع كلام الأميرين وقام على الفور واستدعى أمرئ . وعندما
أشعر عماد الدين بن المشطوب والأمير الذى معه وقد سماه تاريخ هرقل « أوتفين »^(٣)

== ذكرنس بمديرية الدقهلية . عن ذلك أنظر : ابن دقماق . كتاب الانتصار ج ٥ ص ٦٨ -

٦٩ ، ابن ممانى : المصدر السابق ص ٨٩ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ١ ص ١٨٢ .

راجع أيضا : جوزيف نعيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٨١ حاشية (٤) .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٢ . أنظر أيضا :

Hist. Patr. Alex., P. 246.

(٢) هو حسام الدين حسين بن باريك المهراني . ولزيد من التفاصيل عن سقوط عكا فى يد الصليبيين

بعد ما استردها صلاح الدين الأيوبي : أنظر : العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ٥١٣

وما بعدها ، ابن شداد : المصدر السابق ص ١٧٣ وما بعدها .

(٣) لم أتمكن من تحديد الاسم العربى لهذا الاسم . وربما يكون الأمير عز الدين الحميدى أو الأمير أسد

Otevin اعتقدا أن الكامل سيلقى القبض عليهما ، فسلحا رجالهما وقالوا أنه خير لهما أن يموتا وهما يدافعان عن أنفسهما من أن يقبض عليهما . وبلغ الخبر الملك الكامل ، وأيقن أنهما مستعدان للقتال ، فاستعد هو الآخر لقتالهما . وتسليحت كافة العساكر وبذلك أيقن ابن المشطوب أن الكامل يستعد للقبض عليه فهرب وخلفه رجاله . وعلى هذا النحو أخذ كل من في المعسكر طريقه إلى الحرب . فخاف الملك الكامل على نفسه وأدرك أن الصليبيين سيعبرون إليه فغادر هو الآخر المعسكر دون أن يشعر به أحد سواء من بالمعسكر أو بالمدينة^(١) .

ويبدو أن ما ورد في المصادر العربية عن سبب هذه الحوادث وهو التآمر لخلق الملك الكامل محمد وتولية أخيه الفائز مكانه هو الصحيح ، بدليل أن خمسة من المؤرخين العرب المعاصرين^(٢) قد أوردوا هذا السبب ، فضلا عن المصادر العربية المتأخرة^(٣) التي كررت رواية المصادر المعاصرة . ولو كان هناك سببا غير ذلك ورد في مصادر فقدت ولم تصلنا لظهر على الأقل في عدد من المصادر المتأخرة . وهذا يؤكد صحة ما أورده الكتاب العرب المعاصرون خاصة وأن منهم من كان على اتصال بمجريات الأمور والأحوال فعلا وصديقا للملك المعظم^(٤) . كما أن تاريخ هرقل يفند نفسه بنفسه ، فان ما ذكره عن

= الدين الهكاري أو الأمير مجاهد الدين وهم من ورد اسمهم إلى جانب ابن المشطوب في المصادر الإسلامية .

Eracks, op. cit., p 335.

(١) أنظر ما سبق ص ٢١٩ حاشية (٧) .

(٢) من المخطوطات : ابن أبيك المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٢ ، ١٨٣ ، ابن بهادر المصدر السابق ورقة ١٠٤ ، المينى : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٣٨٠ ، النويرى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٢٤ ، ٢٥ ، ابن الفرات . المصدر السابق ج ١٠ لوحة ٢١ ب ، ٢٢ . ومن المصادر المنشورة ابن كثير : المصدر السابق ج ١٣ ص ٨٠ ، ٩٢ ، ابن الوردي . المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٩ ، أبو الهاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٠ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٦ .

(٤) كان ابن الجوزى صديقا للمعظم وسمع عن وقائع الحملة كما حضر جانبها منها في دمياط أنظر أبو الهاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٢ ، ٢٤٣ . وعن حياة ابن الجوزى أنظر أبو الهاسن : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٥ ورقة ٥٨٩ - ٥٩١ .

إهمال صلاح الدين في الدفاع عن عكا غير صحيح . ذلك أن صلاح الدين لم يتوان لحظة واحدة في اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع عن المدينة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه قد صور ابن المشطوب ورجاله وقد استعدوا لقتال الكامل وفي الوقت نفسه صور الكامل وكافة العساكر وقد أعدوا عدتهم لمواجهة ابن المشطوب ورجاله . ثم يروى أن الكامل ترك المعسكر دون أن يشعر به أحد سواء من كان بدمياط أو المعسكر . ويصحح ألا يشعر به من في المدينة ، أما لا يشعر به من في المعسكر وهم مستعدون لقتال ابن المشطوب على حد قوله فهو أمر مستبعد ويصعب تقبله بسهولة .

على أية حال ، فقد غادر الكامل العادلية إلى أشموم طناح وفي إثره كافة العساكر الإسلامية^(١) . وباتت العادلية - خط الدفاع الأول ضد الصليبيين - ليلة الثلاثاء الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ (٥ فبراير ١٢١٩ م) خالية من العساكر بعد أن قاومت المعتدين أكثر من ثمانية أشهر . وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبيين^(٢) .

وكانت تحركات العساكر الإسلامية في هذه الليلة غير خافية على الصليبيين^(٣) ، إلا أنهم كانوا يجهلون أسبابها في ذلك الوقت . وفي صباح الثلاثاء (١٨ ذو القعدة / ٥ فبراير) لاحظ الصليبيون خلو العادلية من العساكر الإسلامية^(٤) ، واعتقدوا أن عملية الانسحاب ربما تكون خطوة عسكرية لجأ إليها المسلمون^(٥) ، لذلك أرسل جيان دي برين أحد رجاله ويدهي أوبرت | لشاربنليه Aubert La Charpenlier إلى العادلية لاستطلاع الأمر ، ويعاد هذا الكشف وأخبر الملك الصليبي بخلو المعسكر الإسلامي من العساكر

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 44.

(٢) Setverson, op. cit., p 303.

(٣) يلاحظ أن ليلة الثامن عشر من الشهر العربي من الليالي القمرية وفي المستطاع رؤية المعسكر الإسلامي من الضفة الغربية حيث يعسكر الصليبيون .

(٤) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 415.

(٥) Hist. Patr. Alex., p. 246.

ولم يصدق الملك ما سمع فعاد وأرسل كشافا آخر من الفرسان يدعى ميخائيل دى فتر Michel de Vitz فعاد وأيد صحة أقوال الكشاف الأول . وعند ذلك إطمأن جان دى برين إلى خلو العادلية من العساكر الإسلامية ، فأمر رجاله بالاستعداد لعبور النيل إلى الضفة الشرقية^(١) . والواقع أن العساكر الصليبية كانت مستعدة للعمليات العسكرية طوال الثلاثة أيام الماضية^(٢) ، وكانت خيولهم موجودة بداخل السفن منذ الليلة السابقة فصعدت العساكر الصليبية السفن بعد ما صلوا واستمعوا إلى القداس وهذا يدل على أنهم ذاهبون للقيام بعمل خطير^(٣) . وبدأت الحملة في العبور إلى الضفة الشرقية للنيل في يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة ٦١٥ هـ (٥ فبراير ١٢١٩ م) متفائلين بهذا اليوم لكونه عند المسيحيين الغربيين هو عيد القديسة أجاث Agathe^(٤) . وما أن رست سفنهم أمام العادلية حتى إنتشرت جنودهم فيها ، وأعملوا القتل في القلة القليلة من العساكر الإسلامية التي وجدوها بداخل المعسكر الإسلامي واستولوا على ما وجدوه من الأبراج والمنجنيقات^(٥) ، هذا بالإضافة إلى الخيام والأواني الذهبية والفضية ، وكذلك الدواب والعليق . كما أسروا من وجودهم من النساء والأطفال . وفوق هذا كله فقد إستولوا على السفن الراسية عند شاطئ العادلية^(٦) ، وكان ما غنموه « عظيما يعجز العادين »^(٧) . وهكذا وضع الصليبيون أقدامهم على الضفة الشرقية للنيل وسيطروا على العادلية

Eracles, op. cit., p 336

(١)

(٢) راجع ما سبق ص ٢١٨ .

Eracles, Ibid.

(٣)

Vitry, op. cit., p. 126 : Oliver of Padenborn, op cit., p. 34.

(٤)

والقديسة أجاث من قديسات صقلية وقد توفيت في مدينة بالرمو أو في مدينة كاتانيا في القرن الثالث الميلادى ويحتفل بعيدها في الخامس من فبراير كل عام . أنظر :

Ency. Brit., Vol, I, p. 321.

Hist. Patr. Alex., p. 246.

(٥)

Oliver of Padenborn, op. cit., p 35.

(٦)

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٢ .

ومنها في اليوم نفسه|شرعوا في حصار دمياط . وعندما خرجت بعض العساكر الإسلامية من مدينة دمياط لاستطلاع الأمر لعدم درايتها بما وقع في الليلة السابقة أجبرتها قوة من العساكر الصليبية بقيادة أحد الفرسان يدعى جان دارسيس على العودة إلى المدينة مرة أخرى . وبدأت القوات الصليبية في أعمال الحصار حول المدينة ، فحاصرتها السفن الصليبية من الجهة الغربية المقابلة للنيل كما حاصرتها القوات البرية من الجهات الأخرى^(١) . وانحصر ما يقرب من ستين ألفا من الأهالي داخل المدينة نفسها^(٢) . ويلاحظ أن الملك جان دي برين خشي دخول العادلية في أول الأمر لإحتمال أن يكون إنسحاب المسلمين يمثل خدعة عسكرية . ولذلك ظل في الحقول المجاورة للعادلية ومعه بعض رجاله ، وبعد أن إطمأن إلى حقيقة الموقف دخل العادلية وبدأ في تنظيم القوات المحاصرة لدمياط ، فعسكر هو والجند الذين يتكلمون الفرنسية والبيازنة في جنوب المدينة بالقرب من برج الفائز ، كما عسكر إلى الشرق منه الكونت هنري أف نيفر وفرسان الداوية ، أما الجانب الشرقي للمدينة فقد حاصره فرسان الاستبارية والاسبان والبروفنساليون . وسيطر المندوب البابوي والجنوية وبقية الايطاليين على الجانب الشمالي لدمياط . أما الفرسان التيوتون فاقتصروا بالدفاع عن الشاطئ الغربي المقابل للمدينة . ويلاحظ أن الصليبيين لم يتركوا معسكرهم القديم في جيزة دمياط ، فقد تركت كل جالية بعض قواتها به . ولسهولة الاتصال بين المعسكرين اقام الصليبيون جسرا يصل بين العادلية وجيزة دمياط^(٣) . وبهذا الحصار المحكم انجست القوات الإسلامية التي بداخل المدينة ولم تتمكن بعد ذلك من الخروج منها^(٤) . كما أقيمت المنجنقات حول المدينة^(٥) ، خاصة أمام ابوابها الأربعة . ويلاحظ أنه كان لفرسان الداوية

Roger of Wendover, op. cit., II. p. 416.

Vitry, Ibid, Oliver of Padenborn, Ibid.

Roger of Wendover, op. cit., II, p 416, Eracles, op. cit., p. 337.

Vitry, op. cit., p. 126. Oliver of Padenborn, op. cit., p. 36.

Hist. Part. Alex., p, 347 of, Roger of Wendover, op. cit., II, p. 416.

منجنيقا كبيرا تسبب في إلحاق أضرار بليغة بالمدينة^(١).

وهكذا أصبح موقف الجبهة الإسلامية في غاية السوء بعد إمتلاك الصليبيين للعادلية وأحكامهم الجصار حول دمياط ، هذا بالإضافة إلى الخلل الذي انتاب المعسكر الإسلامي بعد حوادث ابن المشطوب | وأدى إلى إنتشار الرعب في نفوس أهل مصر كلها^(٢). وتخرج موقف الكامل بصورة بالغة لدرجة أنه عزم على مفارقة البلاد وتركها بيد الفرنج والتوجه إلى بلاد اليمن التي كان يحكمها ابنه الملك المسعود^(٣). وبذلك تهددت الجبهة الإسلامية بالانهيار التام ، إلا أنه « إتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين » أن وصل الملك المعظم عيسى إلى أخيه بعد يومين من حركة ابن المشطوب ، أى في اليوم التالي لعبور الصليبيين إلى العادلية التاسع عشر من ذى القعدة ٦١٥ هـ (٦ فبراير ١٢١٩ م) فتحسن موقف الكامل « وإشتد ظهره »^(٤) ، فخرج الكامل وتلقاه وأطلعه على ما جرى من ابن المشطوب وما انتهت إليه الحوادث^(٥) ، فحلف المعظم ألا ينزل حتى ينفيه من الديار المصرية^(٦). وإتجه بعدها إلى خيمة ابن المشطوب وكان ذلك في نهاية اليوم نفسه ، وطلب من حراسه إبلاغه بالركوب فخرج ابن المشطوب ولحق بالمعظم . ويبدو أن ابن المشطوب قد إعتقد أن المعظم يميل إلى جانب الفائز وبأنه أتاها لكي يتفق معه^(٧). لذلك سار إلى جانب المعظم وهو

(١) Eracles, |op, cit., p. 338.

(٢) Hist. Patr. Alex., p. 274.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٧ - ١٨ . وهو المسعود صلاح الدين يوسف المعروف بالاقسيس وقد ارسله والده سنة ٦١٢ هـ فاستولى على اليمن من سليمان شاه أنظر |المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٢ . انظر أيضا :

Oliver of Padenborn, |op. cit., p. 36.

(٥) ابن خلكان المصدر السابق ج ٢ ص ٧٣ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٦ .

(٧) ابن أيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٣ .

مطمئن ، ولما بعدا عن المعسكر قال له المعظم أن الملك الأشرف قد طلبك وإنه محتاج اليك وعليك أن تسير إليه الساعة ، فأجابه ابن المشطوب بأنه ليس مستعد للرحيل في الحال لعدم وجود حراسه وملابسه معه في هذه اللحظة . والواقع أن المعظم قد اختلق معه هذا الحديث حتى يبعد به كثيرا عن المعسكر ، فلما إطمأن المعظم إلى ذلك إلتفت إليه وقال : « يا عماد الدين ! هذه البلاد لك ونشئها أن تهبها لنا »^(١) ، ثم أعطاه خمسمائة دينار ، وقال له : « كل مالك يلحقك والله ما يضيع لك خيط واحد »^(٢) . وعهد به إلى بعض رجاله - الذين يثق بهم والذين أعدهم لهذا الغرض وكانوا يسرون خلفه - وطلب منهم أن يسيروا معه حتى يخرجوه من البلاد . ولم يكن في وسع ابن المشطوب إلا الإمتثال للأمر لعدم وجود عساكره إلى جواره^(٣) . فسار مع الحراس حتى ادخلوه بلاد الشام^(٤) .

أما الملك المعظم فقد عاد إلى خيمة ابن المشطوب ووقف حتى جهزت خيوله وغلماناه وكل ما يملكه وأرسلها في إثره ، وعاد إلى خيمته بعد أن اطمأن إلى مغادرة ابن المشطوب للمعسكر الإسلامي ، ثم حضر إليه أخوه الكامل وقبل الأرض بين يديه . أما الملك الفائز فقد إعتراه خوف عظيم بعد ما حدث لابن المشطوب^(٥) . وكان لابد من إبعاده عن المعسكر الإسلامي خشية وقوع فتنة أخرى . وبناء على نصيحة صفى الدين بن شكر^(٦) ، طلب منه الكامل

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٢ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٢٩ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٦ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٢ .

(٤) انتهى الأمر بابن المشطوب أن الملك الأشرف بن العادل اعتقله في قلعة حران وتوفي بها عام ٦١٩

وعمره أربعة وأربعون سنة . عن ذلك وعن بقية حياة ابن المشطوب بعد خروجه من مصر إنظر :

ابن خلكان : المصدر السابق ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ ، أبو الفدا . التبر المسبوك في تواريخ الملوك

(ميكروفيلم) لوحة ٢٧ أ .

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠٢ .

(٦) ابن الفرات : المصدر السابق ج ١ لوحة ٢٢ أ

والمعظم التوجه إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن كافة بلاد الشرق^(١) .
وهكذا خرج الفائز وابن المشطوب من المعسكر الإسلامي فتحللت عزائم من
بقي من إتباعهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرها لا طوعا^(٢) .

والمهم ، فقد ترتب على مؤامرة ابن المشطوب إمتلاك الصليبيين للعادلية
التي كانت خط الدفاع الأول ضد الصليبيين أثناء تواجدهم في جيزة دمياط ،
كما تمكنوا أيضا من حصار دمياط وذلك بعد قتال دام أكثر من ثمانية أشهر . تمكن
فيها الصليبيون من الاستيلاء على برج دمياط بعد إنقضاء نصف هذه المدة
تقريبا . وأصبحت الآن مدينة دمياط مطوقة من البر والبحر بأمل لإنهيار مقاومة
القوات الإسلامية المدافعة عنها ، وذلك في الوقت الذي يحاول فيه الكامل
تجميع القوات الإسلامية مرة أخرى لفك هذا الحصار وإنقاذ دمياط من أيدي
لطارق الدخيل .

(١) ابن كثير : المصدر السابق ج ١٣ ص ٩٢ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣١ . ويلاحظ أن الملك الكامل لم يتعرض لهؤلاء الأمراء
أثناء تواجدهم الصليبيين في مصر وبعد جلاء الحملة عن دمياط سنة ٦١٨ هـ (١١٢١ م) طلب
منهم الخروج من مصر فتوجهوا إلى الشام . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : المقرئ :
المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢١٢ .

الفصل الخامس

سقوط دمياط في أيدي الصليبيين

- الدعوة للجهاد .
- عرض الملك الكامل الصلح على الصليبيين .
- إعداد مصر والشام للقتال .
- تخريب بيت المقدس وبعض الأماكن الأخرى .
- مناوشات غير حاسمة بين المسلمين والصليبيين .
- معركة أغسطس ١٢١٩ (جمادى الثاني ٦١٦ هـ) .
- عرض ثان بالصلح على الصليبيين .
- قدوم النجندات الصليبية .
- عرض ثالث بالصلح .
- اشتداد الحصار حول مدينة دمياط .
- سقوط دمياط :

كان من المحتم على الملك الكامل أن يعيد تنظيم قواته ويعد نفسه مرة أخرى لمقاومة الصليبيين الغزاة بعد فترة الاضطراب التي سادت مصر والمعسكر الإسلامى بسبب مؤامرة ابن المشطوب . ومما لا شك فيه أن الكامل قد إطمأن كثيرا إلى وجود أخيه الملك المعظم إلى جانبه بعد تنقيح المعسكر الإسلامى من المتآمرين وإبعاد الفائز وعماد الدين بن المشطوب من صفوف القوات الإسلامية . ويلاحظ أنه فى فترة الحزن والفوضى واليأس التى إجتاحت المعسكر الإسلامى تمكن الصليبيون من السيطرة تماما على منطقة العادلية ، وعلى المنطقة الواقعة بينها وبين دمياط ، فضلا عن تطويق المدينة من جميع الجهات . وليس ذلك فحسب فانه لمزيد من الاستحكامات حول أنفسهم قاموا بحفر الخنادق حول معسكرهم لتحول بينهم وبين المسلمين . هذا بالإضافة إلى الأسوار والستائر التى أقاموا عليها الرماة بالجروح^(١) . هذا علاوة على سيطرتهم السابقة على المنطقة المعروفة بحيزة دمياط . وبذلك أصبحت القوات الصليبية فى وضع أفضل بكثير من القوات الإسلامية التى تمزقت بعد مؤامرة ابن المشطوب . كما أن مدينة دمياط بدأت تحس بوطأة الحصار بعد أن أصبحت معزولة تماما عن مصر كلها .

على أية حال ، بدأ الكامل فى الانتقال من أشموم طنّاح إلى فارسكور حيث لحق به جيشه والعساكر التى قدمت مع أخيه المعظم عيسى من دمشق لمساندته على مقاومة الصليبيين . وقد اختار الكامل مدينة فارسكور الواقعة جنوب العادلية ليتمكن المسلمون من مهاجمة الصليبيين^(٢) من الخلف عندما يهاجمون مدينة دمياط . وبذلك يقع الصليبيون بين حامية دمياط فى الشمال والجيش الإسلامى المعسكر فى فارسكور فى الجنوب^(٣) . ورغم ذلك لم يتمكن الكامل

(١) ابن أليك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٤ . والجروح جمع جرح وهو نوع من القوس الرامى التى ترمى عنه النشاب أو النفط . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : ابن واصل : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٠ حاشية (٣) ، ص ٢٤٣ حاشية (٤) .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ج ٢ ص ٩٧٣ .

من موقعه الجديد أن يقوم بالهجوم على المعسكرات الصليبية بهدف رفع الحصار عن دمياط وذلك لعدم توفر القوات الكافية للقيام بهذا العمل^(١).

لذلك بدأ يستحث العالم الإسلامي لنجدته وإنقاذ مصر من الخطر الصليبي الذي أصبح يهدد الممتلكات الإسلامية في الشام أيضا . واستغل الكامل والمعظم هذه الفرصة لاستبعاد أخيهما الفائز عن المعسكر الإسلامي عندما طلبا منه التوجه إلى الملوك الأيوبيين بالشام والشرق لاستنهاض العالم الإسلامي لنجدة الملك الكامل . كما كتب الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى صاحب خلاط^(٢) ، يستحثه على سرعة الحضور إلى مصر . واستغل الكامل موهبته الشعرية وصدر المكاتبة ببعض الأبيات الشعرية مطلعها :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفى فانفض بغير تلبث وتوقف^(٣)

كما كتب أيضا إلى أخوته يستحثهم ويستنجد بهم ويقول « النوحا النوحا العجل العجل أدركوا المسلمين »^(٤) . وكان من جملة ما كتبه في طلب النجدة من أخوته « واإخوتاه واغوثاه وا إسلاماه أدركوا الإسلام أعينوا أمة محمد عليه السلام »^(٥) . ولعل في صيغ الاستعجال التي أرسلها الكامل إلى أخوته دليل على مدى تخرج موقف الكامل وخوفه من إمتلاك الصليبيين لأرض مصر كلها^(٦) . وهكذا ظلت كتب الكامل متواصلة إلى أخوته في طلب النجدة

(١) | محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) | خلاط ، بلد عامرة مشهورة ذات نخيرات وثمار يانعة ، وهي قصبة أرمنية الوسطى وبها بحيرة

تعرف باسمها (بحيرة وان | الآن) . أنظر : ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥٨ .

كانت هذه الأمانة الأرمنية الصغيرة قد آلت إلى الأيوبيين بعد زوال أسرة سيف الدين بكتمر

سنة ٦٠٤ هـ . أنظر : المقرئ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٧ حاشية (٣) . وقد تولاهما

الأشرف بعد أخيه الأوحى . أنظر : ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧٤ .

(٣) | المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٤) | العيني : المصدر السابق مجلد ٥١ جزء ١٧ لوحة ٣٧٤ .

(٥) | ابن أبيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٩١ .

(٦) | ابن كثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٨٠ .

لمساندته على مقاومة القوات الصليبية المحاصرة لدمياط^(١) .

وبدأت القوات الإسلامية تتوافد على الكامل من كل مكان . ويلاحظ أن أول من لبى النداء الملك الأشرف موسى^(٢) ، الذى كان مقيما بظاهر حلب فى هذا الوقت يدبر أمر جندها^(٣) . فاقبل إلى مصر ولكنه اضطر للعودة إلى بلاده فى نفر قليل من العساكر بعد أن ترك عساكره عند أخيه الكامل^(٤) . وفى الوقت نفسه أمر الكامل بخروج أهل مصر والاتجاه إلى دمياط لقتال الصليبيين^(٥) . وهكذا تجمع لدى الكامل بعض القوات التى أعادت الثقة إلى نفسه ، فبدأ فى إعادة تنظيم قواته خلف المعسكر الصليبي . وبفضل الاجراءات التى اتخذها الكامل والمعظم استطاعت مدينة دمياط الصمود ، وقاومت الحصار الصليبي ببسالة رغم المحاولات العنيفة التى بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها^(٦) . وكان صمود المدينة طوال هذه الفترة أكثر مما توقعه الصليبيون لدرجة أنهم ملوا الحصار وكانوا على وشك الانسحاب والعودة إلى بلادهم^(٧) .

وعلى أية حال ، فبعد أن تجمعت لدى الملك الكامل بعض القوات وأحسن بتحسين مركزه العسكرى ، إستعمله لشن الهجوم على القوات الصليبية التى كانت تعسكر بالعادية . ولكنه إضطر للتراجع إلى فارسكور بسبب هبوب عاصفة شديدة فى الرابع عشر من ذى الحجة ٦١٥ هـ (٣ مارس ١٢١٩ م) وكانت هذه العاصفة مصحوبة بأمطار غزيرة جعلت المعسكر الإسلامى غير صالح للإقامة ، فضلا عن أن ذاك العام كان شديد البرودة ، ومن الملاحظ أن

(١) أهر الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٢٨ .

(٢) العيني : المصدر السابق مجلد ٥١ ج ١٧ لوحة ٢٧٥ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ج ١٣ ص ٩١ .

(٥) النويرى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٢٥ .

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق ج ٣ ص ٩٧٣ .

(٧) Lamb, op. cit., pp. 244.

هذه العاصفة قد لحقت الضرر أيضا بالمعسكر الصليبي خاصة وإنها استمرت لعدة أيام متواصلة^(١).

وبعد هدوء العاصفة أعاد الكامل تنظيم قواته مرة أخرى ، وفي العشرين من ذى الحجة (٩ مارس) ، قام الجيش الإسلامى بشن غارة على المعسكر الصليبي المقام في العادلية ، وبروى أوليفر أف بادنبورن أن المسلمين فاجأوا الصليبيين ونجحوا في الوصول إلى الخندق الذى يحيط بالمعسكر الصليبي ، ورغم ذلك لم تنجح القوات الإسلامية في إقتحام المعسكر ، ولذلك كانت هذه الغارة غير فعالة عديمة الجدوى^(٢)، وربما يرجع ذلك إلى قلة القوات الإسلامية التى هاجمت الصليبيين أو إلى شدة حصانة المعسكر الصليبي .

وعلى ما يبدو أن الكامل قام بهذه الغارة لسر أغوار الصليبيين في موقعهم الجديد ، والظاهر أنه تأكد من صلابة الجبهة الصليبية وأحسن أنه من الصعب هزيمة القوات الصليبية وإجلائها عن مصر بالقوة العسكرية بالإمكانات التى توفرت لديه في ذاك الوقت . ولهذا الأسباب ولأسباب أخرى بدأ الكامل يتحول من سياسة الهجوم أو الدفاع إلى فكرة عرض الصلح على الصليبيين .

ومن الأسباب التى ربما دفعت الكامل إلى فكرة عرض الصلح أن مؤامرة عماد الدين بن المشطوب قد أثرت تأثيراً سلباً في حالة الجيش المعنوية ، فضلاً عما سادته من الإضطراب والفوضى . وهذا كله يحتاج إلى بعض الوقت لإعادة حالة القوات إلى ما كانت عليه معنويًا وعسكريًا وربما تمكن الصليبيون خلال ذاك الوقت من إحراز مزيد من الانتصارات على القوات الإسلامية يترتب عليها سقوط مدينة دمياط في أيديهم وتقدمهم نحو القاهرة ، وبذلك تكون الحملة قد حققت الهدف الذى قدمت من أجله إلى مصر . كما أن حالة الأهالي داخل مصر لم تكن بأحسن من حال القوات المرابطة في فارسكور . فقد إصيبوا هم

Hist. Patr. Alex. pp. 248-9.

(١)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 2.

(٢)

أيضا بالفرع خاصة بعد ما سمعوا أن الملك الكامل قد عزم على مغادرة مصر والتوجه إلى اليمن . وعلاوة على ذلك فإن موقف الكامل قد زاد تخرجاً عندما اجتمع العربان على إختلاف قبائلهم ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الصليبيين على حد تعبير ابن الأثير^(١) . ثم أن الكامل كان يتشكك في قرب وصول النجيدات الإسلامية الكافية لدفع الخطر الصليبي^(٢) . يضاف إلى ذلك ظهور الخطر المغولي^(٣) . وما قام به المغول من أعمال القتل والسلب ، وسماع الكامل بهذه الأعمال الوحشية التي يتصف بها المغول وعزمهم على الإلتجاء إلى المشرق الإسلامي^(٤) ، وما لا شك فيه أن مثل هذه الأخبار قد تسببت في إزعاج الكامل وانتشار الفرع في أرض مصر كلها^(٥) ، خاصة وأن الخطر الصليبي هو الآخر على أبوابها يهددها بشر مستطير .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٢ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٩ . أنظر أيضا :

Lamb. op. cit., p. 248.

(٣) بدأ ظهور الخطر المغولي على العالم الإسلامي عام ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ولزيد من التفاصيل عن المغول وأخطارهم في هذه الفترة أنظر : كتاب في التاريخ (مخطوط) محفوظ في دار الكتب تحت رقم (٤٠٣٠) ورقة ٣٣٠ أ - ٣٣٢ ب . ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٢٣ - ٢٦١ . ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٤ - ٦٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٦٥ ، ٧٨ - ٧٩ ؛ ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٨٦ - ٨٧ ، ٩٤ - ٩٥ ، ابن الوردي : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٧ - ١٤١ ، أبو شامة ، المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٨ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٣ - ٢٤٨ ، الحافظ الذهبي ، المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٨ - ٩١ ، المقرئ المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٨٥ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ . أنظر أيضا : البغدادى ، عيون التواريخ (مخطوط) جـ ٢ لوحة ٤١١ - ٤١٢ ، قزاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ص ١٠١ وما بعدها ، محمد صالح داود القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٣٥ وما بعدها .

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٩ - ٦١٠ . أنظر أيضا ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٨ وما بعدها .

Lamb, op. cit., p. 217.

(٥)

وإذا كانت أخبار ظهور المغول قد أفلقت مضاجع المسلمين ، فإن نفس الأخبار قد أُنْعِشت آمال الصليبيين في القضاء على العالم الإسلامي . فقد اعتقدوا أنهم سيجدون في جنكيز خان (٦٠٣ - ٦٢٣ هـ / ١٣٠٦ - ١٢٢٦ م) حليفا قويا لهم ضد المسلمين باعتباره خليفة الكاهن يوحنا Pretre Jean^(١) ، كما أُنْعِش آمال القوات الصليبية حضور جوتييه Gautier قائد جيش قبرص ومعه بعض الفرسان إلى المعسكر الصليبي المقام حول دمياط^(٢) ، وبذلك تحسن موقف الصليبيين معنويا وعسكريا في الوقت الذي لازالت تتعثر فيه القوات الاسلامية في فارسكور .

ولكل هذه الأسباب مجتمعة فكر الكامل والمعظم في عرض الصلح على الصليبيين ، ومُحور هذه الفكرة أن الصلح خير من الحرب وأن السلام الدائم

(١) | ترجع أسطورة الكاهن يوحنا إلى عام ١١٥٠ م عندما أخذ الغربى الأوربي يتبادل رسالة جرى الرعم | أن كاتبها هو الكاهن يوحنا ووجهها إلى الامبراطور البيزنطى مانويل الأول (١١٤٣ - ١١٨٠ م) بغرض التعاون المشترك بينهما للقضاء على العالم الإسلامى ورغم أنه يكاد يكون من المحقق أن هذا العمل من تزيف أحد القساوسة الالمان إلا أن الغرب الأوربي لم يتغافل هذه الرسالة . ففى عام ١١٧٧ م وجه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١ م) رسالة إلى الكاهن يوحنا حملها أحد رجال الدين يدعى فيليب لبحث التعاون بين الطرفين . ولما كانت شخصية الكاهن شخصية وهمية فقد طاف فيليب للبحث عنها وانتهت رحلته في الحبشة حيث كان يظن أن ملكها هو الكاهن يوحنا ومن الطبيعى أن تنتهى هذه الرحلة بنتائج غير محسوسة . وظل الغرب الأوربي ينتظر ظهور شخصية الكاهن يوحنا حتى وقت ظهور المغول ، واعتقدوا أن جنكيز خان سيقوم بدور الكاهن يوحنا وهو التعاون مع أوربا للقضاء على الإسلام أنظر : Runciman, op. cit., II, pp. 422-3, III, p. 169.

، عن نص الخطاب المرسل من الكاهن يوحنا إلى الامبراطور مانويل أنظر : Y. Kamal, op. cit., t. III, faec. IV, pp. 891-2.

وللمزيد من المعلومات عن ذلك أنظر ، أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام - ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ص ١٩٢ ، حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام بين المغول والتتار ص ٢٨ . وقد تعرض جالك دى فترى لهذه الاسطورة في احدى خطاباتاته إلى البابا هونوريوس الثالث . أنظر :

vitry, op. cit., pp. 142. ff.

Eracles, op. cit., p, 340,

(٢) |

سيد العلاقات بين أى طرفين متحاربين خاصة إذا توافرت حسن النية لدى كل منهما^(١) ، لذلك تقدم الملك الكامل بأسخى عرض تمكن التقدم به فى مثل هذه الظروف^(٢) ، ويبدو أن ذلك كان بتشجيع كبير من أخيه الملك المعظم . ويروى تاريخ هرقل أن الملك المعظم قال لأخيه الملك الكامل أن كل الأراضى التى كانت تابعة للصليبيين قبل أن يستردها صلاح الدين الأيوبي فى يدي وإثنى أعطيها لك لكى تخلص مصر من القوات الصليبية . فكل شئ يهون فداء بلاد المسلمين . ويبدو أن الكامل إرتاح عندما سمع ذلك ، فوقف وقبل أخاه على كتفه وأثنى عليه ثناء كبيرا ، ورد الكامل على المعظم بأنه سيعرضه فى صعيد مصر. مقابل ما يتنازل عنه فى الشام^(٣) .

وفيما يتعلق بعرض الصلح فإن الملك الكامل تقدم بعرض الصلح على قادة الحملة الصليبية الخامسة عدة مرات كما هو واضح من النصوص التى تحت ايدينا وكما سيرد ذلك فيما بعد ، وهذا هو العرض الأول الذى تقدم به الكامل وحول مواعده نقول أنه يقع على ما يبدو فى الفترة الواقعة بين (٢٠ ذو الحجة ٦١٥ - أول محرم ٦١٦ هـ / ٩ - ١٩ مارس ١٢١٩ م) والتاريخ الأول يتعلق بتاريخ الغارة التى أشرنا إليها من قبل ، والتاريخ الثانى هو تاريخ قيام المسلمين بهدم اسوار مدينة بيت المقدس وغيرها من القلاع الشامية^(٤) . ومما يجعلنا نميل إلى تحديد هذه الفترة هو أن العرض الأول لم يتضمن إصلاح أسوار مدينة بيت المقدس وغيرها لأنها لم تكن هدمت بعد ، على العكس من العرض الثانى الذى تقدم به الملك الكامل فى الثامن عشر من جمادى الثانى ٦١٦ هـ (٣١ أغسطس ١٢١٩ م)^(٥) ، وأضاف إلى شروط الصلح دفع تكاليف

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٧٤ .

(٣) Eracles, op, cit., p. 338.

(٤) ابن الجوزى - المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠١ . وأشار أوليفر أن عملية الهدم استمرت من ١٩ - ٢٥ مارس أنظر : Oliver of Padenborn, op. cit. p. 52.

(٥) Eracles, op, cit., p. 341.

إصلاح أسوار مدينة بيت المقدس والقلاع التي هدمت معها في التاريخ نفسه أو بعده بقليل . ونقطة أخرى تجعلنا نرجح هذه الفترة هو أن الملك الكامل تقدم بعرضه الأول وهو في حالة يأس من الانتصار على الصليبيين وكان عليه أن يقدم كل ما يمكنه لإجلائهم عن مصر ، ولو كانت أسوار مدينة بيت المقدس قد هدمت لعرض عليهم إصلاحها كما هو الحال في العرض الثاني . وعلى العكس نجد الملك الكامل تقدم بعرضه الثاني بعد انتصاره في معركة كبرى على الصليبيين وكان عليه أن يكون متشددا إلى حد ما أو يكون عرضه الثاني مساويا لعرضه الأول والفرق بين الاثنين أنه يعرض عرضه الثاني من مركز المنتصر ولكنه كان سخيا رغم انتصاره وقدم إصلاح أسوار المدينة وغيرها من القلاع لأن حدوث الهزم كان قد وقع فعلا . وسوف نناقش هذا كله على الصفحات التالية في هذا الفصل .

والمهم أن الملك الكامل اختار رسولا لعرض الصلح على الصليبيين ورد ذكره في تاريخ هرقل باسم لجارس Legars وزوده بترجمان سماه المصدر نفسه باسم بيران^(١) Beiran واتجها الرسول والترجمان إلى المعسكر الصليبي ، وطلبا من الملك جان دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس أن يرسل مندوبا عنهما إلى الملك الكامل في فارسكور ، فوافق الملك والمندوب وأرسل اثنين من عقلائهم لهذه الغرض هما أملين دي ريوارت Amelin de Riorte وهو من مقاطعة أنجو Ango والآخر يدعى وليم ، وصطحبا معهما ترجمانا يدعى موستار Mostar . وتوجه ثلاثهم بصحبة الرسول الكامل وترجمانه إلى حيث يعسكر الكامل . وبعد أن مثلوا أمانة عرض عليهم أن يعيد للصليبيين كافة الأراضي التي كانت في حوزتهم قبل فتوحات صلاح الدين الأيوبي عدا قلعتي الكرك^(٢) والشوبك ، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة

(١) فيما يتعلق باسمي لجارس وبيران لم أجد لهما مقابل باللغة العربية في المصادر والمراجع التي بين يدي .

(٢) بالكرك ، تحتل الكرك مكان كرمواب Ker Moab ، والكرك اسم محرف عن السريانية كاركو Karko التي تعني حصن . وقد بنيت هذه القلعة عام ١١٤٢ م (٥٣٦ - ٥٤٧ هـ) على يدي =

وذلك مقابل الجلاء عن دمياط ، وعاد الرسولان إلى المعسكر الصليبي وأبلغ قادتهما بعرض الملك الكامل في حضور بعض رسل المسلمين للعودة بما يتم عليه الاتفاق . وقد عقد القادة الصليبيون مجلسا للتشاور ، وفي هذا المجلس اختلفت الآراء حول قبول أو رفض العرض الكامل . فقد وافق الملك جان دي برين على قبول العرض وأيده في ذلك الفرسان الفرنسيون وعساكر مملكته بيت المقدس . ولم يوافق عليه المندوب البابوي ورجال الدين وفرسان الداوية والاستبارية والايطياليون ، وطالبوا بكافة مملكة بيت المقدس بما فيها الكرك والشوبك ، لأنهم كانوا يرون أن من المستحيل الاحتفاظ بيت المقدس دون هاتين القلعتين نظرا لأهميتها العسكرية . وانتهى الأمر برفض العرض الكامل وعاد الرسل من حيث أتوا^(١) .

وإذا قمنا بتحليل موقف كل فريق من الفريقين الصليبيين ، فنجد أن الملك جان دي برين لم يكن يرى في نفسه إلا وصيا على مملكته بيت المقدس ، أو بمعنى أصح على مملكته عكا فقط . فلم يكن هناك مملكة لبيت المقدس بعد أن استعاد المسلمون معظم ممتلكاتهم على يد صلاح الدين . لذلك نرى الملك الصليبي يوافق على عرض الملك الكامل بالصلح حتى تصبح مملكة بيت المقدس حقيقة واقعة . ولا شك أن ذلك سيعود عليه بالكسب الأدبي باعتبار أنه أعاد

باين Payen ساقى الملك الصليبي فولك الانجوى (١١٣١ - ١١٤٤ م) . انظر : لى سترالنج : المرجع السابق ص ٤٥٠ - ٤٥١ . وهي قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء وتقع على سن جبل عال تحيط بها الأدوية من جميع الجهات عدا الربض . أنظر : يا قوت الحموى : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٣ . ويقال أنه كان ديرا للروم وبه فواكه كثيرة وعيون واهار ومن أعمال قلعة الشوبك عن ذلك أنظر : غمس الدين الأنصارى : نخبة الدرر في عجائب البر والبحر ص ٢١٣ . وترجع أهمية هاتين القلعتين إلى وقوعهما في جنوب الشام حيث ملتقى التجارة وحركة المرور بين الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية وقد استعادها صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) راجع : العماد الأصفهاني : المصدر السابق ص ٥٩ - ٦٠ ، ٨٠ .

L, F. Crusade, Letter to The Pope Honorius III, dated 12 th. Nov 1219, cf. Rohricht., Funften. Kreuzzuges, p. 47, Eracles, op, cit., pp 338-9.

المملكة إلى ما كانت عليه سلميا وهو ما فشل فيه من قبل ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس عسكريا^(١). ومما لا شك فيه أيضا أن رأى الملك جان دى برين كان رأيا راجحا سديدا وهو ما كان يجب الموافقة عليه^(٢). والمهم أن رأى الملك اللاتيني أوضح الغرض السياسى للحملة الصليبية الخامسة بصفة خاصة والحملات الصليبية كلها بصفة عامة .

أما عن موقف الفريق الآخر ممثلا فى المندوب البابوى وهو الذى رفض عرض الملك الكامل بالجللاء عن مصر ، فذلك أن بلاجيوس كان يرى أن الاستيلاء على مصر يشطر العالم الإسلامى إلى قسمين ، القسم الشرقى ويشمل الشام والجزيرة العربية واليمن والعراق وما فى شرق هذه الدول ، والقسم الغربى وهو ما يشمل الممالك التى تقع غرب مصر حتى المحيط . وكان يرى أنه بعد الاستيلاء على مصر سيتمكن من نشر المسيحية على المذهب الرومانى الكاثوليكى داخل مصر كلها^(٣)، ومن جانب آخر إعتقد بلاجيوس أن المسيحيين فى شبه الجزيرة الايبيرية سيواصلون إنتصاراتهم على المسلمين وأنهم سيعبرون مضيق جبل طارق وسيسيطرون على المغرب والجهات الشرقية منه حتى مصر . أما عن الجبهة الشمالية فقد ظن بلاجيوس أن مملكة أرمينية أصبحت دولة قوية وفى مقدورها السيطرة على شمال الشام والعراق^(٤) . أما الجبهة الشرقية فقد تكفل بها المغول وهو الأمر الذى طمأن الجانب الصليبي . هذا فضلا عن آمالهم فى إتخاذ المغول حلفاء لهم وإحياء أسطورتهم القديمة الخاصة بالكاهن يوحنا . ومما لا شك فيه أن بلاجيوس كان يعتقد أيضا أنه بعد سقوط مصر فى أيدي الصليبيين ستقع كافة الممالك الإسلامية بالشام فى أيديهم أيضا^(٥).

Lamb, op. cit., p. 248.

Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 338.

Grousset, op. cit., II, p. 209.

Duggan, op. cit., pp. 217-8.

Fabri, op. cit., Vol 2 part I. p. 358.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

وعلى هذا التصور رفض المندوب البابوي العرض الكامل كما تنبأ له أنه سينجح في الاستيلاء على مصر كلها وعلى الممالك الإسلامية في الشام ، وسيتمكن من نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية في كل ربوع العالم الإسلامي واحتواء القوات المغولية وإدخالها في الديانة المسيحية أيضاً ، وبذلك يسيطر أهل الغرب اللاتيني على ممالك البسيطة كلها^(١) . ومن الواضح أن أفكار المندوب البابوي المليء بالغرور والصلف والكبرياء كان لها أكبر الأثر في ضياع الفرصة الذهبية لاستعادة مملكة بيت المقدس^(٢) . ومن الغريب أن يأتي رفض مثل هذا العرض من المندوب البابوي ورجال الدين . ولو أتى هذا الرفض من الرجال الدنيويين لأصبح أمراً مقبولاً إلى حد ما . إما وأن يأتي الرفض من أكبر شخصية دينية على رأس الحملة هو أمر يدعو للدهشة . وربما تزول هذه الدهشة إذا عرفنا بعضاً من سلوك بلاجيوس تجاه البيزنطيين ، فهو الذي كان يسجن الرهبان والقساوسة الأرثوذكس ويفلق الكنائس الخاصة بهم^(٣) . فإذا كان هذا هو سلوكه تجاه إخوانه في العقيدة ، أدركنا على الفور أن رفض عرض السلام لم يكن غريباً أن يأتي من مثل هذا المندوب الذي تسبب في فشل الحملة بأكملها بسبب أطماع من ساندوه^(٤) .

ويروى جاك دي فترى أن بلاجيوس كان يشك في نوايا المسلمين وأن الملك الكامل لم يتقدم بهذا العرض عن طيب خاطر وإنما لجأ إليه كوسيلة من وسائل الخداع وبث الشقاق بين الصليبيين فيسهل على المسلمين التغلب عليهم . هذا من جهة- ، ومن جهة أخرى ، إذا وافق الصليبيون على العرض الكامل فيجب على الجيش الصليبي أن يعود من حيث أتى وتتفرق القوات الصليبية ، ويصبح في إمكان المسلمين إستعادة الأراضي التي سلموها للفرنج

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

Grousset, op. cit., III, p. 223.

Luchaire, op. cit., p. 249.

Fabri, op. cit., Vol. 2. part 1. p, 358.

بموجب هذا الصلح مرة أخرى^(١) . وعلى أية حال ، فقد كان لرأى المندوب البابوي أبلغ الأثر على بعض الفئات الأخرى في رفض العرض الإسلامي بالصلح .

وكان الايطاليون من الطوائف التي ساندت المندوب البابوي ورفض فكرة الجلاء عن مصر . وليس ذلك بغريب عليهم فأهم المدن الإيطالية وهي بيزا وجنوة والبندقية مدن تجارية ، ويهمها في المقام الأول مصالحها الاقتصادية بغض النظر عن أية مصالح أخرى سواء أكانت سياسية أم دينية فهم الذين حولوا حملة صليبية وهي الحملة الرابعة إلى القسطنطينية ، وقضوا على امبراطورية باكملها ولو إلى حين . والسبب الأساسي في رفض الايطاليين الجلاء عن مصر هو الطمع في أرضها باعتبارها تلبد العامرة بالمدن والقرى وحركة التجارة المستمرة فيها براً ونهراً وبحراً لوقوعها في منتصف الطريق بين الشرق والغرب . وهي أيضاً « المليئة بالخيرات » ، وليس في العالم كله بقعة أهلة بالسكان غنية بثمارها مثلها^(٢) . كما أن الايطاليين لم يكن لهم هدف من الاشتراك في الحملات الصليبية إلا التوسع في تجارتهم والحصول على أكبر قدرة من المكاسب المادية . ومن الطبيعي ألا يقبلوا شروطاً تقضى بعدم بقائهم في دمياط وهي المدينة التجارية الهامة التي تخدم مصالحهم التجارية ويستطيعون من خلالها أن ينفذوا إلى جوف البلاد المصرية^(٣) ، كما نظريات الجاليات التجارية الإيطالية إلى أبعد من ذلك ، فمصر ملتقى التجارة الآتية من الهند عبر البحر الأحمر وأن وجودهم فيها يضمن لهم الإتصال عن قرب بمنابع المواد الأساسية للتجارة والحصول على أكبر فائدة من التجارة المباشرة مع الهند والشرق الأقصى^(٤) ، هذا بالإضافة إلى أن بقاء الإيطاليين في دمياط سيعفيهم من دفع

Vitry, op, cit., pp. 125-6.

(١)

(٢) بنيامين التطيلي : الرحلة من ١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق من ٥٠ .

Mahmod, op, cit., p, 255.

(٤)

الضرائب المقررة على بضائعهم والتي تتراوح بين عشرين وخمسة وثلاثين في المائة من قيمة هذه البضائع^(١).

وهناك رأى آخر يتعلق برفض الصليبيين لعرض الصلح الذى تقدم به الملك الكامل ، وهو أن القوات الصليبية قد وجدت نفسها متقدمة فى عملياتها العسكرية ، إذ نجحت فى الإستيلاء على برج دمياط وفى العبور إلى الضفة الشرقية للنيل وأصبحت تحاصر مدينة دمياط فضلا على علمها باختلال أحوال المسلمين . يضاف إلى ذلك أمل الفرنج فى حضور الإمبراطور فريدريك الثانى وقواته ، وأملهم أيضا فى مزيد من الانتصارات عند حضور هذا الإمبراطور ، وبالتالى تصور كل فريق أن امتلاك مصر أصبح شيئا مضمونا وأنه سيتم فى القريب العاجل . ولكنهم حين تصوروا كل هذا لم يكن يدور بخلداهم أن هناك إرادة إسلامية ستحقق بالحرب ما حاولت اقتراحه بالسلم بالنسبة للجلاء عن مصر .

ويجب الإشارة هنا إلى نقطة هامة تتعلق بفلسفة الحركة الصليبية كلها والتي تنحصر فيما زعمه القادة الصليبيون من حرصهم على الغاية التي قامت من أجلها الحملات الصليبية وهي استرداد بيت المقدس ، فلو كانوا متمسكين فعلا بهذا الهدف لقبولوا العرض الذى تقدم به ملك مصر إبان تواجد الحملة الصليبية الخامسة فى دمياط ، ولوجدوا فيه فرصة طيبة لاسترداد هدفهم المنشود - بيت المقدس - دون عناء . ولعل موقف الصليبيين من عرض الملك الكامل يوضح أن أهداف الحملات الصليبية كانت استعمارية وليس دينية حسب زعمهم^(٢) . ولهذا الأسباب الإستعمارية رفض الصليبيون العرض الكامل مرة أخرى عندما كرر عليهم عرض الصلح عقب الرفض مباشرة^(٣).

(١) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٥١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٨٥ .

Eracles, op. cit., p. 336.

(٣)

وبعد ما تحققت للملك الكامل نوايا الصليبيين وعزمهم على الإستمرار في الحرب برفضهم الجلاء عن مصر ، بدأ الكامل في اتخاذ الاجراءات اللازمة التي من شأنها مساعدته على مواجهة الخطر الصليبي المهدق بدمياط والذي يهدد مصر كلها على وجه الخصوص والعالم الإسلامي كله على وجه العموم. وبدأ الكامل بتكليف صاحب صفى الدين بن شكر في جمع المبالغ اللازمة لنفقات الحرب فاتجه إلى القاهرة وبدأ بجمع الأموال من التجار ، كما تقرر أيضا التبرع على الاملاك ، وظل بالقاهرة حتى العشرين من شهر رمضان ٦١٦ هـ (٣٠ نوفمبر ١٢١٩ م) . وقد تمكن خلال هذه الفترة من تحصيل مبلغ كبير من المال^(١). ويلاحظ أن أهالي مصر من مسلمين ومسيحيين ويهود^(٢) قد ساهموا في دفع هذه المبالغ ، فمصر وطن الجميع ويجب على جميع المواطنين مساندتها وقت الشدائد سواء بالنفس أو المال .

أما فيما يتعلق بالأموال التي تقرر على المسيحيين سواء الأقباط منهم أو الملكانيين وكذلك تلك التي دفعها اليهود ، فقد عقدت عدة مجالس لهذا الغرض حضرها رجال القانون وقساوسة وأحبار الطوائف المعنية . وقد طلب منهم في هذه المجالس المساهمة بأموالهم في دفع الخطر الصليبي عن مصر . وقد ساهمت كافة هذه الطوائف في نفقات الحرب ضد الصليبيين وتحمل الملكانيون مبلغ ألف دينار من الأموال المتوفرة لديهم . وطلب من المسيحيين الأقباط أن يتبرعوا بما يوازي أربعة وعشرين مرة من المبلغ الذي قدمه الملكانيون وذلك بالنسبة لعدددهم ومكانتهم بالمقارنة مع الملكانيين . وبعد عدة مفاوضات تقرر أن يقدم

(١) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٥ - ٢٦ .

(٢) بلغ اليهود رقيا علميا وسياسيا أيام الدولة الفاطمية والأيوبية ، فكان منهم الوزراء والكبراء والأطباء والعلماء . عن ذلك أنظر : بنيامين التطلى : المصدر السابق ص ١٧١ حاشية (١) . في حين عاش يهود أوروبا نفس الفترة يعانون من أشد أنواع التعذيب والاضطهاد وعلى سبيل المثال المذبحة التي قامت في مدينة يورك بإنجلترا في ١٦ ، ١٧ مارس ١١٩٠ م للتخلص من اليهود وديونهم على الأمراء والأهالي ، حتى اضطر اليهود إلى قتل أنفسهم . عن ذلك أنظر : نعيم عزيز زكى : دور اليهود في تجارة العصور الوسطى ص ١٥٤ - ١٦١ .

الأقباط ثلاث آلاف دينار وبذلك يكون جملة ما تحصل منهم هو أربعة آلاف دينار ، وتقرر على اليهود أن يدفعوا مبلغ خمسمائة دينار . أما المسلمون فقد تقرر أن يدفع كل فرد قادر منهم مبلغ خمسة دنائير وإعفاء الفقراء من دفع هذا المبلغ^(١) . ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المؤرخين المحدثين ذكروا أن الأقباط والمكانيين قد تعرضوا لقيود بالغة الشدة وتقررت عليهم الضرائب الباهظة^(٢) . وللدرد على ذلك أن جملة ما دفعه الأقباط هو مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، وقياسا على ما دفعه المسلم وهو خمسة دنائير فإن العدد اللازم من الأقباط لدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار هو ستائة مواطن وحوالى مائتين على أقصى تقدير بالنسبة للمكانيين ، أما بالنسبة لليهود يتطلب الأمر مائة منهم لدفع المبلغ الذى تقرر عليهم . فاذا أخذنا فى اعتبارنا أنه كان يوجد بالقاهرة فقط نحو ألف يهودى^(٣) فذلك يكون ما تحمله كل فرد من اليهود حوالى ربع دينار على الأكثر من يهود القاهرة فقط بغض النظر عن اليهود المنتشرين فى مصر كلها . فاذا كان ذلك هو الحال بالنسبة لليهود فإن نفس الحال ينطبق على الطوائف الأخرى . إذ لا يعقل أن يكون بمصر ستائة من الأقباط ومائتين من المكانيين ، فقد ذكرت بعض المصادر المعاصرة أن عدد الأقباط فى مصر كان لا يقل عن عشرة آلاف نسمة^(٤) . وعلى أية حال فقد بدأ الأقباط فى جمع الأموال المقررة عليهم عن طريق التبرع فى الكنائس . كما حصلوا على بعض هذه الأموال من دير طموية^(٥)

Hist. Patr. Alex., p, 249.

(١)

Runciman, op. cit., III, p. 170

(٢)

(٣) بنيامين التطيلي : المصدر السابق ص ١٧١ .

Nicolas I, Lettre au Pape Honoré III, p. 648.

(٤)

(٥) طموية ، تقع على الضفة الغربية للنيل على بعد خمسة أميال من النقطة الموازية لحلوان وكانت

احدى منتزهات مصر ، والدير راكب البحر وحوله الكروم والبساتين والنخيل والشجر . عن

ذلك أنظر : الشابثى : الديارات ص ١٩٤ وحاشيه (٢) ولزبد من التفاصيل انظر : نفس

المصدر ص ٢٥٩ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٤ ص ٦٧٤ ابن فضل الله العبرى :

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ج ١ ص ٣٧١ . راجع أيضا : القمص عبد المسيح البرموسى .

تحفة السائلين ص ١٦١ ، مجلة جمعية الآثار القبطية المجلد الخامس ص ١٨ - ٢٠ .

ومن بعض الأديرة الأخرى^(١).

يبدو أنه أثناء قيام الوزير صفى الدين بن شكر بجمع هذه الأموال حدث احتكاك بين بعض المسلمين والمسيحيين . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية أنه قتل بعض المسيحيين أثناء هذه الحوادث^(٢). وإن صحت هذه الرواية التي لم يرد ذكرها في بقية مصادر الحملة من عربية وأجنبية ، فإن هذا العمل لا يعدو أن يكون مجرد عمل فردى يعد كل البعد عن سياسة الدولة الأيوبية ، لأن الأقباط لم يصيبهم أيام الحكم الأيوبي ضرر بقدر ما لحقهم من الصليبيين أنفسهم^(٣). فقد عاش الأقباط وكافة الطوائف المسيحية الأخرى وكذلك اليهود آمنين في مصر أحرارا في عقيدتهم حسب شريعة كل طائفة منهم ، وذلك حسب ما روته بعض المصادر الأجنبية المعاصرة للحملة^(٤). كما تميز عهد الملك الكامل وأبيه العادل بالتسامح والعدالة تجاه الأقباط ولعل ما ورد في كتاب « قصة الكنيسة القبطية » من أن حسودا أراد أن يوغر صدر العادل ضد

Hist. Patr. Alex., pp. 247-251

(١)

يلاحظ أن المبالغ التي تحملها كل فرد في مصر سواء أكان مسلما أم مسيحيا أم يهوديا في وقت تواجد الحملة الصليبية الخامسة بدمياط كانت بسيطة جدا إذا ما قورنت بنفس المبالغ التي تحملها أهل أوروبا لقيام نفس الحملة مع اختلاف الهدفين . أنظر ما سبق من ١٤٩ - ١٥٠.

Hist. Patr. Alex., pp. 247-8.

(٢)

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ١١٨ . ولم تكن حسن معاملة المسلمين للأقباط قاصرة على مصر فقط بل سادت بلاد الشام خاصة مدينة بيت المقدس فانه خلال الحرب الفاطمية السلاجوقية التي استمرت حوالى عشرين سنة في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قبل الحملة الصليبية الأولى بقليل ، نجد أن الصراع دار على مدينة بيت المقدس وتناولتها أيدي الطرفين عدة مرات . وفي هذه الحروب لم يصب المسيحيون بأكثر مما أصيب به غيرهم وبقي الحى المسيحى المسور لم يمس أحد بأذى . أما عند قدوم الحملة الصليبية الأولى فقد خرج الأهالى المسيحيون من القدس . وكان ذلك من حسن حظهم لأنهم لو بقوا في المدينة لكان نصيبهم كنصيب المسلمين واليهود من المناهج التي قام بها الصليبيون احتفالا بدخولهم المدينة المقدسة عن ذلك أنظر :

Runciman, The Cristian Arabs of Palestine, p. 10.

[Patriarche de Jerusalem, Rapport] au pape Innocent, III p. 932.

(٤)

القبط فادعى أمامه أن دير الأنبا أبى مقار^(١) يحتوى على كنوز ثمينة فقام الملك العادل بانتداب بعض كتبة الديوان للتوجه إلى الدير المذكور والبحث عما فيه من كنوز ، فلما قابل المندوبون رئيس الدير عرفوا منه أن الكنوز الموجودة فيه فعلا هي أواني المذبح والملابس الكهنوتية . فأخذوها بعد أن أكدوا لرئيس الدير أن الملك العادل منصف للغاية ، وحينما رأى العادل هذه الأشياء أمر بتقييمها وعرف أنها لا تساوى غير ثلاثة آلاف دينار . فأمر العادل بتسليمها إلى الأنبا يؤنس السادس (١١٨٩ م - ١٢١٦ / ٥٨٤ - ٦١٣ هـ) مع الاعتذار له عما وقع . ثم بتوقيع العقاب على الحسود . وقد تجلت في هذا الموقف عدالة الملك العادل . هذا بالإضافة إلى مواقف أخرى لا تقل نزاهة وعدالة عن ذلك ، منها أن بعض دعاة السوء حاولوا إقناع العادل بمضاعفة الضرائب على القبط كما فعل غيره فأجابهم « أكان غيرنا قد ظلم فلا داعى لأن نكون ظلمة »^(٢) . وما اتصف به العادل من تسامح مع الأقباط إنطبع في ولده الكامل . فقد حدث أنه كان مرة في الاسكندرية وأثناء عودته إلى القاهرة عن طريق الصحراء زار دير الأنبا أبى مقار ومعه حاشيته . وقد رحب به الرهبان واستضافوه ومن معه عدة أيام أحاطوه فيها بالمودة والإكرام ، ولقد سر الكامل بما رأى ورغب في تكريم رهبان الدير فمنحهم ثلاثمائة أردب من القمح والشعير ومائة من الفول ومائة من الترمس . وفوق ذلك كله أصدر مرسوما يتضمن إعفاء الرهبان من الضرائب وأيلولة تركة الراهب بعد وفاته إلى الدير الذى ينتمى إليه^(٣) . وفي مقابل هذه العدالة النزيهة امتلأت قلوب القبط بهجة

(١) دير أبى مقار ، يقع في المكان الذى يسمى وادى النطرون حاليا وموقعه في الجنوب الشرقى من دير السريان ودير الانبا يشوى . ويرجع أصل أبى مقار إلى بلدة جحوير من أعمال منوف وقد عاش في أواسط القرن الرابع الميلادى ومات عن ٩٧ سنة . أنظر : القمص عبد المسيح البرموسى : المرجع السابق ص ٧٦ - ٨٤ . عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأدريته ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) ابريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ٣ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ٢٨٦ .

وطمأنينة^(١)، وذلك على العكس من شعورهم تجاه الصليبيين الذين اعتبروا أقباط مصر من الهراقة وكثيرا ما أساءوا إليهم . وليس أدل على الذين من حرمان الأقباط من الحج إلى بيت المقدس منذ إستيلائهم عليها في الحملة الأولى فلم يدخلوها حتى إستردها صلاح الدين الأيوبي^(٢) .

وإذا كنا قد تناولنا بالدراسة والتحليل ما ورد في أحد النصوص من إضطهاد المسلمين للأقباط الذى ليس له فى الحقيقة أى أساس من الصحة فى ظل التسامح الإسلامى الذى كان يتمتع به قبط مصر ، فإن ذلك لا يبعدنا عن الإجراءات التى إتخذها الكامل لدفع الخطر الصليبي عن دمياط ، كاعداد خطوط الدفاع الأمامية عند فارسكور وجمع الأموال اللازمة لنفقات الحرب وإستنهاض آل البيت الأيوبي لإمداده بالقوات الكافية لإجلاء القوات الصليبية عن مصر عسكريا بعدما فشلت المحاولات السلمية .

وفيما يتعلق باعداد خطوط الدفاع الأمامية فقد تولاهما الملك الكامل بنفسه عند فارسكور . وأما الأموال فقد تولى أمرها صفى الدين بن شكر ، وأما استنهاض آل البيت الأيوبي فقد تولى أمره فعلا الملك المعظم عيسى . فانه عقب رفض الصليبيين عرض الملك الكامل للصلح اتجه المعظم إلى دمشق لإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال لدفع الخطر عن دمياط . كما أنه كان يخشى وصول بعض القوات الصليبية من أوروبا إلى الشام إذا علموا بسيطرة إخوانهم على دمياط والملك الكامل مشغول بمحاربتهم ، فيقصدون البيت المقدس فيملكونه « ويتعذر على المسلمين إستنقاذه من أيديهم »^(٣) . هذا فضلا عن أن الملك المعظم بلغه أن طائفة من الفرنج عازمة على الإستيلاء على البيت المقدس . لذلك

(١) | ابريس حبيب المصرى : المرجع السابق ج ٣ ص ١٩٤ . ويلاحظ أن منصب البابا القبطى كان شاغرا فى الفترة من ٧ يناير سنة ١٢١٦ م حتى ١٧ يونيه ١٢٣٥ م أنظر : المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٤٠١ .

(٢) | جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ١١٨ .

(٣) | ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٩ .

اتفق على خرابه خاصة وأن الشام كانت خالية من العساكر الإسلامية وأنه إذا استولى الصليبيون على القدس استولوا على باقي الممتلكات الإسلامية وحكموا الشام كله^(١). لذلك طلب الكامل من أخيه العزيز عثمان والأمير عز الدين أيك الحلبي المعظمي^(٢) اللذين كانا بالقدس في ذاك الوقت تخريب المدينة ، ولكنهما لم يرغبيا في خرابها بأمل الدفاع عنها إذا هاجمها الصليبيون . ولكن المعظم كتب اليهما ثانيا قائلاً « لو أخذوه (بيت المقدس) لقتلوا كل من فيه وحكموا على بلاد الشام وبلاد الإسلام ، فألجأت الضرورة إلى خرابه » ، فاقتهما برأى المعظم وشرعا في خراب سور المدينة في أول المحرم عام ٦١٦ هـ (١٩ مارس ١٢١٩)^(٣). ويصف المؤرخ ابن الجوزي الضجة التي سادت البلد في هذا اليوم ، فكان كيوم القيامة ، إذ خرج جميع أهل مدينة القدس شيئا وشبانا رجالا ونساء ومعهم أولادهم وإتجهوا إلى مسجد الصخرة . والمسجد الأقصى حيث قطع النساء شعورهن ومزقن ثيابهن حتى إمتلأ المسجدان

(١) ابن الجوزي - المصدر السابق ج ٨ ق ٨ ص ٢٠١ .

(٢) . كان الأمير عز الدين يشغل وظيفة استاذ دار الملك المعظم والاستاذ دار هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير وله الإشراف على كل أعمال المأكل والمشرب والخدم ، وكان له مطلق التصرف في اعداد ما يحتاجه المسكن من النفقات والكساوى وأصبح لهذه الوظيفة شأن كبير في العصر المملوكي . أنظر : القلقشندي : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٧ ، وقد رفض هذا الأمير السلطنة عندما عرضتها عليه شجرة الدر في عام ٦٤٨ هـ بعد مقتل العزيز أيك التركاني . أنظر : أبو المحاسن ج ٦ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٨ ص ٢٠١ . ويلاحظ أن المصادر العربية اختلفت في تحديد التاريخ الذي تم فيه هدم أسوار المدينة . ف يرى البعض أن ذلك تم في ذى القعدة عام ٦١٦ هـ (يناير ١٢٢٠ م) أى بعد سقوط مدينة دمايط . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٦ . ويذكر آخر أن ذلك كان أول المحرم أو السابع منه (١٩٠ أو ١٩١ م) . أبو شامة : المصدر السابق ص : ١١ . وقد روى ابن واصل حادثة هدم المدينة ولكنه لم يذكر تاريخا لذلك . ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢ . وتفق مع ابن الجوزي بعض المصادر المتأخرة منها ما هو مخطوط ومنها ما هو منشور . أنظر : باغرمه : المصدر السابق ج ٥ ورقة ٣٢٢ ، العيني : المصدر السابق ج ٧١٧ لوحة ٣٩٥ . أنظر أيضا : ابن العماد : المصدر السابق ج ٥ ص ٦٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٤ . والأرجح ما أورده في المتن اعتمادا على صلة ابن الجوزي بالملك المعظم كما أسلفنا - راجع أيضا ما سبق ص ٢٢٢ .

بالشعور ثم خرج الجميع هاربين من المدينة تاركين أموالهم وذويهم معتقدين أن الصليبيين في أثرهم . فامتلات بهم الطرق ومنهم من اتجه إلى مصر أو إلى حصن الكرك كما ذهب بعضهم إلى دمشق سائرين على الأقدام ، « والبنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنهن على أرجلهن من الخفا » . وقد مات في هذه المحنة خلق كثير من الجوع والعطش ، كما نهبت أموالهم التي تركوها بالمدينة . ورخصت المؤن لعدم القدرة على شرائها حتى بلغ قنطار الزيت عشرة دراهم^(١) ، ورطل النحاس نصف درهم^(٢) .

وبعد تخريب أسوار مدينة بيت المقدس خربت أيضا أبراجها وكانت حصينة منيعة وفي غاية المناعة لأن العمارة في هذه الأبراج كانت قائمة منذ استعادة مدينة القدس على يد صلاح الدين الأيوبي ، لدرجة أن كل برج من أبراجها كان يعتبر قلعة قائمة بذاتها^(٣) . وقد تم تخريب المدينة كلها عدا المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبرج داود^(٤) . وفيما يتعلق بكنيسة القيامة فقد أشار أحد الرحالة الأجانب في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (أواسط القرن التاسع الهجري) أن المسلمين أرسلوا إلى الصليبيين المحاصرين لمدينة دمياط بأنهم ينوون هدم الكنيسة إذ لم يرفعوا الحصار فورا عن دمياط^(٥) . والواقع أن هذه الرواية غير صحيحة بدليل أن الحصار لم يرفع عن دمياط ولم يتم هدم الكنيسة . ولعل هذه الرواية من قبيل الشائعات التي كانت تلقى رواجاً في مثل تلك الظروف . وربما يقول قائل أن هذه الرواية قد حدثت من قبل التهديد فقط . والرد على ذلك يأتي من الصليبيين أنفسهم . فقد روى أوليفر مؤرخ الحملة أن المسئولين المسلمين أعلنوا بأن كنيسة السيد المسيح لن

(١) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٣ . أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) ابن أبيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٧٦ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢ .

(٤) Hist. Patr. Alex., P. 251. Oliver Scolastique, Lettre, a Angelbert, cf, Bongars. pp 1118 ff, Roger of Wendover, op. cit., II, p. 410.

(٥) Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 356.

مهدم وستبقى كما هي لأن المسلمين يعتبرون السيد المسيح نبيا عظيما^(١).

وعلى هذه الصورة تم هدم مدينة بيت المقدس ، وأصبحت المدينة مفتوحة لا يمكنها الدفاع عن نفسها^(٢). ولذلك قام المعظم بنقل ما كان فيها من الزردخانة^(٣) وآلات القتال وغير ذلك^(٤). ورغم أن هدم المدينة قد تم لأسباب إستراتيجية إلا أن المسلمين قد حزنوا عليها حزنا شديدا نظراً لمكانتها الدينية . وأنشد الشعراء الأبيات في هذه المناسبة . فقال مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفى قاضى الطور :

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صباية على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقال أيضا :

فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم^(٥)
وأنشد شاعر آخر يهجو الملك المعظم على تخريب القدس فقال :
فى رجب حلل الحميا وأخرب القدس فى المحرم^(٦)
ولم يكتف المعظم بتخريب المدينة المقدسة فقام بتخريب بعض القلاع

(١) Oliver Scolastique, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 410-11.

أنظر أيضا : مكسيموس مونروند : الحروب المقدسة ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) Lamb, op. cit., p. 247.

(٣) الزردخانة ، وهى كلمة فارسية مركبة من « زردا » أى سلسلة « وخانة » أى مسكن أو مكان .
أى سجن أنظر : ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ٢ ص ١٧ حاشية (٥٩) . ولكن
هذه الكلمة أصلا تعنى خزانة الزرد أى خزانة السلاح ، أنظر : ابن واصل : ج ٢ ص ٢٥٧
حاشية (٥٤) .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٢ .

(٥) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٥ .

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ص ٦٠٢ . ويلاحظ أن بيت المقدس كان تحت حكم
المسلمين منذ خلافة عمر بن الخطاب حتى استولى عليه الصليبيون عام ١٠٩٩ م ثم استرده صلاح
الدين عام ١١٨٧ م ثم تناوله أيدي المسلمين والصليبيين حتى استعاده المسلمون نهائيا عام ٦٤٢ هـ
(١٢٤٤ م) . عن ذلك أنظر : ابن فضل الله العمري : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩ . أما =

الأخرى مثل حصن تورون أوتبين^(١) وصفد^(٢) وبانياس . وقد خربت أيضا حتى لا يستولى الصليبيون عليها بحصانتها^(٣) ، بل يتسلموها خرابا لا تستطيع الدفاع عن نفسها فيسهل على المسلمين إستردادها إذا ضاعت من أيديهم شأنها شأن المدينة المقدسة . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن النية كانت متجهة إلى معاودة عرض الصلح على الصليبيين مقابل التنازل لهم عن ممتلكاتهم السابقة في الشام . فلذلك تم تخريب هذه الحصون حتى يتمكن المسلمون من إستعادتها مرة أخرى^(٤) .

والمهم أن الخطة العسكرية الإسلامية لم تتطلب هدم بيت المقدس وبعض قلاع الشام فقط ، بل تطلبت أيضا هدم كنيسة القديس مرقس^(٥) الإنجيلية^(٦) .

== عن تخريب القدس في هذه الفترة أنظر : ابن رسول : نزهة العيون (مخطوط) ج ٢ ورقة ١٠٢ ، اليوناني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) ج ١٥ ورقة ٣١ أ ، النويري : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٢٦ ، ابن خلدون : العبرة ج ٥ ص ٣٤٥ ، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٨ راجع أيضا : Eracles. op. cit., p. 340.

L. F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 10 th nov, 1219, cf. Rohricht, op. cit., p. 43.

(١) تبين ، بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلدة بانياس وتقع بين صور ودمشق ، ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ١ ص ٨٢ ، ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٨٢ إلى سترالنج : المرجع السابق ص ٣٤٨ .

(٢) صفد ، تقع هذه المدينة على جبال لبنان في المنطقة المطلّة على حمص . أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٤٢ حاشية (١) .

(٣) المعنى : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٣٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) Crousset, op, cit., III, p 214.

(٥) القديس مرقس ، اسمه يوحنا ويلقب بمرقس وأصله من اليهود وهو أحد الإنجيليين الأربعة . ولم يكن من تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر . وعلى يديه دخلت الديانة المسيحية إلى ديار مصر في القرن الأول الميلادي . لجنة التاريخ القبطي : تاريخ الأمة القبطية : ص ٦١ وما بعدها . وقد ناله الأذى على أيدي حكام الرومان الوثنيين حتى قبضوا عليه في يوم الفصح الموافق ٧ مايو سنة ٦٨ م ، ووضعوا في عنقه حبلًا وأخلوا بحجرونه حتى المساء وعاودوا الكرة في اليوم التالي ٨ مايو حتى أسلم الروح وقد بنى محل استشهاده الكنيسة للمرقسية بالاسكندرية ودفن فيها . فرج جرجس : تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٧ .

(٦) كانت هذه الكنيسة قديمة حصينة البناء كثيرة الأعمدة ، وقد تحولت بعد ذلك إلى مسجد وكان

في مدينة الإسكندرية . وعندما قرر الكامل هدم هذه الكنيسة عرض عليه مبلغ ألفين من الدينار للبقاء عليها ، ولكنه لم يوافق على ذلك لأنها تقع خارج أسوار المدينة وتطل على الميناء ويخشى من إستيلاء الصليبيين عليها فيزودونها بالآلات الحربية ويتخذون منها مركزا للاستيلاء على الاسكندرية فيتخرج مركزه بينها وبين دمياط . وتم تنفيذ الهدم خلال شهر ربيع ثاني ٦١٦ هـ (يوليو ١٢١٩)^(١) .

وإذا كانت الخطط العسكرية الإسلامية قد تطلبت هدم الأماكن الهامة من الوجهة الحربية ، بصرف النظر عن مكانة بعضها من الناحية الدينية ، فإن الأمر كان يتطلب أيضا إرسال النجذات إلى الملك الكامل لمقاومة الحصار الصليبي لمدينة دمياط . لذلك قام الملك المنصور صاحب حماء ٥٨٧ - ٦١٧ هـ (١١٩١ - ١٢٢٠ م) بتنصيب ابنه المظفر محمد وليا لعهد وأرسله على رأس العساكر ومعه الطواش مرشد المنصوري نجدة إلى مصر^(٢) . وكان المظفر يبلغ من العمر سبعة عشر سنة عندما أوفده في هذه المهمة . وقد شجعه والده عند مغادرته حماء ، وأنشده من نظمه بعض أبيات الشعر لشد أزره وزيادة حماسه^(٣) . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الكامل وأعظم قدره وأنزله على

== موقعها خارج أسوار مدينة الاسكندرية بقرب باب القبارى . سيد عل الحيرى : الاخبار السنية في الحروب الصليبية ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، جرجس فيلوثاوس عوض : القبط ١٥٣ . ويرى البعض أن المسجد الذى تحولت اليه الكنيسة هو جامع الالف عامود . على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٤٣ . ويرى آخرون أن جامع الالف عامود شيد على أنقاض كنيسة القيصر . أنظر : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٢١١ . وعلى أية حال ، فإنه لا يوجد علاقة بين كنيسة القديس مرقس القديمة لوقوعها خارج اسوار مدينة الاسكندرية وبين جامع الالف عامود لوقوعه داخل أسوار المدينة . أنظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٤٩ .

Hist. Patr. Alex., p. 252.

(١)

(٢) ابو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٠ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥ .

ميمنه وهى منزلة أبيه وجده عند صلاح الدين الأيوبي(أ). وهذا يدل على إهتمام الكامل بالنجادات التى كانت تقف إليه وهو فى محنته مع الصليبيين .

ويبدو أن الكامل قد تشجع بعد وصول هذه الإمدادات اليه فقرر مهاجمة المعسكر الصليبي فى يوم أحد الزعف^(٢) الموافق الثالث عشر من المحرم ٦١٦ هـ (٣١ مارس ١٢١٩ م) . فجمع الكامل عدداً كبيراً من خيرة القوات الإسلامية وهاجموا معسكر الصليبيين من كل جانب . وقد ترجل الفرسان المسلمون واجتازوا الخندق المقام حول المعسكر الصليبي ، ولم يتمكن ليوبولد دوق استريا ومن معه من فرسان الداوية دفع المسلمين ، ودار بين الطرفين قتالا عنيفا انتهى بسقوط عدد كبير من القتلى من كلا الجانبين ، وعاد المسلمون بعد أن أحرقوا بعض أجزاء الأبراج الخشبية الصليبية المقامة بمعسكرهم^(٣) ، وكانت هذه الغارة رغم عنفها من الهجمات غير الفعالة وعديمة الجدوى^(٤) . لذلك قرر الملك الكامل الهجوم مرة أخرى بعد قليل ، ففى يوم الأربعاء الموافق آخر أيام شهر المحرم (١٧ أبريل) قام المسلمون بهجمة أخرى وكانت نتائجها كنتائج سابقتها^(٥) . وربما يرجع فشل هاتين الغارتين إلى أن الصليبيين كانوا يحيطون معسكراتهم فى الضفة الشرقية والغربية للنيل بخنادق تمتد على ضفتى فرع دمياط ، وقد زودوا هذه الخنادق بالأبراج التى ملأوها بالمقاتلين . كما ربطوا بين المعسكرين بجسر من القوارب ، فأصبحت معسكراتهم فى غاية الحصانة فضلا عن سهولة الاتصال بالضفتين^(٦) .

لذلك رأى الكامل تخريب الجسر الذى يصل بين المعسكرين ليشطرهما إلى

(١) الفريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠١ .

(٢) أحد السعف أو أحد الزعف ، Palm - Sunday ، أول يوم فى الأسبوع المقدس وهو الأحد

السابق لعيد القيامة 191 , Vol, 17, p, Ency, Brit

Oliver Scolastiquis, Lbid.

Hist. Part. Alex., p 251, Roger of Wendover, op: cit., 11, p, 417.

Setton op, cit 11, p, 411.

Hist. Part. Alex., p. 251.

قسمين فيسهل عليه مهاجمة أحدهما دون مساعدة الجانب الآخر . وبدأ باستمالة تسعة من العساكر الصليبية بعد أن وعدهم بالمال ، ولكن المندوب البابوي أكشف هذه الحيلة وتمكن ثمانية منهم من الفرار إلى معسكر المسلمين بينما استطاع الأخير من تخريب بعض أجزاء الجسر وتمكن الصليبيون أخيراً من القبض عليه^(١) . كما قهضوا أيضاً على صليبي آخر - يعتقد أنه إنجليزى كان قد فر إلى المعسكر الإسلامى وأعتنق الديانة الإسلامية - لتعامله مع المسلمين^(٢) . وقد ربط الاثنان فى ذيول الخيول وسحلا داخل المعسكر الصليبي عقابا لهما . وعلى ضوء هذه الحادثة بدأ الصليبيون فى تشديد الحراسة على هذا الجسر^(٣) .

وعلى أية حال ، فقد انقضى ما يقرب من أحد عشر شهراً على تواجد الصليبيين عند دمياط دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . ويبدو أن بعض الصليبيين قد ملوا من طول هذه المدة فعادوا إلى بلادهم^(٤) . كما عاد أيضا بعض الذين أعتقدوا أنهم قد وفوا بعهودهم بالاشتراك فى الحملة ، وكان على رأس العائدين ليوبولد دوق استريا ، ففى أول مايو من عام ١٢١٩ م (١٤ صفر ٦١٦ هـ) أبحر إلى بلاده^(٥) . ويرجع ذلك لعدة أسباب ، منها أنه أعتقد أن الجيش الصليبي أصبح فى حالة طيبة وأن لا داعى لوجوده خاصة وأنه متغيب عن بلاده منذ قدومه مع الحملة الهنغارية ، أى ما يقرب من عشرين شهراً . وسبب آخر هو أنه أنفق مبالغ كثيرة فى هذه الفترة مما أدى إلى نفاذ أمواله ، وأن بقاءه مع الجيش الصليبي سيحمله نفقات إضافية لا قبل له بها ولا داعى لها . ونظرا لاحتياجه لبعض المال عند عودته إلى بلاده اقترض ألف دينار^(٦) . وما لا تجدر الإشارة اليه أن ليوبولد كان من أعظم النبلاء نشاطا وعلى جانب

Setton, op. cit., II, p. 416

(١)

Archer & Kingsford, op. cit., p 377. ∴

(٢)

Setton, Ibid

(٣)

Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriss, p. 202

(٤)

Oliver Scolastiquis, Ibid.

(٥)

Eracles, op, cit., p. 332.

(٦)

كبير من الولاء والطاعة والكرم ولم يوجه اليه اللوم على عودته إلى بلاده بعد هذه الفترة . والمهم أن سلوك ليوبولد مع قيادة الحملة الصليبية الخامسة وأعمال المروءة والشجاعة التي أتصف بها في هذه الفترة ، قد حمت الآثار السيئة التي لحقت به بسبب صراعه مع الملك ريتشارد قلب الاسد في الحملة الصليبية الثالثة^(١) . هذا ، ومن الطبيعي أن يحاول المندوب البابوي منع رحيل هذه القوات ، فاستعمل كل سلطاته للحيلولة دون ذلك ، أو على الأقل لتأجيل رحيل العائدين ، ولكن جهوده لم تفلح في تخويف أو إقناع الصليبيين . ويبدو أن الصليبيين الذين عادوا إلى بلادهم كانوا من الكثرة لدرجة أن القادة الصليبيين المترابطين عند دمياط قد خافوا على مصير الحملة ، واشتكموا إلى البابا هونوريوس الثالث من قلة عدد القوات الموجودة في مصر ، وطلبوا منه تدبير العساكر اللازمة بالطريقة التي يراها ، ولذلك وصلت بعد رحيل هذه القوات إمدادات صليبية جديدة ، بأعداد كبيرة في السادس عشر من مايو ١٢١٩ م (٢٩ صفر ٦١٦ هـ)^(٢) . ومن الطبيعي أن تجدد هذه القوات النشاط في صفوف القوات الصليبية .

ويبدو أن الملك الكامل قد أحس بقدوم هذه القوات ، فرأى سرعة الهجوم على المعسكر الصليبي قبل أن تنتظم هذه الإمدادات وتبادر بالهجوم على القوات الإسلامية ، لذلك قام المسلمون بالإغارة على الصليبيين فور وصول الإمدادات . ودامت الاشتباكات في البر والبحر ، ولكنها لم تأت بالنتائج التي أرادها الملك الكامل . لذلك عاود الهجوم مرة بعد أخرى على القوات الصليبية وكان مصيرها كمصير الهجمات السابقة^(٣) . وتوضح هذه الغارات الإسلامية المتكررة الفاشلة أن القوات الإسلامية لم تكن كافية لهزيمة ما أمامها من القوات

(١) Runciman, A History of the Crusades, III, p. 159.

ومن الحوادث التي وقعت بين ريتشارد وليوبولد أنظر :

Devizes & Vinsanf, op. cit., p. 24.

Oliver Scolastiquis, Ibid.

Oliver of Padendorf, op. cit., p. 39.

(١)

(٢)

(٣)

الصلبية .

وازاء الهجمات الإسلامية المتكررة فكر القادة الصليبيون في مهاجمة القوات الإسلامية . واستعدوا بكافة معداتهم وآلات حصارهم ، وحاولوا إقامة سرايب أو أنفاق من تحت أسوار المدينة ، ولكنهم أيقنوا أن فكرة الانفاق غير عملية لأن الخندقين اللذين يحيطان بالمدينة كانا مليئان بالمياه . وإنه لكى يتمكن الصليبيون من دخول المدينة فعليهم أن يعتلوا أسوارها . ولما كانت المدينة محاطة بثمانية وعشرين برجاً كبيراً غير الأبراج الصغيرة ، وكلها في غاية المنعة والحصانة^(١) ، فأصبح ذلك العمل صعب التنفيذ في ذلك الوقت على الأقل ، خاصة وأن الصليبيين كانوا يخشون من هجوم خلفي من القوات الإسلامية إذا ما قاموا هم بالهجوم على المدينة . وفكر الصليبيون بعد ذلك في مهاجمة المدينة والمعسكر الإسلامى في وقت واحد . ولكن المندوب البابوى لم يوافق على هذا رأى ، وانتهى أمر هذه الفكرة التى ظهرت في السادس والعشرين من مايو ١٢١٩ م (١٠ ربيع أول) ، وهكذا لم يتم الهجوم لا على المدينة ولا على المعسكر الإسلامى^(٢) .

وبعد أن أدرك الفرنج عدم إمكان تنفيذ الهجوم على دمياط برا ، عكفوا لبعض الوقت وهم يستعدون لهجوم بحرى على المدينة . فشيدوا المرمات العظيمة وزودوها بالأبراج^(٣) ، واستعدوا بكافة الآلات الحربية الأخرى . وقاد بلاجيوس هذه السفن وقام بالهجوم على المدينة في الثامن من يوليو ١٢١٩ م (٢٣ ربيع ثان ٦١٦ هـ) . وصاحب هذه الهجمة قارعوا الطبول ونافخوا الزامير لتشجيع الصليبيين ، ولكن الحامية الإسلامية المرابطة في دمياط هبت المهاجمين بالنار الإغريقية وحطمت السلام المثبتة على المرمات والأبراج^(٤) ،

Vitry, op, cit., pp. 128, 181.

Setten, op cit., II, p. 412.

Hist. Patr. Alex., p. 252.

Donovan, op. cit., p. 58.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

وفي الوقت نفسه أعطت حامية دمياط الإشارة إلى القوات الإسلامية المراقبة جنوب المعسكر الصليبي ، فقامت بالهجوم على الصليبيين من الخلف فاضطر الصليبيون للتراجع وبذلك فشلت هذه الهجمة الصليبية على دمياط^(١) . وبعد فشل هذه المحاولة عاود الصليبيون مهاجمة المدينة مرة أخرى لمدة يومين على التوالي . وفي تلك الأثناء تمكن ثمانية من المسلمين من التسلل إلى المعسكر الصليبي وقتل سبعة من الأعداء . وقد أثر ذلك على الروح المعنوية للقوات الصليبية ، كذلك قام الصليبيون بالإغارة مرة أخرى على دمياط في الثالث عشر من يوليو (٢٨ ربيع ثان ٦١٦ هـ) ، ولكنهم إرتدوا على أعقابهم خاسرين بفعل النار الإغريقية . ويبدو أن المسلمين قد استغلوا إنشغال الصليبيين بالهجوم على المدينة ، فقامت قواتهم بالهجوم على الجسر الذي يصل بين المعسكرين وكانوا على وشك تدميره لولا وصول بعض القوات الصليبية التي تمكنت من إنقاذ الجسر في اللحظات الأخيرة^(٢) ويبدو أنه طوال المدة من التاسع عشر من ربيع الثاني حتى التاسع والعشرين منه (٤ - ١٤ يوليو) لم تنقطع الهجمات الصليبية سواء في البر أو البحر . كما أن المسلمين ظلوا هم أيضا يهاجمونهم ليلا ونهاراً بدون إنقطاع . ولما لم تأت هجمات الفرنج بأية نتيجة انسحبوا بسفنهم وآلاتهم من أمام دمياط كما عاد المسلمون إلى معسكراتهم^(٣) .

ومن الواضح أن الملك الكامل كان ملتزماً بسياسة الدفاع طوال الهجمات الأخيرة . تمشيا مع سياسته التي إختطتها لنفسه وسار عليها ، ولكنه أدرك أنه يجب عليه القيام بالهجوم على الصليبيين حفاظاً على مكانته بين المسلمين بعامه والصليبيين بخاصة . لذلك قام في السابع عشر من شهر جمادى الأولى ٦١٦ هـ (٣١ يوليو ١٢١٩ م) بالهجوم على معسكر الصليبيين وعلى معسكر الفرسان الداوية بالذات . وتمكن المسلمون من التوغل داخل صفوف الأعداء^(٤) ،

Setton op. cit., II, p. 431.

Setton, Ibid.

Hist. Patr. Alex., P. 252.

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 417.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

ولكن وليم أف شارتر William of Chartres (وليم بواسيه) Puiset رئيس الداوية تمكن بمساعدة فرسانه من جمع شمل جنوده والتصدي للمسلمين . ولقد كان الهجوم الإسلامي من العنف لدرجة كادت تهلك فيه القوات الصليبية التي تصدت للمسلمين ، ولم ينقذ معسكر الداوية من هذا الهلاك سوى حلول الظلام ومساعدة إخوانهم من الفرسان التيوتون وبعض الفرسان الآخرين^(١) .

ورد الصليبيون على هذه الغارة بعد قليل بعدد من الغارات المتتالية على دمياط لبعض الوقت من أغسطس . ويروى أوليفر أن المعدات الصليبية المعدة لضرب المدينة قد أصابها بعض الأعطال أو أحرق بعضها ، لذلك رأى اليازنة والجيوية والبنادقة مهاجمة المدينة عن طريق النيل بواسطة أربع سفن مزودة بالسلام ، وقد وافق المندوب البابوي بلاجيوس ~~على هذه الفكرة~~ وأمدهم بكافة الوسائل اللازمة للهجوم المرتقب ، كما أمدهم الملك جان دي برين أيضا بكميات وافرة من الحبال والأدوات التي يحتاجونها في عملياتهم القادمة . وبعد أن استعدت السفن بكافة السبل بدأ الهجوم على المدينة . ونجح الصليبيون في اليوم الأول من قتل وجرح عدد من سكان المدينة ، لكن أهل دمياط دافعوا عنها ببسالة ونجحوا في إشعال النار في السلام المثبتة على السفن ، وحاول الصليبيون إصلاحها عدة مرات ولكنهم فشلوا واضطروا للانسحاب^(٢) . وعلى ما يبدو أن القوات الإسلامية لم تقف مكتوفة الأيدي أثناء هذه العمليات فقد هاجمت المعسكر الصليبي المرة تلو الأخرى ونجحت في أسر وقتل عدد من الصليبيين ، والمهم أنه بعد هذه المحاولات المتعددة من جانب القوات الصليبية والتي استمرت حتى الثامن عشر من أغسطس (٤ جمادى الثاني) فشل الصليبيون في النيل من المدينة كما قتل منهم العديد وكان على رأس القتلى ميلو الثالث كونت بارسورسين Milo III Count of Bar-Sur- Seine وولديه والتر Walter ووليم والآخر هو وليم بواسيه رئيس فرسان الداوية^(٣) .

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 40.

(١)

Oliver of Pabenborn, op. cit., pp: 40-1.

(٢)

Oliver of Pabenborn, op. cit., p. 30 n 15-17 .

(٣)

وعلى أية حال ، فإن فشل القيادة الصليبية في الاستيلاء على دمياط بعد خمسة عشر شهرا من المعارك قد أدى إلى تدمير القوات الصليبية . وأدى ذلك إلى إتهام الروح المعنوية بين الفرنج وأصبحوا على وشك الانفجار^(١) ، واتهموا الأمراء والفرسان بالخيانة والجبن وطالبوا بالهجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور ، وكان الأمر يتطلب تهدئة الجيش الصليبي بالقيام بأى عمل عسكري . وهنا دب الخلاف بين المندوب البابوي والملك جان دي برين على الخطة العسكرية التي يهاجمونها بها المسلمين . فكان الملك يرى تشديد الحصار على دمياط في الوقت الذي يطالب فيه بلاجيوس بالهجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور وساند رجال الدين وبعض الفرسان المندوب البابوي ، وفي الوقت نفسه عارض هذه الفكرة بعض الصليبيين ورأوا الانتظار في مواقعهم في الوقت الذي يقوم فيه البعض بالهجوم على المدينة ، فاذا ما أتت القوات الإسلامية كماداتها لمهاجمتهم تمكنوا من ضربها من مواقعهم . وقد انتصرت إرادة الذين نادوا بالهجوم على المعسكر واتهموا من نادوا بغير ذلك بالجبن والخيانة . وازاء هذا الإتهام وافق المعارضون على الهجوم على القوات الإسلامية^(٢) . وعلى ذلك قرر بلاجيوس الهجوم على معسكر الملك الكامل في فارسكور^(٣) ، وتحدد يوم الهجوم في التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٢١٩ م (١٦ جمادى الثاني ٦١٦ هـ) . وفي هذا اليوم خرجت القوات الصليبية عدا المكلفين بالحراسة^(٤) . وتقدم الصليبيون تجاه المعسكر الإسلامي ، وعند رأى المسلمون ذلك تظاهروا بالانسحاب تاركين معسكرهم على حاله يحميه قلة من العساكر ، وعندما وصل الصليبيون إلى معسكر الملك الكامل وجدوه خاليا تقريبا من العساكر^(٥) .

Roger of Wendover, op cit., II, p 418.

(١)

Eracles, op. cit., p. 340.

(٢)

Rohricht, Geschichte dea Kreuzzuge im Umriß p. 203.

(٣)

Eracles, Ibid.

(٤)

(٥) العيني : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٢٧٩ . أنظر أيضا :

Oliver Scolastiquis, Lettre a Angelbert, p. 1189.

(٥)

وعند ذلك تشاور الصليبيون في خطة العمل المقبلة ، فأشار الملك جان دى برين بالمبيت في المعسكر الإسلامى والعودة إلى معسكراتهم في الصباح ، ووافقت الأغلبية على هذا الرأى وبدأو في إعداد عدتهم للمبيت^(١). وعند هذه المرحلة استدار المسلمون وقاموا بهجوم مضاد على القوات الصليبية التى أصيبت بذعر شديد من جراء المفاجأة ، وأبدى الذين كانوا متحمسين للهجوم رغبتهم الشديدة في الانسحاب السريع إلى مواقعهم ، وبدأ الصليبيون في تراجع غير منتظم واختلت صفوفهم^(٢)، وحاول الملك جان دى برين حماية المنسحبين فثبت معه والتراف برثوت Walter of Beathout وكونتات ويد Wied وهولندا وساربوركون|وفرسان من الداوية والاسبترية والتوتون بالإضافة إلى بعض الفرنسيين والبيازنة وبعض الفرسان الآخرين لمقاومة الهجوم الإسلامى ، ولكن القوات الإسلامية حملوا عليه وعلى القوات الصليبية التى قاومتهم حملة قاسية أجبرت الملك الصليبي ومن معه على الانسحاب بعد أن كادت النار الاغريقية تقضى على الملك نفسه^(٣). وأسفرت هذه الموقعة عن قتل وأسر عدد كبير من الصليبيين .

ويذكر تاريخ هرقل أن عدد القتلى بلغ أربعة الاف من العساكر الصليبية وثلاثمائة من الفرسان^(٤)، بينما يذكر جاك دى فترى أن عدد القتلى والأسرى بلغ ألفا من العساكر الصليبية من بينهم مائة فارس ، وقد مات بعضهم بحد السيف كما مات آخرون بفعل شدة العطش وحرارة الجو . أما الفرسان الذين وقعوا في الأسر فكان ذلك بسبب الجروح التى أصابها خيولهم وأعجزتها عن المسير^(٥).

Eracles, op. cit., p. 340.

(١)

Hist. Patr. Alex., p. 252.

(٢)

Oliver of padenborn, op. cit., p. 42

(٣)

Eracles, op. cit., p. 341.

(٤)

Vitry, op. cit., p. 129

(٥)

أما تاريخ بطاقة الاسكندرية فيروي، أن عدد القتلى بلغ ألفا من الجنود وأربعمائة من الفرسان^(١)، وهي معلومة تتفق إلى حد كبير مما ذكره تاريخ هرقل . هذا وقد سجل أوليفر أن خمسمائة ربي من قتلى الصليبيين أرسلوا إلى السلطان^(٢) .

والواضح أن خسارة الصليبيين في هذه المعركة كانت فادحة خاصة وأنه كان من بين الأسرى عدد من كبار الشخصيات والفرسان الصليبية ، كما قتل وأسر في هذه المعركة عدد كبير من فرسان الداوية والاسبتارية والتبوتون منهم ثلاثة وثلاثون من فرسان الداوية هذا فضلا عن أيماردى لايرون Aymar de Layron أحد مارشالات الاسبتارية^(٣)، ويبدو أنه قتل في هذه المعركة لعدم ورود ذكره بعد ذلك في المصادر التي بين أيدينا ، كما غنم المسلمون غنائم كثيرة بعد المعركة^(٤) .

وانتهت هذه المعركة الرهيبة بعودة المسلمين إلى معسكرهم منتصرين حيث أقاموا في مساء اليوم نفسه حفلا كبيرا على دقات الطبول وأنغام المزامر والآلات الأخرى^(٥) كما أرسلوا الحمام الزاجل يحمل بشائر هذا النصر إلى القاهرة التي زينت بالأعلام ، وتم نقل الأسرى إلى القاهرة حيث تم الطواف بهم بطول المدينة وعرضها^(٦) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الهزيمة قد أفقدت بعض الصليبيين صوابهم وخرجوا من المعسكر وهم يفكرون في العودة إلى أوطانهم وبالفعل انسحب عدد من الصليبيين وعادوا إلى بلادهم وتركوا الجيش الصليبي في حالة يرثى لها.

Hist. Patr. Alex., Ibid

(١)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 43.

(٢)

Oliver of Padenborn, op. cit., pp, 42-3

(٣)

Eracles op. cit., p. 341.

(٤)

Roger of Wendover, op. cit., II. p.459 Eracles Ibid.

(٥)

Hist. patr, Alex., pp. 252-3

(٦)

وقد سبب إنسحابهم مزيدا من الأسى للصليبيين ، كما أنه من جهة أخرى عمل على تحسين الموقف العسكري بالنسبة للمسلمين^(١) ، أما الذين بقوا في المعسكر فقد تذرعوا بهربا ط الجأش بقدر ما استطاعوا^(٢) . وعلى أية حال فإن السبب الرئيسى فى هزيمة الصليبيين فى هذه المعركة بالذات كان ازدواج القيادة الصليبية والصراع بين الملك الصليبي والمندوب البابوى ، هذا بالإضافة إلى تحاذل الفرسان الصليبيين خاصة الفرسان القبارصة ، وشدة حرارة الجو التى زادها الصليبيون باحتساء الخمر دون خلطة بالماء فضلا عن قتال الصليبيين فى أرض يجهلونها^(٣) . ولكن جاك دى فترى يرجع أسباب الهزيمة إلى غضب الله على الصليبيين ، وأنه أى الله أراد أن يذل كبرياء وغرور الصليبيين بهذه المحنة التى أنزلها بهم^(٤) .

وفى اليوم الثالث بعد هذه المعركة التاسع عشر من جمادى الثانى (أول سبتمبر) جدد الملك الكامل عرضه بالصلح على الصليبيين وهو الخاص بالجللاء عن مصر . وإن كان الكامل قد تقدم بهذا العرض من قبل وهو مركز الضعيف بعد مؤامرة ابن المشطوب وعبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية ، فانه يتقدم بعرضه الآن وهو فى مركز القوة بعد هذا الانتصار الأخير ، فأرسل الكامل الرسولين اللذين سبق أن أرسلهما من قبل لعرض صلح فبراير ١٢١٩ م ، كما أرسل معهما إثنين من كبار أسرى الصليبيين فى الموقعة السابقة وهما أندرو أف نانتويل Andrew of Nanteuil وجان دارسيس^(٥) . وكان الكامل يعتقد أن الهزيمة الأخيرة التى لحقت بالصليبيين سوف تجعلهم يغيرون من

Roger op Wendover, op. cit., II, p. 420

(١)

Eracles, Ibid

(٢)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 42.

(٣)

Vitry op. cit., p. 103.

(٤)

Eracles. op. cit., p. 341

(٥)

وقد أورد أوليفر عبارة موجزة عن عرض الكامل للصلح . أنظر :

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 43.

موقفهم المتشدد ويصبحوا أكثر ليونة من موقفهم في فبراير^(١) . وقد أبلغ الرسولان الملك الصليبي والمندوب البابوي بأن الله قد أكرم الملك الكامل وعساكره بالنصر ، ورغم ذلك فانه لا يتفاخر ولا يتباهى لأن العظيمة لا تؤدي إلى الخير . وأنه يعرض عليكم الصلح بالشروط التي سبق أن عرضها في فبراير الماضي^(٢) .

ويبدو أن الغزور قد ملأ عقول الصليبيين واعتبروا أن الهزيمة أو النصر من سنة الحروب . وكانوا يرون أنهم إذا رفضوا عرض الملك الكامل وهو عودة ما كان بأيديهم سلما فان في استطاعتهم الإستيلاء على هذه الأراضي عسكريا . وطلبوا من الرسولين العودة من حيث أتيا . ولكن الرسولين نصحا الملك والمندوب البابوي بقبول العرض الكامل والا يفترا بأنفسهما وأشارا بأن الملك سيكرر عرضه مرة أخرى إذا رفض هذه المرة أيضا . وفعلًا عاود الملك الكامل عرض الصلح للمرة الثالثة . وفي هذه المرة قدم للصليبيين كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك . ووافق أن يقدم مقابل هاتين القلعتين خمسة عشر ألف دينار وأبدى إستعداده لدفع تكاليف إعادة تحصين مدينة بيت المقدس وباقي القلاع التي خربها أخوة المعظم بالشام ، وأن يترك إحتساب تكاليف إعادة التحصين إلى لجنة رباعية تتألف من إثنين من المسلمين وإثنين من الصليبيين، وإقترح أن تعقد هدنة مدتها ثلاثون سنة وذلك مقابل الجلاء عن دمياط . وضمنا لتنفيذ ذلك تعهد الملك الكامل بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصليبيون مدة سنتين يتم خلالها تحصين القلاع التي خربت^(٣) . وتضيف بعض الوثائق الصليبية المعاصرة أنه عرض عليهم أيضا صليب الصلبوت الذي استعاده صلاح الدين عقب استرداد مدينة بيت المقدس مع إعادة كل الأسرى الفرنج الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة في

Grousset. op. cit., III p. 226

(١)

Eracles, Ibid.

(٢)

Hist. Patr. Alex., P. 253. cf. also, Eracles, op. cit., PP. 341-3.

(٣)

مصر والشام^(١) . وجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تشر| بكلمة واحدة إلى هذا العرض الذي تقدم به الكامل إلى الفرنج ، وأن معلوماتنا عنه مستقاه من الأصول الغربية ولا نجد تفسيراً معقولاً لذلك .

ولا شك أن الملك الكامل كان متساهلاً إلى أبعد حد عندما قدم هذا العرض إلى الصليبيين . وعلى أية حال ، فإنه على ضوء ما تجدد في العرض الكامل السخى عقد الزعماء الصليبيون مجلساً للتشاور دار فيه نقاش طويل حول هذا العرض . ولم يختلف موقف الفرنج منه عن موقف عرض فبراير . فقد وافق عليه الملك الصليبي وبارونات بيت المقدس وإنضم إليهم الفرنسيون والفرسان التيوتون وبعض كبار رجال الدين ، ولم يوافق عليه كعادته المندوب البابوي بلاجيوس^(٢) ، وسأنده فرسان الداوية والاستبارية اللذين كانوا يملكون قلعتي الكرك والشوبك من قبل ، واعتبروا أن الانسحاب من أمام دمياط يعتبر عاراً على كل فارس ، فضلاً عن عدم ثقتهم في المسلمين . وكانوا يرون أن الطريق الوحيد لإعادة ممتلكاتهم السابقة في كل أنحاء الشام هو طريق القوة وأنه بالصبر سوف تسقط دمياط وسوف تسقط مصر كلها بل وكل الأراضي المقدسة^(٣) . كما انضم إلى جانب المرافضين معظم الإيطاليين ، وانتهى الأمر بتغلب الرأي المطالب بالرفض على الرأي المنادي بالقبول^(٤) ، ويرجع رفض الصليبيين لهذا العرض إلى نفس الأسباب السابقة المتعلقة بعرض فبراير بالإضافة إلى إحساسهم بما تقاسيه مدينة دمياط من وطأة الحصار وتوقعهم وصول إمدادات صليبية من الغرب^(٥) ، والامبراطور فريدريك الثاني في القريب العاجل .

Vitry, op. cit., p. 125, L.F. Grasade. Lettre to the Pope . (١)

Honorius III, dated 11 th nov. 1219, p. 47. cf also :

Fabri, op. cit., Vol. 2. Part I, p. 357. (٢)

Campbell, op. cit., p. 386 (٣)

Eraeles, Ibid. (٤)

Setton, op. cit., II, p. 415. cf, also: Duggan. op. cit., p. 216. (٥)

وأنا لا نجد تبريراً معقولاً لرفض الصليبيين للعرض المغري الذي تقدم به الملك ، كما لا نجد تفسيراً منطقياً لهذه التنازلات السخية التي تقدم بها الكامل إلى الفرنج ، اللهم إلا إذا كانت تلك خدعة سياسية يستهدف من ورائها إتاحة الفرصة للمعسكر الإسلامي لتجميع قواته واستعادة قواه توطئة لتوجيه الضربة القاصمة إلى العدو .

وعلى أية حال ، فقد شاهد معركة الثامن والعشرين من أغسطس (١٥ جمادى الثاني ٦١٦ هـ) ، في أسى بالغ القديس فرانسيس الأسيسى^(١) Francis of Assisi . وربما يكون قد لحق بالمعسكر الصليبي قبل هذه المعركة بقليل^(٢) . ولا بد أن يكون قد علم بعرض الكامل السابق والحالى ويحتمل أن يكون قد اشترك في مناقشة العرض الأخير . وقد لاحظ انقسام الزعامة الصليبية حول عرض المسلمين للصلح . وكان هو شخصياً من أنصار قبول الصلح حقناً للدماء ، ولكن نصائحه لم تلق قبولا أمام تعنت المندوب البابوي ومؤيديه^(٣) .

لذلك رأى القديس فرنسيس أن يقوم بعمل فردى من جانبه لتحقيق حلم الصليبيين بوسيلة أخرى وهى محاولة إدخال الكامل وهو الملك المسلم في المذهب الكاثوليكي . فاستأذن من بلاجيوس للذهاب إلى الملك الكامل في معسكره ولكن بلاجيوس رفض في أول الأمر ثم عاد ووافق على طلبه وسمح له وأحد رفاقه يدعى اليوميناتو Ulluminato بالذهاب إلى الملك الكامل^(٤) ،

Runciman, op. cit., III, p. 159.

(١)

وفرانسيس الأسيسى هو جيوفانى فرانسيسكو برناردو Giovanni Francesco Bernardo ولد في أسيس بإيطاليا عام ١١٨١ أو ١١٨٢ م ومات عام ١٢٢٦ م ، وهو مؤسس جماعة الاخوان الفرنسيسكان . عن ذلك انظر :

Ency. Brit. Vol, 9, pp. 780-1

Setton, op. cit., II, p. 415.

(٢)

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ .

Ency, Brit, Vol, 9, p. 781, cf. also: Setton, op. cit., II. p. 415, (٤)

Chesteron, G. K., Saint Francois, pp. 174-5.

وأرسلهما إلى أطراف معسكر المسلمين في فارسكور تحت علم الهدنة^(١) .
فقابله الحراس المسلمون ولم يفهموا من كلامه غير كلمة « صلدان » ، أى أنه
يريد السلطان أى الملك الكامل ، فأصطحبوه ورفيقه إليه . وأخيرا وجد نفسه
أمام الملك الكامل تحيط به حاشية من قاداته وتراجمته ، وربما يكون أولئك
التراجمة ممن اشتراهم الكامل من أفراد حملتى الصبيان . وعلى أية حال ، فقد
استأذن القديس فرانسيس فى الحديث فسمح له بالكلام . وبدأ القديس بوعظ
الملك الكامل واصفا له الديانة المسيحية ودعاه للدخول فيها . وقد استمع له
الملك فى دماثة المتمكن من عقديته المحترم لعقيدة غيره^(٢) .

ولم يجادل الكامل القديس فرانسيس ، ولم يسمح لأحد من علمائه بمناقشته
بل استمع اليه فقط فى صبر وأناة ، وبالع فى إكرامه . ولم يسع القديس إلا
الامعان فى إطراء الكامل وأوصاه بحسن معاملة الأسرى الصليبيين وأخيرا عاد
إلى المعسكر الصليبي ليخبرهم بما حدث ويكرر عليهم مزايا عرض المسلمين
بالجلاء عن دمياط ولكنه وجد النية معقودة على مواصلة الحرب وهو عكس
ما أراد أن يسهم به فى خدمة المسيحية الغربية . وأخيرا إقنع بأن لا فائدة ترجى
من بقاءه بمصر ، فاتجه إلى الشام بإذن من الملك الكامل^(٣) . ويذكر تاريخ هرقل
أن عودة القديس فرانسيس ترجع إلى عدم رضائه عن الخطايا وأعمال السوء
التي إنتشرت فى صفوف الجيش الصليبي^(٤) . والمهم أن القديس فرانسيس

(١) Runciman, op. cit., III. pp. 159-160.

(٢) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ . ويلاحظ أن فكرة ادخال المسلمين فى
الديانة المسيحية كانت من أفكار أوليفر . ولكنه لم يجرؤ على القيام بما قام به فرانسيس واكتفى
أوليفر بالكتابة إلى الملك الكامل عن هذه الفكرة . أنظر : Conder, op, cit., p 310 كما
نفذها جاك دى فترى بدليل أنه قام بتعميد كل الاطفال الذين وقعوا أسرى فى أيدي الصليبيين أيام
حصار الحملة الصليبية الخامسة لحصن الطور أنظر ماسبق ص ١٧٣ ، وبعد سقوط مدينة دمياط . أنظر فى ذلك
Vitry, op. cit., p. 310 . وبدأت هذه الفكرة تنتشر منذ حوالى ذلك الوقت وارتبطت
بالفكرة الصليبية ارتباطا وثيقا .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) Eracles, op. cit., p. 348.

فشل في إقناع الملك الكامل باعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي الغربي .
كما فشل أيضا في إقناع القادة الصليبيين بقبول عرض الصلح الإسلامي .

وعلى أية حال فانه لم يكن من الحكمة أن يرفض الصليبيون مثل هذا العرض
السخي مرة بعد أخرى ، لأن هذا العرض يعيد اليهم مملكة بيت المقدس سلما
وبدون إراقة للدماء ، وهو الهدف الذي سيروا اليه الحملة الصليبية الثالثة ومات
من أجله مئات الصليبيين . فضلا عن الأموال الطائلة التي أنفقت في سبيل
تحقيق هذه الغاية التي لم تتم . كما أنهم قضوا بمصر ما يزيد عن سبعة عشر شهرا
من أجل الاستيلاء على دمياط ولم تسقط المدينة في قبضتهم ، وصمدت طوال
هذه المدة . وربما يطول الحصار أكثر من ذلك وهو ما حدث بالفعل في الوقت
الذي يتناقص فيه عدد الصليبيين يوما بعد يوم . وحتى لو استولوا على دمياط
فان استبدالها ببيت المقدس أفضل بكثير من الاحتفاظ بها بالنسبة للصليبيين
عامة وللحركة الصليبية خاصة ، فضلا عن حقن الدماء ، ولذلك فان الملك
جان دي برين كان على حق في المناداة بقبول العرض الإسلامي . والواقع أن
رفض هذا العرض مرجعه أن هدف الحملة الصليبية الخامسة كان إخضاع مصر
كلها وليس دمياط فقط ، فتخضع بالتالي الأراضي المقدسة كلها للصليبيين .
أما سيطرتهم على الأراضي المقدسة دون مصر ، فانه سيجعل من الممكن
استعادة الشام مرة أخرى مثلما حدث في عهد صلاح الدين . ومن هنا نجد أن
المنسوب البابوي كان يرى استمرار أعمال الحملة العسكرية في مصر
لإخضاعها بأكملها وليس دمياط فقط ، فيكتسب من الشهرة ما فشل في
الحصول عليه الملك ريتشارد قلب الأسد والملك فيليب أوغسطس وغيرهما من
ملوك الغرب وأباطرته^(١) .

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت فترة مناقشة عرض السلام فرصة لكلا
الطرفين الإسلامي والصليبي ليقوم كل منها بإعادة تنظيم قواته وتحصين مواقعه ،
كما وجدها بعض الصليبيين فرصة للعودة إلى أوطانهم^(٢) ، فقد رحل البعض في

Michaud, op. cit., II, p. 247.

(١)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 43-4

(٢)

أوائل سبتمبر سنة ١٢١٩ م (منتصف جمادى الثاني سنة ٦١٦ هـ) كما رحل البعض في الرابع عشر من نفس الشهر (٣ رجب ٦١٦ هـ) . وقد حملت الدفعة الأخيرة حوالى اثنتا عشرة سفينة من سفن البضائع محملة بأكثر من حمولتها^(١) . وهذا يدل على ضخامة الأعداد التى غادرت المعسكر فى هذا الوقت ، والحالة المعنوية التى سيطرت على القوات الصليبية فى هذه الفترة كما يدل على فتور الروح الصليبية لدى الفرنج^(٢) . كما زادت فى هذه الفترة أيضا حدة الخلاف بين الملك الصليبي والمندوب البابوي ، خاصة وأن الأخير كان يرى أن من حقه التصرف فى كافة الأمور التى تتعلق بالحملة متجاهلا بذلك سلطة الملك الذى يعتبر القائد العسكرى الاعلى للقوات الصليبية^(٣) . وقد بلغت ذروة الخلاف بينهما فى موقفهما من عرض المسلمين بالصلح عندما وقف كل منهما موقفا مضادا من الآخر . وكان لهذا الشقاق أبلغ الأثر على فشل الحملة الصليبية بأكملها^(٤) .

يضاف إلى كل ما تقدم أنه كان من أسباب رفض الصلح مع المسلمين هو توقع الصليبيين وصول بعض الامدادات العسكرية اليهم عند دمياط وقد صبح ما توقعه بعض القادة الصليبيين^(٥) ، إذ وصلت بعض القوات الفرنسية والانجليزية^(٦) ، وكانت محملة على ما يقرب من عشرة سفن جنوية^(٧) . اتخذت خط سيرها إلى مصر عن طريق جبل طارق^(٨) ، ومما لا شك فيه أن هذه القوات قد عوضت النقص الذى نتج عن عودة بعض الصليبيين إلى أوروبا بعد معركة أغسطس . كما كانت من العوامل التى ساعدت على رفع الروح المعنوية

Runciman, op. cit., III, p. 160. (١)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 44. (٢)

Eracles, op. cit., pp. 313-4. (٣)

King, op. cit., p. 192. (٤)

Eracles, op. cit., p. 343. (٥)

Runciman, op. cit., III, p. 161. cf. also Duggan, op. cit., p. 216. (٦)

Eracles, Ibid (٧)

للقوات الصليبية وتشجيعها على مواصلة وتشديد الحصار حول دمياط^(١).

وعلى عادة الملك الكامل في الهجوم على الصليبيين عقب وصول أية إمدادات اليهم ، فقد قام بالإغارة على المعسكر الصليبي من البر والبحر^(٢) . ولكن القادمين الجدد تمكنوا من الدفاع على المعسكر بنجاح^(٣) . ويذكر أوليفر أن هذه الغارة استمرت في الفترة الواقعة من السادس والعشرين إلى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٢١٩ م (١٥ - ١٧ رجب ٦١٦ هـ)^(٤) .

ويبدو أن الملك الكامل قد أحس بالنشاط الذي ساد القوات الصليبية بعد قدوم الإمدادات الأخيرة ، وبعد ما سبب أغوارها بالغارة السابقة . ويحتمل أن يكون قد أحس أيضاً بوطأة الحصار على المدينة . ولعله قد مل من طول الحرب فضلاً عن عدم وصول الامدادات الكافية اليه من الشرق وذلك لوفاة أخيه الفائز^(٥) ، المكلف باحضار النجدة من الشرق ، هذا بالإضافة إلى اشتداد خطر المعول وقتذاك ، والصراع الذي نشب بين الأشرف والأفضل على إمتلاك حلب وإنشغالهما عنه بذلك^(٦) . فلعل لهذه الأسباب كلها جدد الكامل عرض الصلح قبيل سقوط دمياط مباشرة^(٧) . وكعادة الصليبيين فقد عقدوا المجالس للتشاور والتباحث في أمر هذا الصلح ، ولم يختلف رأى الملك الصليبي عن المواقف السابقة ، ورفض العرض كعادته المندوب البابوي^(٨) ، وإدعى أن الملك الكامل إنما يعرض هذا الصلح كحيلة منه يقصد بها بذر بذور الشقاق بين

Roger of Wendover. op. cit., II, p. 420.

Runciman op. cit., III, p. 161.

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 420.

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 44.

(٥) أبو الحسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣١ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣ .

Hist. Patr. Alex., p. 352

Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 422-3.

صفوف القوات الصليبية الأمر الذي سيجر على الصليبيين أكبر المخاطر^(١) ، ووقف بجانب بلاجيوس رادلف بطريق بيت المقدس الاسمي ورجال الدين والفرسان الداوية والايطاليون^(٢) ، ولانتهى الأمر كما انتهى من قبل ، برفض عرض الصلح للمرة الرابعة وبدأ الفرنج في إحكام الحصار حول مدينة دمياط .

واشتد حصار الصليبيين للمدينة التي أصبحت محاصرة من كل جانب سواء من البر أو البحر . وضيفوا على أهلها ومنعوا الاقوات أن تصل اليهم . وفي الوقت نفسه كان الصليبيون متحصنين داخل معسكراتهم المحاطة بالخنادق والأسوار والستائر الخشبية المزودة بالرماة والجروح . وقاست المدينة من الجوع والوباء بسبب طول هذا الحصار وبدأت حاميتها في الانهيار^(٣) . وكان من جراء شدة الحصار وعدم إمكان وصول المؤن إلى المدينة أن غلت الأسعار بها حتى بلغ قيمة البيضة عدة دنائير ، كما بيعت البقرة بعد ذبحها بثمانمائة دينار^(٤) ، ويروى آخر أن البقرة بيعت بضعف هذا المبلغ واشترط البائع أن يكون له إحشائها ورأسها التي تباع بمائة وأربعة عشر دينار^(٥) . كما بلغ رطل السكر مائة وأربعين دينارا والدجاجة بثلاثين دينارا أو أكثر ، ولم يبق بداخل دمياط سوى القليل من القمح والشعير^(٦) . ويضيف روجر أف وندوفر أن ثمن التينة الواحدة بلغ اثني عشر بيزنط^(٧) .

(١) Vitry, op. cit., p. 152.

(٢) Oliver of Padenborn, op, cit., p. 45-6

(٣) Oliver of Padenborn, op, cit., p. 44.

(٤) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ص ٢١٠ .

(٥) النويرى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٢٦ .

(٦) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ نفس الصفحة .

(٧) Roger of Wendover, op, cit., II, p. 421

والبيزنط Bezant هو في الأصل عملة ذهبية بيزنطية ، وقد سمي هكذا نسبة إلى بيزنطة (أى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية) . وكانت هذه العملة متداولة بكثرة في أوروبا خلال العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشر الميلادى تقريبا . ومتوسط قيمتها حوالى تسعة شلنات انجليزية . انظر : جوزيف نعيم يوسف ، العلوان الصليبي على مصر ص ٢١٦ وحاشية (٣) .

وعلى الرغم من شدة الحصار على دمياط ، فإن الكامل كان يرسل أهلها سرّاً عن طريق العوامين الذين كانوا يحملون رسائل الملك ويغطسون في الماء ويطلعون من تحت أسوار دمياط ، وذلك لتشجيع أهل المدينة على الصمود ولمعرفة أحوال المدينة الداخلية ومدى مقاومتها . ولكن الصليبيين فطنوا إلى هذه الحيلة فقاموا بوضع الشباك والخطاطيف بعرض النيل من دمياط إلى البر الغربي وبذلك تمكنوا من سد هذه الثغرة وأصبح في وسعهم إصطياد هؤلاء العوامين وقتلهم . وتعذر بعد ذلك الإتصال بالمدينة^(١) . ورغم ذلك فقد صبر أهل دمياط صبر الكرام ، وكان من أشهر من قام بعملية الغطس تحت الماء في المحنة هو شمايل^(٢) ، وهو أحد الجاندارية^(٣) ، ويرجع أصله إلى إحدى قرى مدينة حماه ، وكان يخدم في ركاب الملك الكامل . وكان شمايل هذا يخاطر بنفسه ويسبح في النيل رغم امتلاء النهر بمراكب الصليبيين ، فيدخل إلى مدينة دمياط ويأتى إلى الملك الكامل بأخبارها . وكان وصوله إلى أهل دمياط من قبل الملك عاملاً مشجعاً لهم على الصمود أمام الصليبيين وكان يعدهم بوصول النجيدات والمؤن اليهم ويهدىء خاطرهم ، فنال بذلك خطوة عند الكامل الذى قرب به اليه وعينه بعد ذلك والياً على القاهرة ، واليه تنسب خزانة شمايل^(٤) ، والمهم أن

(١) | النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٦ .

(٢) | شمايل : هو الأمير علم الدين شمايل واليه تنسب خزانة شمايل أشهر سجون مصر في العصر المملوكى . وكانت مأوى لمن وجب عليه القتل من النصوص وقطاع الطرق وأصحاب الجرائم الكبيرة ومن أراد السلطان إهلاكه . انظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩ ، راجع ايضاً : المقرئى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٠ .

(٣) | الجاندارية ، فئة من عماليك السلطان أو الأمير وهى كلمة مركبة من كلمتين فارستين أحدهما « جان » ومعناها سلاح والثانى « دار » ومعناها بمسك وهى وظيفة يتولى شاغلها باستئذان السلطان قبل دخول الأمراء عليه ويدخل أمامهم إلى الديوان . أنظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٥٩ .

(٤) | خزانة شمايل ، وقد سجن فيها الملك المؤيد أبو النصر شيخ الممورى (٨١٦ - ٨٢٣ هـ) في عهد الناصر فرج بن برفوق (٨٠١ - ٨١٥ هـ) وقاس فيه شدائد عظيمة ونذر في نفسه ان يخلص من هذه الشدة وعين سلطاناً أن يهدم هذا السجن ويبنى مكانه جامعاً ، فكان له ما تمنى . عن ذلك أنظر : ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٠٦ .

شمايل كان يقوم بهذه الأعمال في أشد حالات حصار المدينة . ولعل أبلغ وصف يصور شدة هذا الحصار ما قاله ابن أبيك بأن الطير « لا يطيق العبور بها لاحتياط الصليبيين »^(١). كما تتضح شدة الحصار أيضا من الآيات الشعرية التي رماها الأمير جمال الدين الكناني من دمياط في رأس سهم إلى الملك الكامل كان مطلعها :

يا مالكي ! دمياط ثغر هدمت شرفاته كادت تجث أصوله

ثم أضاف :

أشكو اليك عدو سوء أهدقت بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت اليه طريقه والبحر عز لنصره أسطوله^(٢)

لم يستسلم المسلمون لليأس ، بل لجأوا إلى كل الحيل لوصول المؤن إلى مدينة دمياط^(٣). ورغم كافة الاحتياطات التي اتخذها الصليبيون ، فكان الملك الكامل يدفع برجاله ليلا في فرع دمياط وهم يحملون المؤن المحفوظة داخل الجلود والمشمعات ، وفطن الصليبيون أيضا لهذه الحيلة فقاموا بوضع الحبال المزودة بالأجراس بعرض النهر ، وعندما كانت تدق الأجراس يتجهوا إليها ويقتلوا من بجانبها أو يأسروه^(٤).

ورغم كل ذلك لم ييأس المسلمون من توصيل المؤن إلى المدينة ، فقد أحضروا الجمال والخيول الميتة وأفرغوا بطونها ووضعوا بداخلها الأغذية والفاكهة والبقول وغير ذلك ، ولفوها بعناية ورموها في النهر مع بعض الجيف

(١) ابن أبيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٤ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٨ - ٢٠٠ . انظر أيضا : باق القصيدة في نفس المصدر ونفس الموضع .

Vitry, op. cit., p. 125.

(٣)

Eracles, pp. cit., p. 344.

(٤)

الأخرى للتمويه على الصليبيين، وكان أهل دمياط يعرفون ذلك فيجذبون هذه الأشياء بالخطاطيف والسنانير بعد ما يدفعها التيار فتصل إلى ما تحت الأسوار الغربية للمدينة . وفطن الصليبيون أيضا إلى هذه الحيلة فعملوا على منعها^(١) .

وهكذا تعذر الوصول إلى دمياط أو توصيل الأقوات إليها ، وأصبحت معزولة عزلا تاما لدرجة أن المسلمين والصليبيين كانوا لا يعرفون ما يدور بداخلها^(٢) . ولم يجد الكامل بدأ من المخاطرة بفرقة من رجاله قوامها خمسمائة من العساكر على رأسها ابن الجرحى ، وقامت هذه الفرقة بالهجوم على الخنادق الصليبية . ولكن الصليبيين تمكنوا من صد هذه الغارة التي قتل فيها ابن الجرحى ومن كان معه . وقام الصليبيون بصف رؤوس القتلى على خنادقهم^(٣) ، ابتهاجا بهذا النصر .

وعاودت القوات الإسلامية في الثالث والعشرين من شعبان ٦١٥ هـ (٣ نوفمبر ١٢١٩ م) التسلل مرة أخرى عبر الخطوط الصليبية بعد ما أعد الكامل فرقة لهذا الغرض بلغ عددها حوالي ثلاثمائة من العساكر . وأعدت هذه الفرقة نفسها للتسلل إلى المدينة على ثلاث دفعات ، ولكن القوات الصليبية اكتشفت أمر هذه القوات المتسللة وهي تتخذ طريقها داخل المعسكر الصليبي تجاه أحد أبواب المدينة - ويبدو أنه أحد الأبواب الشرقية - فأعطى من إكتشف أمرهم إنذاراً بالخطر . وتمكن الاستتارية والداوية من القضاء على هذه المحاولة^(٤) ، وقد قتل وأسر فيها حوالي مائة وخمسون من المسلمين^(٥) . وتمكن

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٥١ .

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 45.

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٣ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٦ . وعن محاولات التسلل هذه أنظر أيضاً :

Hist. Patr. Alex., p. 256; cf. also: Vitry, op. cit., pp. 131-2.

Eracles, op. cit., 345. (٤)

L.F. Crusade, Letter to The pope Honorius, III. dated 11 th. nov. (٥)

= 1219, p 44.

ثلاثة وخمسون منهم من الوصول إلى المدينة حاملين معهم الخبز وأنواعا أخرى من المؤن^(١) . وقد عوقبت كونت نقر Never على هذا الإهمال وعدم قيامه بواجبه في تشديد الحراسة على القطاع الخاص به . وقد خلقت هذه الحادثة نوعا من الترابط بين الصليبيين وبدأوا في توحيد صفوفهم وتناسوا خلافاتهم الشخصية وأخذوا يعدون العدة لهجة نهائية على المدينة^(٢) .

وبعد هذه المحاولات المتعددة من قبل المسلمين للوصول إلى المدينة سواء عن طريق البر أو البحر ، وبعد ما أسر للمسلمين فيها ما يقرب من أربعمئة^(٣) هذا بالإضافة إلى القتلى ، وجد المسلمون أنه من الصعوبة بمكان الاتصال بالمدينة ، هذا في الوقت الذي صدرت فيه الأوامر المشددة داخل المعسكر الصليبي بأحكام الحراسة . وفرضت الجزاءات الرادعة على كل شخص يهمل في الواجب المكلف به في الدفاع عن المعسكر . وتقرر أن يعاقب بالاعدام حراس الخنادق الذين يتركون مواقعهم ، كما تقرر أيضا العقاب بالسحل للفرسان الذين لا يقومون بالواجبات المكلفين بها : أما الطوائف الأخرى فكانت عقوبة رجالها قطع الأيدي ومصادرة أموالهم . كذلك تقرر توقيع الجزاء على المهملين الذي لا يقومون بحراسة خيامهم على الوجه الأكمل لا فرق في ذلك بين كافة الرتب . هذا فضلا عن التهديد بتطبيق قرار الحرمان الذي سيلحق بكل مذنب . وقد وزعت هذه الأوامر على الجنود الصليبيين تمهيدا لهجمة كبرى على المدينة^(٤)، بعد أن أحكم الحصار حولها تماما من جميع الجهات^(٥) ،

= ويدري خطاب آخر مؤرخ في ١٠ نوفمبر ١٢١٩ م أن الكامل أرسل مائتين وستين مقاتلا لمحاولة دخول المدينة قتل الصليبيون منهم مائتين انظر :

Rohricht, Fünften Kreuzzuges, p. 42.

ويدري أوليفر أن القوة الإسلامية التي قامت بهذا الهجوم كانت مكونة من مائتين وأربعين قتل وأسر منهم حوالي مائتين انظر :

Oliver of Padenborn op. cit., 46.

Eracles, Ibid.

Setton, op. cit., II, pp. 417-8.

Vitry, op. cit., pp. 131-2.

Setton, op. cit., II, pp. 417-8.

Matthew of Westminster. op. cit., II. p. 136.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

وحيل بينها وبين القوات الاسلامية المرابطة في فارسكور .

واستعدت القوات الصليبية للاستيلاء على مدينة دمياط . واختلفت الروايات الأجنبية والعربية حول تفاصيل الحوادث المتعلقة بسقوط المدينة . فيروي جاك دى فترى أن المندوب البابوى لم يحتمل بقاء القوات الصليبية على هذا الحال من الحصار ، فجمع بعض رجال حاشيته الذين يثق فيهم تماما حتى لا تتسرب خطة الهجوم على دمياط إلى المسلمين ، وكان بعضهم من رجال الدين والبعض الآخر من الفرسان . واستعد المندوب البابوى بهذه القله واتجه إلى خندق المدينة في منتصف ليلة الخامس من نوفمبر ١٢١٩ م (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ) ، وكانت ليلة حالكة الظلام . وكان عند النقطة التى وصل اليها بلاجيوس ورجاله قنطرة تصل إلى أحد أبواب دمياط عبر الخندق ، وكان المسلمون قد دمروها من قبل حتى لا يستخدمها الصليبيون للوصول إلى المدينة ، فأمر بلاجيوس باصلاح هذه القنطرة ، وبسرعة قام رجاله بوضع السلام والكتل الخشبية لتقوم مقام القنطرة ، وعلى هذا النحو اجتاز الصليبيون الخندق ووصلوا إلى باب السور الأول فأشعلوا فيه النيران وأحرقوه ثم ساروا وسط هذه النيران حتى وصلوا إلى باب السور الثانى فأحرقوه أيضا ووصلوا إلى السور الثالث حيث وضعوا عليه السلام واعتلوه ، وعند ذلك أصيب المسلمون الذين بداخل المدينة بالذهول والخوف ولم يستطيعوا المقاومة^(١) .

ويرى أوليفر أن دمياط سقطت في الخامس من نوفمبر عام ١٢١٩ م وذلك بفضل مهارة ويقظة المندوب البابوى بلاجيوس ، وأضاف أن المدينة سقطت دون خيانة أو مقاومة أو ضوضاء ، وأن قليل من السلام قد استخدم في هذه العملية وأن سقوط المدينة كان على مرأى من الملك الكامل الذى لم يتمكن من اجتياز صفوف الصليبيين لحصانتها^(٢) .

Vitry, op. cit., pp. 152-6.

(١)

Oliver of Padenborn. op. cit., pp. 47-8

(٢)

ويذكر تاريخ هرقل أن المدينة أصابها الوهن والمرض ولم يبق من أهلها إلا القليل من الرجال للقيام بعملية المراقبة والحراسة على الأسوار ، وقد أصبح ذلك واضحا للصليبيين ، فاستطاعت إحدى سفن فرسان الاستبارية المزودة بالقذائف أن تحدث ثغرة في برج المدينة الكبير يستطيع أن يمر منها رجل واحد . وفي ليلة الخامس من نوفمبر (٢٥ شعبان) وكانت ليلة حالكة الظلام ، أخذ أربعة من الصليبيين سلما طويلا كانوا قد صنعوه في الخفاء وساروا به نحو البرج وأسندوه بالقرب من الفتحة التي أحدثتها قذائف فرسان الاستبارية وصعدوا عليه ودخلوا البرج فلم يجدوا به أحدا ، فعادوا وأنخبوا الملك جان دي برين بذلك وقام الملك بدوره بإبلاغ المندوب البابوي وكبار القادة الصليبيين بما حدث وبأنه في الإمكان الاستيلاء على المدينة في أي وقت يريدون . ولذلك أعد الجميع أسلحتهم في الفجر وأرسل الملك عددا من رجاله فاحتلوا البرج . ولما أصبح الصباح رفع الرجال الذين احتلوا البرج راية الملك جان دي برين وصاحوا قائلين « العون من الله للقبر المقدس Dex aye Saint Sepucre » فتعالت الصيحات داخل المعسكر الصليبي ، واندفع عدد كبير من القوات الصليبية نحو السلم ومنه إلى البرج ثم إلى شوارع المدينة وفتحو الأبواب فدخل المدينة كل من أراد الدخول من الصليبيين . وقد التجأ من استطاع من أهل المدينة إلى قلعتها وظلوا بها ، ولكنهم استسلموا في ظهر نفس اليوم . وهكذا تم الاستيلاء على دمياط يوم خميس من يناير سنة ١٢١٩ م (شوال - ذو القعدة ٦١٥ هـ)^(١) .

وقد ورد في أحد الخطابات التي أرسلت من مندوب القاصد الرسولي بلاجيوس إلى البابا هونوريوس الثالث في العاشر من نوفمبر (١ رمضان ٦١٦ هـ) أن المندوب البابوي قد دبر أمر الاستيلاء على دمياط بعناية وحذر وساعده في ذلك بعض المقرين اليه وبعض أعوانه ، وأشار بأن سقوط المدينة تم

(١) Eracles, op. cit., pp. 345-6. Cf. also, Fabri, op. cit., vol 2, part 1, pp. 358-9.

في الخامس من نوفمبر ١٢١٩ م (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ)^(١) . كما ورد في خطاب آخر مؤرخ في الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٢١٩ م مرسل من الملك جان دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس وجاك دى فترى وبعض القادة ورجال الدين الآخرين إلى البابا هونوريوس الثالث أن المندوب البابوى أمر بوضع السلام أسفل الأسوار نحو الغرب والشرق . وعن طريق هذه السلام دخل الصليبيون المدينة . ولجأ الأمراء وكبار رجال المسلمين إلى برج حصين وظلوا حتى الظهر رافضين الاستسلام على أمل أن يهاجم المسلمون المعسكر الصليبي ويستعيدوا المدينة^(٢) . وتتفق هذه الرواية مع روايتى أوليفر وجاك دى فترى فيما يتعلق بأن بلاجيوس كان له أكبر الأثر في الاستيلاء على المدينة ، وفي تاريخ سقوط المدينة . كما تتفق مع رواية هرقل فيما يختص بالتجاء بعض المسلمين إلى برج المدينة .

كذلك ورد ذكر سقوط المدينة في خطاب آخر مؤرخ في الثانى عشر من نوفمبر (٣ رمضان) ولكن ما ورد فيه كان مقتضيا للغاية ، إذا اكفى بالإشارة إلى أنه يفضل العناية الإلهية هوجمت المدينة وتم الاستيلاء عليها^(٣) . ويستفاد من هذه الرواية بأن سقوط دمياط كان قبل كتابة هذا الخطاب .

ويذكر روجراف وندوفر أن القوات الصليبية قامت بهجوم عنيف على مدينة دمياط في الوقت الذى كانت فيه الأسوار خالية تماما من المدافعين ، وعند ذلك أسرع الصليبيون باحتلالها ودخلوا المدينة في الخامس من نوفمبر (٢٥ شعبان) واستولوا عليها دون مقاومة وذلك بفضل العناية الإلهية ، وقد تم ذلك

(١) L.F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 10 th, nov. 1219, p. 41.

(٢) L.F. Crusade, /Lettre to The Pope Honorus III, dated 10 th nov 1219, p. 45.

(٣) L. F. Crusade, /Letter to The Pope Honorus III, dated 12 th. nov. 1219. p. 74.

على مرأى من الملك الكامل^(١)

هذا ما رددته المصادر الغربية حول سقوط المدينة ، أما المصادر العربية فيروى بعضها أن الأقوات تعذرت على أهل دمياط وسعموا مواصلة القتال ، لأن الصليبيين كانوا يتناوبون القتال على المدينة لكثرتهم العددية وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلهم يتناوبون القتال كالصليبيين . ومع هذا صبروا صبرا لم يسمع بمثله ، وكثر فيهم القتل والجراح وداهمهم الموت وأصابتهم الأمراض . ودام الحصار حتى السابع والعشرين من شعبان عام ٦١٦ هـ (٧ نوفمبر ١٢١٩ م) فعجز من بقي من أهلها عن حفظ المدينة لقتلهم وتعذر الأقوات عندهم فسلموا دمياط في هذا التاريخ بالأمان^(٢) . ويضيف ابن أيك أن الملك الكامل عجز عن نصره أهل دمياط فراسلوه « فتأدى عليهم بالجواب فراسلوا الفرنجة » لتسليم المدينة^(٣) .

بينما ذكر فريق آخر من المؤرخين العرب أن الصليبيين ظلوا يضايقون ويقاتلون أهلها بجميع آلات القتال حتى نفذ ما عند أهلها من الأقوات ، واشتد الغلاء بها ، وفتك الجوع بأهلها حتى مات أكثرهم فضلا عن إنتشار الوباء في المدينة مما أدى إلى عجز من بها عن حفظها ، فحيثئذ هجم الصليبيون على المدينة في غفلة من أهلها واستولوا عليها واسترقوا أهلها^(٤) أويرى تاريخ بطارقة

(١) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 423.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٣ ، ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٢ ق ٢ ص ٦٠٣ ، أبو شامة المصدر السابق ص ١١٦ - ١١٧ ، العيني : المصدر السابق ج ١٧ لرحة ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ابن العماد : المصدر السابق ج ٥ ص ٦٦ ، المصدر السابق ج ٥ ص ٦٦ ، ابن كثير : المصدر السابق ج ١٣ ص ٨٣ - ٨٤ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٨ الحافظ الذهبي : المصدر السابق ج ٢ ص ٨١ .

(٣) ابن أيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٧ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢ - ٣٣ ، أنظر أيضا : ابن الشحنة : المصدر السابق ص ٢١٠ ، ابن الوردي : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٧ ، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٨ ، القزويني : آثار البلاد . ص ١٣٠ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٠١ ، الخطط ج ١ ص ٤٥٢ سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٧٦ .

الاسكندرية أن المدينة سقطت في الخامس والعشرين من شعبان عام ٦١٦ هـ (٥ نوفمبر ١٢١٩ م) ويذكر أن هناك من يقول أن ذلك يرجع إلى خيانة الحامية الإسلامية^(١) .

ونستخلص من ذلك أن سقوط مدينة دمياط كان يوم الثلاثاء الموافق الخامس والعشرين من شعبان ٦١٦ هـ (٥ نوفمبر ١٢١٩ م) اعتمادا على تاريخ بطارقة الاسكندرية . فقد سجل اليوم والتاريخ العربى والقبطى ، وهو من المصادر العربية المصرية وكاتبة كان مقيما بالقاهرة أثناء هذه الوقائع ، واعتمادا أيضا على ما ذكره أوليفر وجاك دى فترى باعتبارهما من شهود العيان الصليبيين وأيضاً على ما ورد فى تاريخ رؤساء أساقفة جزيرة قبرص اللاتين^(٢) . وعلى أية حال ، فإن ما ذكره ابن الأثير لم يعبد سوى يومين عن هذا التاريخ . أما ما ذكره تاريخ هرقل بأن سقوط المدينة كان فى شهر يناير عام ١٢١٩ م (ذو القعدة - ذو الحجة ٦١٥ هـ) ، فهو أمر مستبعد لأنه من الثابت تاريخياً أن هذا التاريخ يسبق عبور الصليبيين للضفة الشرقية للنيل : وحتى إذا افترضنا أنه شهر يناير سنة ١٢٢٠ م وهو الأقرب نسبياً إلى تاريخ السقوط فهو أمر مستبعد أيضاً اعتماداً على ما سبق ، وعلى الخطابات الثلاثة المؤرخة فى العاشر والحادى عشر والثانى عشر من نوفمبر ١٢١٩ م ، وكلها تتحدث عن سقوط المدينة ، وعلى ما كتبه أيضاً والتردى همنبرج فقد روى أن سقوط دمياط كان فى شهر نوفمبر ١٢١٩ م ولكنه لم يحدد يوم السقوط^(٣) .

أما بخصوص من كان له أكبر الأثر فى سقوط المدينة وهل كان الملك جان دى برين أم المندوب البابوى ، فهو أمر يصعب البت فيه على ضوء المصادر الأجنبية المتاحة للباحث . لأن من أرجعوا ذلك إلى بلاجيوس هم رجال الدين وكان من الطبيعى أن يقفوا وراء المندوب البابوى ، وقد رأينا من قبل كيف

Hist. Patr. Alex., p, 254.

Histoire des Archeveques Latins de L'ile de Chypre, p. 216.

Waltheherus de Hemingburgh, op. cit., p. 940.

(١)

(٢)

(٣)

وقفوا إلى جانبه في معارضته لعروض الصلح المتتالية التي تقدم بها الملك الكامل . ومن الملاحظ أن الملك جان برين كان من بين الذين أرسلوا الخطاب المؤرخ في الحادى عشر من نوفمبر (٢ رمضان) إلى البابا هونوريوس الثالث الذى ورد فيه أن المندوب البابوى كان له أكبر الأثر في سقوط دمياط، ومعنى ذلك أن الملك الصليبي يعترف بما ورد فيه ، ولكن الباحث يرى أن الملك جان دى برين كان مغلوبا على أمره ولم يكن بوسع المعارضة على ما دون في الخطاب ، أو ربما أضيف اسمه إلى الخطاب إستكمالا للشكل الرسمي لهذه الوثيقة . ثم أن تاريخ هرقل قد تحامل على المندوب البابوى في كثير من الأحيان على عكس موقف التعاطف الذى وقفه من الملك الصليبي . وربما يكون ما أورده سليما إلا أن عدم وجود مزيد من النصوص الأجنبية يجعل الباحث لا يستطيع الترجيح بينهما خاصة وأن المصادر العربية لا تلقى ضوءا على هذه الناحية . وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنه سواء أكان سقوط المدينة يرجع إلى الدور الذى قام به المندوب البابوى أو يعزى إلى الملك الصليبي ، فالأمر الثابت الذى لا خلاف فيه أن المدينة سقطت في قبضة العدو بعد حصار دام أكثر من سبعة عشر شهراً .

أما عن الطريقة التى سقطت بها المدينة ، فهناك ثلاثة آراء حول هذا الموضوع . أولها رأى يقول أن هناك خيانة من جانب الحامية الإسلامية للمدينة ، والثانى أن المدينة إستلمت للصليبيين بعد ما أخذ أهلها الأمان، والثالث أن الصليبيين إستولوا على المدينة بحد السيف بعد أن وهنت حاميتها .

أما عن الرأى الأول فالباحث لا يميل إلى الأخذ به ، خاصة وأن كاتبه لم يقطع بحدوثه بل رواه مع كثير من التحفظ . هذا ، بالإضافة إلى أنه لم يرد ذكره في أى من المصادر العربية أو الاجنبية سواء المعاصرة منها أو المتأخرة .

وفيما يتعلق بالرأى الثانى الخاص بالاستسلام فهو رأى لم يرد ذكره إطلاقا في المصادر الأجنبية المعاصرة أو المراجع الحديثة المتاحة للباحث . ورغم أن هذا الرأى قد أورده كل من ابن الأثير وابن الجوزى ، إلا أنه من الصعب الأخذ به .

ويعزز ذلك صمود المدينة وأهلها طوال أشهر الحصار . ولذلك فإن رأى الثالث هو الأقرب إلى الصواب . ومن هنا يمكن القول أن حامية دمياط ظلت تقاوم ببسالة طوال سبعة عشر شهراً . ولكن إنتشار الوباء الذى فتك بالكثير من أهلها ، وعدم إمكان الملك الكامل نصرتها أو توصيل المؤن إليها بسبب شدة الحصار - كل هذا قد تسبب فى عدم إمكان من تبقى من الحامية على القتال بعدما انهارت معنويات وجسديا الأمر الذى سهل على الصليبيين إقتحام المدينة . والدليل على ذلك ما رواه شهود العيان الصليبيين بأنهم لما دخلوا مدينة وجدوا جثث الموتى تغطى شوارع المدينة وقد أصابها التعفن وكانت تتصاعد منها الرائحة الكريهة^(١) .

وتشير الوثائق المعاصرة أن من كان بالمدينة عند بداية حصارها - بعد مؤامرة ابن المشطوب - بلغ عددهم ستين ألف نسمة لم يتبق منهم بعد سقوطها سوى ثلاثة آلاف نسمة^(٢) . ويذكر جاك دى فترى أن مائة منهم فقط كانوا بصحة طيبة^(٣) . وهكذا قضى الجوع والطاعون على آلاف المسلمين داخل المدينة ، ولم تستطع القلة الباقية وقفها الوقوف فى وجه الغزاة^(٤) . كما أن هجرة الأطفال الجوع وهم يطلبون الطعام من آبائهم أو أمهاتهم الأموات لتجعلنا نزرع دمة حزينة على المدينة وحالها عندما سقطت فى أيدي الصليبيين^(٥) . ولم تكن جثث الموتى تملأ الشوارع فقط ، بل كانت على أرضيات المنازل وفق الأسيرة أيضاً^(٦) .

(١) Vitry, op. cit., p. 127. cf. also, Oliver of Padenborn, op, cit., p. 53.

(٢) L.F. Crusade, Letter to The Pope Honorius III, dated 11 th. nov.

1294, p. 44, Vitry, op. cit., p. 125.

(٣) Vitry, op. citi, p. 126.

(٤) Vitry, op. cit., p. 127, cf. also: Fabri. op. cit., Vol. 2. part I. p.359.

(٥) Roger of Wendover, op. cit., II. pp. 423-4. cf. also. Michaud, op. cit., II. p. 251.

(٦) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 531.

انظر أيضا : مكسيموس مولرود : تاريخ الحرب المقدسة ج ٢ ص ٢٦١

وعلى هذه الصورة وطأت أقدام الصليبيين الملاينة ورفعوا أعلامهم على أسوارها وأبراحها^(١) . وأنزلوا فيمن تبقى من أهلها القتل والأسر والنهب ، وباتوا تلك الليلة في جامع المدينة يفجرون بالنساء ويفتضون البنات^(٢) . وفيما يتعلق بالأسرى فقد احتفظ الصليبيون بأربعمائة من عليه القوم وأغنياء المدينة من الجنسين كرهائن لمبادلتهم بالأسرى الصليبيين^(٣) . كما سيق بعض الأسرى إلى عكا^(٤) ، وبيع بعضهم كعبيد في الأسواق^(٥) . وكان من الذين نجوا من الأسر أبو الحسن علي بن أبي القاسم الدمياطي المعروف بابن قفل باعتباره من مشايخ المسلمين الصالحين المحسنين^(٦) .

أما عن أطفال المدينة الأحياء فقد استطاع جاك دي فترى الاحتفاظ بأكثر من أربعمائة طفل ثم قام بتعميدهم . كما عهد جاك دي فترى إلى بعض أصدقائه ببعض الأطفال الآخرين ليتكفلوا بهم ، ويعلموهم الكتاب المقدس والشعائر الدينية . وقد تحمل فترى في سبيل ذلك كثيراً من العناء والمال^(٧) . وهذا يؤكد ما سبق أن أوضحناه من إرتباط الناحية التبشيرية عند الصليبيين الغربيين بالفكرة الصليبية نفسها .

وكان بداخل مدينة دمياط عندما سقطت في أيدي الصليبيين كميات كبيرة من الذهب والفضة والنفط ، وكميات لا تحصى من اللخيرة والآلات الحربية

-
- (١) ابن ايك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٧ .
(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠٣ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٧ .
أنظر أيضا : العيني : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٣٧٤ .
(٣) Vitry, op, cit., p. 128, cf, also. Fabri, op. cit., Vol. 2. Part 1, p. 359.
(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٢ .
(٥) Fabri, Ibid.
(٦) ابن الجوزي : المصدر السابق نفس الموضع .
(٧) Vitry, Ibid Cf. also : Hist. patr. Alex. p, 25. Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 48, 54.

التي تخص الملوك والأمراء والعساكر^(١) . هذا بالإضافة إلى الأقمشة الحريرية والأحجار الثمينة التي حوتها المدينة التجارية الواسعة الثراء^(٢) ، مطمع الصليبيين بعامة والإيطاليين بخاصة . والمهم أن القادة الصليبيين بدأوا في جمع هذه الكنوز لاستغلالها في الانفاق على الحملة ، ولكي لا تتسرب إلى أيدي العساكر الصليبية فقد صدرت الأوامر المشددة المصحوبة بالتهديد بقرار الحرمان لكل من يحاول أن يخفي ما يقع تحت يده من هذه الأسلاب . ولكن هذه القرارات والتهديدات لم تجد نفعا أمام جشع الصليبيين^(٣) ، فقد كان في صفوف القوات الصليبية عدد كبير من اللصوص والمجرمين الذين أعماهم الطمع ، وخرجوا على طاعة تعليمات المتدوب البابوي . ولذلك فقد الكثير من هذه الكنوز ، ولم يتمكن الصليبيون إلا من جمع ما يساوي أربعمئة ألف بيزنطة^(٤) ، ولخاصة وأن المسلمين قد أخفوا بعض هذه الكنوز في باطن الأرض^(٥) . وعلى أية حال فقد أودعت هذه الغنائم طرف جاك دي فري^(٦) ، تمهيدا لتوزيعها بمعرفة رجال الدين ذوي السمعة الطيبة على كافة الصليبيين بما فيهم النساء والأطفال^(٧) .

ولم يستول الصليبيون على هذه الغنائم فقط ، بل إستولوا على المدينة كلها ، ووزعت أحيائها وأبراجها على الفرق الصليبية الموجودة مع الحملة^(٨) . وكان

(١) Hist. Patr. Alex, pp. 254-5, Oliver Scolastique, Lettre, a Engelbert, p. 1191 Waltherus de Hamlingbusgh, p. 940.

(٢) Vitry, op. cit., p. 127 Oliver of padenborn, op. cit., p. 56.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II. p, 424. Cf. also. Michaud, op, cit., II, p. 251.

(٤) وهي تعادل نصف الفدية التي دفعها الصليبيون لفك أسر لويس التاسع بعد اسره في المنصورة . عن ذلك انظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٣١٦ .

(٥) Vitry, op. cit., p. 127.

(٦) Setton, op. cit., II. p. 419.

(٧) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 56.

(٨) Vitry, op. cit., p 128.

أهمها استولى عليه الصليبيون جامع دمياط الكبير وهو جامع إلى المعاطى وحولوه إلى كنيسة لاتينية باسم السيدة مريم العذراء لإقامة الشعائر الكاثوليكية وعينوا عليها مطرانا من رجال الكنيسة الرومانية الغربية^(٢) ، التي تختلف عن مصر جنسا وعقيدة وجعلوا في هذه الكنيسة أيضا كرسى المطرانية الذى خضعت له كافة الكنائس الصغرى التى أقاموها داخل دمياط ، ولتكون نواه لما يقام من كنائس لاتينية أخرى فيما بعد في مصر^(٣) .

ولم يكن هذا التصرف الصليبي قبل دور العبادة الاسلامية غربيا على اللاتين . فقد سبق لهم عندما دخلوا بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) أن قاموا بتحويل مسجد الصخرة إلى كنيسة رومانية سموها « معبد السيد » Templum Domini ، كما استخدموا المسجد الأقصى لمصالحهم وأطلقوا عليه « معبد سليمان » Templum Solomonis وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، فجعلوا القسم الأول كنيسة والثانى سكنا لفرسان الداوية والقسم الأخير مستودعا لذخائرهم ، ثم اتخذوا من السرايب التى تحت المسجد إصطبلا لحيواناتهم . وأن دل ذلك على شيء فإنه ليدل على تعصبهم وحقدهم

(١) يعتبر هذا الجامع من أقدم مساجد دمياط وأكبرها . إذ كانت مساحته ما يقرب من فدان ، هذا بالإضافة إلى المحلات التى ادخلت عليه بعد انشائه . وقد بنيت جدران المسجد الأربعة بحيث تواجه الجهات الأربع الأصلية مواجهة تامة دون المحراف . ولذلك جاءت قبلته فى الزاوية الجنوبية الشرقية وهو أمر نادر الحدوث . وكان المسجد يتكون من مستطيل يتوسطه صحن مكشوف تحيط به الأروقة من ثلاث جهات ، وتحتوى الجهة القبلىة منه وهى إيوان القبلة على أربعة أروقه . أما الإيوانان الشرقى والغربى فتحتوى كل منهما على رواقين . ولا توجد أروقه فى الإيوان الشمالى . ومما يجدر ملاحظته أن أعمدة هذه البوائك كانت مختلفة الألوان ومتعددة التيجان والأشكال وغير منتظمة العقود . وهذا يدل على كثرة الإصلاحات والتجديدات التى أجريت لهذا المسجد . ويوجد به بعض الكتابات التذكارية التى تثبت هذه التجديدات ، بعضها يرجع إلى العصر الفاطمى فى القرن الخامس الهجرى ، وبعضها إلى القرن الحادى عشر الهجرى أيضا . عن ذلك ولزيد من التفاصيل أنظر : سعاد ماهر مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ١ ص ٢٤٧ .

Roger of Wendover, op, cit., II, p. 414.

(٢)

Vitry, Ibid, cf. also. Oliver of Pedenborn, cit., p. 55

(٣)

على المروبة والعرب ، ويكشف في الوقت نفسه عن أحد دوافع الحركة الصليبية وهي العمل على جعل العالم العربى أرضا لاتينية تدين بالكاثوليكية على مذهب روما ، والقضاء على الإسلام وثقافته من المنطقة وعلى المسيحية الشرقية وديانتها الأرثوذكسية وهو هدف كانوا يسعون اليه قبل قيام الحركة الصليبية بوقت غير قصير^(١). وعلى أية حال ، فقد استولى الصليبيون على منبر الجامع وكان من الأبنوس وقطعوه إلى قطع صغيرة احتفظ بعضهم بأجزاء منه وأرسلوا بقية الأجزاء الأخرى مع المصاحف ورؤوس القتلى إلى البابا وملوك أوروبا كدليل على سقوط المدينة في قبضتهم^(٢)، وشاهدا على تزمهم الدينى وحقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين .

هكذا سقطت دمياط في أيدي الصليبيين بعد حصار دام تسعة أشهر كاملة دارت فيها معارك طاحنة بين الطرفين ، كما تخللها عرض الملك الكامل بالصلح عدة مرات . ومما لا شك فيها أن سقوط المدينة كان له أسوأ الأثر في نفوس المسلمين مما جعلهم يتكاتفون لصد الخطر الداهم وإجلاء المعتدين عن الأرض والديار ، في الوقت الذى إستعد فيه الصليبيون للزحف صوب القاهرة للاستيلاء عليها لتحقيق الهدف الذى قامت من أجله الحملة .

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ص ١١٧ . انظر أيضا : ابن واصل : المصدر ج ٤ ص ٩٩ - ١٠٠

الفصل السادس

فشل الحملة الصليبية الخامسة

- الدعوة للجهاد ، وبناء مدينة المنصورة .
- إنقسام الصليبيين على أنفسهم في دمياط وأثره .
- سقوط قلعة تنيس .
- مهاجمة ممتلكات الصليبيين في الشام .
- رحيل الملك جان دى برين إلى عكا .
- رحيل وقدم بعض القوات الصليبية .
- مهاجمة البرلس .
- عودة الملك جان دى برين إلى دمياط .
- الزحف صوب القاهرة .
- هزيمة القوات الصليبية .
- أسباب فشل الحملة .

لقد كان المسلمون يعتقدون في حصانه ومناعه مدينة دمياط^(١) ، ولكن هذا الاعتقاد تبدد عندما علمت القوات الاسلامية المراقبة في فارسكور بأن أعلام الصليبيين مرفوعة على أسوار المدينة ، فأيقنت أن القوات الصليبية إستولت عليها^(٢) ، فوقع ذلك على المسلمين وقوع الصاعقة ، وبكى الملك الكامل والمعظم بكاء شديداً^(٣) . وخاب أمل بعض المسلمين وهربوا إلى القاهرة معتقدين أن الصليبيين يقتفون أثرهم^(٤) . هذا ، ويذكر عن سقوط دمياط أن الملك المعظم قال « لو كان الدعاء الآن يسمع لسمع دعاء أهل دمياط ، فان الله تعالى أخبرنا أنه يستجيب دعائنا في عدة مواضع من كتابه وإنما أهل دمياط لما كثر فسقهم وفجورهم سلط الله عليهم من إنتقم منهم^(٥) . ومما لا شك فيه أن خسارة المسلمين بضياح مدينة دمياط - قفل الديار المصرية - كانت فادحة ، وزاد من وقعها أنها جاءت في الوقت الذي أخذ فيه المغول يقوضون أركان الجانب الشرقى من العالم الإسلامى^(٦) . وكان من أثر الصدمة التى أصيب بها العالم الإسلامى أن تدفق المسلمون على المساجد للتضرع لله أعداء الإسلام . وبادر الملك الكامل والمعظم بارسال السفراء إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥ م) في بغداد يخثونه على دفع المسلمين لحمل السلاح للدفاع عن العروبة والإسلام^(٧) . وقام الخليفة بدوره

(١) Hist. Patr, Alex., p. 255.

(١)

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٧ .

(٢)

(٣) ابن ابيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٨٧ . انظر أيضا : العيني : المصدر السابق ج ١٨ لوحة ٣٩٤ .

(٣)

Lamb, op. cit., p. 215.

(٤)

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠٣ .

(٥)

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٧٧ .

(٦)

(٧) كان من بين الذين أرسلوا لطلب النجدة صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ محمد بن حمويه . ولكن هذا الرسول لم يتمكن من الوصول إلى الخليفة الناصر ، فقد مرض بين حران والموصل وتوفى في منتصف شهر جمادى الآخرة عام ٦١٧ هـ (١٨ أكتوبر ١١٢٠ م) عن ذلك أنظر : ابن الفوطى : الحوادث الجامعة في المائة السابعة ص ١٠٨ . ويلاحظ أن هذا الرسول هو الذى أخبر الملك العادل بسقوط برج دمياط . أبو الحسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٧)

فكتب إلى سائر الممالك الإسلامية لإنجاد الملك الكامل^(١) . وهكذا ساند الخليفة العباسي الملك الكامل ، ولكن هذه المساندة كانت أقرب إلى التعاطف ، كما أنه كان تعاطفا ضعيفا عاجزا سلبيا ، وربما يستباح له العذر لأنه كان مشغولا في هذا الوقت بأخبار تقدم المغول إلى بلاده ، الأمر الذي لم يمكنه من إرسال العساكر إلى مصر تاركا الجبهة المواجهة للمغول مفتوحة يسهل اجتيازها ، فكانت أياما عصيبة على الإسلام وعلى المسلمين . ولعل المؤرخ ابن الأثير قد صدق عندما وصف حال المسلمين والإسلام في هذه الفترة بقوله « لقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصاعب لم يتلى بها أحد من الأمم »^(٢) . فلا عجب إذا أن يقوم الملك الكامل بإيفاد الرسل إلى كافة الممالك الإسلامية وهم « يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدي الفرنج » ، لأن الملك الكامل بخاصة والمسلمون بعامة كانوا « يعرفون أنه إذا ملك الصليبيون مصر ملكوا إلى حضرموت وعفوا آثار مكة والمدينة والشام »^(٣) ، وهو ما كان يدركه الصليبيون أيضا . فقد سجل شاهدو العيان منهم أنه بعد الاستيلاء على مدينة دمياط أصبح هينا عليهم الاستيلاء على ما تبقى من أرض مصر وبالتالي على مملكة بيت المقدس ، وأوضحوا أن المسلمين يحتفظون بالشام بفضل مساعدات مصر . ولذلك أخذ هؤلاء المشاهدون للحوادث ، وهم القادة الصليبيون في دمياط ، يطالبون البابا هونوريوس أن يبحث الإمبراطور فريديريك الثاني على سرعة القدوم إلى مصر ، كما يطالبون بمزيد من الأموال حتى تتمكن الحملة من إنجاز الهدف الذي قامت من أجله^(٤) . وعلى أية حال ، فانه على ضوء هذا المفهوم صار عامة الناس في مصر يتوقعون البلاء صباحا ومساء ، وأراد بعضهم في نوبة اليأس هذه ، الرحيل من

(١) القرينى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٣٥ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٣ . انظر أيضا : القرينى : المصدر السابق ج ١

ص ٢٠١ .

(٤) L.F. Crusade, Letter to The Pope Honorius III, dated 11 th nov. 1219. | (٤)
p. 45.

مصر خوفا من الصليبيين تاركين مصر نخاوية على عروشها ، ولكن الكامل منعهم من ذلك^(١) . وأيقن ملك مصر أن المهمة الملقة على عاتقه ثقيلة وأن مسئوليته أصبحت أخطر من ذي قبل . وبدأ يخطط من جديد لدفع الخطر الصليبي عن مصر قبل أن يستفحل ويمتد كالأخطبوط ليشمل مصر كلها ، فرأى أن بقاء الملك المعظم إلى جانبه بمصر أصبح غير ذات موضوع في هذا الوقت على الأقل ، لأن مصر حاولت مقاومة الصليبيين مستعينة بالقدر البسيط من الإمدادات وردت إليها من الشام ، ورغم ذلك سقطت المدينة في أيدي القوات الصليبية التي أصبحت تعد العدة للتقدم إلى القاهرة عاصمة البلاد . لذلك قرر إستحضار أكبر قدر ممكن من العساكر الشرقية والضغط بفاعلية أكبر على ممتلكات الصليبيين في الشام ، فقال لأخيه المعظم « جرى المقدور لما هو كائن وما في مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج وتستجلب العساكر من الشرق »^(٢) . وليس معنى ذلك أن الملك الكامل وقف مكتوف اليدين بعد سقوط المدينة فقد نادى بأن « النفير عام » وتمكن من جمع حوالى عشرين ألف مقاتل^(٣) ، كما أنه رأى أن الاستراتيجية العسكرية تتطلب وضع هذه العساكر التي كانت معه من قبل في موضع أكثر ملائمة لقتال الصليبيين عند زحفهم إلى القاهرة ، كما سبق أن إختار فارسكور من قبل بعد سقوط العادلية .

وإختار الكامل المنطقة التي سميت فيما بعد بالمنصورة . ولم يكن لذلك الموضع إسم معروف وقتذاك ، كما لم تكن له أية صفة طبوغرافية تميزه عن سائر ما حوله من أراضي الدلتا الرخوة عدا موضع قضاء فسيح ، معتدل الهواء مثلث الشكل تقريبا^(٤) ، يقع جنوب بحر أشموم طنّاح والشاطئ الشرقي للنيل

-
- (١) ابن الأثير : المصدر السابق نفس الموضع .
(٢) أبو شامة : المصدر السابق ص ١٧٧ . انظر : النويرى : المصدر السابق ج ٣٧ لوحة ٢٦ .
(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٩ .
(٤) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٣ .

قباله قرية جوجر^(١) . وفي هذا المكان بنى الكامل معسكره الجديد^(٢) ، وزاده فيما بعد بالمنازل والحمامات^(٣) والقنادق^(٤) . ومن الطبيعي ألا يكون إختيار الكامل لهذا المكان اعتباطا أو خبط عشواء ، بل على أساس اعتبارات إستراتيجية واضحة الأهمية لأغراض القتال ضد الصليبيين الذين أصبحوا منيطرين على دمياط . وهم الذين سيزحفون على القاهرة إن عاجلا أو آجلا لتحقيق أهدافهم التي عجزت عنها كافة المحاولات الصليبية السابقة^(٥) .

فمن الواضح أن الكامل اختار هذا الموضع المثلث الشكل لأنه محصن بضلعين مائين هما بحر أشموم المعروف بشدة إنحدار جانبية وشرعة تياره هذا بالإضافة إلى بعد هذه المنطقة من دمياط ولا يتيسر للصليبيين الوصول إليها عن طريق النيل إلا باسطول نهري طويل يحتاج إلى حراسة نهريّة وبرية قوية وعديدة لبعده عن قواعد المتمركزة في دمياط . كما أنه مهما بلغت قوة هذه الحراسة فإن الأسطول سيتعرض لهجمات إسلامية تؤدي إلى استنزاف جهد كبير من الصليبيين . ومن مزايا هذه المنطقة أيضا أنها أقرب الأماكن المحصنة تحصينا طبيعيا لاستقبال النجديات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام عبر شبه جزيرة سيناء . أضف إلى ذلك أنها أقرب طريق للمواصلات الرئيسية إلى القاهرة ، فضلا عن قربها من ميناء سمندود التجاري ذى المحاصيل الوفيرة والمركز الجغرافي المتصل بمختلف بلاد الدلتا^(٦) .

ومن ذلك كله يتضح حسن إختيار الكامل لهذا الموضع الحصين . وليس أدل على ذلك من إكتساب هذا المكان الشهرة العالمية في هزيمة الصليبيين سواء

(١) جوجر ، بلدة بمصر من جهة دمياط في كورة السمندودية . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٢ ، ابن إسماعيل : المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) Eracles, op. cit., p. 350.

(٣) القزويني : آثار البلاد ص ١٣٠ .

(٤) ابن إياس : المصدر السابق نفس الموقع .

(٥) ابن بهادر : المصدر السابق ص ١٠٩ انظر أيضا : العيني : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٤١٨

(٦) محمد مصطفى زيادة : المرحع السابق ص ٥٣ - ٥٤ .

في الحملة الصليبية الخامسة أو السابعة . ومن البديهي أن بناء هذه المدينة العسكرية في البقعة الأرضية الطينية الخالية من أحجار البناء والصخور الطبيعية جعلها في أول الأمر خالية من الطراز المعمارية ، وغلب عليها طابع السرعة والبساطة والمنفعة العسكرية بما يجعلها تتلائم مع الموقف في مواجهة الصليبيين^(١) والمهم أن الملك الكامل إنتقل إليها بعد يومين من سقوط دمياط وإستقر في هذا المكان على بعد مسيره يوم واحد من دمياط مرابطا للجهاد^(٢) ، محتما بالأسوار التي بناها غرب المنصورة على الضفة الشرقية للنيل^(٣) .

أما الصليبيون فانهم بعد أن إستولوا على دمياط « شرعوا في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام »^(٤) . وكتبوا إلى البابا هونوريوس الثالث يتوسلون اليه لإرسال المزيد من القوات إلى مصر ، خاصة وأن بعض الصليبيين كانوا يفكرون في العودة إلى أوطانهم في الربيع التالي . كما طالبوه أيضا بإرسال الامبراطور فريديريك الثاني إلى الحملة ، وعدم الترخيص للصليبيين الذين حملوا الصليب بتأجيل حضورهم إلى مصر . هذا بالإضافة إلى مطالبتهم بالأموال التي جمعت لصالح الحملة وعدم إنفاقها في أغراض أخرى^(٥) .

وكان إمتلاك المدينة في حد ذاته مشكلة للصليبيين ، فكان الملك جان دي برين يسانده بارونات بيت المقدس ورؤساء الهيئات الدينية الثلاث يعتبرون أن مدينة دمياط أصبحت جزء من مملكة بيت المقدس ، أما المندوب البابوي

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٢) Vitry. op. cit., p. 137. Oliver of Padonborn, op. cit., p. 61.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣ . انظر أيضا : السيوطي . تاريخ الخلفاء ص ٤٥٦ .

(٤) | ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٣ . أنظر أيضا :

Petre de Montacute, Letter to Bishop of Elmenum, cf. Roger of Wendover, op. cit., II. p. 433.

(٥) L.F. Crusade Letter to The Pope Honorus III dated 11 th nov. 1219, p. 46.

بلاجيوس فكان يرى أن تخضع المدينة لسلطة الكنيسة . وباعتباره ممثلاً للبابا فان إمتلاك المدينة يجب أن يكون له^(١) . وأعلن أن المدينة أصبحت من ممتلكات الكنيسة الغربية التي كان لها أكبر الأثر في سقوط دمياط ، ورفض كل الحجج التي تقدم بها الملك الصليبي لإدارة المدينة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة^(٢) ونادى بأن أكبر الأثر في سقوط المدينة يرجع إليه شخصياً ، وسانده رجال الدين في هذا الادعاء وروجوا له . ولكن الرأي العام للحملة عارض بلاجيوس في إدعائه ملكية المدينة^(٣) . وهكذا بدأ الشقاق مرة أخرى بين الملك والمندوب البابوي وظهرت بوضوح عوامل الحقد والكراهية التي كانت بينهما وتناسى بلاجيوس تعليمات البابا الخاصة بوضعه في الحملة^(٤) . ولعل مثل هذا الصراع ما كان لينشب لو تواجد الامبراطور الألماني مع الحملة ، ولكن مثل هذا لم يحدث ، ولذلك تأزمت الأمور بين الملك الصليبي والمندوب البابوي وهدد الملك بترك الحملة والعودة إلى بلاده^(٥) . وفعلاً بدأ في إعداد السفن لتنفيذ ذلك . وتعقدت الأمور أكثر من ذي قبل وبدأت الاشتباكات وأعمال الشغب بين أنصار كل من طرفي الصراع . فكان يؤيد الملك كالمعتاد فرسان الداوية والاستتارية والفرنسيون و صليبيو بيت المقدس ، في نفس الوقت الذي كان الايطاليون يساندون فيه المندوب البابوي . وانتهى الأمر بعرض المشكلة على البابا هونوريوس الثالث الذي أيد الملك في موقفه من حكم المدينة^(٦) . ومما هو جدير بالذكر أن إنقسام القيادة الصليبية على نفسها بسبب الصراع على السلطة كان له أسوأ النتائج على الحملة بأكملها . كما أن هذا النزاع قد خدّم الجبهة الإسلامية بصورة غير مباشرة في هزيمة القوات الصليبية^(٧) .

Archer & Kingsford, op. cit., p. 377.

(١)

Setton, op. cit., 11, p. 419.

(٢)

Runciman, op. cit., III, p. 162.

(٣)

Eracles, op. cit., pp. 348-9.

(٤)

Runciman, op. cit., III, p. 162.

(٥)

Oliver of Pedenborn, op. cit., p. 55.

(٦)

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٧ ص ٩٧٩ .

وفي خضم هذا الصراع حول السيادة والزعامة نشبت مشكلة أخرى وهي مشكلة توزيع الغنائم على الصليبيين ، لأن الايطاليين لم يقتنعوا بالنصيب الذي حصلوا عليه منها وأعلنوا العصيان وشهروا سلاحهم ضد جنود الحملة بصفة عامة وضد الجنود الفرنسيين بصفة خاصة^(١) ، مستندين في ذلك إلى كونهم من أتباع المندوب البابوي ومعتقدين أنه سيساندتهم في موقفهم . ولكن بلاجيوس تخلى عنهم مما جعلهم ينفجرون في ثورة حادة ضد القيادة والقوات الصليبية^(٢) . وحاول بلاجيوس البحث عن حل يرضى به الايطاليين لحفظ الأمن والنظام داخل صفوف الحملة . ولكن غضبة الايطاليين كانت عارمة لدرجة أن حياة بلاجيوس أصبحت مهددة بالخطر . وإنقاذاً للموقف أخرجت القوات الفرنسية من المدينة حتى لا تشتبك مع القوات الايطالية ، وحتى تدبر القيادة الصليبية حل هذه المشكلة ، قرر الزعماء الصليبيون أمرين ، أولهما ، طرد القوات الايطالية من المدينة ، وتولى هذه المهمة في السادس من يناير عام ١٢٢٠ م (٢٨ شوال ٦١٦ هـ) الملك الصليبي وفرسان الداوية والقوات الفرنسية^(٣) ، بالإضافة إلى الفرسان الاسبتارية^(٤) وثانيهما ، إعادة النظر في توزيع الغنائم ، وفي هذه المرة كان نصيب الايطاليين أكثر مما جعلها تترابط مرة أخرى^(٥) . وإنتهى أمر هذه الفضائح على حد تعبير المؤرخ جاك دي فترى كما إنتهى أمر هذه المنازعات والمشاجرات التي تسبب فيها الجهلة والمشاغبون من أفراد الحملة^(٦) ، في الثاني من فبراير من نفس العام (١٦ ذو الحجة)^(٧) .

(١) Hist. Patr, Alex. pp. 254-5 cf. Waltherus qe Heming- burgh, op. cit., p. 940.

(٢) Vitry, Historia Orientalis, p. 944.

يتضح من ذلك مدى عدم سيطرة القيادة الصليبية على قوات الحملة ومن جهة أخرى عدم اعتداد رجال الحملة بالمندوب البابوي أو بغيره من القيادة الصليبية .

(٣) Rohricht, Geschichte der Kruzzege im Umriss, p. 204.

(٤) Delaville | Leroulx, op. cit., d, 145.

(٥) Setton, op. cit., II, p. 420

(٦) Vitry. Lettres de Jacques de Vitry. p. 127.

(٧) Rohricht. op, cit., p. 205

والمشكلة الثالثة التي أعتزضت الصليبيين مع مشكلة إمتلاك المدينة ومشكلة توزيع الغنائم هي مشكلة الزحف صوب القاهرة . وهي ليست من المشاكل الشكلية السابقة ، بل من الأمور التي تتعلق بالاستراتيجية العسكرية الصليبية التي يتوقف عليها تحقيق الهدف الأكبر للحملة . واختلف الملك والمندوب البابوي حول هذا الموضوع أيضا . فكان الملك يرى أن يقوم الصليبيين أولا بزيادة تحصينات المدينة والمعسكر الصليبي المقام حولها وإعطاء القوات الصليبية قسما من الراحة حتى يصل الامبراطور فريدريك^(١) ، خاصة وأن الصليبيين قد قاسوا الكثير منذ وصولهم إلى جيزة دمياط في أوائل يونيو عام ١٢١٨ م حتى سقطت المدينة في قبضتهم في الخامس من نوفمبر عام ١٢١٩ م أي ما يزيد عن سبعة عشر شهرا . أضف إلى ذلك طول المسافة بين دمياط والقاهرة التي تبلغ حوالي مائة ميل من الأراضي المليئة بالترع والقنوات المتفرعة عن الفرع الشرقي للنيل (فرع دمياط) التي لا يعرفها الصليبيون . في حين كان بلاجيوس يرى التقدم إلى القاهرة مباشرة بدون إبطاء في أعقاب القوات المنهزمة . وتغلب رأى الملك على رأى المندوب البابوي هذه المرة أيضا ، ولم يغفر له بلاجيوس ذلك^(٢) ، وسيكون لهذا القرار أثرا كبيرا على مجريات الحوادث التالية . وفعلا لو قام الصليبيون بالزحف تجاه القاهرة عقب سقوط مدينة دمياط مباشرة لربما إختلفت نتائج الحملة عن النهاية التي تقرر لها بعد أن قررت الزحف على المعسكر الإسلامي بعد ما يزيد عن سنة ونصف من سقوط المدينة قضتها في حالة تكاد تصل إلى الخمول العسكري التام^(٣) .

ورغم هذه الخلافات فإن الصليبيين لم ينسوا وجودهم كقوات صليبية موجودة في دمياط وفي المناطق المحيطة بها ، وكان عليهم تأمين هذا الوجود ضد القوات الإسلامية . لذلك رأوا الاستيلاء على مدينة تنيس^(٤) . ففي عيد

Hist. patr. Alex, p 259.

Lamb, op. cit., pp. 345-6

C'hronique de Tours. p. 938.

(٤) تنيس ، اسم مدينة صغيرة كانت قائمة في حريرة صغيرة واقعة إلى الجهة الشمالية الشرقية من حريرة

القديس كليمنت^(١) Clement ، الموافق الثالث والعشرين من نوفمبر لعام ١٢١٩ م (١٤ رمضان ٦١٦ هـ) ، أغار الصليبيون على المدينة . ولعدم معرفة القوات الصليبية بأحوال المدينة وخلوها من السكان فقد تصوروا أن أهلها قد غادروا المدينة على إظهار القوارب عبر بحر تنيس وهو بحر أشموم طناح ، ولم يبق بها سوى الحامية التي تحرس المدينة داخل القلعة المحصنة بسبعة أبراج^(٢) - في غاية المنعة - وسورين وخندقين أحدهما يقع أمام السور الأول والثاني بين السورين . وكانت هذه الخنادق مملوءة بالمياه مما كان يزيد مناعة هذه القلعة على الصليبيين . وإستحال على القوات الصليبية الإقتراب منها بعد ما أغلقت حاميتها أبوابها . وكانت مفاجأة للصليبيين عندما وصلوا إلى القلعة فوجدوها خالية من العساكر ، ولم يكن ما إعتلى إظهار القوارب سوى رجال الحامية نفسها ، فاستولى الصليبيون عليها ، وعلى ما وجدوه بداخلها من المؤن والذخائر^(٣)

المنزلة التي كانت تعرف وقتها باسم بحيرة تنيس على بعد ٩ كيلومترات من الجنوب الغربي لمدينة بورسعيد الحالية . ول سنة ٥٧٧ هـ انتدب السلطان صلاح الدين لعمارة قلعتها وتجهيز الآليات واصلاح سورها القديم . وفي سنة ٥٨٨ هـ أخليت المدينة من سكانها بسبب خوف أهلها من الاعتداءات الصليبية عليها ، وانضم أهلها إلى دمياط ولم يبق بها سوى المقاتلة في قلعتها . ثم أمر الملك الكامل في سنة ٦٣٤ هـ بهدم المدينة رغم شهرتها في أعمال الثياب التي تصنع منها كسوة الكعبة بعد ما جرى عليها في هذه الحملة . أنظر : المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٣ ويذكر عن بحيرة تنيس أن بها مائة وخمسة وثلاثون نوعا من الطيور وتسعة وسبعين نوعا من السمك . ولزبد من التفاصيل : انظر : القزوينى : المصدر السابق ص ١١٨ - ١١٩ .

(١) القديس كليمنت ، تولى كرسي البابوية في روما من عام ٩١ - ١٠٠ تقريبا ، وهو الخليفة الثالث للقديس بطرس ويحتفل بعيده في الثالث والعشرين من نوفمبر كل عام . أنظر : Ency, Brit, Vol.5 pp. 897- 8

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 57. cf. Roger of Wendover, op. cit., II, p. 452.

ويلاحظ أن حاك دى فترى ذكر أن عدد أبراجها كان ثمانية أبراج . أنظر :

Vitry, op. cit., 128.

(٣) Oliver of Padenborn, Ibid. Roger of Wendover, Ibid, Frbli, op. cit., Vol 2 part I, p. 359-Chronique de Nicolaus Trivete, p. 940.

وقد شيد الصليبيون في تنيس كنيسة لاتينية خضعت لمطرانية مدينة دمياط^(١).
وهذا يؤيد ما سبق قوله بأن من دوافع الحركة الصليبية كثرلكة العالم العربى^(٢).

وعلى أية حال ، فان كان سلوك الصليبيين فى مصر هو مهاجمة المدن المصرية ، فان سلوك المسلمين بالشام كان مقاربا لذلك مع إختلاف الأهداف ، فان الملك المعظم قد عاد إلى الشام بعد سقوط دمياط لغرضين ، أولهما حشد العساكر الإسلامية وإرسالها إلى أخيه الكامل فى مصر ، وثانيها الضغط على أملاك الصليبيين بالشام لتخفيف الضغط على مصر وإمتصاص بعض القوات الصليبية منها . لذلك قام فى المحرم من سنة ٦١٧ هـ (مارس عام ١٢٢٠ م) بحصار قلعة قيسارية ، وأقام أمامها المنجنىقات التى ظلت تضرب حصنها ليلا ونهارا ، وتسبب فى إصابتها بإصابات بالغة^(٣). وقاومت المدينة فى أول الأمر الحصار مقاومة شديدة ، وحاول جارنيه الألمانى Garnier the German نائب الملك جان دى برين عكا فى ذلك الوقت إنقاذ الحصن ، فتفاوض مع الجنيوية للدفاع عن الحصن وإستنقاذه على أن أن يسلم اليهم بعد ذلك . هذا ، ويلاحظ أن الجنيوية كانوا قد طلبوا امتلاك هذا الحصن من الملك الصليبي ولكنه رفض . وإزاء هذا الخطر الذى أخذ يهدد بضياىع الحصن ، وافق جارنيه على ما طلبوه . كما قام والتر الثالث صاحب قيسارية ١٢١٧ - ١٢٢٩ م من جانبه بإرسال المقاتلين والأسلحة والمؤن وما يلزم للقيام بهذه المهمة ، ثم قام الصليبيون بإخلاء المدينة . وظلت طوال أربعة أيام وهى تقاوم ضربات المسلمين . وفى النهاية أدرك الصليبيون عدم إمكانهم الصمود أمام الهجمات الإسلامية ، فطلب المدافعون عن المدينة من جارنيه مساعدتهم على الهروب من القلعة ، فأرسل اليهم السفن اللازمة وإنسلوا من المدينة تحت جناح الظلام . وإستطاع المسلمون اختراق

Vitry, Ibid.

(٢) . انظر ما سبق ص ٢٦٧ .

(٣) Eracles, op. cit., p. 433. cf. also, Oliver of Padenborn op. cit., p. 58.

الأسوار في اليوم التالي^(١) . وهكذا ظل المعظم نازلا عليها حتى فتحها عنوة^(٢) ، ودخل إليها فلم يجد بها أحدا بعد أن فرت حاميتها فأمر بتدمير القلعة ، فخربت تخريبا تاما^(٣) .

وبعد أن خرب المعظم قلعة قيسارية ذهب وحاصر قلعة الحجاج التي كانت تعرف أيضا باسم قلعة عتليت ، وكان هدف المسلمين أن ينزلوا بها ما أنزلوا بقيسارية من خراب ، ولكن القلعة كانت من الحصانة بحيث لم يتمكن المسلمون من النيل منها . هذا ، علاوة على الإمدادات الصليبية التي أتت لمساعدتها ، وقد فشل المسلمون في النهاية في الاستيلاء عليها أو هدمها رغم المحاولات المتكررة التي قام بها المعظم . وأخيرا انسحب المسلمون من أمام القلعة^(٤) . والمهم أن الهجمات الإسلامية على ممتلكات الصليبيين بالشام بالإضافة إلى مرابطة الملك الأشرف بالقرب من أنطاكية وطرابلس ، قد حرم القوات الصليبية الموجودة في دمياط من الإمدادات التي يمكن أن تأتي إليها من الإمارات الصليبية في الشام . وليس ذلك فحسب بل أدت إلى سحب بعض القوات اللاتينية من دمياط لمساندة أخوانها في الشام^(٥) . ويروى بعض المؤرخين أن هذه الحوادث هي السبب في مغادرة الملك جان دي برين دمياط إلى عكا^(٦) . وعن حقيقة الأسباب التي من أجلها غادر الملك المدينة ، فإن بدايتها ترجع إلى أن العلاقات كانت تسير من سوء إلى أسوأ بينه وبين المندوب

(١) Vitry op. cit., p. 138, cf. Petre de Mantacute op, cit., p. 434, Eracles, op. cit., p. 334.

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٠٤ .

Eracles. Ibid.

(٣)

Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 58-9

(٤)

(٥) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦١٩ - ٦٢٠ .

(٦) Setton, op. cit., II. p. 422. cf. also : Rohricht, Geschichte des

Konigreichs Jersalem, pp. 744-5. Stevenson, op. cit., p. 306.

Duggan, op, cit., p. 218.

البايوى بلاجيوس لتجاهل الأخير للملك ، وعدم إعتباره قائدا للحملة ، ومحاولته فرض سلطته لتعلوا سلطة الملك^(١) ، وليس ذلك فحسب بل أن بلاجيوس حاول الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، ومن الطبيعي أن يستاء الملك من هذا التصرف الذى أعتبره مهينا له . ولذلك رأى عدم الدخول فى صراعات مع مندوب البابا مفضلا العودة إلى بلاده تاركا القيادة لبلاجيوس .

لذلك السبب أصبح الملك يتحين الفرص على نجد فيها عذرا قويا يتذرع به لمغادرة الأراضى المصرية . وبينما يرى بعض المؤرخين المحدثين أن الملك اعتذر عن البقاء فى دمياط وطلب الرحيل إلى بلاده بحجة قيام الملك المعظم بمهاجمة قيسارية وعتليت ، فان أوليفر وتاريخ هرقل يرون أن السبب الذى تذرع به الملك لترك الحملة فى دمياط هو مشكلة للوراثة فى أرمينية^(٢) . ولو أن المشكلة الأرمينية فى حد ذاتها لا تتعلق بموضوع الحملة بصفة أساسية ، إلا أن الباحث يرى القاء بعض الضوء عليها لا بصفتها مشكلة تتعلق بأرمينية ولكن كمشكلة تتعلق بوضع الملك الصليبي نفسه إذ حاول أن يكتسب لقباً يصبح به ملكا فعليا فى أرمينية لا وصيا على مملكة عكا ، وهو الأمر الذى يزعزع مكانته أمام بلاجيوس بصفة خاصة وأمام الصليبيين بصفة عامة . هذا من جانب ، ومن جانب آخر باعتبار أن انسحاب الملك من أمام دمياط سيؤثر على وضع القوات الصليبية وهى فى منتصف الطريق بين عكا والقاهرة .

وترجع مشكلة الوراثة الأرمينية ، أن الأمير بوهمند الرابع استطاع حكم طرابلس بالإضافة إلى أنطاكية متجاهلا حقوق ابن أخيه ريموند روبان . وتمكن ليو ملك أرمينية من مساعدة ريموند ابن أخته من إستعادة مركزه فى أنطاكية مرة أخرى^(٣) . وحدث بعد ذلك أن مات الملك ليو فى الثانى من مايو عام ١٢١٩ م وترك بتين هما إستيفالى التى تزوجها الملك جان دى برين^(٤) ،

(١) Archer & Kingsford, op. cit., p. 377

(٢) Oliver of Pabenborn, op. cit., p. 63, Bracles, op. cit., p. 347.

(٣) : انظر ما سبق من ١١١٣ .

(٤) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriss p. 205.

والثانية إيزابيلا التي تزوجت من فيليب بن بوهمند ، وطرد بوهمند ريموند روبان بعد وفاة ليو وحكم طرابلس وأنطاكية مرة أخرى . وكان ليو قد عين ريموند هذا وريثا له ، ثم عدل عن ذلك وعين آدم أف جاستون Adem of Gaston ، ورغم ذلك نجد ريموند يظالب بعرش أرمينية . وارتاح ريموند من منافسه آدم عندما إغتاله الحشيشية . ولكن ظهر له منافس آخر هو كونستانس Constans ابن عم ليو^(١) . وكان قانون الوراثة في أرمينية يعطى الأسبقية في الوراثة لبنات الملك وأزواجهن على ابن العم^(٢) . لذلك صار الصراع على الوراثة في أرمينية يسير في ثلاثة اتجاهات مختلفة ، الأول منها إتجاه جان دى برين وفيليب عن طريق زوجتيهما ، والثاني إتجاه ريموند روبان باعتباره عين للوراثة من قبل ، والثالث إتجاه كونستانس .

أما ريموند فقد حضر إلى دمياط وقابل المندوب البابوي وطلب منه مساعدته في إستعادة مركزه في انطاكية بالإضافة إلى مركزه كوصيا على أرمينية وبالفعل ساعده بلاجيوس بالمال والرجال . وبالطبع كانت هذه المساعدة على حساب الحملة المرابطة في دمياط . وربما كان بلاجيوس يسعى من وراء ذلك إلى بسط نفوذه في الشام كما عمل على بسط نفوذه في دمياط . وعلى أية حال ، فقد عاد ريموند إلى أرمينية وتمكن من الاستيلاء على مدينة أنطربوس . ولكن كونستانس حاصره داخل المدينة فاستنجد بالمندوب البابوي الذي أرسل اليه ايمار بن أخ ايمار صاحب قيسارية السابق (١١٩٣ - ١٢١٣ م) . وأبحر ايمار من دمياط ومعه بعض المرسان في طريقة إلى أرمينية عن طريق قبرص . ولكن هذه النجدة وصلب متأخرة ، فقد إستسلم أهل المدينة إلى كونستانس . وتم أسر ريموند وزج به في السجن حتى مات . وبذلك إنتهت مطالبة ريموند بالوصاية على العرش . أما فيما يتعلق بفيليب زوج إيزابيلا ابنه الملك ليو فقد تمكن أيضا كونستانس من تدبير مؤامرة إنتهت بالقبض عليه ، وزج به في

Eracles, op. cit., p. 347.

(١)

Duggan, op. cit., p. 218.

(٢)

السجن . وقام كونستانس بتزويج ايزابيلا من من ابنه هيثوم Hethoum . وبذلك إنتهت أيضا مطالبة فيليب بنصبيه في العرش الأرميني^(١) .

ولم يبق من المنافسين بعد ذلك إلا الملك جان دي برين ، لذلك استغل هذه المسألة في الرحيل من دمياط ، ورغم الاحتمال الكبير في عدم نجاحه في مهمته بعد سيطرة كونستانس على أرمينية . فقد صمم على مغادرة مدينة دمياط بعد ما تفاقم الخلاف بينه وبين مندوب البابا . وحتى لا يتصرف الملك من تلقاء نفسه ، فقد رأى الاستئذان من البابا هونوريوس الثالث . وفعلا تسلم الملك تصريحاً من البابا في فبراير عام ١٢٢٠ م بترك الحملة وزيارة أرمينية^(٢) . ويلاحظ أن الملك تسلم الأذن في فبراير سنة ١٢٢٠ م ، أي أنه طلب الرحيل قبل ذلك ، ومن الواضح أنه في ذاك الوقت أو قبله لم تكن قد بدأت حوادث مهاجمة المعظم لقيسارية وعتليت . وعلى ذلك فإن الرأي الذي نادى بأن الملك طلب مغادرة دمياط لزيارة أرمينية هو الأرجح من الناحية العملية . ويلاحظ أيضا أن مغادرة الملك كانت في أواخر مارس بعد حوادث الهجوم على الممتلكات الصليبية بالشام . وهناك فارق بين نية السفر وتنفيذ عملية الرحيل . وهذا يدل على أن الملك جان دي برين كان يعمل منذ فترة على مغادرة دمياط إذا أخذنا في الاعتبار عامل المواصلات في هذا الوقت بين دمياط وروما وبالعكس لاستحضار تصريح المغادرة . وأن دل ذلك على شيء فأنما يدل على سوء العلاقات بين الملك والمندوب . وعلى أية حال ، فقد إستعد الملك للرحيل بعد أن سوى بعض الأمور وعين بعض الممثلين له في دمياط^(٣) . وأخذ معه كل فرسان جيشه تقريبا وترك بقية عساكره في دمياط^(٤) التي غادرها في التاسع والعشرين من مارس سنة ١٢٢٠ م (٢٢ محرم عام ٦١٧ هـ) في طريقه إلى عكا^(٥) ، ومنها أخذ يستعد للذهاب إلى أرمينية . وفي هذه الأثناء مرضت

Eracles op, cit., p. 347.

(١)

Runçiman op, cit., III, p. 164.

(٢)

Eracles, op, cit., p. 349.

(٣)

Vitry, op. cit., p. 136, Cf. also: Fabri, op, cit., Vol. 2, part I, p. 360.

(٤)

Rohricht, op. cit., p. 205.

(٥)

زوجته إستيفانى وماتت وأشيع أن ذلك بسبب سوء معاملة الملك لها^(١). ثم مات إبنهما بعد موت أمه بقليل وكان يبلغ من العمر أربع سنوات^(٢). وبذلك لم يصبح للملك جان دى برين أى حق فى المطالبة بنصيبه فى عرش أرمينية^(٣).

ولو كانت مشكلة الوراثة الأرمينية هى السبب فى مغادرة الملك مدينة دمياط لعاد إلى مصر بعد أن ضاع حقه وأمله فى العرش. ولكنه لم يعد إلى دمياط واستمر غيابه فى عكا أكثر من سنة. وهذا يؤكد أن مشكلة الوراثة فى أرمينية لم تكن المشكلة الحقيقية التى غادر الملك من أجلها دمياط، أو على الأقل لم تكن السبب الرئيسى فى رحيله من المدينة.

ومهما يكن من أمر فقد كان رحيل الملك جان دى برين إلى الشام فرصة للمندوب البابوى بلاجيوس فى بسط نفوذه على الحملة كلها، وهو ما سعى إليه وما كان يتمناه. ولما كان بلاجيوس حريصا على بقاء الحملة والعمل بشتى السبل لانجاح مهمتها، فقد كان يخشى عودة الصليبيين إلى أوطانهم، ويتبدد ما قامت به الحملة من جهود. لذلك بدأ فى إصدار التعليمات اللازمة لتقييد حركة السفن التى تنقل الجنود العائدة إلى أوطانها ليضمن عدم رحيل القوات الصليبية إلا بالقدر الذى يراه، أو العمل على عدم رحيلها على الإطلاق. ولم تأت هذه القرارات بالتائج التى تمنها المندوب البابوى فقد عاد عدد كبير من الصليبيين إلى بلادهم فى ربيع عام ١٢٢١ م لاعتقادهم أنهم وفوا بعهودهم. ولم يعبأوا بهذه القرارات ولا بتهديدهم بقرار الحرمان. وكان عذرهم إلى جانب وفائهم بعهودهم أن حالتهم الصحية لا تمكنهم من الإقامة مع الحملة. وكان من بين العائدين عدد كبير من الفرسان الايطاليين وبعض رجال الدين، كما غادر دمياط أيضا رالف إيرل شيلستر وهو الوحيد الذى صرح له القاصد الرسولى بالعودة^(٤). ويبدو أن الحملة قد أصيبت فى هذه الفترة بالانهلال التام

King, op. cit., p. 195,

(١)

Eracles, Ibid.

(٢)

Runciman. op. cit., III, p. 165.

(٣)

* Roger of Wendover, op cit., II, p 426.

(٤)

حتى يغادرها عدد من رجال الدين غير عابئين بقرار الحرمان . والمفروض فيهم أن يكونوا حريصين كل الحرص على تنفيذ تعليمات المندوب البابوي ، وقدوة للآخرين .

وفي فترة الخطر التي فرضها بلاجيوس على حركة السفن الصليبية ، قام الملك الكامل باستغلال فرع رشيد . وأرسل منه بعض قطع الأسطول الأيوبي في البحر المتوسط وهو آمن من تعرض البحرية الصليبية له . واتخذ طريقه إلى قبرص حيث عثر على بعض السفن الصليبية الراسية في الميناء ليماسول Limasol فشن عليها هجوما مفاجئا أدى إلى أغراق بعضها وأسر البعض الآخر . ووقع في أيدي المسلمين آلاف عديدة من الأسرى الفرنج^(١) . ويلاحظ أن هذه الحوادث قد جرت رغم تحذير بلاجيوس من نشاط البحرية الإسلامية . ولكن الصليبيين تجاهلوا هذا التحذير ثم عادوا وأدركوا الأمر بعد فوات الأوان . وحاول بلاجيوس القيام بعمل مماثل لما قامت به البحرية المصرية ومهاجمة ميناء رشيد أو الاسكندرية بأسطول البنادقة . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ لحاجة القيادة الصليبية إلى الأموال اللازمة لإصلاح وإعداد السفن اللازمة للقيام بهذه العملية^(٢) .

ونخرج من ذلك أن تعليمات المندوب البابوي بشأن القيود التي وضعها على حركة السفن اللاتينية قد أضرت بالبحرية الصليبية أكثر مما أفادت ، وحرمت القوات الصليبية في دمياط من الإمدادات الصليبية التي كانت ترد إليها من قبرص^(٣) . هذا بالإضافة إلى أنها لم تأت بالنتيجة التي أرادها بلاجيوس في

(١) Petre de Montacute, op. cit., II, 426.

روى جاك دي فترى ان جملة عدد الأسرى في المعارك البرية والبحرية وفي الكمائن قد يبلغ ثلاثة آلاف ، وذلك في الخطاب الذي وجهه إلى البابا هونوريوس الثالث في ١٨ ابريل ١٢٢١ م (٢٣ صفر ٦١٨ هـ) Vitry, op. cit., p. 138. وبذلك يكون من غير المعقول أن يتم أسر الاف عديدة في هذه المعركة وحدها .

(٢) Oliver op Padenbern op. cit., pp. 67, 82, cf also : Chronique de Tours, p. 988.

(٣) Vitry, op. cit., p. 139.

منع عودة القوات الصليبية إلى أوطانها .

وفي الواقع أنه في الوقت الذي كانت تغادر فيه هذه القوات ميناء دمياط كانت بعض القوات الصليبية الأخرى في طريقها من أوروبا إلى مصر^(١) . ويتضح من ذلك أن الخطابات المتلاحقة التي أرسلها رجال الدين والقادة الصليبيون عقب سقوط مدينة دمياط قد آتت أكلها ، وإستجاب البابا لنداء زعماء الحملة وبدأ في إرسال بعض القوات التي وصلت إلى دمياط في مارس سنة ١٢٢٠ م (محرم ٦١٧ هـ) ومعهم بعض رجال الدين وعلى رأسهم هنري رئيس أساقفة ميلان يرافقهم رسل من قبل الامبراطور الألماني فريدريك الثاني ، الذي كان يرى أن الظروف لم تعد مناسبة له لترك أوروبا في هذا الوقت واللحاق بالحملة في دمياط^(٢) . كما قدمت أيضا بعض الإمدادات من ألمانيا وفرنسا . هذا بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال الذي جمع في أوروبا لصالح الحملة ، وعززه البابا ببعض الأموال الأخرى من الخزانة البابوية^(٣) .

والمهم أن هذه القوات الغربية التي وصلت أخيراً أقرحت على المندوب البابوي الهجوم على القوات الإسلامية . غير أن الفرسان الموالين للملك جان دي برين عارضوا هذه الفكرة وأعلنوا أن الملك هو القائد الوحيد للحملة وتدين له كافة القوات الصليبية بالولاء ، وأنهم لا يستطيعون القيام بأى عملية عسكرية أثناء غيابه في عكا^(٤) . وهكذا فشل مشروع الهجوم على المسلمين لاختلاف آراء الصليبيين حول تنفيذه .

وفي أعقاب ذلك وصلت بعض الإمدادات الأخرى . فقد حضر في يوليو ١٢٢٠ م (جمادى الأولى ٦١٧ هـ) متى Mathew كونت أبوليا ومعه ثمان سفن أرسلها الامبراطور فريدريك . وحاول بلاجيوس مرة أخرى استغلال

Petre de Montacute, op. cit., p. 453.

(١)

Oliver of Podenborn, op. cit., p 61.

(٢)

Petre de Montacute Ibid.

(٣)

Oliver of Padenborn, Ibid.

(٤)

هذه القوات في الزحف تجاه القاهرة ، ولم توافقه هذه المرة القوات الفرنسية والإنجليزية والألمانية . وتمردت عليه في ذلك الوقت خاصة عندما اقترح تجميع حملة فرعية من القوات الصليبية تضم كافة الموالين له يتولى هو قيادتها ويتجه بها صوب القاهرة^(١) ، وهكذا فشل هذا المشروع أيضا في مهاجمة القوات الإسلامية .

ويبدو أن المندوب البابوي قد اكتفى بعد فشل المشروعين بأعداد مشروع للاغارة على البرلس . ففي يوليو من عام ١٢٢٠ م (جمادى الأولى ٦١٧ هـ) قام فرسان الطوائف الدينية العسكرية بالاغارة عليها ونهبها . ولكن هؤلاء الفرسان وقعوا في كمين أعدته القوات الإسلامية أثناء عودتهم . ووقع في الأسر عدد كبير من الفرسان منهم أحد مارشالات طائفة التيوتون^(٢) . ومن الملاحظ أن هذه الحادثة لم يرد ذكرها في المصادر العربية المعاصرة للحوادث - التي بين أيدينا - ولكنها وردت في بعض المصادر المتأخرة نسبيا ، واختلفت روايتها عما ذكرته المصادر الأجنبية . فقد ذكرت هذه المصادر أن الصليبيين أغاروا على البرلس في شهر رجب سنة ٦١٧ هـ (سبتمبر ١٢٢٠ م) وتمكن المسلمون من قتل عشرة آلاف من القوات المهاجمة كما إستولوا على خيول العدو وسلاحه وفر باقي المهزومين إلى دمياط^(٣) . ومما لا شك فيه أن ما أورده المؤرخون العرب عن قتل مثل هذا العدد أمر مبالغ فيه بصورة كبيرة جدا ، لا سيما أن البرلس لم تكن مكانا لتجميع القوات الإسلامية حتى تعد له القيادة الصليبية قوة قد تصل إلى أضعاف مثل ما قتل فيها ، لأنه من الناحية العملية لو تم الهجوم بعشرة آلاف صليبي وهو العدد الذي قتل بصرف النظر عن العائدين منهم لقضى مثل هذا العدد على البرلس وما فيها قضاء تاما .

Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 62-3

(١)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 65.

(٢)

(٣) النويري : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٢٨ ، أنا مخزومة : المصدر السابق ج ٥ ورقة ٨٢ ، ابن

العماد : المصدر السابق ج ٥ ص ٧٢ ، الحافظ الذهبي : المصدر السابق ج ٣ ص ٩٠ ،

المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٨ .

ومن الواضح أن القوات الصليبية لم تقم بأى عمل عسكري بعد سقوط دمياط سوى الإستيلاء على قلعة تنيس في نوفمبر ١٢١٩ م (رمضان ٦١٦ هـ) والإغارة على البرلس في يوليو عام ١٢٢٠ م (جمادى أولى ٦١٧ هـ) . ويبدو أن شبه الفراغ العسكري الذى عاش فيه الصليبيون منذ سقوط المدينة قد دفع بهم إلى حياة الفساد والفجور بعكس الحالة السابقة لسقوط المدينة^(١) . وقد صور جاك دى فترى هذه الحالة في خطاب أرسله إلى البابا هونوريوس الثالث في الثامن عشر من أبريل عام ١٢٢١ م (٢٣ صفر ٦١٦ هـ) سجل فيه الآثام وأعمال الغش والسرقة وقتل الصليبيين بعضهم البعض . كما صور أيضا إنتشار لعب الميسر في صفوف الصليبيين وصرف الأموال على الغانيات والحياة المزرية الفاسقة التى يعيشها رجال الحملة حتى أنهم أصبحوا يتردون من خطيئة إلى أخرى غير عابئين بقرارات الحرمان وغير محترمين لرجال الدين . وأضاف أن الصليبيين قد تفرغوا للسكر والعريضة وصورهم بأنهم أصبحوا مارقين ومجرمين وخونة وأنهم بهذه الأعمال يحطمون رسالة السيد المسيح^(٢)

كما ذكر أيضا أن القوات الإسلامية لم تكف عن إلحاق الأذى بالقوات الصليبية في كل الظروف التى أتاحت لها . وقال أن الملك الكامل شجع قواته بمنع المكافآت نظير كل أسير أو قتيل من الصليبيين . وعلى ذلك قامت القوات الإسلامية بنصب الكمائن للقوات الصليبية التى تخرج من المعسكر الصليبي لجمع الأخشاب أو الحبوب أو العليق أو صيد الأسماك . كما استطاع المسلمون أسر بعض القوات الصليبية بعد إصابة خيولهم بالسهم . ومن الحيل التى لجأ إليها المسلمون هو تظاهروهم بالإنسحاب عند مشاهدتهم بعض القوات الصليبية ، ثم يعودون ويطبقون على من يتبعهم من الفرسان الصليبية ويقبضون

Eracles op. cit., p. 348.

(١)

Yitry, op, cit., p. 139. Cit.,also: Oliver of Padenborn op. cit., pp. 54. 65.

عليهم . وأضاف أن المسلمين كانوا في غاية الحذر أثناء قيامهم بهذه العمليات ، فهم لا يهاجمون الصليبيين إلا إذا توفر لديهم العدد الكافي بحيث يضمنون نجاح المهمة التي يقومون بها^(١) .

ويبدو أيضا أنه خلال هذه الفترة التي أصيب فيها المعسكر الصليبي بالانحلال والتي تميزت بالهجمات الإسلامية الخاطفة على القوات الصليبية التي تباعد عن المعسكر الصليبي أن بعض القوات الصليبية هربت من المعسكر الصليبي وإتجهت إلى المسلمين ودخلت في الديانة الإسلامية ، وقد تجامل عليهم جاك دي فترى إلى حد كبير^(٢) . وليس ذلك بالغريب عن رجل دين مثله متعصب للحركة الصليبية ولديانته ومن الداعين إلى كثلثة العالم الإسلامي تحقيقا للفكرة الصليبية عن طريق الحركة التبشيرية .

وعلى أية حال فإن الملك الكامل ظل مرابطا للجهاد في المنصورة في تلك المرحلة الحرجة مستغلا حياة الخمول والكسل والتراخي التي كان يحياها الصليبيون أثناء وجودهم في دمياط ، وفاعلا كل ما في وسعه لوقف الزحف الصليبي على القاهرة^(٣) . وفي الوقت نفسه قام بجميع العساكر من كافة النواحي ما بين أسوان والقاهرة^(٤) : ولكي يشغل الصليبيين عن الخروج من دمياط حتى تكتمل قواته قام بوضع بعض السفن الإسلامية في بحيرة تنيس ، كما وضع الكثير من العربان والتركبول والفرسان حول دمياط لكي يقوموا بمناوشة القوات الصليبية ويشغلوها باستمرار . ومن الواضح أن الأعمال العسكرية ، سواء أكانت بحرية أم برية ، قد نجحت نجاحا كبيرا في تحقيق أهدافها وتمكن المسلمون خلالها من أسر عدد كبير من الصليبيين بلغ ثلاثة آلاف أسير من بينهم من أسروا في المعارك السابقة وذلك حسب تقدير المؤرخ جاك دي

Vitry, op cit., pp. 136-8

(١)

Vitry, op. cit., p. 198-9.

(٢)

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٣ ص ٩٨١ .

Hist. Patr. Alex., 265.

(٤)

كبير في دمياط لعدم إمكانها مواجهة القوات الإسلامية . لذلك بقيت خلف الأسوار وداخل الخنادق مكتفية بالدفاع عن نفسها وحراسة المدينة^(١) .

وقد أطمأن الصليبيون بعض الشيء عندما بلغت مسامعهم الأنباء التي أرسلها البابا هونوريوس الثالث ومفادها أن الإمبراطور فريديك أتى إلى روما في نوفمبر عام ١٢٢٠ م حيث قام البابا بتتويجه مع زوجته كونستانس Constance إمبراطورا على ألمانيا . وفي مقابل ذلك أكد فريديك وعده السابق في التوجه إلى الشرق ، وحدد ربيع عام ١٢٢١ م موعدا لرحيله . ورغم ذلك فإن البابا هونوريوس أصبح لا يثق في وعود الإمبراطور . لذلك نصح بلاجيوس بعدم رفض أى عرض يتقدم به الملك الكامل للصلح إلا بعد عرض الأمر عليه . ورغم شكوك البابا في وعود الإمبراطور ، إلا أن الصورة التي ظهر بها فريديك في الفترة اللاحقة كانت تبشر بخير وتوحى بأنه جاد في وعده خاصة بعد قيامه بتشجيع وحث رعاياه على اللحاق بالحملة وإرساله لويس دوق بافاريا في أوائل مايو على رأس قوة حربية كبيرة . وبالإضافة إلى هؤلاء فقد أتت إلى دمياط في عام ١٢٢٠ م (٦١٨ هـ) إمدادات كثيرة . وكان من بين القادمين الأسقف الألماني أولريخ Ulrich أسقف باسو Passau^(٢) كذلك عاد لدمياط هرمان فون سالزا رئيس هيئة الفرسان التيوتون ومعه خمسمائة من الفرسان . ويبدو أن هرمان قد رحل مع الملك جان دى برين إلى عكا ، وقد بشرت هذه القوات بقرب وصول الإمبراطور فريديك^(٣) . وبما تجدر الإشارة إليه أن الإمبراطور قد أمر لويس دوق بافاريا بعدم القيام بهجوم كبير على القوات الإسلامية حتى يلحق بنفسه بالجيش في دمياط^(٤) . وهكذا أخذت القوات الصليبية تتدفق على دمياط من كل فج عميق حتى أصبحت « دار هجرتهم »^(٥) ، متشجعين بامتلاك إخوانهم الصليبيين للمدينة « وتمكنهم من

(١) Vitry. op. cit., pp. 136-7 Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 67-8.

(٢) Oliver of Padenborn op. cit., p. 70, Chronique de l'ours p. 938.

(٣) Petre de Montacute, op. cit., p. 434.

(٤) Duggan, op, cit., p. 219.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٣١٣ .

الديار المصرية»^(١) ، وتزايد عددهم يوما بعد يوم^(٢) ، حتى أصبحت أعدادهم لا تحصى^(٣) .

وبعد وصول الإمدادات إلى دمياط على هذا النحو ، تشجع المندوب البابوي وقرر في أواخر يونيه عام ١٢٢١ م (أوائل جمادى الأول ٦١٨ هـ) الزحف صوب القاهرة ، وقد أيده في ذلك الصليبيون الجدد وعلى رأسهم لويس دوق بافاريا الذي كان يرى الإسراع في مهاجمة القوات الإسلامية قبل حلول موعد الفيضان متجاهلا بذلك تعليمات الامبراطور فريدريك ، كما أيده أيضا بطرس أف مونتاجو الذي عاد إلى دمياط ، بالاضافة إلى رئيس أساقفة ميلان والاساقفة الآخرين^(٤) . ويلاحظ أن هذا القرار اتخذ أثناء غياب الملك جان دي برين في عكا . وربما قصد المندوب البابوي من وراء ذلك أن يستحوذ على النصر - الذي افترضه مقدما للحملة - ليعلى به من شأنه وشأن الكنيسة اللاتينية باعتباره ممثلا لها^(٥) . ولكن القادة العسكريين عارضوا هذا الرأي وأصرروا على إرجاء الزحف تجاه القوات الإسلامية حتى حضور الملك الصليبي من عكا . وإزاء إصرار القادة على رأيهم إنصاع بلاجيوس لطلبهم وأرسل سفارة رسمية إلى الملك في عكا ليثبت حسن نيته للحملة وللكنيسة معا^(٦) . بينما يروى تاريخ هرقل أن نواب الملك الذين تركهم نيابة عنه في دمياط أثناء غيابه هم الذين أرسلوا إلى الملك يطلبون منه الحضور إلى دمياط^(٧) . والمهم ان الملك الصليبي لم يوافق على الحضور إلا بعد أن وعده بلاجيوس بمزيد

(١) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٢ .

(٢) Fabri, op, cit., Vol, 2, Part, I, p. 360

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق نفس الموضع .

(٤) Petre de Montacute, Letter to Martel, cf Roger of Wendover, op. cit., II, p. 437.

(٥) Eraeles, op. cit., p. 349.

(٦) Fabri, op. cit., Vol 2, Part I. p. 390 Donovan, op. cit., p. 85.

أنظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٨٠ .

(٧) Eraclss Ibid.

من السلطة على الجيش الصليبي في دمياط^(١) . وهذا يؤكد أن المندوب البابوي كان طرفاً في استدعاء الملك جان من عكا . وعلى أية حال ، فإن الملك الصليبي قد حزن حزناً شديداً عندما أبلغه الرسل باستعداد الجيش الصليبي للزحف تجاه القاهرة ، وأشار أن هذا التصرف سيعرض القوات الصليبية لمخافة خطرة تهدد بضياغ كل المكاسب التي حققتها الحملة حتى ذلك الوقت^(٢) . وكان على الملك ضرورة الحضور إلى دمياط حتى لا يتعرض للوم القيادة الصليبية والكنيسة^(٣) ، لأنه كان سيتعرض فعلاً لهذا اللوم سواء انتصرت الحملة أم انهزمت . ففي حالة الانتصار سيكون الفضل كله للمندوب البابوي ، وفي حالة الهزيمة ستلقى عليه المسؤولية باعتباره السبب في ذلك لعدم حضوره إلى دمياط . وعلى ذلك أعد الملك ثلاث سفن وأبحر بها من عكا إلى قبرص ومنها إلى دمياط^(٤) .

ولم ينتظر المندوب البابوي حتى يصل الملك الصليبي ، فأخذ يعد الجيش للقيام بعملية الهجوم على القوات الإسلامية المرابطة في المنصورة وأصبح الجيش الفرنجي على أهبة الاستعداد في التاسع والعشرين من يولية عام ١٢٢١ م (٧ جمادى الأولى ٦١٨ هـ)^(٥) . وتحركت القوات الصليبية من دمياط إلى معسكرها الكائن خارج المدينة (العادلية) استعداداً للتقدم جنوب دمياط بحذاء النيل . واستعمل بلاجيوس سلطته والتهديد بقرار الحرمان في تنفيذ هذه التحركات^(٦) . وظل الجيش الصليبي خارج دمياط أربعة أيام في إنتظار وصول الملك جان دي برين^(٧) . ولكي يعد المندوب البابوي الجيش روحياً للمعركة

(١) Archee, & Kingsford, op. cit., p. 578

(٢) Grousset, op. cit., III. p. 236.

(٣) Fabri, Ibid.

انظر أيضاً : سيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق نفس الموضع

(٤) Petre de Montacute, op. cit., p. 487, cf, also: Eracles, op. cit., p 349

(٥) Rohrichr, Geohichte des Konigreichs Jerusalem, p. 747.

(٦) Eracles, Ibid.

(٧) Eracles, op. cit., p. 350.

القادمة أمر في السادس من يوليو ١٢٢١ م (١٤ جمادى الأولى ٦١٨ هـ)
بالصيام لمدة ثلاثة أيام ، ولم يلبث أن وصل الملك الصليبي في السابع من نفس
الشهر^(١) . وبوصول الملك بدأ الصراع مرة أخرى بينه وبين القاصد الرسولي
وهو ما كان متوقعا من قبل لاختلاف وجهات النظر حول فكرة التقدم جنوبا
إلى القاهرة وللحق الدفين بين الطرفين بسبب الصراع على السلطة .

ومهما يكن الأمر ، فإن القيادة الصليبية عقدت مجلس الحرب للتشاور في
الأمر ، وأصر المندوب البابوي على الزحف صوب القاهرة^(٢) . فقد كان يرى
أن تحطيم القوة الإسلامية لا يتم إلا بالاستيلاء على القاهرة والقضاء على قوات
مصر العسكرية . فمصر هي التي تمد العالم الإسلامي خاصة الشام بالمال
والسلاح وأن سقوط مصر سيقضي على كافة القوى الإسلامية الأخرى . هذا
بالإضافة إلى أنه كان يرى أن القوات الصليبية متحمسة جداً لهذه العملية أكثر
من أى وقت مضى وأن ضياع هذه الفرصة يعتبر خيانة للحركة الصليبية ، كما
كان يرى أن الهزائم التي لحقت بالمسلمين ستساعد الجيش الصليبي على النجاح
في مهمته ، وساند الأساقفة والوعاظ وكافة رجال الدين اقتراح المندوب
البابوي^(٣) .

وفي الوقت نفسه عارض الملك الصليبي فكرة الهجوم على المسلمين ، وكان
يرى إنتظار وصول الأمبراطور فريديريك^(٤) ، وكان يرى أيضا أن الوقت لم يعد
مناسبا للقيام بهذه العملية بعد أن لاحت البشائر بفيضان النيل ، وأن ذلك
سيجعل من المتعذر على الصليبيين الاتصال بقواتهم في دمياط سواء عن طريق
البحر أو البحر بعد مغادرة المدينة جنوبا صوب العاصمة^(٥) . وفي هذا المجلس

(١) Philip de Albeney, \Lettre to Lalph Earl of Chester cf, Roger to Wendover, op. cit., II. p. 435.

Oliver or Radendorf, op. cit., pp. 70-1.

Michaud, pp. cit., II, p. 254.

Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriss. p. 207.

Fabri, op. cit., Vol, 2, part I p. 306.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

حمل الملك الصليبي الذين ينادون بالزحف مسئولية النتائج المترتبة على ذلك . كما أشار أنه بعد الانتصار على المسلمين سيصبح من الصعب عليهم الاحتفاظ بالأراضي التي سيستولون عليها لأن الصليبيين تواقين للعودة إلى أوطانهم وليس إلى البقاء بمصر . وأضاف أنه ليس من المهم أن تنصر القوات الصليبية في معركة ، فالصليبيون يحاربون الأمة الإسلامية بأسرها وهي مستعدة للتضحية بدمائها في سبيل النصر ، وأنه بوسعها القضاء على الصليبيين إذا تركتهم فريسة للأمراض والأرهاق والخلافات التي كانت تمزقهم والقلق النفسي الذي كانوا يعيشون فيه فضلاً عن جو مصر الحار الذي لم يتعودوا عليه ، وبذلك تضيع كل الجهود الصليبية هباء . كما أنه أشار إلى نقطة هامة تحوى فلسفة الحركة الصليبية لا من الوجهة العملية بل من الوجهة النظرية ، عندما أعلن جان دي برين أن القوات الصليبية لم تتجمع تحت راية الصليب لغزو مصر بل من أجل إستعادة بيت المقدس ، وأن الاستيلاء على دمياط وتيس قد حقق لها هذه الغاية وكان عليها قبول عرض الملك الكامل بالصلح واستعادة الأرض المقدسة قبل التفكير في غزو أراضي ليس من المؤكد أنه أصبح في أيديهم^(١) . والواضح أنه بالرغم من السمة الدينية التي اتسمت بها الحملة الصليبية ، فقد كانت الاتجاهات الاستعمارية واضحة فيها شأنها في ذلك شأن زميلاتها من الحملات الصليبية الأخرى وهو أمر لا يمكن إغفاله عند التعرض للحركة الصليبية ودوافعها .

والمهم أن المندوب البابوي أصر على الزحف جنوباً إلى القاهرة ورفض كل الحجج التي نادى بها الملك الصليبي^(٢) ، مستغلاً حماس القوات الصليبية التي أتت أخيراً من أوروبا^(٣) . وغضب من معارضة الملك رغم سلامة الآراء التي نادى بها والتي أظهرت بجلاء حكمته في ذلك الموقف العصيب الذي تعثرت فيه الآراء الصليبية^(٤) . وفي الواقع كان الأولى أن تصدر مثل هذه الآراء عن

Michaud, op. cit., II. pp. 254-5.

(١)

Chronique de Tours, p. 938

(٢)

Stevenson, op. cit., p. 305.

(٣)

Fabri, op. cit., Vol. 2. part. I. p. 36.

(٤)

قَدرتها بحوالى ستة وأربعين ألفاً^(١) . وعلى أية حال ، قامت القيادة الصليبية بتزويد السفن من الجهة المقابلة للضفة الغربية لدمياط بالسناثر ، حتى تكون فى مأمن من الهجمات الإسلامية فى هذا الجانب^(٢) . وبهذا التكوين تقدمت القوات الصليبية فى حدها وحديدها من دمياط جنوباً فى النيل وبمحاذاة الشاطئء للتوغل فى ديار مصر^(٣) . ووافق ذلك اليوم السابع عشر من شهر يوليو عام ١٢٢١ م (٢٥ جمادى الأولى هـ) ووصلت إلى فارسكور فى اليوم التالى^(٤) .

ولما علم الملك الكامل بتحرك هذه القوات زحف بدوره شمالاً فعبّر بحر أشموم وتقدم نحو شار مساح ، غير أنه رجع ثانية إلى معسكره الحصين فى المنصورة واختار أن يجعل منه محور الارتكاز لجميع خططه المقبلة^(٥) . وعلى هذا النحو وجد الصليبيون الطريق مفتوحاً أمامهم ولم يعترض طريقهم سوى بعض المناوشات الخفيفة ، فوصلوا إلى شار مساح واستولوا عليها فى الرابع والعشرين من نفس الشهر (٢ جمادى الآخرة ٦١٨ هـ) وكانت خراباً^(٦) .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد ما ذكره تاريخ بطارقة الاسكندرية أنه عندما وصلت القوات الصليبية إلى شار مساح عرض الملك جان دى برين على المندوب البابوى البقاء فى هذه المنطقة بقية عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) يقوم الصليبيون خلالها بتحسين المكان، وزراعة المنطقة الشمالية حتى دمياط فى الوقت الذى يقوم فيه الأسطول بحراسة المنطقة من شارمساح حتى دمياط حراسة قوية ، خاصة وأن القوات الإسلامية كانت ضعيفة فى تلك الفترة ، كما أنه سيكون بوسع الصليبيين إستقبال النجديات التى تفد اليهم من الغرب . ثم أن

(١) Philip de Albeney, op. cit., p. 436.

(٢) Setton, op. cit., II. p. 424.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٤ . أنظر أيضاً :

(٤) Petre de Montacute, op. cit., p. 407 Oliver of Padenborn, Ibid

(٥) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥١ .

(٦) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 74.

مصر في الوقت نفسه ليست بعيدة عن الصليبيين إلا بمسافة يومين فقط . ولكن المندوب البابوي كعادته لم يوافق على هذا الاقتراح أيضا واتهم الملك الصليبي بالخيانة . كما أنه كان يرى إذ لم يتم الاستيلاء على مصر في ذلك الوقت فسوف لا يمكن الاستيلاء عليها بعد ذلك إطلاقا^(١) وأخاف تاريخ البطارقة أن الملك عندما رأى مصب بحر المحلة^(٢) ، أبلغ المندوب البابوي^(٣) أن هذا البحر خطير جدا ويجب حراسته باحدى السفن الكبيرة . وأشار عليه أيضا أنه يجب وضع عشرة سفن في هذه المنطقة لصد سفن المسلمين إذا قدمت من هذا الفرع ، وبذلك يمكن إتقاء أى هجوم إسلامي على مؤخرة السفن والجيش الصليبي . ولكن القاصد الرسول لم يلق اعتبارا لكلمات الملك جان دي برين ، ورغم ذلك فإن الملك الصليبي لم يمانع في استمرار مسيرة الحملة على مسئولية بلاجيوس وتحميله كافة النتائج التي تترتب على هذه المغامرة^(٤) . وربما يرجع تجاهل ممثل البابا والقيادات الصليبية في الحملة لأهم نصيحة وجهت اليهم وهي حراسة مصب بحر المحلة ، إلى اعتقادهم بأن بحر المحلة لا يصلح للملاحة^(٥) . وأن دل ذلك على شيء فأنما يدل على جهل ممثل البابا ومن ساندوه بطبوغرافية البلاد المصرية وطبيعة أرضها ، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية في هزيمة

(١) بحر المحلة ، يخرج بحر المحلة من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطلي الواقعة في منتصف الطريق بين مليج والجعفرية . وبحر بقرية الهيم التي يسميها الادريسي محلة الى الهيم ثم يلقبها حيث تتفرع الترع المعروفة بهذا الاسم فالحملة الكبرى إلى أن تتصل بالنيل عند قرية شار مساح . أنظر : ابن ماق : المصدر السابق ص ٢١٨ ، ٢٢١ . راجع أيضا :

Omar, Tousson, Memoire sur L'Histoire du Nil, I, pp. 170-1, 176-7, 203-4.

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ١٩١ حاشية (١) . انظر أيضا الخريطة رقم (٦) .

(٢) يتضح من هذه العبارة أن القيادة العسكرية للحملة كانت في يد المندوب البابوي وليست في يد الملك الصليبي ولو كانت القيادة في يد الملك لتصرف على ضوء ما رآه بطبيعة الحال .

Hist Patr. Alex. pp 259-266. (٣)

Oliver of Padendorf, op. cit., p. 81. (٤)

الحملة^(١) .

وازاء|صلف المندوب البابوى تقدم الفرنج حسب الخطة التى رسمها حتى وصلوا إلى طرف جزيرة دمياط^(٢) . فى الرابع والعشرين من يوليو (٢ جمادى الآخرة) وأقاموا معسكرهم فى هذا المكان^(٣) ، دون مقاومة تذكر^(٤) .

ولما علم الملك الكامل الذى كان لا يزال مرابطا فى المنصورة بخروج القوات الصليبية من دمياط على هذا النحو ، بعد أن زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر ويستولوا منها « على ممالك البسيطة كلها »^(٥) ، قام بجمع الناس من القاهرة إلى أسوان ، وتولى هذه المهمة الأمير حسام الدين يونس والى الاسكندرية والفقير تقي الدين طاهر الحلى ، كما قام الأمير علاء الدين جلدك والأمير جمال الدين بن صيرم بجمع الناس من المنطقة الواقعة بين القاهرة والحواف الشرقى^(٦) ، فتجمع من الجنود أعداد كبيرة ولم يبق غير الشيوخ

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٧ . أنظر أيضا :

Setton, op. cit., II. p. 44.

Petre de Montacute op. cit., p. 747. (٢)

وجزيرة دمياط : هى المنطقة التى تقع بين فرع دمياط وبحر اشموم وهذان الفرعان كانا يتقابلان عند مدينة المنصورة على شكل مثلث رأسه المدينة المذكورة وقاعدته بحيرة تليس . انظر : أبو الحسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣١ حاشية (٣) . أنظر أيضا : الخريطة رقم (٧) .

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 74. (٣)

Rohricht, op. cit., p. 747. (٤)

المقرىزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٣ . (٥)

(٦) الحواف الشرقى ، قسم العرب بعد فتحهم مصر ، أرض دلتاه اداريا إلى قسمين ، وهما الحواف الشرقى والريف وكان الحواف الشرقى يمثل جميع الاراضى الواقعة شرق فرع دمياط ، من عين شمس إلى دمياط والفرما . وكان الريف عبارة عن بقية أرض الدلتا إلى الاسكندرية . ثم عدل ذلك التقسيم فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وصارت أراضى دلتا النيل ثلاثة أقسام ، وهى الحواف الشرقى ، والحواف الغربى ، وبطن الريف . وكان الحواف الشرقى عبارة عن الحواف القديم ، ما خلا الاراضى الواقعة شمالى بحر أى صير ، والحواف الغربى هو الاراضى الواقعة غرب فرع رشيد ويشمل أيضا أراضى رشيد وشباس وصا ، الواقعة شرق هذا الفرع . أما بقية الاراضى الواقعة بين فرعى النيل وكذلك الواقعة شمال بحر أى صير ، فسميت ببطن الريف ، وظل هذا =

والأطفال والنساء^(١) .

هكذا استعدت الجبهة المصرية بكافة إمكاناتها لمواجهة الزحف الصليبي . أما الجبهة الشامية وما في شرقها فكانت لا تقل هي الأخرى نشاطا من قبل ذلك في جمع العساكر لنجدة الملك الكامل واستخلاص مصر من أيدي الغزاة ، ففي الواقع كانت كتب الملك الكامل تكاد لا تنقطع إلى أهل بيته يستحثهم فيها على انجاده . وقد قام الملك المعظم بنشاط ملحوظ في هذا الوقت ، فقد كان « مصيفا لأخيه الكامل » ، كما أنه كان من أحرص الناس « على خلاص دمياط »^(٢) . فبعد أن اجتمعت العساكر في حران قادما المعظم تجاه حمص والملك الأشرف في إثره . وفي الوقت نفسه قام المؤرخ ابن الجوزي بمجهود كبير في سبيل جمع العساكر الإسلامية والتقى مع الملك المعظم في حمص ومعه الملك الأشرف . ومن الملاحظ أن الملك الأشرف كان مقصرا في حق أخيه الكامل . لذلك سار مع ابن الجوزي « وهو كاره » ، وابن الجوزي يعاتبه على تقصيره في حق أخيه وتمكن من إزالة مخاوفه واستراح وفرح المعظم بقاء أخيه الأشرف وتشاورا فيما يجب عمله ، فاتفقا على القسوم إلى مصر^(٣) . وعلى ذلك بدأت الاستعدادات بهم في المسير إلى القاهرة في أول جمادى الآخرة ٦١٨ هـ (٢٣ يوليو ١٢٢١)^(٤) .

== التقسيم حتى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ثم تغير ذلك كله إلى ما يشبه الأقسام الإدارية الحالية . انظر : المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٢ حاشية (٢) ، القلقشندي : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

Hist. Patr. Alex., P.236

(١)

انظر أيضا : المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٢ .

(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٤ ، هـذا وقد أشار بعض خواص الملك الأشرف عليه

بارسال العساكر إلى مصر والعودة إلى بلاده خوفا من اختلاف يحدث بعده ، فلم يقبل قولهم

وقال : « قد خرجت بنية الجهاد ولا بد من إتمام هذا العزم » انظر : ابن واصل : المصدر السابق

ج ٤ ص ٩٣ .

(٤) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦١٩ - ٦٢٠ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦

ص ٢٣٨ - ٢٤١ :

وفي الوقت المناسب وصلت هذه الإمدادات إلى المنصورة يتقدمها الملك الأشرف موسى وفي مؤخرتها الملك المعظم عيسى وبينهما بقية الملوك وهم الملك الناصر قليج إرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماه^(١) والمجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والأجد بهرام شاه صاحب بعلبك^(٢) ولما علم الملك الكامل بوصولهم خرج لاستقبالهم « وسر سرورا عظيما » ، وأيقن بحصول النصر والظفر بالعدو^(٣) ، وبادر بأكرام أخوته وآل البيت الأيوبي ومن معهم ، وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفوس الفرنج بما شاهدوه من كثرة العساكر وتجمعهم^(٤) : ونزل الجميع في خدمة الملك الكامل بالمنصورة . ويقدر المقرئى عدد الفرسان المسلمين الذين قدموا للنجدة بحوالى أربعين ألفا^(٥) . وما تجدر الإشارة إليه أن تحركات هذه القوات في الشام لم تكن خافية على الصليبيين فان الملكة أليس^(٦) Alice الوصية على عرض قبرص قد أبلغت المندوب البابوي أن الملك المعظم والأشرف يقومان بجمع جيش كبير من القوات الإسلامية في الشام^(٧) ، وكانت هذه الأخبار من العوامل التي تذرع بها بلاجيوس للاسراع بالزحف تجاه القاهرة^(٨) .

(١) يلاحظ أن الملك المنصور توفى في ذي القعدة عام ٦١٧ هـ وكان ابنه الأكبر الملك المظفر تقي الدين محمود في معسكر نجاله الملك الكامل بالمنصورة في مقاتلة الفرنج ، فقام بمملكة حلب الملك الناصر وكان عمره ببيع عشرة سنة انظر : المقرئى المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٥ .
(٢) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٨ .
(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٤ - ٩٥ . أنظر أيضا :
Hist. patr. Alex., p. 256.

(٤) العيني : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٤١٨ .
(٥) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ .
(٦) هي زوجة الملك هيو ملك قبرص الذي توفى عام ١٢١٨ م وابنه هنرى كونت شامبالي واخت ماريا زوجة الملك جان دي برين السابقة وتولت الوصاية على ابنها هنرى الأول ملك قبرص .
انظر عن ذلك : Runciman, op. cit., III, p. 157.

(٧) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 82-3
(٨) Setton. op. cit., II. p. 42.

والمهم أن القوات الإسلامية اجتمعت في مواجهة القوات الصليبية لا يفصل بينهما سوى بحر أشموم ، وكل من الفريقين أصبح في غاية الاستعداد للدخول في معركة فاصلة مع الفريق الآخر بأمل الانتصار في هذه المعركة^(١) . فالقوات الصليبية قد اجتمعت للزحف تجاه القاهرة للاستيلاء على مصر ومن بعدها السيطرة على الأراضي المقدسة فالشرق الأدنى الإسلامي كله ، بينما اختلف الهدف الذي اجتمعت من أجله العساكر الإسلامية . فهي لم تجتمع بغرض الغزو أو الاستيلاء أو السيطرة على أراضي الصليبيين ، وإنما اجتمعت بغرض طرد الصليبيين من مصر وتحرير أراضيها من عبث الطارق الدخيل ومن ذلك يتضح الاختلاف البين بين الهدفين .

ورغم اجتماع القوات الإسلامية لتحقيق هذا الهدف واستبشار القادة المسلمين بالنصر بعد ما اكتملت عساكرهم ، فإن الملك الكامل كان يكره المخاطرة والدخول في معركة ربما لا تحمد عقباها . فقد كان يخشى نجاح القوات الصليبية في كسر قواته المرابطة في المنصورة ، وبذلك يصبح الطريق مفتوحا أمام الفرنج إلى القاهرة ، لذلك تقدم الملك الكامل بعرض آخر للصلح ، وكان العرض الأخير على الصليبيين . وذكرت المصادر العربية أن الكامل تقدم بالصلح أثناء اشتباكات القوات الإسلامية مع القوات الصليبية دون تحديد لتاريخ هذا العرض^(٢) . وأخذت بهذه الرواية بعض المراجع الأجنبية^(٣) في حين حددته بعض المراجع الأجنبية أيضا بشهر يونية ١٢٢١ م (ربيع ثالي ٦١٨ هـ)^(٤) ، في حين حددته مصادر أجنبية أخرى بالوقت الذي وصل فيه الملك جان دي برين إلى دمياط عائداً من عكا في أوائل يوليو (منتصف جمادى الأولى)^(٥) . أما أوليفر أف بادنبورن فقد تحدث عن هذا الصلح بإيجاز شديد

(١) Philip de Albeney, op. cit., p. 436.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٣ ق ٢١٤ ص ٢١٥ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٥ ، المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٣) King, pp. cit., p. 169/Michaud op. cit., II p. 207

(٤) Runciman op cit., II. p. 166.

(٥) Grousset. op. cit., III p. 235. Lamb p. cit., p. 348

وأورد ذكره قبل أحداث الثامن عشر من أغسطس ١٢٢١ م^(١) (٢٧ جمادى الثاني ٦١٨ هـ) . ويمكن القول أن الكامل عرض الصلح على الصليبيين في الفترة التي تقع بعد تحركهم من دمياط السابع عشر من يوليو وقبل الثامن عشر من أغسطس . والأرجح أن الكامل عرض الصلح على الصليبيين بعد استيلائهم على شار مساح (الرابع والعشرين من يوليو) .

وعلى أية حال لم يختلف عرض الصلح في جوهره هذه المرة عن المرات السابقة فقد عرض عليهم صليب الصليبوت^(٢) ، ومدينة بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجيله واللاذقية وجميع الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك في مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط ، ولكنهم رفضوا ذلك وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب المدينة المقدسة لإعادة تعميرها بالإضافة إلى الكرك^(٣) والشوبك^(٤) ، ويروى المقرئى^(٥) إنهم طلبوا خمسمائة ألف دينار لا ثلاثمائة ألف^(٦) . ولذلك لم يتم الاتفاق بين الطرفين لتعنت الصليبيين العظيم^(٦) ، وعلى رأسهم المندوب الباهوى بلاجيوس وموقفه المضاد من موقف الملك جان دى برين الذى كان يرى الموافقة على قبول العرض الإسلامى .

وربما كان هذا الموقف المتشدد من قبل المندوب الباهوى من هذا العرض بالذات بالإضافة إلى تحججه السابقة ، أن هذا العرض قد عرض على الصليبيين في وقت كان في غاية الحرج بالنسبة لهم وهو الوقت الذى تلا معركة أغسطس ١٢١٩ م بصرف النظر عن العرض الذى تلا مؤامرة ابن المشطوب والعرض

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 84.

(٢) Campbell, pp. cit., p. 388.

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٤) العيني : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٤١٨ - ٤١٩ .

(٥) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٦) ابن ابيك : المصدر السابق ج ٩ ورقة ١٩٤ .

الذى سبق سقوط دمياط . وإذا كان الصليبيون قد رفضوا كل هذه العروض السابقة وهم في موقف أضعف نسبيا من موقفهم في هذا الوقت من ناحية القوة العسكرية ، فلم يكن بالغريب عليهم أن يرفضوا هذا العرض أيضاً ، خاصة وأن الأخبار التى حملتها الإمدادات الصليبية التى قدمت في مايو السابق قد أفادت بقرب وصول الامبراطور فريدريك^(١) . أضف إلى هذا أن القوات الصليبية وهى مرابطة في هذا الموضع قبالة الجيش الإسلامى ، أصبحت محمية بالخلفية الصليبية المتمركزة في دمياط . وهكذا تصور الصليبيون أنهم أصبحوا في أوج قوتهم وأن دفعهم عن دمياط والأراضى التى إستولوا عليها يحتاج إلى جهد عظيم ليس في مقدور القوات الإسلامية القيام به في هذا الوقت^(٢) . ومما لا شك فيه أن رفض العرض يرجع إلى بلاجيوس شخصيا الذى إزداد زهوا وعنادا وغرورا^(٣) ، وتناسى تعليمات البابا هونوريوس الخاصة بعدم رفض أى عرض للمصلح إلا بعد الرجوع اليه شخصياً في هذا الأمر^(٤) والمهم أن رفض هذا العرض قد أضاع على الصليبيين آخر فرصة لاستعادة مملكة بيت المقدس ومحو آثار معركة حطين^(٥) .

ولا يعنى تقدم الكامل بالمصلح أنه لم يكن مستعدا للحرب ، فانه بفضل الإمدادات التى وصلت اليه وبقية الإمدادات التى كانت لا تزال تصل تباعا إلى المنصورة ، تكاملت هيئة القوات الإسلامية^(٦) ، وأصبحت مستعدة لنزال القوات الصليبية برا وبحرا وخوض معركة تحرير الأراضى المصرية من الأجانب الدخلاء .

ويتضح من دراسة الأوضاع العسكرية للقوات الإسلامية والصليبية ومن

(١) Oliver of Padenborn, op cit., p. 70

(٢) Setten op. cit, II. p. 423.

(٣) Rohricht, Geschichte der Kretzzuge im Umriss p. 20

(٤) Oliver of Padenborn op. cit., p. 83.

(٥) محمد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٨١ .

(٦) المقرئى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

الأحوال الداخلية في المعسكرين أن المعسكر الإسلامي كان وقتها أحسن حالا
كمًا وجمعًا وروحًا معنوية . فالمعسكر الكاملى مسيطر على ضفتى النيل من
القاهرة حتى المنصورة بما فى ذلك جوجر وطلخا متحصنين وراء بحر أشموم ،
كما أن الأراضى التى ستدور عليها رحى الحرب ذات قنوات وبرك كثيرة تعرفها
القوات الأيوبية ولا يعرفها الصليبيون خاصة بعد أن لاحت بشائر الفيضان .
أضف إلى هذا أن الجيش المصرى أصبح خاليا من المؤامرات والدسائس التى
أقلقت الملك الكامل من قبل ، كما أن أبناء البيت الأيوئى جاءوا إلى مصر على
رأس قواتهم فى حماسة ظاهرة^(١) ، لا هدف لهم جميعا إلا الجهاد وطرده
الصليبيين .

أما الصليبيون فقد اكتفوا بأحاطة معسكرهم بالخنادق والأسوار وظلوا ما
يقرب من شهر فى هذه البقعة^(٢) ، وهم يرمون العساكر الإسلامية بالمنجنيق
والجروح معتقدين أنهم منتصرون على المسلمين لا محالة^(٣) . وأن هذا الغرور
الذى إثاب القيادة الصليبية دفعها إلى عدم اصطحاب المؤن التى تحتاجها
القوات الصليبية إلا لعدة أيام فقط ، وقد اعتقد الفرنج أنهم سوف لا يلاقون أية
مقاومة من العساكر الإسلامية ، وأن الطريق إلى القاهرة سيكون مفتوحا
أمامهم ، وأنهم سيسيطرون على كافة المدن والقرى التى فى طريقهم دون
صعوبة ويتمكنون من تزويد الجيش الصليبي باحتياجاته من المؤن^(٤) .

وعلى أية حال ، فقد ظل بلاجيوس^(٥) يعد جنوده بالنصر على المسلمين طوال
هذه الفترة فى الوقت الذى كان يلزم فيه خيمته فى حالة من الخمول ، مما دفع
بعض القوات الصليبية التى ملت هذا الوضع - الذى خلا من الالتحام المباشر
بين الطرفين - العودة إلى دمياط^(٥) . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية وبطرس

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٧ .

Lamb, op. cit., p. 246.

Ecacles, op. cit., p. 650.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٥ .

Michaud, op. cit., II, pp. 257-8.

(٥)

أف مونتاجو رئيس الفرسان الداوية في أحد خطابه أنه القوات العائدة بلغت أكثر من عشرة آلاف صليبي . ولم يبق إلى جانب بلاجيوس إلا من اعتقدوا أن حالة الركود سوف لا تستمر طويلاً^(١) ، ولو علموا بما تخطط له القيادة الإسلامية لعادوا مثلما عاد أخوانهم إلى دمياط .

وان كان ذلك هو ما انتهى إليه حال المعسكر الصليبي فان الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف ظلوا طوال هذه الفترة وهم يتدارسون مواقع القوات الصليبية وتحركاتها سواء أكانت برية أم بحرية ، فضلاً عن معرفتهم التامة بطبوغرافية البلاد المصرية . وفي نهاية الأمر إستقر رأيهم على إرسال بعض قطع الأسطول المصري في بحر المحلة لضرب مؤخرة السفن الصليبية^(٢) ، بقصد قطع خطوط المواصلات البحرية - التي تعتمد عليها القوات الصليبية المتمركزة في دمياط . وهكذا سارت السفن الإسلامية ومعها حراقة كبيرة عليها الأمير بدر الدين حسون إلى رأس بحر المحلة لمواجهة لشارمساح^(٣) .

وتقابلت مع السفن الصليبية ، « وقاتلوا الفرنج »^(٤) . وفي الوقت نفسه تقدمت شواني المسلمين في فرع دمياط واشتبكت مع السفن الصليبية المتقدمة الراسية بحذاء المعسكر الصليبي شمالي المنصورة ، وتمكنت البحرية الإسلامية من أسر ثلاث قطع من سفن الصليبيين بمن فيها من الرجال والمؤن والسلاح والأموال ففرح المسلمون بهذا النصر « واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم »^(٥) .

وتشجع المسلمون بهذا النصر وصدرت الأوامر بضرب إياقي السفن الصليبية

(١) Hist., Patr Alex., p. 257. Petre de Montacute, op, cit., p. 437.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٥ .

(٣) النويري : المصدر السابق ٢٧ لوحة ٢٨ .

(٤) المقرئزي : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٦ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ق ١ ص ٢١٤ ، وابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص نفس الصفحة .

الراسية بين المقدمة والمؤخرة ، ونجح المسلمون في تشتيتها بعد أن أتت النار الأغريقية على بعضها ، فسيطر الرعب على الصليبيين^(١). ويروى كل من ابن الاثير وابن واصل أنه حتى ذلك الوقت كانت الرسل مترددة في تقرير قواعد الصلح بين المسلمين والصليبيين الذي لم يتم ، فاضطر المسلمون إلى « قتالهم ومصابتهم »^(٢).

والمهم أن الملك الكامل نجح في وضع قواته خلف مؤخرة الأسطول الصليبي ، وحال بينهم وبين دمياط . كما أصبح من المتعذر على السفن الصليبية الباقية التي تصاحب الجيش البري أن تتعامل مع البحرية الإسلامية لا من المقدمة ولا من المؤخرة بعد ما أصابتها سفن المسلمين بالشلل^(٣). ويسجل تاريخ هرقل ما كانت عليه البحرية الصليبية في هذا الوقت قائلا أن السفن الصليبية لم يكن باستطاعتها الابحار من دمياط إلى المعسكر الصليبي لأن المسلمين أتوا بسفنهم عن طريق فرع رشيد ودخلوا بها في نهر النيل عن طريق فرع دمياط^(٤). هذا ، وإن كان مارواه تاريخ هرقل يصور عجز السفن الصليبية الراسية أمام دمياط من إمداد الفرنج المعسكرين شمالى بحر أشموم ، فانه في الوقت نفسه يشير إلى عدم المعرفة بـجغرافية البلاد المصرية ، لأن إحصار السفن من فرع رشيد إلى فرع دمياط يتطلب الدخول في معركة بحرية مع بقية السفن الصليبية - التي أشار إليها - الراسية أمام مدينة دمياط وهو الذي لم يحدث ولم يشر إليه تاريخ هرقل أو المصادر الأخرى سواء أكانت عربية أم أجنبية .

وقامت البحرية المصرية بدور حاسم في هذه المرحلة ، ونجحت أيضا في

Michaud, op. cit., II. p. 258

(١)

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣١٤ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٥ .

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤١ أنظر أيضا .

(٤) Hist. patr. Alex., pp. 235- 7, Setton op. cit., II. p. 426. Lamb. op. cit. 249.

Eracles op. cit., p. 320.

(٤)

أسر ست شوانى بالاضافة إلى جلاسة^(١) وبطسة . كما دخلت السفن الإسلامية في معركة بحرية مع مرمة عظيمة من مرمات الصليبيين المحاطة بعدة حراقات لحمايتها ، وكانت جميعها مملوءة بالمتون والسلاح وكل ما يحتاجون اليه ، وتمكنت شوانى المسلمين من قتال رجالها واستولت على المرمة الصليبية وعلى ما حولها من الحراقات . وعند ذلك أدرك الصليبيون أنهم يسرون في أرض يجهلون ويجهلون جغرافيتها وطبيعتها^(٢) وفي السابع والعشرين من جمادى الآخر ٦١٨ هـ (١٨ أغسطس ١٢٢١ م) أيقن الصليبيون أن خط الرجعة قد قطع على سفنهم بعد ما تمكنت البحرية الإسلامية من إغراق أو الاستيلاء على من حاول -- مما تبقى من السفن -- العودة إلى دمياط^(٣) .

أما عن الاشتباكات البرية ، فإن الصليبيين حاولوا عبور بحر أشموم لملاقاة المسلمين ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل بفعل المنجنقات الإسلامية المقامة في معسكر المسلمين بالمنصورة^(٤) . ومن جانب آخر فإن الملك الكامل تمكن من إرسال بعض القوات الإسلامية عبر بحر أشموم . وقد استطاعت هذه القوات من تنظيم نفسها قرب بحيرة تنيس وسيطرت على شمالي المنطقة التي تعسكر فيها القوات الصليبية وقامت بمهاجمتها من الخلف^(٥) . وهكذا تشتت جهود الصليبيين بين القوتين ، في الوقت الذي كرس فيه العامة أنفسهم لإزعاج القوات الصليبية في مواقعها ، فكانوا « يكرون على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر »^(٦) . وإن دل ذلك على شيء فأنما يدل على تكاتف المصريين

(١) الجلاسة ، أصلها كلمة Galleasse وهي عبارة عن سفينة بحرية كبيرة تسير بالشرع والمجداف معا ، وهي أثقل وأقوى أنواع سفن الشينى . سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٢٨ ، محمد بس الحموى : تاريخ الأسطول العربى ص ٣٨ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٥ . ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٦ ، ابن أبيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٥٥ .

(٣) Oliver of Padernborn, op. cit., pp. 83-4. (٣)

Lamb, op. cit., p. 249. (٤)

Hist., Patr. Alex. p. 249. (٥)

(٦) المقرئى : المصدر السابق ج ١ فى ١ ص ٢٠٦ . (٦)

جيشاً وشعباً لدفع الخطر الذى يهدد بلادهم والعمل يداً واحدة وصفا واحداً على تحرير أراضيهم .

وبعد أن نفذ الملك الكامل خطته فى التصدى للقوات الصليبية من معسكره فى المنصورة وقطع خط الرجعة على الفرنج بتحطيم قوتهم البحرية ، بالإضافة إلى محاصرتهم بقواته البرية فى المنطقة الشمالية لمعسكرهم إختار الوقت المناسب لتوجيه ضربه القاصمة مستغلاً فيضان النيل الذى « كان عالياً »^(١) إذ كان وقت فيضان النيل ، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر^(٢) فقد أمر الملك الكامل طائفة من العساكر الإسلامية بالعبور إلى الأراضى التى يعسكر عليها الصليبيون « ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض » . وهكذا سدت جميع الطرق أمام الصليبيين من أمامهم وخلفهم ولم يبق لهم جهة يسلكونها إلا جهة واحدة وهى الشريط الضيق الملاصق للنيل ويمتد من معسكرهم شمالاً حتى دمياط . وأدرك الملك الكامل ذلك فأمر بنصب الجسور فوراً على النيل عند أشموم طناح ، وعبرت القوات الإسلامية هذه الجسور وسيطرت على هذا الطريق الذى يسلكه الصليبيون إن أرادوا العودة إلى دمياط^(٣) . وكان هذا الطريق هو الأمل الوحيد فى عودة القوات الصليبية إلى دمياط برا بعد إحكام الحصار عليهم برا وبحرا ، وبعد ما غرقت الأراضى التى

(١) ابن ابيك : المصدر السابق ج ٧ ورقة ١٩٤ .

(٢) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٧ ، وقد ذكر عبد اللطيف البغدادي أن قمة زيادة النيل فى الاعتدال الخريفى . انظر كتاب وصف مصر ص ١٦ . وجاء فى تقرير بطريق بيت المقدس المرسل إلى البابا انوسنت الثالث فى عام ١٢١٤ م (٦١٠ : ٦١١ هـ) أن فيضان النيل يبدأ من شهر يونيه (بؤونة) وينتهى فى شهر سبتمبر (توت) وتبلغ قمة زيادته فى عيد الصليب ١٤ سبتمبر (١٧ توت) أنظر :

Patriache de Jerusalem. op. cit. d. 932.

انظر أيضا : ابن مائق : المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٣ ص ٢١٦ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٦ ، ابن الوردي : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٣ أنظر أيضا :

Eracles. op. cit., p. 951. Alberus Stadensis, p. 488. Waltherus de Hemingburgh. 940.

يمسكرون عليها^(١) .

وهكذا سيطر المسلمون على الموقف سيطرة تامة ، وأدرك الصليبيون أن العودة إلى دمياط أو التقدم إلى الأمام أصبح مستحيلا^(٢) ، وأيقنوا أنهم « ضلوا الصواب بمغادرة دمياط »^(٣) ، في الوقت الذي لم يكن في حوزة الصليبيين إلا بعض المؤن التي تكفى عدة أيام فقط^(٤) . وتشاورت القيادة الصليبية فيما يجب عمله في هذا السبيل المظلم . وكان أمامها أمران لا ثالث لهما ، أولهما التسليم للمسلمين بعد ما أيقنوا بما فيه من هلاك للقوات الصليبية^(٥) ، وثانيهما القيام بمحاولة إنتحارية يائسة للتراجع إلى دمياط^(٦) . واستقر رأيهم على الانسحاب وهو أهون الشرين بالنسبة لهم^(٧) . وكان يجب تنفيذ هذا القرار فورا وبدون إبطاء لأن الموقف أصبح لا يحتمل التأخير بعد ما فاجأت الخطط الإسلامية القيادة الصليبية التي لم تكن تتوقع مثل هذه النتائج . وسيطرت القوات الإسلامية على ميدان المعركة وأصبح في مقدور الملك الكامل أن يحرك قواته كيفما شاء ، في الوقت الذي أصيبت فيه القوات الصليبية بالشلل التام بينما أحاط المسلمون بالصليبيين يرمونهم بالنشاب^(٨) . « ويحملون على أطرافهم »^(٩) :

Setton, op. cit., II. p. 420.

(١)

Petre de Montacute, op. cit., p. 438, Philip de Albeney op, cit., p. 436

(٢)

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ نفس الصفحة .

(٣)

Oliver of Padenborn, op. cit., op. 84.

(٤)

Waltherus de Hemingburgh, Ibid.

(٥)

Lane-Pool, A History of Egypt, p. 224.

(٦)

Eracles op. cit., p. 330.

(٧)

(٨) النشاب ، جمع نشابه وهي ما يرمى بها عن القوس الفارسية ، ويجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والقتل والثقل والخفة ، ويمد طولها وقصرها على حسب مقادير الرامي وثقلها المرمى المربع أو المثلث . عن ذلك ولزهد من التفاصيل : أنظر : القلقشندي : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٥ ، الحسن بن عبد الله : المصدر السابق ص ١٦٠ .

(٩) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٣ ص ٢١٥ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٦ . أنظر

(٩)

وفي الصباح المبكر ليوم الخميس الموافق السادس من رجب ٦١٨ هـ (٢٦ أغسطس سنة ١٢٢١ م) بدأ الصليبيون في تنفيذ قرار الانسحاب وكان أول ما فعلوه أنهم أشعلوا النيران في معسكرهم وفي كل ما لا يستطيعون حمله^(١) ، بما في ذلك الأمتعة والخيام ، وأن كانت القيادة الصليبية قد أمرت بإحراق ما في المعسكر الصليبي حتى لا يقع غنيمة باردة في يد المسلمين^(٢) ، فإن هذا الاجراء قد عاد على الصليبيين بالضرر أكثر مما عاد عليهم بالنفع ، لأن إشعال النيران في المعسكر الصليبي قد أعلن للمسلمين بصورة غير مباشرة عن انسحاب القوات الصليبية وتراجعها إلى دمياط^(٣) . وكان ذلك من الأخطاء التي ارتكبتها الصليبيون في سلسلة متلاحقة من الأخطاء التي ارتكبوها . أضف إلى الحالة التي انتهت إليها القوات الصليبية أن كثيرا من الصليبيين الذين لم يرق لهم أن يضحوا بما لديهم من النبل وعز عليهم أن يروه ينسكب على الأرض قد شربوه فثملوا^(٤) ، مما أفقدهم ما تبقى لديهم من وعي وفاعلية لمقاومة القوات الإسلامية .

وعلى هذه الصورة بدأت القوات الصليبية في التراجع إلى دمياط ، في الوقت الذي كان يعلم فيه المسلمون بهذه التحركات . ويروى تاريخ هرقل أن القوات الإسلامية قامت طوال نفس الليلة بتدمير السدود التي كانت أمام وخلف القوات الصليبية . وعندما حل صباح يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من أغسطس (٧ رجب) لم يكن الصليبيون قد تراجعوا سوى ثلاثمائة أميال فقط^(٥) ووصلوا إلى ما يقرب من البرامون^(٦) ، والمياه تحيط بهم

أيضا : ابن الفرات : المصدر السابق ج ١٠ لوحة ٣١ ب و ٣٢ أ ابن أبيك . المصدر السابق ج ٧ ص ١٩٥ ، المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(١) Hist. Prtr. Alex., P. 257.

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 84.

(٣) Hist. Patr. Alex., Ibid, cf. also. Oliver of Padenborn, 1010.

(٤) Oliver op. Padenborn, op. cit., p. 85.

(٥) Eracles, op. cit., p. 351.

(٦) Hist. Part. Alex., p. 257.

من كل جانب والعساكر الإسلامية تسيطر على الطريق الوحيد المؤدى إلى دمياط ، « فلم يبق لهم خلاص »^(١) . وبذلك حالت قوات المسلمين دون عودة الصليبيين إلى قواعدهم في دمياط . وأحرق الخطر بالقوات الصليبية من كل ناحية ، فتشتتت في المستنقعات التي خلقتها مياه الفيضان في الوقت الذي قام فيه الفرسان المسلمون باقتناء أثرها^(٢) .

وحاول الملك جان دي برين إنقاذ القوات الصليبية مما يحيط بها من هلاك فقام بمحاربة الجنود على مقاومة القوات الإسلامية ، وأنهم على انشغالهم بحالة الفيضان عن الصمود أمام قوات المسلمين . وقام بجمع بعض فرسان جماعات الرهبان العسكرية لدفع المسلمين ، ولكن هذه المحاولة لم تنقل القوات الصليبية من الهلاك المحقق . فقد قتل في هذه المعركة - التي استمرت حتى فجر يوم السبت الثامن والعشرين من أغسطس (٨ رجب) - الألوف من الصليبيين^(٣) . وعندما أصبح الصباح كانت سهام المسلمين تنهال عليهم من كل جانب في الوقت التي عجزت فيه خيولهم عن الحركة من فعل الطمي والمياه التي تغطي المنطقة بأكملها^(٤) ، حتى أصبح الصليبيون كالضفادع في المياه^(٥) ، أو كالسمك في الشباك على حد تعبير بطرس دي مونتاجوا^(٦) وفقدوا ما تبقى من المؤن والمعدات ، وطافت أمتعتهم على سطح الماء . فاذا أضفنا إلى هذا كله ما يشعر به الصليبيون من الجوع والارهاق أدركنا مدى الهزيمة التي لحقت بهم ، بينما أدركوا هم من جانبهم أن لا رجاء إطلاقا في العودة سالمين إلى دمياط^(٧) . فالقروا بأيديهم من سلاح ، ووقعوا بكل سهولة أسرى في أيدي القوات

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٥ .

(٢) Donovan, op, cit., p. 92.

(٣) Hist. Patr. Alex., Ibid, cf also: Runciman, op. cit., III, p. 168.

(٤) Oliver of Padenborn, Ibid.

(٥) Eraeles, op. cit., p. 351.

(٦) Petre de Moutacute, op. cit., p. 448.

(٧) Philip de Albeney, op. 436.

الإسلامية^(١) ، وأصبحوا تحت رحمة المسلمين ، ولم يعد يسمع من الصليبيين غير البكاء والنحيب والأنين^(٢) .

وكان على القيادة الصليبية تدارك الأمر بأسرع ما يمكن لأنهم لو تركوا قواتهم على هذا الحال لهلكت جميعها دون شك^(٣) . وأيقن بلاجيوس الذي كان يتولى قيادة الجيش من الناحية الفعلية خطورة الوضع الذي انتهت إليه الحملة وتأكد له أن عدم معرفته بطبيعة الأراضي التي سارت عليها القوات الصليبية كانت السبب فيما حدث لقواته . لذلك استدعى لويس دوق بافاريا وأرسله إلى الملك جان دي برين يدعوه^(٤) للتشاور وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد ما لحقت الهزيمة بالصليبيين . وعندما حضر الملك طلب منه المندوب البابوي بلاجيوس متوسلا أن يشير عليه بما يراه لاختراج الصليبيين من هذه المحنة ، وكانت فرصة للملك الصليبي لتأنيب بلاجيوس على ما اقترفت يدها في حقه وحق الحملة بأكملها . وإنتهت المناقشة بين الطرفين بأن عرض الملك على المندوب البابوي استطلاع رأى القادة الصليبيين لعرض الصلح على المسلمين^(٥) . وفي الواقع لم يكن هناك حل آخر غير هذا الحل السلمى الذى يتقدم به الصليبيون بعدما عجزوا عجزا تاما عن دفع القوات الإسلامية^(٦) . وكان هذا الحل ينطوى بطبيعة الحال على الاستسلام للقوات الإسلامية .

وبعد أن أستمع المندوب البابوي إلى رأى الملك جان دي برين ، وعلم به القادة الصليبيون ، إتفقوا على إرسال سفارة إلى الملك الكامل لطلب الصلح

Albertus Stadensis. op. cit., p. 938.

Philip de Alpeney, Ibid. cf also Michaud, op. cit., II, p. 258

Hist. Patr. Alex., p. 257, cf. also. Albertus Stadensis, Ibid.

(٤) هذه الكلمة تدل على أن المندوب البابوي بلاجيوس كان يتولى القيادة العليا للقوات الصليبية وأن سلطته كانت تعلم سلطة الملك جان دي برين بدليل أنه هو الذى استدعى الملك وليس العكس .

Eralces, Ibid.

(٦) ابن الفرات : المصدر السابق ج ١٠ لوحة ١٥٢ أ .

وتكونت هذه السفارة من جى الأول صاحب جيل وجودفرى موسى^(١) .
وتضيف أحد المراجع الأجنبية أن جاك دى فترى كان من هؤلاء المبعوثين^(٢) .
وتوجهوا جميعا إلى الكامل فأحسن استقبالهم^(٣) : وتذكر المصادر الأجنبية أن
السفارة الموفدة من قبل القيادة الصليبية عرضت على المسلمين أن يسمح
لل قوات الصليبية سواء كانت داخل مدينة دمياط أو خارجها بالرحيل في أمان
ومعها كل ممتلكاتها ، وأن يقوم المسلمون والصليبيون باطلاق سراح ما لديهم
من الأسرى في مصر والشام وإعادة صليب الصليبات ، وأن يتكفل الملك
الكامل بامداد القوات الصليبية - حتى يتم جلاؤها بالمؤن اللازمة ، وذلك في
مقابل تسليم مدينة دمياط وكل توابعها وأن تكون مدة الهدنة ثمان سنوات
ويكون لأي ملك أوربي الحق في أن يخرقها ، ولتنفيذ ذلك يتم تبادل الرهان بين
الطرفين^(٤) . أما المصادر العربية فيروى بعضها أن الصليبيين طلبوا « الأمان
ليسلموا دمياط بغير عوض^(٥) » ، ويذكر البعض الآخر أنهم أرسلوا إلى الكامل
يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط^(٦) ، ويضيف النويرى « ويؤمنهم
على أنفسهم وأموالهم »^(٧) . أما تاريخ بطارقة الاسكندرية فيتفق مع المصادر
الأجنبية في مدة الهدنة وتبادل الأسرى ، ويضيف أن الشروط شملت قدامى
الأسرى أيضا مقابل الجلاء عن دمياط^(٨) . ومن الطبيعي أن يشمل عرض

Eracles, op. cit., p. 351.

(١)

Michaud, op. cit., II. p. 260.

(٢)

Rohrlich, Geshicht des konigreiche Jerusalem, p. 751.

(٣)

Philip de Albeney, op. cit., p. 436 Oliver of Padenbord, op. cit., p.

(٤)

90. Eracles op. cit., p. 351, Matthaw of Westminster II, p. 169.

Fabri, op. cit., Vol, 2 Part. I p. 361.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٦ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٧ ،
المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٣٠٧ .

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٢٠ ، ابو الهامى : المصدر السابق ج ٦
ص ٢٤٢ .

(٧) النويرى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٣٢ .

Hist Patr, Alex., p. 258.

(٨)

الصلح تسليم مدينة تنيس أيضا إلى المسلمين^(١) .

واننا نميل إلى الأخذ بما جاء في المصادر الإسلامية ، لسبب بسيط هو أن مصر كانت في مركز القوة وقتها تمسك بيدها زمام المبادرة ، بينما كان الجانب الصليبي في موقف لا يحسد عليه .. ولا يعقل في مثل تلك الظروف أن يتقدم الفرنج بمثل هذه الشروط وهم في الموقف الذي يملئ فيه عليهم وليسوا في الموقف الذي يملون فيه شروطهم على المصريين .

وعلى أية حال ، ففى ضوء العرض الذى تقدم به الصليبيون لإستشار الملك الكامل ملوك أهل بيته وأخوته ، فأشار بعضهم على الكامل بعدم اعطاء الأمان للصليبيين وعليه أن يأسرهم جميعا خاصة وأن القوات الإسلامية مسيطرة عليهم سيطرة تامة . وأضافوا أنه لو فعل ذلك فانه بإمكانه استرداد مدينة دمياط وليس ذلك فحسب بل سيستطيع أن يأخذ منهم جميع ما تبقى في أيديهم من الامارات الصليبية بالشام مثل عكا وغيرها^(٢) .

وكان كل من الملك المعظم والملك الأشرف من أنصار هذا الرأي^(٣) ، فان المعظم كان يرى عدم عقد الهدنة مع الصليبيين وهم الذين يفتقرون إلى الانسانية علاوة على ما إتصفوا به من البربرية في حروبهم وعدم الوفاء بعهودهم في السلام . كما أنه كان يرى أن الصليبيين أتوا إلى مصر للاستيلاء عليها ، وبذلك يتمكنوا من السيطرة على الشرق الإسلامى كله^(٤) . وربما يرجع مناداة المعظم بهذا الرأي أنه كان يرى في عودة الصليبيين إلى الشام بكامل معداتهم

(١) أشار ابن أيك أن مدينة تنيس سلمت للمسلمين مع دمياط . أنظر : درر التيجان ورقة ٢٥٨ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٧ ، البغدادى : المصدر السابق لوحة ٤١٤ ، العيني : المصدر السابق ج ١٧ لوحة ٤١٩ ، ابن الوردي : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٦ ، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٦ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ٩ ص ٢٠٨ .

(٣) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ نقض الصفحة . أنظر أيضا : Oliver of Padenborn, op. cit., p. 87.

(٤) Michaud, op. cit., II, p. 2-0.

مصدر خطر على ممتلكاته هناك ، ولذلك رأى القضاء عليهم وهم في هذه المحنة حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

ولكن الملك الكامل برهن على أنه منطقي مع نفسه ، وهي صفة من الصفات التي لم تذكرها له كتب التراجم ، فقد مال كل الميل إلى الموافقة على عرض السلام الذي تقدم به الصليبيون وهو رأيه الأصلي من قبل^(١) . وعلى أية حال فثمة أمور أخرى دفعت الكامل إلى هذه الموافقة ، منها أنه كان يخشى حضور الامبراطور فريدرىك الثاني على رأس قواته فينتقم لما حل بالصليبيين^(٢) كما أنه كان يعلم أنه يوجد بدمياط عشرات الألوف من القوات الصليبية وقد حددتها تاريخ بطارقة الاسكندرية بتسعين الفا - وأنهم مع حصنين بداخلها وإن إستعادتها عن طريق القوة العسكرية يحتاج لمجزرة بشرية لا داعي لها^(٣) . وربما لا يقدر عليها خاصة وأن القوات الإسلامية قد ضجرت من طول مدة الحرب التي بلغت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تقريبا^(٤) . ثم أن الامدادات الصليبية تصل تباعا إلى دمياط مما سيجعل مهمة القوات الإسلامية صعبة ومعقدة ، وربما لا تحقق النتائج التي يعرضها الصليبيون ، أضف إلى هذا كله أخطار التتار التي ملأت أسماع العالم عامة والشرق خاصة^(٥) . وربما كان الملك الكامل يرى إنهاء الخطر الصليبي بالطريقة السلمية ليدخر قواته ويتفرغ للخطر المغولي إذا ما تقدم في قلب العالم الإسلامي .

وتغلب رأى الملك الكامل في الموافقة على إقتراح الصليبيين بالجللاء عن مصر - ويروى ابن الجوزى أن الصليبيين لو أقاموا يومين لأخذ المسلمون برقابهم^(٦) .

-
- (١) محمد مصطفى زهادة : المرجع السابق ص ٥٨ .
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٨٥ .
(٣) Hist. Patr. Alex., p: 257.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٧ - ٩٨ .
(٥) Michaud, op. cit., II. p. 20.
(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٢٠ ، السلامي : المصدر السابق ورقة ٢٣٢ .

ولكن المهم أن الكامل وضع شروطا عملية لتنفيذ ذلك^(١) : وما تجدر الإشارة إليه أن قبول المسلمين للعرض الذي تقدم به الصليبيون يدل على سخاء وكرم الملك الكامل^(٢) . واتفق الملوك المسلمين على أن يكون مقرر الصلح بينهم وبين الصليبيين المجاهد شيركوه^(٣) .

وضمنا لتنفيذ ما تم الاتفاق بين الطرفين طلب الملك الكامل من الصليبيين تقديم الرهائن وكان عددها أربع وعشرين حتى يتم تسليم دمياط . واشتملت الرهائن الصليبية على الملك جان دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس ولويس دوق بافاريا ورؤساء جماعة الرهبان العسكرية وهم جارنيه مونتاجو مقدم الاسبتارية بالأراضي المقدسة وأخيه بطرس مونتاجو مقدم الفرسان الداوية وهرمان فون سالزا مقدم الفرسان التيوتون وثمانية عشر آخرين^(٤) . وتذكر بعض المراجع الأجنبية أن جاك دي فري كان من بين هؤلاء الرهائن^(٥) ، وتشير بعض المصادر العربية أن الملكة صاحبة عكا كانت ضمن الرهائن الصليبية^(٦) .

كما أشار ابن أيك أن مجموع الرهائن كان أربعة عشر ، من بينهم

(١) Stevenson op. cit., p. 307.

(٢) Lamb, op. cit., q. 250

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ١٠ لوحة ٣٢ أ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٨ وحاشيه ١ ، ٢ ، ٣ أنظر أيضا :

Olive of Padenborn, op. cit., p. 90. Phillp de Albeney. op. cit., p.

439. Eraciss. op. cit., p. 531.

(٥) Michaud, op. cit., II. p. 260 & n. 1, Archer and Kingsford op, cit., p. 378.

Hist.Patr.Alex., p. 2-8.

(٦) ابن أيك : كثر الدرر جـ ٧ ورقة ١٩٦

وقد أخطأت هذه المصادر في ذكر ملكة عكا ضمن الرهائن لأن الملكة استيفاني زوجة الملك جان دي برين الأخيرة قد مات في عام ١٢٢٠ م أثناء تواجد الملك في عكا غائبا عن الحملة أنظرة ناسبق ص ٣٠٣ . وربما يقصد بها مارجريت ابنة أخى الملك جان دي برين التي وصلت إلى دمياط مع بعض الأكندادات في سبتمبر ١٢١٩ م . انظر ما سبق ص ٢٠٢ .

« كرموك » صاحب صقلية^(١) ، « وكندنور » صاحب جزيرة النمسون^(٢) ،
« وكندريس » الكبير^(٣) أما بقية الأسماء انتى أورها فغير مستوفاه ومحرقة
تحريراً كبيراً^(٤) . . .

أما الرهائن الإسلامية ، فقد أرسل الملك الكامل ابنه الصالح نجم الدين
أيوب ، وكان عمره آنذاك خمس عشرة سنة وجماعة من خواصه^(٥) . وكان من
بين هؤلاء الخواص شمس الدين ابن أخت الملك الكامل^(٦) . ويضيف تاريخ
بطارقة الاسكندرية الهم غياث الدين أخ الملك الكامل^(٧) . ويذكر النويرى أن
المفضل قطب الدين كان من بين الرهائن الإسلامية أيضاً^(٨) . وبعد أن تبادل
الطرفان الرهائن تقرر الهدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثمان سنوات طبقاً
للشروط المتفق عليها . واقسم الملك الكامل وأخوته كما أقسم القادة الصليبيون
على ذلك^(٩) . وأرسلت سفارة صليبية على رأسها بطرس مونتاجو مقدم
الفرسان الداوية وهرمان فون سالزا مقدم الفرسان التيوتون بعد أن أطلق
الكامل أسراهما معها لويس دوق بافاريا إلى دمياط لابلغ الحامية الصليبية
التي تعسكر بالمدينة بما تم عليه الاتفاق^(١٠) . وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه

(١) لعل المقصود به منى كونت أبوليا الذي وصل دمياط في يوليو ١٢٢٠ م . أنظر ما سبق ص ٣٠٥ .

(٢) جزيرة قبرص وصاحبها آنذاك هنري الأول ، وكان طفلاً لم يتجاوز عمره تسعة أشهر ، ولعل
المقصود به إيسترخ رئيس اساقفته/نيقوسيا أو جوثيه قائد جيش قبرص الذي حضر إلى دمياط
وانضم إلى القوات الصليبيين بعد مؤامرة ابن المشطوب .

(٣) لم أتمكن من تحديد هذا الاسم ولعله أحد الكوثات .

(٤) ابن ايمك : المصدر السابق ج ٣ ورقة ٩٧ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٨ .

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٢١ ، السلاوى : المصدر السابق ورقة ٣٢٣ .

(٧) Hist. Patr, Alex., p. 258.

(٨) النويرى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٢٣ .

(٩) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٩ أنظر أيضاً :

Hist. Part. Alex. Ibid, Albertus Stadensis, op. cit., p. 938.

Oliver of Padenborn | op. cit., p. 91. (١٠)

السفارة وصل هنرى كونت مالطة والمارشال أنسلم^(١) Anselm ، وولتر أف بالير^(٢) Walter of Palar . من قبل الإمبراطور فريدريك على رأس نجدة عظيمة محمولة على أربعين سفينة^(٣) .

وعندما أبلغت الحامية بأخبار الاتفاق ثارت وتمردت وهاجمت منازل الملك الصليبي وجماعة الرهبان العسكرية^(٤) ، وفي الوقت نفسه سرت ضجة عظيمة في المدينة وقرر البعض العودة إلى أوروبا بعد ما ملأهم يأس الهزيمة ، كما أسرع البعض الآخر بإقامة الحواجز داخل المدينة ، واستولوا على الأبراج واقسموا بالدفاع عنها ، وقرروا عدم تسليمها للمسلمين^(٥) وقد شجعهم على ذلك الإمدادات التي بعث بها الإمبراطور فريدريك الثاني . فقد أستعد هنرى كونت مالطة ومن معه للدفاع عن المدينة^(٦) . كما أن هذه الإمدادات قد شعرت بالمرارة لهذه النتيجة التي انتهت إليها الحملة ، ولأن الإمدادات التي وصلت من قبل بقيادة لويس دوق بافاريا قد تصرف من تلقاء نفسها على عكس الأوامر التي تلقتها من الإمبراطور فريدريك . والمهم أن الألمان والإيطاليين وأهل صقلية قد تكتلوا مع بعضهم وعارضوا تنفيذ المعاهدة ، على العكس من فرسان الداوية الاستتارية والفرنسيين وصليبي الشام الذين وقفوا إلى جانب تنفيذ المعاهدة . وانتهت وجهات النظر بين الطرفين بالصدام المسلح^(٧) وعندما علم الملك جان دى برين بما حدث أرسل اليهم يخبرهم بأنه سيضطر ومن معه من القادة الصليبيين إلى تسليم عكا للمسلمين اذا رفضوا تنفيذ المعاهدة^(٨) ، وكان هذا

Wiegler, op. cit., p. 107. (١)

Setton op, cit., II, p. 427. (٢)

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 91. (٣)

Setton, op. cit., II. p. 47. also: Runciman, op. cit., III, P. 129. (٤)

Michaud, op. cit., II, 261. . (٥)

Petre de Montacute, op, cit., p. 437. (٦)

Setton, Ibid, cf also : Runciman, Ibid. (٧)

Michaud, Ibid. (٨)

التهديد كفيلا بانتهاء هذا التمرد . وفي النهاية وافق الجميع على شروط المعاهدة^(١) . ومما تحذر الإشارة اليه أن الملك الكامل لم يتأثر بالصراع الذي دار في دمياط ولم يلق له وزنا ، لأنه كان يعلم أن القوات الرئيسية للحملة واقعة تحت رحمتها^(٢) . ومن الملاحظ أن من شروط الصلح أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين المحددة بثمان سنوات قد استثنى منها ملوك أوروبا فلهم أن ينقضوها إذا أرادوا ، ولقد كانت الامدادات التي وصلت إلى دمياط بقيادة هنرى كونت مالطة من قبل الامبراطور فريدريك الثانى من حقها خرق هذه الهدنة دون أن تخل بشرط الصلح^(٣) ، غير أن وجود الرهائن لدى الملك الكامل ، وتهديد الملك جان دى برين بتسليم عكا للمسلمين ، ووقوع معظم القوات الصليبية تحت السيطرة التامة للقوات الإسلامية ، قد أخافهم من عواقب ذلك^(٤) .

وعانت القوات الصليبية طوال هذه الفترة آلام الجوع والمرض والفيضانات في الوقت الذى عامل فيه المسلمون الملك جان دى برين ومن معه من الرهائن بكل إحترام وكرم . فقد قدمت لهم الاطعمة والفاكهة بما فيها الرمان والبطيخ^(٥) . ولم ينس الملك الصليبي الهلاك الذى يحيط بقواته فذهب إلى خيمة الملك الكامل والقى بنفسه على الأرض ورأسه بين يديه الأمر الذى دفع الملك الاسلامى إلى سؤاله - بلغة الملوك - عن سبب هذا الحزن ، فأجابه الملك الصليبي أن ذلك من أجل القوات التى تموت جوعا^(٦) ، وتأثر الكامل من منظر الملك الصليبي وبكى هو الآخر^(٧) ، وتجلت الرحمة في نفسه وأمر بامداد القوات الصليبية بما يلزمها من المؤن^(٨) . فارسل اليهم خمسة آلاف رغيف من

Setton, Ibid.

(١)

Runciman, Ibid.

(٢)

Lane- Poole, op. cit., p. 224.

(٣)

Stevenson, op, cit., p. 297.

(٤)

Hist. Patr. Alex., p. 258.

(٥)

Lamb, Ibid.

(٦)

Michaud, op. cit., II. p. 261.

(٧)

Ludlow, The Age of The Crusades, pp. 311-2.

(٨)

الخبز ومائتا أردب من القمح والشعير يوميا^(١). بينما تذكر المراجع الأجنبية أن الكامل أرسل ثلاثين ألف رغيفا إلى الصليبيين يوميا ولمدة أربعة أيام متوالية حتى إنحسرت مياه الفيضان^(٢). ثم قام بعد ذلك بإرسال الخبز واللحم ليشتريها من يستطيع ذلك ، أما الفقراء منهم فقد إستمر الملك الإسلامي في إرسال ما يحتاجون اليه من الخبز لمدة خمسة عشر يوما وهي المدة التي سبقت إجلاء القوات الصليبية عن المنطقة الفارقة^(٣). ولم تشمل الرحمة القوات الصليبية فحسب بل شملت دوابهم أيضا . فقد أرسل اليها الملك الكامل العليق دون مقابل ، كما أمر أيضا بنقل المرضى والضعفاء من الصليبيين من معسكرهم البارق بالمياه إلى دمياط . وقد أثرت هذه المعاملة الانسانية وتلك الرأفة التي تجلت في أسمى معانيها من قبل الملك الإسلامي في أولفر أف بادنبورن ، فأرسل خطابا إلى الملك الكامل يشكره على ذلك ويصفه فيه بالأب الخير الرؤوف الحازم الكريم^(٤).

. وبعد أن أستقرت الأوضاع بين الطرفين جلس الملك الكامل في المنصورة مجلسا عظيما في خيمة كبيرة عالية ومد سماطا عظيما ، وأحضر ما عنده من الرهائن الصليبية ووقف الملك الكامل والمعظم والأشرف وبقية الملوك في خدمته^(٥) ، بينما يروى النويري أن الملك الكامل أجلس إلى جانبه الملك المعظم لأنه كان يعظمه تعظيما كبيرا لما أبداه في الجهاد إلى جانبه منذ وصول الصليبيين إلى أرض مصر . ويضيف النويري أنه زيادة في تعظيمه فوضه الكامل نيابة عنه حتى إذا حضر رسول من الفرنج يقول لهم « أنه الآن لا حكم لي وحديثكم مع

(١) ابن ابيك : درر التيجان (مخطوط) ورقة ٢٥٨ .

(٢) Michaud, op. cit., II, p. 252.

(٣) Petre de Montacute, op, cit., p. 439.

(٤) Oliver Scolastiquis, Letter to The King of Egypt, El- Kamel

Mohamed, cf, Rohricht, Goschrichte des Konigreichs Jerusalem, p. 753.

(٥) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٢١ .

ملك الشرق والأمر له»^(١). وفي هذا المجلس رأى الفرنج من عظمة الملك الكامل « وناموسة ما هاهم»^(٢). وأكرم الملوك الأيوبيين الملك جان دي برين ومن معه وتبادل الملك الإسلامي والملك الصليبي الهدايا بعد ما قام الملك الكامل بكل واجبات الضيافة^(٣). وتبادل الشعرا^(٤) المديح في تخليد هذه الذكرى^(٥). ثم أرسل الفرنج قساوسهم وراهبانهم إلى دمياط لتسليم المدينة إلى المسلمين^(٦).

وعهد الملك الكامل إلى الأمير شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى^(٧) باستلام المدينة من الصليبيين بعدما ولاه إياها^(٨). ويروى ابن واصل أن المدينة كانت في غاية الحصانة « ولا يوصل إليها » كما كان للفرنج بالمدينة أصوارى عظام جداً ، وقد أراد الصليبيون حملها معهم عند رحيلهم إلى بلادهم ، ولكن شجاع الدين منعهم من ذلك ، فاشتكوا إلى الملك الكامل يقولون « أن هذه الصوارى لنا ، وأن مقتضى الصلح أن ترد إلينا » ، فكتب الكامل إلى شجاع

-
- (١) النورى : المصدر السابق ج ٢٧ لوحة ٣٢ .
(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٨ - ٩٩ .
(٣) Hist. Part. Alex., p. 259.
(٤) من هؤلاء الشعراء شرف الدين بن عيين وست الفخر متينة الأشرف . ابن واصل ج ٤ ص ١٠٠ وما بعدها . وجارية الملك الكامل ، وهمة الله ابن عاسن قاضى غزه . المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢١٠ وراجع بن أبى القاسم الاسد الحلى وهو من مداحى الملوك بمصر والشام والجزيرة . أبو الحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٢ . كما مدح كمال الدين على بن محمد بن النبيه الملك الأشرف موسى بهذه المناسبة . انظر : ديوان ابن النبيه ص ٦٦ - ٦٨ . وعن شعر بهاء الدين زهير فى هذه المناسبة أنظر : ديوان البهاء زهير ص ١٢١ - ١٢٤ .
(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٢١ .
(٦) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٩ .
(٧) كان شاعرا وسمع كثيرا من الحديث النبوى على المحافظ السلفى وولى نيازة الاسكندرية أيضا ويقال أنه نسخ بيده أربعة وعشرين مصحفا وكان سمحا جوادا ، محبا للعلم والعلماء مكرما لهم . يساعدهم بماله وجاهه وقد تولى فى شعبان عام ٦٢٨ هـ (يونيو ١٢٣٠ م) . أنظر : الكنى : فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .
(٨) أبو الفداء : المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٦ .

يأمره برد الصوارى اليهم ، ولكن شجاع أصر على الامتناع وقال « أن الفرنج أخذوا منبر جامع المدينة وكسروه وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم وطلب من الملك الكامل أن يأمرهم برد المنبر لبرد اليهم الصوارى ، فأبلغ الكامل الصليبيين بما طلبه شجاع الدين فعجزوا عن رد المنبر ، وأعرضوا عن ذكر الصوارى^(١) . وأن دلت هذه الرواية على شيء فأنها لتدل على ديمقراطية القيادة وشجاعة الأمير جلدك .

أما عن القوات الصليبية الغارقة فان الملك الكامل أمر في اليوم الرابع لاستسلام الصليبيين الموافق الثاني عشر من رجب عام ٦١٨ هـ (أول سبتمبر ١٢٢١ م) باقامة السدود فانحسرت المياه عن الأراضي التي عليها القوات الصليبية^(٢) . ويروى تاريخ هرقل أنه أمكن بعد ذلك للصليبيين أن يعودوا إلى المدينة ولكنهم لم يدخلوها^(٣) . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية أن الملك الكامل أمر أخيه الملك الحافظ نور الدين أرسلان صاحب قلعة جعبر ببناء جسر من السفن بين الضفة الشرقية والضفة الغربية للنيل ليعبر عليه الصليبيون^(٤) . والواقع أن الكامل أمر باقامة السدود حتى يوقف تدفق الفيضان إلى المنطقة التي يعسكر عليها الصليبيون وهي المثلث المحصور بين النيل وبحر أشموم . وبذلك أمكن للصليبيين السير شمالا حتى وصلوا إلى العادلية تقريبا ، ثم أقام الملك الكامل جسرا لتعبئة المياه القوات الصليبية إلى جيزة دمياط وبذلك يتجنب الكامل دخول الصليبيين المدينة . لأنه لو أقام الملك الجسر شمالى بحر أشموم للعبور إلى الضفة الغربية لاحتاج الأمر إلى جسر آخر عبر بحر المحلة وجسرا ثالثا لعبور الخليج الأزرق حتى يصل الصليبيون إلى جيزة دمياط .

وبعد خروج القوات الصليبية من المنطقة الغارقة سلمت مدينة دمياط نهائيا

(١) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) Crousset, op. cit., III, p. 242.

(٣) Eracles op. cit., p. 342.

(٤) Hist. Patr. Alex., p. 253.

للمسلمين يوم الخميس التاسع عشر من رجب ٦١٨ هـ (٨ سبتمبر ١٢٢١ م) بعد آذان العصر^(١) ، وكان تسليمها يوما مشهودا « عاد به الدين الإسلامي جديداً بعد أن ساءت به الظنون وخيف على الديار المصرية والشامية من الفرنج خوفاً شديداً »^(٢) . وبعد أن تمت كافة الترتيبات واطمأن كل من الفريقين إلى تنفيذ الطرف الآخر للشروط المتفق عليها وإستلم المسلمون مدينة دمياط ، أطلق كل فريق ما لديه من الرهائن^(٣) . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية أن الرهائن الإسلامية كانت محجوزة في إحدى السفن الصليبية الراسية في البحر المتوسط^(٤) ، بينما يروى تاريخ هرقل أنها أستضيفت في أحد المنازل البعيدة عن نهر النيل . وظل الصليبيون يحتفظون بهم حتى دخل المندوب البابوي بلاجيوس ورجاله سفنهم ، وبدأت في الانحار مع النيل^(٥) ، شمالا إلى البحر المتوسط . وعلى أية حال ، فانه في نفس اليوم الذي عادت فيه مدينة دمياط للمسلمين جلت أيضا القوات الصليبية عن مصر ، وقد سار بعضها عن طريق البحر وفريق منها في طريقه إلى أوربا والفريق الآخر في طريقة عكا . كما سار البعض الآخر عن طريق البر^(٦) . ومن الطبيعي أنها إتخذت طريقها شمال صحراء سيناء في طريقها إلى الامارات الصليبية بالشام . وذكرت المراجع الأجنبية أن الكامل قد وعد الصليبيين بحمل صليب الصلبوت معهم عند رحيلهم من دمياط^(٧) ، ولكنهم لم يأخذوه ، وإدعى الكامل أن كهنة كنيسة

(١) ابن ابيك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ١٩٧ - ١٩٨ أنظر أيضا :

Philip de Albeney, op. cit., p. 436. Annales de Terre Sainte, P. 437,

Matthew of Westminster, op. cit., II p. 139.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٩٩ .

Setton, op. cit., p. 428,

Hist. Patr. Alex., p. 258

Eracles, op. cit., p. 352.

(٦) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ٢ ص ٦٢٠ ، أبو الحسن : المصدر السابق ج ٦ ص

٢٤٣ أنظر أيضا :

Rohricht, Geschichte du Kreuzzuge im Umriss, P. 209.

Runciman, op. cit., III, p. 169.

(٧)

القيامة قد نبأوه^(١) . بينما ذكرت بعض المصادر الاجنبية المتأخرة أن الصليبيين حملوه معهم عند الرحيل^(٢) . ولكن من الثابت تاريخياً أن الصليبيين إستولوا على صليب الصلبوت عندما دخلوا بيت المقدس لأول مرة واسترده صلاح الدين في موقعة حطين ولم يعد للصليبيين بعد ذلك^(٣) . ويروى تاريخ البطارقة أن الملك الكامل زود الصليبيين بالموثن والحاجيات الضرورية اللازمة لهم أثناء عودتهم إلى بلادهم^(٤) . وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على كرم الملك الكامل وسماحته .

ولم يبق بعد ذلك سوى إطلاق سراح الأسرى من الجانبين^(٥) ، وفيما يتعلق بالأسرى الصليبيين الذين كانوا بمصر فقد تولى أمرهم الوزير صاحب صفى الدين بن شكر فأطلقهم في الثاني عشر من رمضان عام ٦١٨ هـ (٣٠ أكتوبر ١٢٢١ م) . وكان من بينهم أسرى منذ عهد صلاح الدين الأيوبي^(٦) . ويتضح من هذا التاريخ أن عملية إطلاق الأسرى تمت بعد رحيل القوات الصليبية من دمياط ، وربما أعدت هذه الترتيبات حتى يعود القادة الصليبيون إلى عكا ويستعدون لإطلاق سراح أسرى المسلمين من جانبهم أيضاً . وذكرت بعض المصادر الأجنبية المعاصرة أن عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم بلغ ثلاثة آلاف من الصليبيين^(٧) . وهو العدد نفسه الذى ذكره جاك دى فترى في خطابه المؤرخ في الثامن عشر من إبريل عام ١٢٢١ م (١٠ صفر ٦١٧ هـ) المرسل للبابا هونوريوس الثالث^(٨) .

Duggan, op. cit., p. 220. (١)

Albertus Stadensis, op. cit., P. 938. (٢)

Waltherus de Hemingburgh, op. cit., p. 940. cf, also : Runciman, (٣)
op, cit., I, p.294. II. p. 459.

Hist. Patr. Alex., p. 259. (٤)

Waltherus de Heminburgh, Ibid. (٥)

المقريزى : المصدر السابق ج ١ في ١ ص ٢٠٩ . (٦)

Albertus Stadensis, Ibid. (٧)

Vitry. Lettres de Jacques de Vitry. p. 138. (٨)

وكانت عملية إطلاء الأسرى هي الجولة الأخيرة للحملة الصليبية الخامسة وهكذا « أعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه وأعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم فانهم كانت غاية أمانهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط ، وبقيت البلاد على حالها فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين »^(١).

أما الملك الكامل فقد دخل مدينة دمياط ومن حوله أخوته وأهل بيته ، وكان يوم دخوله لها يوماً عظيماً مشهوداً^(٢). ثم عاد إلى القاهرة ودخلها في الثامن من رمضان ٦١٨ هـ (٢٦ أكتوبر ١٢٢١ م) ، وكان دخوله يوم عيد وزينت البلاد بالأعلام^(٣) ، وكافأ الملك الكامل أخوته وأنعم عليهم بالذهب والخيل والقماش^(٤) ، وأذن لهم في العودة إلى بلادهم . فرجع كل منهم إلى بلاده وعمت بشائر النصر آفاق البلاد الإسلامية كلها^(٥) ، إبتهاجا بالانتصار على الصليبيين وجلاء القوات المعتدية عن الأراضي المصرية .

ولقد تسامع الشرق والغرب بأخبار الحملة الصليبية التي هدفت للإستيلاء على مصر ، وهال المعاصرون أن هذه الحملة استولت فعلاً على ثغر دمياط لمدة غير قصيرة^(٦) ، وهالهم أيضاً أنها انتهت بفشل ذريع بعد ما قاربت النجاح^(٧) ، ورحلت وهي تحمل عار الهزيمة والخذلان^(٨).

أما عن أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة فيرجع إلى عدة عوامل بعضها

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٥ .

(٣) Hist. Patr. Alex., p. 257.

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين (مخطوط) ورقة ٩٨ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٥ .

(٦) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٧) Runciman, op. cit., III, p. 169.

(٨) Lane-Poole, The Story of Cairo, p. 190.

يتعلق بالجانب الصليبي ، والبعض يتعلق بالجانب الأوربي ، والبعض الآخر يتعلق بالجانب الإسلامي . كما أن بعض هذه الأسباب جوهرى والبعض الآخر ثانوى وقد تكاثفت كلها معا في إلحاق شر أنواع الهزيمة بالصليبيين .

والسبب الرئيسى لفشل الحملة يرجع إلى الجانب الصليبي ويشمل عدة نواح . ومن أهمها إن لم يكن أهمها على الإطلاق أخطاء رجال الدين وغرورهم وإعتدادهم بأنفسهم^(١) ، وعلى رأسهم المندوب البابوى بلاجيوس الذى وصفته المراجع الأجنبية بالغباء والعجرفة وعدم الحيلة ، فضلا عن أنه كان متشبثا برأيه وغير محبوب^(٢) . كما أنه تناسى وضعه فى الحملة كمندوب للبابا وليس قائدا عسكريا ، وتدخل فى إتخاذ القرارات العسكرية وكان عليه أن يترك هذه الأمور للخبراء العسكريين ، وكانت حجته أن الصليبيين ليسوا أداه فى يد مملكة بيت المقدس ، ولكنهم أداة الكنيسة وبصفته مندوب البابا والكنيسة فيكون له الحق فى إدارة الحملة بالكيفية التى يراها^(٣) . وعلى هذا تصرف كقائد عسكري وليس كرجل دين^(٤) . وقد أدى تصرف المندوب البابوى على هذا النحو إلى إختلاف وجهات النظر بينه وبين الملك جان دى برين . وأخذت الخلافات بين الطرفين تزداد يوما بعد يوم مما أدى إلى إزدواج القيادة على الحملة . وقد أدى هذا الإزدواج مع إختلاف الآراء إلى ضياع الفرص الذهبية التى أتاحت للقيادة الصليبية لتحقيق أهداف الحملة . ذلك أن الملك الكامل عرض على الصليبيين الجلاء عن دمياط نظير إستعادة جميع الأراضى التى فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك بعد مؤامرة ابن المشطوب وعبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية للنيل . ووافق الملك ومؤيدوه على هذا العرض الذى يحقق أهداف الحملة سلميا ، بينما وقف المندوب البابوى ومن يساندوه فى جانب المعارضة . ثم تقدم الكامل بهذا العرض مع بعض الأموال بعد ذلك مرتين قبل

Bracles, op. cit., p. 352.

Runciman, op. cit., III, p. 170.

Setton, op. cit., II., p. 403.

Gibbon, The Crusades, p. 71.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

سقوط دمياط ومرة أخرى أثناء زحف الصليبيين على القاهرة . وتمسك الملك والمندوب كل منهما بموقفه السابق من العرض . وكان على المندوب البابوي تدارك الأمر في المرات الأخرى . وقد تسببت تمسكه بقرار الرفض في ضياع مملكة بيت المقدس والقضاء على الهدف الأصلي للحملة وضياع دمياط وفقدان الأرواح وأخيرا الحاق الهزيمة بالقوات الصليبية ، ويرى فلكس فابري أنه كان يجب عقاب الممثل البابوي بتقطعيه ألف قطعة على ما أقترفت يده في حق الحملة وعلى تسببه في الحاق العار والخزي بالصليبيين جميعا لرفضه عروض الصلح التي تقدم بها المسلمون متجاهلا تعليمات البابا اليه^(١) . ويرى رانسيومان أن بلاجيوس كان له العذر عندما رفض عروض الصلح لأنه كان يرى أنه من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بمملكة بيت المقدس بدون وجود قلعتي الكرك والشوبك في حوزتهم^(٢) . وأيا كان موقف كل من المندوب البابوي والملك جان دي برين من عروض الصلح السخية التي تقدم بها الملك الكامل محمد ، فقد كشف النقاب عن أطماعهما وتطلعاتهما إلى الزعامة والقيادة الأمر الذي أضر بالحملة ضررا بالغا .

وإذا كان ذلك هو الجانب الأساسي الذي تسبب في ضياع أهداف الحملة ، فإن من أهم الأسباب العسكرية التي تسببت في هزيمة الحملة عسكريا هو جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذي اختاروه للزحف صوب القاهرة ، وهو الطريق المحاذ لفرع النيل الشرقى (فرع دمياط) مارا بفارسكور وشارمساح والمنصورة ، رغم علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه النيل^(٣) . وكان يعترض هذا الطريق العديد من الترع والقنوات التي تتفرع من

(١) Fabri, op. cit., Vol. 2, Part I, p. 361.

(١)

أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٨٠ :

Archer & Kingsford, op. cit., p. 378, Grousset, op. cit., III. p. 255.

King op. cit., p. 192, Michaud, op. cit., II. p. 263.

Runciman, op. cit., III, p. 170.

(٢)

(٣) ورد في التقرير الذي أرسله بطريق بيت المقدس إلى البابا أنوسنت الثالث عام ١٢١٤ م أن فيضان

النيل يبدأ من شهر يوليو كل عام وتبلغ قمة الزيادة لماء النيل في عيد الصليب ١٧ سبتمبر . أنظر : =

النيل وهى أشبه بشبكة الصائد وتصلح لأن تكون أفخاخا وكائن للايقاع بالجيش الصليبي . أضيف إلى ذلك أنه محصن بمراكز الدفاع القوية التى تستطيع القوات المصرية استغلالها ضد القوات الصليبية . وفى الحقيقة أن غزو مصر من هذا الطريق كان مصيره الفشل^(١) . وقد فطن أحد المعاصرين لهذا الخطأ ، إذ كتب نيقولا الأول بطريق طائفة الملكانيين بالاسكندرية فى عام ١٢٢٢ م (٦١٩ هـ) ، بعد رحيل الحملة ، إلى البابا هونوريوس الثالث يدعوه فيه إلى حث الأمبراطور فريدرىك الثانى على سرعة المجيء إلى الشرق لمحور العار الذى لحق بالحملة الصليبية الخامسة ، ويسجل فيه أن طريق السلامة هو أن تدخل السفن الصليبية من فرع النيل عند رشيد وترسى فى مدينة فوة وبذلك تكون بعيدة عن الأخطار . ويستطيع الأمبراطور حينئذ أن يستولى على مصر كلها ، خاصة أن فرع النيل الغربى (فرع رشيد) واسع وعميق ، كما أن المنطقة التى تترسى فيها قوات الأمبراطور محصنة ومليئة بالخيرات^(٢) . ورغم هذه المعلومات القيمة والخطيرة عن طبوغرافية البلاد المصرية ، إلا أن حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر عام (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م / ٦٤٦ - ٦٤٨ هـ) اتخذت نفس الطريق الذى اتخذته حملة جان دى برين ، ولذلك كان نصيبها الفشل^(٣) . وفى الحقيقة أن مسئولية الفشل فى هذا الجانب ترجع إلى الملك جان دى برين . فهو الذى إختار مدينة دمياط لبداية العمليات العسكرية ضد مصر فلم تركز دمياط بالمدينة التى تصلح لتكون قاعدة يتقدم منها الصليبيون لغزو مصر^(٤) .

Patriarche de Jerusalem, op. cit., p. 932.

(١) جوزيف نسيه يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٢٤١ .

(٢) Nicolaus I, op. cit., pp. 647-9.

(٣) جوزيف نسيه يوسف : المرجع السابق ص ٢٤١ وما بعدها ، أنظر أيضا :

Oman, 6, A History of The Art of the war in The Middle Ages, I. p.267.

(٤) Lane-Poole, Thé History of Egypt, p. 222.

وكما أخطأت القيادة الصليبية في اختيار الطريق السليم للزحف صوب القاهرة فقد أهملت أيضا العامل الزمني الذي يعتبر من أهم العوامل في انتصار أو هزيمة الجيوش . فقد أهملت هذا العامل بعد ما تمكنت القوات الصليبية من العبور إلى الضفة الشرقية بعد مؤامرة ابن المشطوب . ولو بادر الصليبيون بالزحف مباشرة تجاه مصر لتمكنوا من الاستيلاء عليها^(١) ، وخاصة وأن الصدمة العنيفة التي لحقت بمصر جيشا وشعباً وحالة الارتباك التي سيطرت على القوات الإسلامية كانا سيجعلان مهمة القوات الصليبية سهلة ويسيرة ، وربما تغيرت نتائج الحملة بأكملها .

ومرة أخرى تغافلت القيادة الصليبية عن عامل الزمن . ذلك أنه رغم علم الصليبيين بموعد فيضان النيل ، ورغم تحذير الملك جان دي برين للمندوب البابوي ، إلا أن بلاجيوس قرر الزحف صوب القاهرة في أواخر شهر يوليو ١٢٢١ م (أوائل جمادى الثانية ٦١٨ هـ) أى في الوقت الذي أخذت بوادر الفيضان تبدو واضحة أمام أعين الصليبيين . وكان على القيادة الصليبية بزعامة بلاجيوس أن تختار الوقت المناسب لبداية عملية التقدم من دمياط جنوبا إلى مصر متجنبيين الفيضان وأخطاره .

والمرة الثالثة التي تجاهل فيها الصليبيون عامل الوقت هو أن الحملة بدأت تعمل على الزحف إلى قلب مصر بعد حوالى ثلاث من قدومها إلى الشواطئ المصرية . مما أعطى القيادة الإسلامية الفرصة الكافية لإعادة تنظيم صفوفها مرة بعد أخرى أضف إلى ذلك أنه طوال هذا الوقت والملوك الأيوبيين يعملون على دعم الجبهة المصرية سواء بالمال أو الرجال أو العتاد مما أعاد للجيش الإسلامى قوته ورفع من روحه المعنوية ، وأخذ في إقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة ، وتم تجهيز البحرية تجهيزاً قوياً حتى تمكنت من تطويق البحرية الصليبية من بحر المحلة^(٢) . وفي الواقع أن فشل الحملة من هذا الجانب مرجعه

(١) أحمد شلى : الحروب الصليبية ص ٧٣ .

(٢) أنظر ما سبق ص ٣٢٦ .

إلى المندوب البابوي بلاجيوس لإتخاذ قرار الزحف في هذا الوقت غير المناسب ضارباً بنصائح الملك جان دي برين عرض الحائط سواء فيما يتعلق بموعد الزحف أو بحراسة بحر المحلة الذي بدأت منه أولى الهزائم التي لحقت بالصليبيين بعد ما سيطرت البحرية الإسلامية على سفن الصليبيين .

والى جانب العامل السياسى وإختيار الطريق الخطأ للزحف صوب القاهرة وإهمال عامل الوقت ، فمن الأسباب الرئيسية التى أدت إلى فشل الحملة ما يرجع إلى الملك جان دي برين شخصياً . فلم يحظ الملك الصليبي بطاعة كافة رجال الجيش^(١) . ويرجع ذلك إلى الدعاية التى روجها ضده المندوب البابوي بأنه ليس ملكاً وإنما وصياً . ولم يكن لبلاجيوس من وراء ذلك إلا هدف محدد هو هدم شخصية الملك فتعلوا شخصيته على كل أفراد الحملة وبذلك تتحقق له الزعامة المطلقة . وقد أدت هذه السياسة إلى إنقسام الجيش الصليبي إلى فرق وشيع أحداها يسانده الملك والأخرى تؤيد المندوب البابوي الذى تسانده السلطة الروحية ممثلة فى رجال الدين . ونجحت سياسة بلاجيوس وطفى بشخصيته على شخصية الملك الذى سلم بالأمر الواقع وانتحل الاعذار وعاد إلى عكا وبقي بها أكثر من عام مما أعطى بلاجيوس فرصة ثمينة لاعلاء كلمته وإتخاذ قرار الزحف على مصر متغافلاً سلطة الملك . وفى الواقع فإن الملك الصليبي أصبح لا حول له ولا قوة بعد ما ركب بلاجيوس قمة القيادة على الحملة التى منحه إياها البابا . هونوريوس الثالث بعد رحيل الملك . ورغم ما اتصف به الملك جان دي برين من شهامة وشجاعة وخبرة عسكرية ، فلم تكن له الهبة أو الشخصية القوية لقيادة جيش صليبي دولي^(٢) .

إذا كانت هذه الأسباب الرئيسية تتعلق بالقيادة الصليبية فهناك بعض الأسباب الأخرى التى تتعلق بالقوات الصليبية نفسها . فقد كان الصليبيون

Duggan, op. cit., p. 220.

(١)

Runciman, op. cit., III, p. 170.

(٢)

كثيرا ما يتصرفون من تلقاء أنفسهم والأمثلة على ذلك كثيرة . منها أن بعض القوات قررت الهجوم على القوات الإسلامية عندما كانت ترابط فارسكور ، وكان لها ما أرادت مما تسبب في قتل المئات من الصليبيين . كما كانت هذه القوات ترحل إلى بلادها عندما يحلو لها الرحيل غير عابئة بالأوامر التي تصدر من قادتها أو بالتهديد بقرار الحرمان . أضف إلى ذلك الخلافات التي نشبت بينهم بسبب تقسيم الغنائم التي أدت إلى الصدام المسلح . وعلاوة على ما تقدم فإن القوات الصليبية قد إنغمست في الفساد واللهو طوال بقائها في دمياط . وإن دل ذلك على شيء فأنما يدل على الانهيار الخلقى عند الصليبيين أنفسهم وضعف القيادة أيضا . هذا فضلا عن عدم إكتراث بعض القادة الصليبيين بالأوامر التي تصدر اليهم مثل ما حدث من لويس دوق بافاريا عندما تناسى التعليمات التي تلقاها من الامبراطور فريدريك بعدم القيام بأية عملية عسكرية كبيرة إلا بعد حضوره^(١) . ورغم ذلك فقد كان من المؤيدين لفكرة الزحف إلى القاهرة مع بلاجيوس .

وإذا تركنا أسباب الفشل التي ترجع إلى الجانب الصليبي وانتقلنا إلى الجانب الأوربي ، فنجد أن البابوية ضالعة في المسؤولية . ويرجع ذلك إلى أن الحملة الصليبية الخامسة قد وضعت تحت القيادة البابوية للسيطرة عليها وحتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الرابعة . وكان إختيار البابا هونوريوس الثالث للكاردينال بلاجيوس مندوبا عنه في الحملة ، ثم إعطائه من السلطات ما جعله يتعالى على الملك جان دي برين ، وعدم حسم الخلاف الذي نشأ بين الملك والمندوب الذي تصاعد إلى ضراع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية على مستوى الحملة بأكملها - كل هذا قد أسهم في هزيمة الحملة - إلى جانب العوامل السابقة^(٢) . أضف إلى ذلك أن شخصية البابا هونوريوس الثالث لم تكن من القوة التي يخشاها بلاجيوس ويعمل لها حسابا ، وإلا لما تصرف من

Duggan, op. cit., p. 219.

La- Mont, op. cit., p. 500.

(١)

(٢)

· تلقاء نفسه برفض العرض الإسلامى بالصلح دون الرجوع إلى البابا حسب التعليمات التى صدرت منه إليه .

ومن الأخطاء التى إرتكبتها البابوية وأدت إلى فشل الحملة وهو عدم اختيار الوقت المناسب لإرسال الحملة ، ففى ذلك الوقت كانت الروح الصليبية قد تقلصت عند الأوربيين . فلم يعد لديهم الحماس الكافى للانخراط فى صفوف الحملات الصليبية القادمة إلى الشرق . أضف إلى ذلك قيام الحملة الألبيجنسية والحروب الدائرة بين المسلمين والمسيحيين الغربيين فى أسبانيا الأمر الذى أمتص جهداً ومالاً ورجالا كان من الممكن الاستفادة بهم وضمهم إلى إمكانات الحملة الخامسة . وفوق هذا كله الصراع الذى كان دائراً بين ملوك أوربا من أجل تدعيم مراكزهم^(١) ، مما أعجز البابا هونوريوس الثالث عن إرسال الامبراطور فريدريك الثانى إلى دمياط .

ونخص فريدريك الثانى بالذات لأنه كان قد وعد بتحرير الأراضى المقدسة منذ عهد البابا أنوسنت الثالث^(٢) ، كما حمل الصليب عندما توج فى آخن^(٣) فى الخامس والعشرين من يوليو ١٢١٥ م^(٤) . وقام ببحث الشعب الألمانى على الانخراط فى صفوف الحملة بعد ما تقررت فى مجلس اللاتيران الكنسى . ولذلك عقد عليه البابا إنوسنت الثالث الآمال الكبار فى قيادة الحملة المرتقبة التى تحدد لها أول يونية ١٢١٧ م . (٢٢ ربيع أو سنة ٦٦٤ هـ) للانبحار إلى الشرق . ولم يظهر فريدريك الثانى أية علامة تشير إلى الوفاء بوعده للرحيل مع الحملة فى الموعد المحدد وللحاق بها ، فارسل مونتفرات Montferrot رئيس دير القديس جال Gall يعتذر للبابا هونوريوس الثالث عن الذهاب مع القوات الصليبية بسبب مشاكله مع أوتو ، وحتى يتمكن من تأمين مملكته . ولكى تبهر الحملة

Gibbon, op. cit., p. 71.

(١)

Ludlow, The Age of The Crusaades, p. 14

(٢)

آخن ، هى مدينة اكس لا شابل الألمانية .

(٣)

Rohricht, Beitrage Zur Grschichte der Krenzzuge, pp. 3-4

(٤)

في موعدھا طلب البابا من أندرو ملك هنغاريا قيادة الحملة في الوقت الذي لم يستطع فيه القيام بعمل ما ، سوى معاتبة الامبراطور والأمراء الذين ساندوه على عدم الوفاء بوعدھم في الموعد المحدد^(١) .

وبعد ما تطورت الحوادث ووطأت أقدام الصليبيين أرض مصر ، طلب البابا من الامبراطور اللحاق بالحملة ولكنه اعتذر مرة أخرى في الثاني عشر من يناير عام ١٢١٩ م (٢٣ شوال سنة ٦١٥ هـ) وكانت حجته في ذلك أن هنري دوق برونزويك أصبح يهدد ملكته^(٢) . وأعلن وهو يطلب التأجيل هذه المرة بأن أى إنسان لا يفى بوعدہ ويلحق بالحملة حتى الرابع عشر من يونية من نفس العام (٢٧ ربيع أول ٦١٦ هـ) يستحق أن يصدر ضده قرار الحرمان . ولكنه عاد مرة أخرى وأخبر البابا بأنه سوف لا يتمكن من اللحاق بالحملة في هذا الموعد ، فحدد له البابا شهر أكتوبر من نفس العام (رجب - شعبان ٦١٦ هـ) ليكون موعدا يلحق به بقوات الحملة المحاصرة لدمياط . ولكن فريدريك اقترح أن يكون الحادى والعشرين من مارس عام ١٢٢٠ م (١٤ محرم ٦١٧ هـ) موعدا للرحيل ، ولكى يظهر الامبراطور حسن نواياه كان يرسل الامدادات إلى الحملة مثل ما حدث عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) وعام ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ)^(٣) . ومن الملاحظ أن القوات الصليبية كانت تسير في عملياتها العسكرية عاقدة الأمل على حضور الأمبراطور فيشتد به ساعدها ، وتتمكن من إلحاق الهزيمة الكاملة بالقوات الإسلامية وتغزو مصر .

ويبدو أن البابا قد أحس بأن الامبراطور لا ينوى الذهاب إلى مصر في الموعد الجديد فأسرع وأرسل اليه كونراد أف متز Conrad of Metz في السادس عشر من فبراير عام ١٢٢٠ م (١٠ ذو الحجة ٦١٦ هـ) يذكره بالذهاب إلى مصر ويوضح له أن دمياط أصبحت في يد الصليبيين منذ الخامس من نوفمبر

Wiegler, The Infidel Emperor p. 98. (١)

Brehier, op. cit., p. 197. (٢)

Rohricht, op. cit., p. 7. (٣)

عام ١٢١٩ م (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ) . وفي الواقع لم يكن البابا وحدة هو الذى يطالب الامبراطور بالرحيل ، فان القيادة الصليبية من دمياط كانت تكتب اليه هي الأخرى تبلغه ما دار من أحداث على أرض مصر ، وتطالبه بالحضور اليها^(١) . ولكن الامبراطور لم يكن مستعدا للرحيل هذه المرة أيضا وطلب مهلة أخرى فحدد البابا أول مايو ١٢٢٠ م (٢٥ محرم سنة ٦١٧ هـ) بدلا من مارس، وأبدى فريدرىك من الأعمال ما يشير إلى تنفيذ وعدة . ولكنه عاد وأعلن أنه سيذهب إلى مصر فى أغسطس عام ١٢٢١ م (جمادى الآخرة - رجب ٦١٨ هـ) ووعد بإرسال بعض الامدادات للحملة ، وفعلا وصلت امداداته فى مايو ١٢٢١ م (ربيع ثان ٦١٨ هـ) ، ثم اعقبتها امدادات أخرى فى الوقت الذى لحقت الهزيمة بالقوات الصليبية ، فكان وصولها بعد فوات الأوان .

والواضح أن الامبراطور لم يكن لديه نية القدوم إلى مصر فى ذاك الوقت ، كما أنه وجد فى تلهف البابا عليه للذهاب إلى مصر فرصة لتحقيق أطماعه فى أوربا . ذلك أن ابنه هنرى السابع كافى يتولى عرش صقلية ، ثم عمل على توليته على ألمانيا ، وحقته فى ذلك أنه لا يستطيع التوجه إلى الشرق دون أن يترك ابنه ملكا على ألمانيا . وكان الغرض الحقيقى من وراء ذلك هو توحيد عرش صقلية وألمانيا والتهرب من اللحاق بالحملة ، وقد تم ذلك رغم إحتجاج البابا . ومن جانب آخر فان الامبراطور فريدرىك إستغل الحملة فى الحصول على اللقب الامبراطورى ، وساوم البابا ليقوم بتتويجه ليتوجه بعد التتويج إلى مصر . وبالفعل إنخدع البابا فى نوايا الامبراطور وكتب إلى المندوب البابوى بلاجيوس فى الرابع والعشرين من يوليو عام ١٢٢٠ م بأن فريدرىك سيتوج إمبراطورا فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٠ م ، وأنه بدون شك ستوجه بعد ذلك

(١) كانت الخطابات ترسل تباعا من دمياط إلى البابا وإلى كبار الشخصيات فى أوربا ومنهم الامبراطور فريديريك وعلى سبيل المثال ما أرسل فى ١٠ ، ١١ ، ١٢ نوفمبر ١٢١٩ م . أنظر : Rohricht, Funften, Funfen Kreuzzuges, pp. 39-43.

إلى مصر^(١) . وانتهى عام ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) دون أن يتوجه فريدريك إلى دمياط . وفي بداية عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عاد فريدريك للمراوغة مرة أخرى وأرسل أوجليينو أف أوستيا Ugalino of Ostia مندوبا عنه إلى شمال إيطاليا لجمع المال والجنود لدعم الحملة^(٢) ، وتعهد في ذاك الوقت مرة أخرى بالتوجه إلى مصر في أغسطس من العام نفسه (جمادى الآخرة - رجب ٦١٨ هـ)^(٣) . ويبدو أن البابا هونوريوس الثالث كان رجلا ساذجا وأعتبر وعود فريدريك الثاني وعودا صادقة ، فقد ظل يبعث بالرسائل إلى الصليبيين يخبرهم بأن يترقبوا وصول الامبراطور فريدريك وجيشه في القريب العاجل^(٤) . وبعد فوات الأوان تنبه البابا إلى نوايا فريدريك الثاني وكتب إلى مندوبة بلاجيوس في العشرين من يونيه عام ١٢٢١ م (٢٧ ربيع الثاني ٦١٨ هـ) يخبره أن الامبراطور لم يصل قريبا إلى دمياط ، وعليه أن يتصرف بنفسه^(٥) ، خاصة أن الملك جان دي برين كان غائبا عن الحملة مقيما بعكا في هذا الوقت . ونظرا لما أبداه الامبراطور فريدريك الثاني من إهمال للحملة ، وعدم الوفاء بوعدده واللحاق بالقوات الصليبية التي سبقته ، هذا بالإضافة إلى المراوغة التي إتبعها مما أضاع كثيرا من الوقت على القوات الصليبية ، فقد اعتبره بعض المؤرخين المحدثين الأجانب مسئولاً عن فشل الحملة^(٦) .

هذه هي العوامل الصليبية والأوربية التي أدت إلى فشل الحملة . ولكن في الحقيقة هناك عامل هام جدا يرجع اليه الفضل الأول في الهزيمة العسكرية التي لحقت بالقوات الصليبية ، وهذا العامل هو الجانب الإسلامي بقيادة الملك

Donovan, op. cit., pp.77-8. (١)

Rohricht, op. cit., p. 9. (٢)

Wiegler, op. cit., p. 105. (٣)

Runciman, op. cit., III, p. 164. (٤)

Rohricht, Ibid. (٥)

Duggan, op. cit., p. 120. Stevenson, op. cit., p. 307, Rohricht, (٦)

Geschichte der Kreuzzuge im Umriss, p. 211.

الكامل ومساندة الملك المعظم . فان الفضل يرجع إلى الملك الكامل في إعداد خط دفاع العادلية في مواجهة الصليبيين . إذ ظل صامدا هو وقواته طوال ثمانية أشهر ، ولكنه اضطر للتراجع نتيجة مؤامرة ابن المشطوب التي ساعدت القوات الصليبية على العبور إلى الضفة الشرقية وحصار دمياط . وبأق دور أخيه الملك المعظم في دفع هذا الخطر وإزالة ابن المشطوب من المعسكر الإسلامي . ثم أعاد الأخوان تنظيم القوات الإسلامية مرة أخرى وبدأ الكامل في جمع المال والرجال لدعم الجبهة المصرية في الوقت الذي تولى فيه المعظم الجبهة الشامية والضغط على أملاك الصليبيين في الشام وهدم القلاع الإسلامية خشية إستيلاء الصليبيين عليها بعد ذلك ، وتركها بحالة يتيسر على المسلمين إستردادها إذا ما سقطت في يد الصليبيين . أضف إلى ذلك الجهود العظيمة التي قام بها لجمع الإمدادات من الشام وأرسالها إلى أخيه الكامل . حقيقة أن كافة ملوك البيت الأيوبي تعاونوا في إرسال هذه الإمدادات ، ولكن دور الملك المعظم كان أبرزها على الإطلاق ، فانه لم يتوان لحظة عن إنجاد أخيه الكامل وإنقاذ دمياط . وفي الحقيقة فان عامل الوقت الذي أهمله الصليبيون كان عاملا من أهم العوامل التي ساعدت المسلمين على إعداد هذه الإمدادات ، وجعلت من الميسور على الملك الكامل إستقبالها وإنزالها في الأماكن الحصينة التي تناسبها . أضف إلى هذا أن الملك الكامل قد استفاد من تراخي الصليبيين في الزحف صوب القاهرة ، وأقام مدينة المنصورة وهي الصخرة التي تحطمت عليها آمال الصليبيين فعلا .

كما أن الفضل الأكبر فيما لحق بالصليبيين من هزيمة يرجع إلى خطط الملك الكامل البحرية والبرية . ذلك أنه تمكن من تطويق الصليبيين بحرا عن طريق السفن التي سيرها في بحر المحلة وضرب مؤخرة الأسطول الصليبي وقطع الاتصال بين القوات الصليبية المتقدمة وبين قاعدتها في دمياط في الوقت الذي طوقت فيه القوات الصليبية من الخلف . هذا ، بالإضافة إلى إختيار الوقت المناسب لكسر الجسور وإغراق القوات الصليبية بينما حملت القوات الإسلامية على الصليبيين حملة شعواء . فقد كان لهذه العوامل التي تمت في وقت واحد

تقريبا أثرها البالغ في إنهالك القوى الصليبية وتبديد قواها والحاق الهزيمة النكراء بها دون خسارة عسكرية تذكر في الجانب الإسلامى . وعلى ذلك تعتبر الخطة العسكرية التى أعدها الملك الكامل العامل الأساسى فى هزيمة القوات الصليبية وفشلها فى تحقيق أطماعها .

هكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة على مصر سياسيا عندما رفضت عرض الصلح الذى تقدم به الملك الكامل أكثر من مرة للقيادة الصليبية بسبب تعصب المندوب البابوى بلاجيوس . وكذلك بفعل جهل الصليبيين بطبوغرافية ميدان المعركة ، وإهمالهم العامل الزمنى الذى يعتبر من أهم عوامل الحروب فى أى زمان ومكان . أضف إلى ذلك ازدواج القيادة على الحملة ، وفساد وتهور وعصيان القوات الصليبية وعدم توفيق البابا فى إختيار مندوبة على الحملة ، وكذلك إخفاقه فى تحديد الوقت المناسب لقيام هذه الحملة ، وانشغال الامبراطور فريدريك الثانى بأمر دولته فى أوروبا عن اللحاق بالحملة فى دمياط . ويكفل هذه العوامل جميعها لإتحاد الجبهة المصرية والشامية جيشا وشعبا وعلى رأسها القيادة الرشيدة التى إضطلع بها الملك الكامل محمد فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر التى تمكنت من رد المعتدين على أعقابهم مدحورين .

خاتمة

- تخريب مدينة تنيس .
- حملة الامبراطور فريدريك الثاني على الشام .
- تقلص الروح الصليبية .
- نهاية الامارات الصليبية بالشام وموت الفكرة الصليبية .

رحلت الحملة الصليبية الخامسة عن دمياط تجر وراءها أذبال الخذلان ، بعد أن قضت فيها وعلى شاطئها الغربى والشرقى الفترة الواقعة بين الثالث من ربيع أول عام ٦١٥ هـ إلى التاسع عشر من رجب عام ٦١٨ هـ (٣ مايو ١٢١٨ م إلى ٨ سبتمبر ١٢٢١ م) . هكذا غادرت الحملة مصر وهى تحمل عار الهزيمة بعد أن فشلت فى تحقيق أهدافها . وقد ترتب على ذلك نتائج مباشرة وأخرى غير مباشرة .

أما النتائج المباشرة فأولها يتعلق بمدينة تنيس . إذ كانت هذه المدينة هدفا لغارات الفرنج منذ بداية الحركة الصليبية . ولهذا الغرض فقد تم إخلائها ونقل أهلها إلى دمياط عام ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) . ولم يبق بها غير حاميتها التى كانت تحمى قلعتها . وقد استولت عليها القوات الصليبية فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٢١٩ م (١٤ رمضان ٦١٦ هـ) وبعد سقوط دمياط فى أيديهم بثمانية عشر يوما . وفى عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وبعد جلاء القوات الصليبية عن البلاد بحوالى ست سنوات أمر الملك الكامل محمد بتخريبها ، وذلك بسبب كثرة غارات الصليبيين عليها^(١) . فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكيئة ، ولم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة^(٢) . وهكذا إختفت مدينة تنيس المشهورة بصنع الثياب المعروفة بالتنيسى التى كانت تكسى بها الكعبة^(٣) ويلاحظ أن هدمها قد أضاع على الخزانة الأيوبية آلاف الدنانير التى كانت تؤول اليها سنويا كعائد عليها من وراء وجود المدينة وإشتغال أهلها بصيد الأسماك من بحيرتها . ولكن السلطات الأيوبية آثرت دكها حتى تأمن شر إعتداء الفرنج عليها مرة أخرى .

(١) أبو الفدا . تقويم البلدان ص ١١٨ - ١١٩ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٢ حاشية (٢) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٤ .

(٣) ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ١ ص ٨٨٢ . المقرئى : الخطط . ج ١ . ٢٨٦ ، ٢٩٢ - ٢٩٣ .

والنتيجة الثانية المباشرة لهزيمة الحملة وفشلها ، هي قيام حملة صليبية أخرى ونعني بها حملة الإمبراطور فريدريك الثاني المعروفة بالحملة السادسة في عداد الحركة الصليبية . وموجز أخبار هذه الحملة أن الإمبراطور فريدريك الثاني قد وعد أكثر من مرة بقيادة الحملة الصليبية الخامسة . ولكن هذا الوعد لم ينفذ ورحلت القوات بدونه ووطأت أرض مصر على أمل أن يلحق بها . وأرسل القادة الصليبيون ورجال الدين إلى البابا يحثونه على دفع الإمبراطور للحاق بالحملة في دمياط . وانتحل الإمبراطور العذر بعد الآخر حتى هزمت الحملة وجلت عن مصر . وألقى البعض اللوم عليه واعتبروه السبب في فشل الحملة . ورغم ذلك فقد كان لدى البعض أمل كبير في أن يتولى الإمبراطور قيادة حملة أخرى لغزو مصر وتحقيق الهدف الذي فشلت فيه الحملة الخامسة . كما أن الملك الصليبي جان دي برين توجه إلى إيطاليا لاستجداء البابا في إرسال المساعدات لبيت المقدس ، وزار أسبانيا وإنجلترا وفرنسا لنفس الغرض . وفي هذه الجولة زوج ابنته إيزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس الاسمية إلى الإمبراطور فريدريك الثاني في عام ١٢٢٥ م^(١) ، وقد بارك البابا هونوريوس الثالث هذا الزواج حتى يصبح للإمبراطور مصلحة فعلية في التوجه بحملته إلى الشرق . وتعهد فريدريك بالقيام بحملته في أغسطس عام ١٢٢٧ م (شعبان - رمضان ٦٢٤ هـ)^(٢) . ومع ذلك ظل يتباطأ في القدوم بحملته المزعومة إلى الشرق مما دفع البابا جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) إلى إصدار قرار الحرمان ضده في التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٧ م^(٣) :

ولعل هذا التصرف من قبل الإمبراطور يرجع إلى عدم توفر الحافز الذي يدفعه للدخول في حرب ضد الاسلام والمسلمين بالذات ، وهو الذي نشأ في

Kantorowicz, Fredericke the Second p. 139

(١)

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ ص ١١٢ .

Kantorowicz, op. cit., p. 139.

(٣)

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٣١ .

صقلية في كنف الحضارة الإسلامية وشب على حب المسلمين وحضارتهم .
ومن هنا قامت علاقة الود والصداقة بينه وبين الملك الكامل ، لأن الأخير كان
صورة شرقية الامبراطور^(١) . وكان كلاهما بفكرهما يسبقان العصر الذي
يعيشان فيه . فكل منهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته
بالسياسة والطرق السلمية^(٢) .

ورغم ذلك فقد دفعت الظروف الامبراطور للخروج بحملته إلى الشرق
وجاءت الأسباب التي دفعت به إلى ذلك من قبل المسلمين أنفسهم . فقد ساءت
العلاقات بين الملك الكامل وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، واتصل
المعظم بجلال الدين خوارزم شاه^(٣) (٦١٨ - ٦٢٨ هـ / ١٢٢١ -
١٢٣١ م) ملك الدولة الخوارزمية ووطد علاقته به ليستعين به إذا هاجمه
أخوه الكامل . وسعى الكامل من جانبه بعقد صلات الود والصداقة مع
الامبراطور فريدريك الثاني وأرسل إليه الأمير فخر الدين يوسف يطلب منه
الحضور إلى الشام ليسلمه بيت المقدس^(٤) . وهكذا إنقرط عقد الدولة الأيوبية
وأصبح بيت المقدس عرضة للضياع .

وساعد على قيام الإمبراطور الألماني بحملته إصرار البابا جريجوري التاسع
على ضرورة توجهه إلى الشرق دون إبطاء^(٥) . وبذلك كان على الامبراطور
الذهاب إلى الشرق لإرضاء البابوية من ناحية واستلام البيت المقدس سلماً من
الملك الكامل من ناحية أخرى .

ووصل فريدريك إلى عكا عن طريق قبرص في أبريل ١٢٢٨ م (جمادى

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٥ - ٩٩٦ .

(٢) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ج ٢ ص ١١٤ .

(٣) عن شخصية جلال الدين أنظر : فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص ٩٧٣ وما بعدها .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ١
ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٥) The Cambridge Medieval History. Vol, 6. p. 146.

الأولى ٦٢٥ هـ) ومعه حوالى خمسمائة فارس بعد أن سبقته إليها قوات الحملة^(١) وكان وصوله إليها بعد وفاة الملك المعظم وتولى ابنه الناصر داود (٦٢٤ - ٦٢٦ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٢٩ م)^(٢) ، ولما كان العاهل الأخير قد اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة^(٣) ، لذلك أصبح الكامل فى غير حاجة إلى مساعدة الامبراطور فريدريك الذى أدرك ذلك وأصيب بخيبة أمل شديدة لتبدل الموقف^(٤) ، خاصة وأنه خرج من أوروبا وهو محروم من الكنيسة معتمدا على وعد الكامل له لاعلاء شأنه بين ملوك أوروبا^(٥)

أما موقف الكامل فقد كان أشد حرجا من الامبراطور ، فهو يخشى الاصطدام بالصليبيين لتخوفه من الخوارزمية والمغول من خلفهم ، فضلا عن الخلافات الداخلية بين أفراد البيت الأيوئى . ومما زاد فى تخرج الملك الكامل أن البابا أرسل اليه يحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور حتى لا يكسبه ذلك شرفا ونصرا على البابوية^(٦) .

وإزاء هذه الظروف لم يبق أمام فريدريك غير سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية لتحقيق هدفه واستلام بيت المقدس^(٧) . وانتهى الأمر بين الكامل وفريدريك بعقد صلح يافا فى الثانى والعشرين من ربيع أول ٦٢٦ هـ (١٨ فبراير ١٢٢٩ م)^(٨) . وينص هذا الصلح على أن يتسلم الامبراطور بيت المقدس باعتبارها ملكا للصليبيين بشرط أن تظل خربة على

(١) Mas Latrie, op. cit., I, pp. 233 - 246.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠١ ، ١٠٠٢ .

(٣) - المقرئى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٢٥ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠٤ - ١٠٠٥ .

(٥) Wiegler, op. cit., p. 136.

(٦) Kantrowicz, op. cit., p. 184.

(٧) Wiegler, op. cit., p. 136.

أنظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠٩ .

(٨) Mas Latrie, op. cit., I, p. 249 .

تحالها ، ولا يجدد سورها ، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم للصليبيين فيها ، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام من الآذان والصلاة . يضاف إلى ذلك استلام الصليبيين لبيت لحم والناصرة^(١) وتبنين^(٢) . وان يطلق الكامل ما عنده من الأسرى الصليبيين نظير أن يتعهد فريدريك بمحالفته ضد أعدائه حتى ولو كانوا من الصليبيين . وكذلك تم الاتفاق على عدم وصول إمدادات صليبية أخرى إلى الإمارات الصليبيتين في الشام وهما أنطاكية وطرابلس وأن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشرة سنوات^(٣) .

وهكذا استطاع فريدريك الثاني أن يستولى على بيت المقدس دون إراقة الدماء رغم ضعف امكانياته ، وأن يحقق ما عجزت عنه الحملتان الصليبيتان الثالثة والخامسة رغم ضخامة الامكانيات التي حشدت لهما^(٤) .

وقوبلت هذه المعاهدة بالغضب في الغرب والشرق على السواء . فقد ثار الصليبيون لأنهم كانوا لا يرون مسألة المسلمين ويعتقدون بوجوب محاربتهم^(٥) وثار المسلمون ضد الملك الكامل لتفريطه في أملاك المسلمين^(٦) .

ومهما يكن الأمر فقد ظلت الهدنة قائمة بين المسلمين حتى عام ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) حيث قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى دعا إليها البابا

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٣١٥ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

(٢) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٣١ .

(٣) Wiegler, op. cit., pp. 136-7.

أنظر أيضا . جمال الدين النشال المرجع السابق ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠١١ .

(٥) Fahri, op. cit., Vol 2. part I, p. 363.

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٥ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٢١ .

جوريجورى التاسع واستجاب لها بعض الفرسان الفرنسيين وعلى رأسهم تيبوت الرابع Thibaut IV أمير شامباني وملك نافار ، وهيو الرابع Hugh IV أمير برجنديا ، وبطرس . موكلرك Peter Manclerc أمير بريتاني وغيرهم^(١)، ووصلت هذه الحملة إلى عكا في أول سبتمبر ١١٣٩ م (٣٠ محرم ٦٣٧ هـ) .

وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بوصول الصليبيين تذرع بنقض الصليبيين لصلح يافا وقيامهم بتحسين القدس وطردهم منها^(٢) ، وإنهى أمر الحملة باستلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان^(٣) ، بالإضافة إلى قلعة شقيف أرنون وأعمالها وقلعة صفد وبلادها وبعض البلاد الأخرى^(٤) .

ولم تكد هذه الحملة تغادر الأراضى المقدسة حتى وصلتها حملة أخرى تعرف باسم الحملة الإنجليزية في الحادى عشر من أكتوبر عام ١٢٤٠ م (٢٢ ربيع ثانى ٦٣٨ هـ) وعلى رأسها ريتشارد أف كورنول Richard of Cornouall أخو هنرى الثالث ملك إنجلترا^(٥) . وقد نجحت الحملة في تأكيد حق الصليبيين فى ملكية بيت المقدس ، واقتل الجليل وشقيف أرنون وعسقلان ومجدل يابا^(٦) .

ولم يمضى وقت طويل على رحيل هذه الحملة حتى تمكن الصالح نجم الدين أيوب بمساعدة الخوازمية من إستعادة بيت المقدس فى عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) ، وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة .

(١) Eracles, op. cit., pp. 413-4.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٢٤ .

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٤) المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

(٥) Mas Latrie, op. cit., I, p. 315,

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٤٠ . أنظر أيضا :

Grousset, op. III p. 394.

وكان هذا السبب بالإضافة إلى اسباب أخرى دافعا لقيام لويس التاسع بحملته على مصر^(١) ، وكان نصيبها الفشل وأسر قائدها لويس التاسع^(٢) . وكان من الأسباب المباشرة التي ترتبت على حملتي جان دي برين ولويس التاسع على مصر تخریب مدينة دمياط التي عانت الأمرين^(٣) ، وهكذا كانت الحملات الصليبية شؤما على دمياط^(٤) .

ولم تكن حملة لويس التاسع على مصر هي الحلقة الأخيرة في الصراع بين الغرب اللاتيني والعالم الإسلامي . فقد اتجه لويس إلى الشام بعد مغادرته الأراضي المصرية ، ولا يقل الدور الذي قام به في حملته على الشام (٦٤٨ - ٦٥٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٤ م) عن الدور الذي قام به في مصر^(٥) ولكنه فشل في مهمته وعاد إلى فرنسا مجروحا في كرامته وعزته وكبريائه . وبعد ثلاثة عشر عاما أخرى قام لويس بحملته على تونس سنة ١٢٧٠ م (٦٦٠ هـ) بقصد استمالة صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر إلى المسيحية ومواصلة الزحف على مصر ، ولكنه مات وهو على أبواب قرطاج دون أن يتمكن من محو عار هزيمته على ضفاف النيل^(٦) . وقد عجل موته باضمحلال الروح الصليبية وتقلصها . ومع بداية هذا الشعور لدى الغرب الأوربي ضاع أمل الإمارات الصليبية في الشام في أية مساعدة تأتي إليها من هناك^(٧) .

-
- (١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٤٨ - ٥٠ . وعن هذه الحملة أنظر ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٤ - ٤٥٦ .
- (٢) Eracles op, cit., p. 433, Matthew Paris, English. History, II, p. 458.
- (٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٢ . حاشية (١) ، ج ٧ ص ٢٣ ، القلقشندي المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٦ .
- (٤) ابن واصل : تاريخ الواصلين (مخطوط) ج ٢ لوحة ٣٧٣ ب .
- (٥) عن هذه الحملة أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على الشام ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١٠٨٣ ص ١١٠٣ ، العصر المملوكي في مصر والشام ص ٥٦ - ٥٧ .
- (٦) عن هذه الحملة أنظر : السراج : الحلل السندسية ج ١ في ٤ ص ١٠٣٢ وما بعدها أنظر أيضا : Joinvills, op. cit., p. 524-531.
- (٧) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٢٨١ - ٢٨٢ والعدوان الصليبي على =

وإذا كان ذلك هو حال الامارات اللاتينية بالشام وقتذاك ، فان المماليك الذين خلفوا الايوبيين في حكم مصر والشام ، لم يكونوا أقل حماسا من سابقهم في طرد الصليبيين من رقعة الشرق الأدنى^(١) . وكان لدولة المماليك البحرية فضل كبير في توجيه الضربة القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامي ، فقد تمكن الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) من الاستيلاء على أنطاكية في رمضان عام ٦٦٦ هـ (مايو ١٢٦٨ م)^(٢) ، وكان عودة هذه المدينة الحصينة إلى أيدي المسلمين نذيرا بانتهاء حكم الصليبيين في الشرق^(٣) . وسار الملك المنصور سيف الدين قلاوون على نهج أسلافه فأستولى على طرابلس في ربيع الثاني سنة ٦٥٨ هـ (إبريل ١١٨٩ م)^(٤) .

وأخيرا في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو ١٢٩١ م) استولى الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالساحل الشامي^(٥) ، ولم يبق إلا بعض الجيوب الضعيفة وهي بيروت وصور وصيدا وحيفا ، وقد تم طرد الصليبيين منها في السنة نفسها ، وانتهى أمر البقية من الوجود الصليبي في الأرض المقدسة^(٦) ، عدا من تحصن منه في جزيرة إرواد^(٧)

== بلاد الشام ص ٣٦٨ . وعن أسباب انصراف الغرب الأوروبي عن الحروب الصليبية أنظر : العنوان الصليبي والرأى العام الغربي ، أمحضرات العام الجامعي ١٩٦٨ / ٦٧ ص ٤٠ وما بعدها .

(١) على ابراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢٧٦ .

(٢) Eracles, op. cit., pp. 456- 7.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ٢٨٣ .

(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٢١ المقرئى : المصدر السابق ج ١ ق ص ٧٤٧ .

(٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٣٤٣ والمختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٥ - ٢٦ ، أبو المحاسن :

المصدر السابق ج ٨ ص ٨ ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٤٧٠ ، المقرئى : السلوك ج

١ ق ٣ ص ٧٦٣ - ٧٦٥ .

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ .

(٧) جزيرة ارواد ، جزيرة إلى الغرب من طرطوس ، يرتفع بناؤها عاليا في الجو وهو حصين وله أربعة

أبواب من الحديد إوتعتبر الجزيرة كلها نقطة حراسة . لى سترايخ المرجع السابق ص ٣١٤ ،

٣١٧ .

التي استولى عليها الناصر محمد في ولايته الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٠ - ١٣٠٩ م) في عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م)^(١).

ورغم انتهاء أجل المعادل الصليبية بالشام في أخريات القرن الثالث عشر الميلادي (أواخر القرن السابع الهجري) فإن الحركة الصليبية لم تمت ، فقد قامت عدة حملات أخرى خلال القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) لعل أهمها حملة بطرس لوزجنان Pierre de Lusignan ملك قبرص اللاتيني (١٣٥٩ - ١٣٦٩ م) على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م (٧٦٧ هـ)^(٢) ومن بعدها صليبية نيقوبوليس عام ١٣٩٦ م (٧٩٨ هـ) التي تحالفت فيها أوربا بأسرها لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان والوصول إلى بيت المقدس . وقد انتهت هذه الحملة بهزيمة القوات الأوربية المتحالفة أمام قوات بايزيد الأول (٧٩١ - ٨٠٤ هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠١ م)^(٣) ولم تقم للصليبيين من بعد ذلك قائمة وإستبد بهم اليأس مما جعلهم ينصرفون عن فكرة الحروب الصليبية وينشغلون بمصالحهم الخاصة التي استحدثتها النهضة الأوربية والعصور الحديثة^(٤) .

وإذا كانت الأراضي المقدسة بخاصة ودول المشرق العربي بعامة قد خضعت للأتراك العثمانيين بعد زوال دول المماليك ، فقد ظلت دول أوربا بعيدة عن منطقة الشرق الأدنى خشيبة القوة العثمانية . ولكن بعد أن بدأت عوامل البضع

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٤٩ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٨ ص ١١ ومن المراجع

الحديثة أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٢٥ - ١٢٢٧ وقبرص والحروب الصليبية ص ٦٢ - ٦٣ والعصر المملوكي في مصر والشام ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٢) Machaut, G. de, Le prise d' Alexandria au Chronique de Roi pierre I de Lusignan, pp. 64 ff.

أنظر أيضا : Atiya, The Crusade in The Later Middle Ages, pp. 345-373

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٥١ - ١٢٥٢ . ولزبد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر : Atiya, op, cit., pp. 433-462.

(٤) جوزيف نسيم يوسف : العنوان الصليبي على مصر ص ٢٨٤ .

تدب في كيان العثمانيين أخذت أوروبا تتطلع مرة أخرى إلى أملاك الدولة العثمانية وبصفة خاصة المشرق العربي . وتمكن الإنجليز والفرنسيون من الحصول على الامتيازات في الشام حتى إستولوا على بيت المقدس في التاسع من ديسمبر عام ١٩١٧ م^(١) ، وعملوا على إقامة دولة إسرائيل في فلسطين لشطر العالم العربي شطرين ، لتزيق وحدته تحقيقاً للأهداف الاستعمارية في المنطقة العربية وهي شبيهة بالأهداف التي من أجلها قامت الحركة الصليبية في آخريات القرن الحادى عشر .

وأن كان هناك ما نخرج به من العدوان الصليبي في العصور الوسطى والعدوان الصهيوني الاستعماري في العصر الحديث فهو ضرورة توحيد القوى العربية لدفع الخطر عن المنطقة وهو ما أكدته الأحداث في الماضي وما يجب أن نستفيد منه في عالمنا الحاضر .

Antonijs, G., The Arab Awakening, p. 229.

(١)

المصادر والمراجع

مختصرات لبعض المصادر والمراجع
مجموعات الحروب الصليبية
دوائر المعارف
المصادر الأجنبية
المخطوطات العربية
المصادر العربية
المراجع الأجنبية
المراجع العربية والمعربة

240

مختصرات لبعض المصادر والمراجع

A.O.L.	- Les Archives de l'Orient Latin.
Ency. Brit.	- Encyclopaedia Britannica.
Ency. Intr.	- Encyclopaedia International.
G.D.F.	- Bongars, Gesta Dei per Frances.
Hist. Part. Alex.	- L'Histoire des Patriarches d'Alexandrie.
L.F. Crusade.	- The Leaders of The Fifth Crusade.
Mon. Cart.	- Y. Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.
R.H.C.H. Occ.	- Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux.
R.O.L.	- Revue de l'Orient Latin.

مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed.) Gesta Dei per Frances, sive orientalium expeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095. ad 1420) a variis sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2t Hanover 1611.

Michaud, J., Bibliothèque des Croisades. 4 vols. Paris, 1829 :

- I. Chroniques de France;
- II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;
- III. Chroniques d'Allemagne, des Pays du nord, grecques;
- IV. Chroniques arabes.

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres; in 16 huge folio vols, 1841-1906.

- I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844 - 1845);
- II. Historiens Orientaux, (Arabes), 5 tomes (1872- 1906);
- III. Historiens Grecs, 2 tomes (1876 - 1881);
- IV. Documents Arméniens, 2 tomes (1869 - 1906);
- V. Lois, 2 tomes (1841 - 1843).

Les Archives de l'Orient Latin. publiées par la Société de l'Orient Latin.
2 vols. Paris. 1881 et 1887. Textes, inventaires, et études originales.

Palestine Pilgrims Text Society. 13 vols. and general Index. London, 1887-1897.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogué et Ch. Schefer. Paris. 1893-1911.

دوائر المعارف

Encyclopaedia (An) of The World History, London, 1948.
Encyclopaedia Americana. 29 Vol & Index. New-York 1944-5.
Encyclopaedia Britannica. 22 Vol. & Index. Chicago 1968.
Encyclopaedia International 19 Vol. & Index. New-York 1970.
Encyclopaedia (The) of Islam. Vol. I-III. Leiden 1960-71.

المصادر الأجنبية

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس - ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور
حسن حبشي - القاهرة دار الفكر العربي ١٩٨٥ .

Albertus Standensis,

Chronique se Terminant en L'an 1256, cf, Y. Kamal, Mon. Cart. t. III, fase. IV. 1934. (p. 938).

Alexandre III,

Lettre au Pretre-Jean 1177, cf, Y. Kamal, Mon. Cart. t. III fase. IV, 1934. (pp, 891 - 2) .

Annales de Terrr Sainte, |cf. A.O.L., tome II, Paris, 1884. (pp. 429-461).

Burchard of Mount Slon,

A Description of The Holy Land, tran. from The Original Latin by Aubrey Stewart, London, 1896.

Chronique de Tours, |d'Auteur Inconnu et se Terminant en 1227, cf, Y. Kamal, Mon. Carn. t. III. fase. IV, 1934. (p. 938).

كلارى ، روبرت :

سقوط القسطنطينية - ترجمة الدكتور حسن حبشي - القاهرة - مركز
كتب الشرق الأوسط - ١٩٦٤ .

Devizes, Richard of, & Vinsauf, Geoffrey de, Crusade of Richard Coeur de Lion, tran. by Colonel Johnes Hofod. Chronicles of the Crusades Bohn's ed. London, 1848. (pp. 2-339).

Eracles,

L'Estoire de Eracles Empereur et la Conquete de la Terre d'Outremer, cf. R.H.C.-H. Occ , t. II, 2e. partie, Paris, 1859. (pp. 1-481).

Fabri, Felix,

The Book of Wandering (1480- 1483), 2 Vol, 4 parts. tran. by Aubrey Stewart. London, 1893.

Frederick II,

Promise to Innocent III 1213, cf. Thatcher, O., A Source Book for Mediaeval History, New-York, 1904. (pp. 230-232).

Gesta Crucigorum Rhenanorum, (Les Exploits de Croisés Rhénons), écrits entre 1217 et 1219, cf. Kamal, Mon, Cart, t. III, fasc, IV, 1934. (p. 938).

Histoire des Archevêques Latins de L'île de Chypre, cf. A.O.L. tome II, Paris, 1884. (pp. 207-328).

Innocent III,

Announce a Crusade in The Lateran Council 1215, cf. Thatcher, O, A Source Book for Mediaeval History. New-York, 1905. (pp. 537-544).

Innocent III,

Lettre to The English Barons 1216, cf. Thatcher, O., A Source Book for Mediaeval History. New-York. 1905 (pp. 219-220).

Innocent III,

Letter to the People of Vienne 1198, cf, Thatcher O., A Source Book for Mediaeval History. New-York, 1905, (pp. 535-537).

Joinville, Jean Sire de,

Memoirs of Louis IX. King of France (commonly called Saint Louis), tran, by Colonel Johnes of Hafod, cf. Chronicles of The Crusades. Bohn's ed. London, 1818. (pp. 341- 556).

L.F. Crusade,

I- Letter to The Pope Honorius III, dated 5 June 1218, cf. Rohricht,

R., Funften Kreuzzuges, Innsbruck, 1891. (pp. 39-40).

2- | Letter to The Pope Honorius III, dated 10 nov. 1219, cf. Rohricht,
R., Funften Kreuzzugest. Innsbruck, 1891 (pp 41-43).

3- | Letter of The Pope Honorius III, dated 11 nov. 1219, cf. Rohricht,
R., Funften Kreuzzuges Innsbruck, 1891. (pp. 44-46).

4- | Letter to The Pope Honorius III, dated 12 nov. 1219, cf. Rohricht,
R., Funften Kreuzzuges Innsbruck, 1891. (pp. 46-48).

Ludolph von Suchem,

. Description of The holy Land, tran. by Aubrey Stewart, London,
1895.

Machaut, Guillaume de,

Le Prise d'Alexandrie ou Chronique du Roi Pierre I de Lusignan,
Publiee pour La Premiere fois pour La Societe de L'Orient pas Mas
Latrie, Geneve, 1877.

Matthew of Westminster,

The Flowers of History, tran. by C.D. Yonge, 2 Vol. London, 1853.

Matthew Paris,

English History from The Year 1273, tran. from The Latin by J. A.
Giles. 2 Vols. London, 1852-3.

Marino Sanuto,

Secrets for True Crusaders tran. by Aubrey Stewart. London, 1896.

Nicolaus I,

Lettre au Pape Honoré III 1222, cf. Michaud, Histoire des
Croisades, III, Paris. 629. (pp. 647 - 9).

Nicolaus Trivet,

Chronique se Terminant en L'an 1307, cf. Y.Kamal, Mon.
Cart., t. III, fasc, IV, 1934. (p. 940).

Oliver of Podenborn.

The Capture of Damietta tran. John J. Cavigan, Philadelphia, 1948.

Oliver Scolastikus,

1- Lettre a Engelbert, Archeveque de Cologne, cf. Bongars, G.D.F.

Hannover, 1611. (pp. 1185 - 1192).

- 2- Letter to The King of Egypt, El-Kamel Mohamed (1218 - 1238), cf. Rohricht, Geschichte des Königreichs Jerusalem (1100 - 1291), Innsbruck, 1898. (p. 753).

Patriarche de Jerusalem,

Rapport au Pape Innocent III, dated 1214, cf. Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV, 1034. (p. 932).

Patriarches de Jerusalem,

cf. R.O.L. II, Paris, 1894. (pp. 192-203).

Pater de Montacute,

- 1- Letter to A. Martel entitled « Of The Loss of Damietta », cf. Roger of Wendover, Flowers of History, II, London, 1849. (pp. 436-9).
- 2- Letter to The Bishop of Elimenum entitled « Of The Condition of The Holy Land after The Capture of Damiette » cf. Roger of Wendover, Flowers of History, II. London, 1849. (pp. 433-5).

Phillipe de Albeney,

Lettre to Ralph Earl Of Chester entitled « of The Loss of Damiette », cf. Roger of Wendover, Flowers of History, II, London, 1849. (pp. 435-6).

Pretre- Jean,

Lettre au Le Emperor Byzantine Manuel (1143-1180), dated 1155, cf. Y. Kamal, Mon. Cart. t. III, fasc IV, 1934. (pp. 890-1).

Roger of Wendover,

Flowers of History 2 Vol, tran. from The Latin by J. A. Gilles. London, 1849.

Vitry, Jacques de,

Orientalis, siue Hierosolymitanae : Alter Occidentalis (Libri-Duo) Isbn 1579, printed in offset, Western Germany, 1971.

The History of Jerusalem, tran. from The Original Latin by Aubrey

stewart, London, 1896.

Historia Hierosolymitana au Historia Orientalis, apres 1220. An extract in Y. Kamal, Mon- Cart. t. III, fasc. IV, 1934. (p. 944).

Lettres de Jacques de Vitry, edition critique par R.B.C. Cuygens Leiden, 1960.

Waltherus de Hemingburgh.

Chronique se Terminant en L'en 1343, cf. Y. Kamal, Mon. Cart. t. III, fasc. IV, 1934. (p. 940).

Wiegler, Paul,

The Infidel Emperor and his Struggles against The Pope. A Chronicle of The 13th. century by p. Wiegler, tran. by Brian W. Downs London, 1930.

William Archbishop of Tyre, .

A History of Deeds Done Beyond The Sea, 2 Vol. tran. & annotated by Emily Atwater Babcock & A.C. Kery. New-York 1943.

المخطوطات^(١)

إبن أبى السرور (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) محمد بن أبى السرور زين الدين البكرى :

« النزعة الزهية فى ذكر ولاه مصر والقاهرة المعزية » - دار الكتب المصرية - رقم ٢٦٦ تاريخ .

إبن أليك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

١ - « دور التيجان وغرر تواريخ الأزمان » - دار الكتب المصرية - رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ - « كنز الدرر وجامع الغرر » - ٩ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

إبن بهادر (عاش فى القرن التاسع هـ - الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر :

« فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » - دار الكتب المصرية - رقم ٤١١٧ تاريخ .

إبن حبيب الحلبي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر :

« جهيئة الأختار فى أسماء الخلفاء وملوك الأمصار » - دار الكتب المصرية - رقم ١٦١٠ تاريخ .

إبن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر الحلائى :

« الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلطين » - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٢٢ تاريخ .

(١) المخطوطات المصورة رمزت لها بـ (لوحة) والمكتوبة بخط اليد رمز لها بـ (ورقة) .

إبن رسول (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) عباس بن علي بن داود بن يوسف بن
عمر :

« نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون » - مجلدان - دار الكتب
المصرية - رقم ٤٩٦٤ تاريخ .

إبن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن
الفرات :

« تاريخ الدول والملوك » - ١٨ ج - دار الكتب المصرية - رقم
٣١٩٧ تاريخ . « تصوير شمس » .

إبن واصل (٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :
« تاريخ الواصلين » ٢ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٥٣١٩ . تاريخ
« تصوير شمس » .

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين :
« التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك » - دار الكتب المصرية -
ميكروفيلم رقم ١٥٦٧ عن النسخة رقم ٢٠١٨ تاريخ .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن
تغري بردى الأتابكي :

١ - « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » ٥ ج - دار الكتب المصرية
رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

٢ - « مورد اللطافة فيمن ولو السلطنة والخلافة » - دار الكتب
المصرية - رقم ١٣٥٦ تاريخ .

بامخرمة (عاش في القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبد الله
بن أحمد بن علي :

« قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر » - ٦ ج - دار الكتب المصرية
رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٩٦٠ م) أحمد بن عبد الله :
« عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان » - مجلدان
- دار الكتب المصرية - رقم ٣٨١٠ تاريخ . « تصوير شمس » .

السلامى (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد :
« مختصر التواريخ » دار الكتب المصرية - رقم ١٤٣٥ تاريخ .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين :
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » - ٢٣ جـ فى ٦٩ مجلدا - دار
الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ « تصوير شمس » .

مرعى المقدسى (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٤ م) مرعى بن يوسف بن أبى بكر
بن أحمد :
« نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلطين » - دار
الكتب المصرية - رقم ٢٠٧٦ تاريخ .

مؤلف مجهول :
« كتاب فى التاريخ لم يعلم مؤلفه - دار الكتب المصرية - رقم ٤٠٣٠
تاريخ .

النويرى الكندى (ت ٧٣١ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية -
رقم ٥٤٩ معارف عامة « تصوير شمسى » .

اليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) موسى بن محمد أحمد قطب الدين :
« ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » - ج ١٥ و ١٧ - دار الكتب
المصرية - رقم ١٥١٦ تاريخ .

المصادر العربية

ابن الاثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن علي بن أبى الكرم
الملقب عز الدين :

« الكامل فى التاريخ - ١٢ ج - فى ١٢ مجلد - ليدن ١٨٥٣ م » .

ابن إياس (ت ٩٣٠ / ١٥٣٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد :

« كتاب تاريخ مصر ، المعروف ببدايع الزهور فى وقائع الدهور » - ٤
ج - الطبعة الأولى - القاهرة (بولاق) ١٣١١ - ١٣١٤ هـ .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

« مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار ،
وعجائب الأسفار » - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٩٣٤ - ١٩٣٧ م

ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ٩١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى :

« رحلة ابن جبير » - الطبعة الأولى - القاهرة - (مطبعة السعادة)
١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م .

ابن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ / ١٥٨٠ - ١ م) شرف الدين يحيى بن المعز :

« التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » - القاهرة (بولاق) ١٣١٦ هـ
/ ١٨٩٨ م .

ابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين :

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » - المجلد الثامن - ق ١ ، ٢ - حيدر
أباد - ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م .

ابن حوقل (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو القاسم محمد

« كتاب صورة الأرض » - الطبعة الثامنة - ليدن ١٩٣٨ - ١٩٣٩ م

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :

« العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر « - ٧ ج - القاهرة (بولاق)
١٢٨٤ هـ .

إبن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن
إبراهيم :

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » - ٢ ج - القاهرة (بولاق)
١٢٧٥ هـ .

إبن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر
العلائي :

« الإلتصار بواسطة عقد الأمصار » ج ٤ و ٥ في مجلد واحد - بولاق
١٣٠٩ - ١٣١٠ هـ .

إبن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي :
« الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » - بيروت (مطبعة الآباء
اليسوعيين) ١٦٠٦ م .

إبن الشحنة (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٣ م) محب الدين محمد بن محمد بن محمود
« روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر » - على هامش كتاب
مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي - طبعة أولى - القاهرة
(المطبعة الأزهرية المصرية) - ١٣٠٣ هـ .

إبن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن
عتبة .

« سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية » تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى - القاهرة
١٩٦٤ م .

إبن الطبقطقي (المتوفى بعد ٧٠١ هـ / ١٣٣١ م) فخر الدين محمد بن علي :
« الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » - راجعه ونقحه

- محمد عوض ابراهيم وعلى الجارم - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٨ م .
- إبن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى بن عبي بن محمد :
- « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » - ٨ ج - القاهرة ١٣٤٠ - ١٣٥١ هـ .
- إبن الفارقى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) :
- « تاريخ ابن الفارقى » على هامش ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .
- إبن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على :
- « تاريخ ابن الفرات » - المجلد الرابع ج ١ ، ٢ والمجلد الخامس ج ١ - عنى بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع - البصرة (مطبعة حداد) ١٩٦٧ - ١٩٧٠ م .
- إبن الفوطى (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٣١ م) عبد الرازق بن أحمد الفوطى البغدادى :
- « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة » - بغداد - (مطبعة الفرات) ١٣٥١ هـ .
- إبن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على ابن محمد :
- « تاريخ أبو يعلى حمزة بن القلانسى ، المعروف بذيل تاريخ دمشق » - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .
- إبن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر :
- « البداية والنهاية فى التاريخ » - ١٤ ج - القاهرة (مطبعة السعادة)

١٣٥١ - ١٢٥٨ هـ .

إبن مطروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) جمال الدين يحيى :
« ديوان إبن مطروح » - الطبعة الأولى - قسطنطينية (مطبعة
الجواب) ١٢٩٨ هـ .

إبن ممانى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعد :
« كتاب قوانين الدواوين » جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز
سوربال عطية - القاهرة (طبعه الجمعية الزراعية) ١٩٤٣ م .

إبن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب :
« أخبار مصر » - ٢ ج - نشر هنرى ماسيه - القاهرة (مطبعة المعهد
العلمى الفرنسى) ١٩١٩ م .

إبن النبيه (ت ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م) كمال الدين بن النبيه المصرى :
« ديوان ابن النبيه » - القاهرة ١٣١٣ هـ .

إبن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم
« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » - ٤ ج - ج ١ ، ٢ ، ٣
تحقيق الدكتور جمال الدين الشبال - القاهرة - ١٩٦٠ م ج ٤ تحقيق
الدكتور حسنين محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ .

إبن الوردى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن
عمر :

« تمة المختصر فى أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ إبن الوردى » ج ٢ -
القاهرة (المطبعة الوهية) ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن ابراهيم بن
عثمان شهاب الدين :

١ - « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » -
جزءان فى مجلد واحد - القاهرة (مطبعة وادى النيل) ١٢٨٧ -

١٢٨٨ هـ .

٢ - « تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على
الروضتين نشره السيد عزت العطار الحسيني - الطبعة الأولى - القاهرة
١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء
إسماعيل ابن علي :

١ - « المختصر في أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ أبي الفداء » - ٤ ج -
استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ .

٢ - « تقويم البلدان » - نشره رينووديسلان - باريس (دار الطباعة
السلطانية) ١٨٤٠ م صورة بالأوفست لمعرفة مكتبة المثني ببغداد .

٣ - Adulfeda, Descriptio Aegypti, Arabice et Latine, edidit,
Loannes David Michaelis Goettingae. 1776.

أبو الفرج المظي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغور أبو الفرج بن أمرون :
« تاريخ مختصر الدول » - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للاباء
اليسوعيين) ١٨٩٠ م .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن
تغري بردي :

« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » - ٩ ج - القاهرة (مطبعة
دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م .

الأصطخري (عاش في القرن الرابع هـ / القرن العاشر م) أبو اسحق إبراهيم
ابن محمد :

١ - « كتاب الأقاليم » - جوده ١٨٣٩ م . صورة بالأوفست بمعرفة
مكتبة المثني ببغداد .

٢ - « مسالك الممالك » (وهو معول على كتاب صورة الأقاليم) ليدن
١٩٢٧ م :

البدرى الدمشقى (عاش فى القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقى المعروف بأبى البقاء :
« نزهة الأنام فى محاسن الشام » - القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤١ هـ .

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر :
« فتوح البلدان » - عنى بمقابله والتعليق عليه رضوان محمد رضوان -
القاهرة (مطبعة الأزهر) ١٩٣٢ م .

بهاء الدين زهير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) أبو الفضل بهاء الدين زهير :
« ديوان بهاء الدين زهير » - بيروت ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) بنيامين بن يونة التطيلي النبارى
الأندلسى :

« رحلة بنيامين » - ترجمتها عن الأصل العبرى وعلق على حواشها
وكتب ملحقاتها عزرا حداد - الطبعة الأولى - بغداد (الطبعة الشرقية)
١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

الحسن بن عبد الله (عاش فى القرن الثامن هـ / الرابع عشر م) .
« آثار الأول فى ترتيب الدول » - القاهرة (بولاق) ١٢٩٥ هـ

الدمشقى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) محمد أبى طالب الانصارى الصوفى
المعروف بشيخ الربوة والمكنى بالدمشقى :
« نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » - بطرسبرج ١٨٦٦ م .

الذهبى (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز
شمس الدين :

« دول الإسلام » - ٣ ج - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية
الكائنة بمدينة حيدر أباد الدكن) ١٣٣٧ هـ .

ذو النسبين (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٣٥ م) عمر بن الشيخ الإمام أبى على حسن

بن علي المكنى بأبي الخطاب والمعروف بذي النسيين دحية والحسين :
« كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس » صححه وعلق عليه
عباس العزاوي - بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٦ م .

السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد
الرحمن :

تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع
المباركات وما يتبع ذلك - الطبعة الأولى - القاهرة (مكتبة النشر
والتأليف الأزهرية) ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

السراج (ت ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م) محمد بن محمد الأندلسي :
« الحلل السندسية في الأخبار التونسية » - ج ١ أجزاء - تحقيق محمد
الحبيب الهيلة - تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٧٠ .

السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين .
١ - « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين » - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد -
الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .
٢ - « كتاب بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاه » - القاهرة (مطبعة
السعادة) ١٣٢٦ هـ .

الشابشتي (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) أبو الحسن علي بن محمد :
« الديارات » - تحقيق ونشر كوركيس عواد - بغداد (مطبعة
المعارف) ١٩٥١ م .

الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :

« الفتح القسى فى الفتح القدسى » - تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود
صبح - القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٦٥ م .

عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م) الملقب بموفق الدين والمعروف
بابن اللباد :

« وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد » - القاهرة (مطبعة المجلة
الجديدة) .

العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن
فضل الله :

« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » - ج ١ - نشره أحمد زكى -
القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

القزوينى (ت ١٨٢ هـ / ٦٢٨٣ م) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود :
« آثار البلاد وأخبار العباد » - نسخة فى مجلد طبع جوتنجن ، لها
مقدمة باللغة الألمانية للاستاذ وستفلد غوتا - جوتنجن ١٨٤٨ م .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله :
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » - ١٤ ج - القاهرة ١٩١٣ -
١٩٢٠ / ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ .

الكتبى (ت ٧١٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن
فخر الدين :

« فوات الوفيات » - ٢ ج - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد -
القاهرة (مطبعة السعادة ١٩٥١ م .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس أحمد :

١ - « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » - ٤ ج - القاهرة
(مطبعة النيل) ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ .

٢ - « السلوك لمعرفة دول الملوك » - الجزءان الأول والثانى إلى سنة ٧٤١ هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م .

٣ - « اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخفا » - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ .

٤ - « اغاثة الأمة بكشف الغمه » - نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

L'Histoire des Patriarches d'Alexandria, extraits tran. Blochet. cf. R.O.L., Vol. XI. Paris. 1908 (pp. 240 - 260).

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملّقب شهاب الدين :

« معجم البلدان » - ٥ ج وفهرس - ليزج ١٨٩٠ م .

المراجع الأجنبية

Antonius, G.

The Arab Awakening. London, 1938.

Archer, T.A. & Kingsford, C.L.,

The Crusades : The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem.
London, 1894.

Atiya, A.S.,

The Crusade in The Later Middle Ages. London, 1938.

Balzani, U.,

Early Chroniclers of Europe, Italy. London, 1883.

Barker, E.,

The Crusades. London, 1925.

Bray, A.,

The Good St., Louis and his Times. London, 1870.

Brehler, L.,

L'Eglise et L'Orient au Moyen age : Les Croisades. 5 me, éd, Paris,
1928.

Brentano, F.

Les Croisades. Paris, 1934.

Cahen, C.,

La Syrie du Nord. Paris, 1940.

Calthrop, M.,

1- The Crusades. London, 1913.

2- The Cambridge Medieval History; 8 Vol, Cambridge, 1911-1936.

Gampbell, G.,

The Crusades. London, 1935.

Chalondon, F.,

Histoire de La Première Croisade Jusqu'a L'election de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Chesterton, G.K.,

Saint François d'Assise, Paris (Bibliotheque Nationale) 1925.

Conder, C.R.,

The Latin Kingdom of Jerusalem. 1009-1291 A.D. London, 1897.

Delaville Le Roulx, J.,

Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre (1100 - 1310) . Paris, 1904.

Donovan, J.P.,

Pelaguis and The Fifth Crusade. Philadephia, 1950.

Duggan, A.,

The Story of The Crusades 1097 - 1291. London, 1963.

Duruy, V.,

Histoire du Moyen Age. 9th. ed Paris, 1877.

Dussaud, R. - Deschamps. P. - Seyrig H.,

La Syrie Antique et Medievale III ustrée Paris 1931.

Frood E.,

The Byzantine Empire. London, 1911.

Gibbon, E.,

The Crusades A.D. 1095-1291. London, 1870.

Grousset, R.,

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem. 3 Vol.
Paris, 1936.

Heyd, W.,

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age. 2 Vol. Leipzig,
1885-1886.

Iorga, N.,

Brève Histoire des Croisades et de Leurs Fondations en Terre Sainte.
Paris, 1924.

Jullien, C.P.,

Note sur L'Emplacement de L'Ancienne Damiette, cf. Bulletin de
Institut Egyptien Caire, 1887. (pp 72-77) .

Kantorowicz, E., Frederick the Second, London, 1931.

King, E.,

The Knights Hospitallers in The Holy Land. London, 1931.

Lacroix, P.,

1- Vie Militaire et Religieuse au Moyen Age et a L'Epoque de La
Renaissance. 2e. ed. Paris, 1873.

2- La Chevalerie et Les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres
Militaires. Paris, 1887.

Lamb, H.,

The Crusades : The Flame of Islam. London, 1931.

La Monte, J.,

The World of The Middle Ages. New-York. 1949.

Lane-Poole, St.,

1- A History of Egypt in The Middle Ages. 4th. ed., London, 1925.

2- The Story of Cairo. London, 1902.

Ludlow, J.M.,

The Age of The Crusades. Edinburgh, 1897.

Malmbourg, P.,

Histoire Universelle des Croisades d'après Les Principaux Historiens. Paris, 1868.

Mas Latrie, M.L. de.,

Histoire de L'île de Chypre sous Le Règne des Princes de La Maison de Lusignan. 3 Vol. Paris, 1861.

Maurols, A.,

A History of France. London, 1964.

Michaud, M.,

History of The Crusades. tran. from The French, by W. Robson in 3 Vol. London, 1852.

Miller, W.,

Medieval Rome from Hildebrand to Clement VIII (1073- 1600). London, 1901.

Molinier, A.,

Les Sources de L'Histoire de France depuis Les Origines jusqu'en 1815. cf. Vol. III, Les Capétiens, 1180- 1308. Paris, 1903.

Muir, R.,

British History. London 1936.

Oman, C.,

A History of The Art of war in The Middle Ages. 2 Vol. 2nd. ed. Revised and Enlarged London, 1924.

Omar Tousson,

Mémoire sur L'Histoire du Nil. 3 t. Le Caire, 1925.

Ostrogorsky, G.,

History of The Byzantine State. tran. by Joan Hussey. Oxford, 1956.

Previté-Orton, C.,

A History of Europe from 1198 to 1378 . London, 1957.

Rohricht, R.,

1- Beitiage zur Geschichte der Kreuzzuge. Berlin, 1874.

2- Funften Kreuzzuges. Innsbruck, 1891.

3- Geschichte des Konigreichs Jerusalem (1100-1291) Innsbruck, 1998.

4- Geschichte de Kreuzzuge in Umriss. Innsbruc, 1898.

Runciman, S,

1- A Story of The Crusades. 3 Vol. Cambridge, 1954.

2- The Christian Arabs of palestine. U.S.A. (University of Essex). 1970.

Mahmud, S.F.,

A Short History of Islam. Oxford, 1960.

Schlumberger, G.,

Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906.

Setton, K.M., (ed)

A History of The Crusades. 2 Vol. Pennsylvania, 1958-1952.

Smail, R.,

Crusading Warfare (1097- 1193). Chambridge, 1956.

Stephenson, C.,

Mediaeval History : Europe from The Second to The sixteenth. Century. 3 th. ed. Nex-York, 1951.

Stevenson, W.,

The Crusoders in The Eost. Cambridge, 1907.

Stubbs, W.,

Germany in The Early Middle Ages, 476-1250, ed. by A. Hassoll.
London, 1908.

Thatcher, O.J., & Mcneal, E. H.,

A Source Book for Medieval History, New-York, 1905.

Thompson, J.W.,

History of The Middle Ages, 300-1500. London, 1931.

Tilly, A.,

Medieval France. Cambridge, 1922.

Tout, T.,

The empire and The Papacy, European History, 918- 1213. 5th. ed.
London, 1909.

Trevelyan, G.M.,

History of England. London, 1943.

Vambery, A.,

Hungary in The Ancient Mediaeval, and Modern Times 3th. ed.
London, 1889.

Vasiliev, A.,

Histoire de l'Empire Byzantin, tr. du Russe par P. Brodin et A.
Bourguina. Préface de M. Ch. Diehl. 2 Vols. Paris, 1932.

Woodhouse, F.,

The Military Religious Orders of The Middle Ages.
The Hospitallers, The Templars. The Teutonic Knights, and others.
London 1878.

Youssef Kamal,

Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. t.

III. Époque Arabe, 5 fasc. (1930-5).

Zambaur, E. ed.,

Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. .
Hanovre, 1927.

المراجع العربية والمعرية

أحمد شلبى (دكتور) :

الحروب الصليبية « إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب »
القاهرة (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) ١٩٦٦ .

أحمد مختار العبادى (دكتور) ، السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام - جامعة بيروت العربية
١٩٧٢ .

السيد الباز العربى (دكتور) :

١ - مصر فى عصر الأيوبيين - القاهرة (مطبعة الكيتلانى الصغير)
١٩٦٠ .

٢ - مؤرخو الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٦٢ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى -
طبعة أولى - (دار المعارف بمصر) ١٩٦١ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) ، أحمد مختار العبادى (دكتور) :

تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس - بيروت (دار النهضة)
١٩٦٩ .

الستاس مارى الكرملى (البغدادى) الأب :

النقود العربية وعلم التيمات - القاهرة (المطبعة المصرية) ١٩٣٩

أرنولد (سيرتوماس) :

الدعوة إلى الإسلام - ترجمة إلى العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن
وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى - القاهرة (مطبعة الشبكشى
بالأزهر) ١٩٤٧ .

أومان (تشارلس) :

الامبراطورية البيزنطية - تعريب الدكتور مصطفى طه بدر - القاهرة -
(دار الفكر العربى) ١٩٥٣ .

أومبرتو ريتزيتانو :

صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين
الأيوبي - مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية (المجلد ٥) ١٩٤٩
ص ٤٧ - ٥٨ .

إيريس حبيب المبرى :

قصة الكنيسة القبطية - ٣ ج - الاسكندرية (مطبعة الكرنك)
١٩٧١ .

جرجس فليوثاوس :

القبط - القاهرة (المطبعة المصرية الأهلية الحديثة) ١٩٣٢ .

جمال الدين الشيال (دكتور) :

- ١ - مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا - الاسكندرية (مطبعة
مدرسة دون بوسكو) ١٩٤٩ .
- ٢ - تاريخ مصر الإسلامية - ٢ ج - الاسكندرية (دار المعارف)

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

بحوث في التاريخ الاقتصادي - ترجمة توفيق اسكندر - القاهرة (مطابع
دار النشر للجامعات المصرية) ١٩٦١ .

جوزيف جاي ديس :

الزنديق الأعظم « قصته وسيرته » ترجمة أحمد نجيب هاشم - القاهرة
(دار الكتاب العربى للطباعة والنشر) (د . ت .) .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ - الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية - مجلة كلية الآداب
جامعة الاسكندرية (العدد ١٦) ١٩٦٢ . ص ١٨٣ - ٢٠٥ .

٢ - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى - الطبعة الثانية
- الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٣ - الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي -
الاسكندرية - (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٤ - العدوان الصليبي والرأى العام الغربى - سلسلة محاضرات جامعة
الاسكندرية ٦٧ / ٦٨ - مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

٥ - العدوان الصليبي على مصر « هزيمة لويس التاسع فى المنصورة
وفارسكور الطبعة الأولى - الاسكندرية (دار الكتب الجامعية
١٩٦٩) .

٦ - العدوان الصليبي على بلاد الشام « هزيمة لويس التاسع فى الأراضى
المقدسة » - الطبعة الثالثة - الاسكندرية (دار الكتب الجامعية)
١٩٧١ .

٧ - نشأة الجامعات والعصور الوسطى - طبعة أولى - الاسكندرية
(منشأة المعارف) ١٩٧١ .

جيمس دوروثي :

الماجنا كارتا « العهد الأعظم » ترجمة مصطفى طه حبيب - القاهرة
(مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٥ .

حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

- ١ - انتشار الإسلام بين المغول والتتار - القاهرة ١٩٣٣ .
- ٢ - تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب -
الطبعة الثالثة - القاهرة (مكتبة النهضة) ١٩٦٤ .

حسن حبشي (دكتور) :

- ١ - الحروب الصليبية الأولى - الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة
الاعتماد) ١٩٤٧ .
- ٢ - نور الدين والصليبيون « حركة الافاقة والتجمع الإسلامي في
القرن السادس الهجري - القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٤٨ .
- ٣ - الشرق العربي بين شقى الرحى « حملة القديس لويس على مصر
والشام » - القاهرة ١٩٤٩ .

حسين محمد ربيع (دكتور) :

النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين - القاهرة (مطبعة جامعة القاهرة)
١٩٦٤ .

حسين عبد الرحمن :

النقود - القاهرة (مطبعة الاعتدال) (د . ت) .

ديفز (ه . و .) .

أوروبا في العصور الوسطى - ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدي محمود
الطبعة الأولى - الاسكندرية (منشأة المعارف) ٩٥٨ .

ديمترىوس الكرام (القديس) :

شرح حساب الكنيسة القبطية - الاسكندرية (مطبعة الكرنك)
١٩٦٩ .

سعاد ماهر (دكتور) :

- ١ - البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٢ - مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - ج ١ - (المجلس الأعلى
للتنشيط الإسلامي) ٦٩٧١ .

ستيف عبد الفتاح هاشور (دكتور) :

- ١ - قبرس والحروب الصليبية - القاهرة (مكتبة النهضة المصرية)
١٩٥٧ .

- ٢ - الحركة الصليبية « صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في
العصور الوسطى » ٢ ج - طبعة أولى - القاهرة (مكتبة الأنجلوا
المصرية) ١٩٦٣ .

- ٣ - أوروبا العصور الوسطى ٢ ج - الطبعة الثالثة - القاهرة
١٩٦٤ .

- ٤ - العصر المملوكي في مصر والشام - الطبعة الأولى - القاهرة (دار
النهضة العربية) ١٩٦٥ .

سليم أمين حداد :

الرياضيات التجارية والمالية - المجلد الأول ج ١ - القاهرة ١٣٤٩ هـ /
١٩٤١ م .

عبد الرحمن زكى (دكتور) :

معارك حاسمة في تاريخ مصر - القاهرة (مطبعة النيل) ١٩٤٥ .
سفن الاسطول الإسلامى وأنواعها ومعداتھا في الإسلام - القاهرة
(مطبعة الهلال) بالفجالة بمصر ١٩١٤ .

عبد المسيح صليب المسعودى البرموسى (القمص) :

تحفة السائلين في اديرة الرهبان المصريين - القاهرة (مطبعة الشمس)
١٩٣٢ .

على ابراهيم حسن (دكتور) :

مصر في العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى - الطبعة
الثانية - القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٤٩ .

على مبارك (ت ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م) على مبارك بن سليمان بن ابراهيم
الرومى :

الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة وتعرف بخطوط على مبارك - ٢ ج في
٤ مجلدات - القاهرة (بولاق) ١٣٠٤ - ١٣٠٦ .

عمر بطوسون :

وادی النظرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطارقة ، مذيّل بكتاب
تاريخ الأديرة البحرية - الاسكندرية ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م :

عمر كمال توفيق (دكتور) :

١ - مملكة بيت المقدس الصليبية - الاسكندرية مطبعة (رويال)
١٩٥٨ .

٢ - تاريخ الامبراطورية البيزنطية - الاسكندرية (دار المعارف)
١٩٦٧ .

٣ - مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي « الامبراطور يوحنا
تزيمنسكس وسياسته الشرقية ٩٦٩ - ٩٧٦ م » - طبعة ثانية -
الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٤ - المؤرخ ولیم الصوري - مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية
(العدد ٢١ لسنة ١٩٦٧) - مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨
ص ١٨١ - ٢٠٠ .

فالتز هنتس :

المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى - ترجمة عن
الألمانية. الدكتور كامل العسلي - عمان (مطبعة القوات المسلحة
الأدرنية) ١٩٧٠ .

فوج، جرجين :

تاريخ الكنيسة القبطية - ٢ ج - القاهرة (مطبعة الفجالة) ١٩١٧ -
١٩٢٠ .

فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) :

المغول في التاريخ - ج ١ - بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨٠ .

فيشر (هـ . ل .) :

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - ج ١ - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الدكتور السيد الباز العرينى - الطبعة الثالثة - القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٦٦ .

لجنة التاريخ القبطى :

تاريخ الأمة القبطية « خلاصة تاريخ المسيحية في مصر » - القاهرة (المطبعة الحديثة) ١٩٣٣ .

محافظة الاسكندرية :

تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور - الاسكندرية ١٩٦٣ .

محمد صالح داود القزاز (دكتور) :

الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية - النجف - (مطبعة القضاء) ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

محمد رمزي :

القانون الجغرافى للبلاذ-المصرية من عهد قدماء المصريين حتى سنة ١٩٤٥ - ٣ ج - القاهرة (مطبعة دار الكتب مطبعة وزارة التربية والتعليم) ١٩٥٣ - ١٩٦٩ .

محمد زغلول سلام (دكتور) :

ضياء الدين بن الأثير - القاهرة (دار المعارف بمصر) (د . ت) .

محمد كرد علي :

كتاب خطط الشام - ٦ ج - دمشق (دار المطبعة الحديثة) ١٣٤٣ -

١٣٤٧ هـ / ١٩٢٥ - ١٩٣٨ م .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ١٠٩٧ م - ١٤٤ م -
الاسكندرية ١٩٧٢ .

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة - القاهرة (مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر) ١٩٦١ .

محمد ياسين الحموى :

تاريخ الأسطول العربى « صفحة مجيدة من تاريخ العرب » - دمشق
(مطبعة الترقى) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

مكسيموس مونروند :

تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب - ترجمة من
الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم - ٢ جـ فى مجلد واحد -
أورشليم ١٨٦٥ م .

منير شكرى :

أديرة وادى النظرون - الاسكندرية ١٩٦٢ :

ميخائيل عواد :

المآصر فى بلاد الروم والإسلام - بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٨ .

نعم زكى فهمى (دكتور) :

دور اليهود فى تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب - طبعة أولى
- القاهرة (مطابع سجل العرب) ١٩٧١ .

نورمان بينز :

الامبراطورية البيزنطية - تعريف الدكتور حسين مؤنس ، محمود يوسف
زايد - الطبعة الثانية - القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٥٧

وليم سليمان (دكتور) :

الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية - وزارة الثقافة (دار
الكتاب العربى للطباعة والنشر) (د . ت) .

لى ستراىج :

فلسطين فى العصر الإسلامى - ترجمة محمود اعماميرى - الطبعة الأولى -
عمان ١٩٧٠ .

يوسف أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - ترجمة ووضع حواشيه
محمد عبد الله عنان - ٢ ج - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر) ١٣٥٩ - ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٠ - ١٩٤١ م .

يوسف، اليان سركىس :

معجم المطبوعات العربية والمعرية - مجلدان - القاهرة (مطبعة
سركىس) ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م .

- ابن خلکان : ٤٠ ، ٤٢ .
- ابن خلدون : ٤٣ .
- ابن شداد : ٤٤ ، ٦٨ ، ٧٥ .
- ابن فضل الله العمرى : ٤٤ .
- ابن مطروح : ٤٢ .
- ابن ممتى : ٤٤ .
- ابن ميسر : ٤٣ .
- ابن واصل : ٤٠ ، ٤١ ، ١٠٠ ، ١٧٠ ، ١٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ .
- أبو الحسن الدمياطى : (ابن قفل) : ٢٨٣ .
- أبو الفدا : ٤٣ .
- أبو شاکر الراهب : ٣٩ .
- أبو شامه : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٧٦ .
- أبو الخاسن بن تغرى بردى : ٤٣ .
- أبوليا : ٣٨ ح ١ .
- أحمد شلبى (دكتور) : ٤٥ .
- آخن (إكس لاشابل) : ٣٥٣ ح ٣ .
- الاخوان السود : ١٤٥ ح ٣ .
- الاخوان الفرنشسكان : ٢٦٦ ح ١ .
- آدم أف جاستون : ٣٠١ .
- ادولف كونت برج : ١٩٩ .
- ادولف كونت هولشتين : ٨٩ .
- أراجون : ١٢٥ .

- الأردن : ٨٨ ، ٩٦ ، ١٧٠ ، ح ٣ ، ٣٦٦ .
- آرشر (مؤرخ) : ١٤٦ ، ٤٤ .
- أرمينية : ٩٣ ح ٢ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١٣٤ ، ١٧٦ ،
٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٣٠٠ - ٣٠٣ .
- أرنولف (صاحب تل باشر) ٦٦
- اسبانيا : ٣٤ .
- الاستبارية : ٩٨ ، ٦٩ ح ٤ ، ٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ -
١١١ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦٦ - ١٦٨ ،
١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٢ ،
٢٢٥ ، ٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ،
٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ .
- استريا : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ،
٢٠٣ .
- اسحق الثاني : (امبراطور بيزنطى) :
١٢٩ ، ١٣١ .
- أسد الدين الهكاري : ٢١٩ .
- أسد الدين شيركوه : ٦٢ - ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ ح
- أسيس (مدنيه) : ٢٦٦ ح ١ .
- أسكتلندا : ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ .
- اسكندر الثالث (البابا) : ٣٨ .
- الاسكندرية : ٦٥ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٨ ح ٢ ، ٣٠٣ ،
١٤٢ ، ١٨٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ،
٣٠٤ ، ٣١٩ ح ٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٩ .
- اسماعيل بن جعفر الصادق : ١٠٤ ح ٢ .
- الاسماعيلية (طائفة ديبية) : ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٣٣ ، ح ٣ .

اسمجد : (نائب الملك جان دى برين فى عكا)
. ٢١٠ .

آسيا الصغرى : (الأناضول)
. ٧٩ ، ٥١ ، ٤٩ .

الأشرف خليل بن قلاوون : ٣٦٨ .

الأشرف موسى : ٤٢ ، ٩٥ ، ١٠٠ ح ٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
٢٢٧ ، ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ٢٧٠ ، ٢٩٩ ،
٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ح ٤ .

أشهرم طناح : (أشهرون الزمان)
. ٢٢٠ ح ٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٣٢٩ .

أعزاز : (غزار) : ١٠٠ ح ٢ .
الأفضل : (الملك) : ٤٢ ، ٨٥ ، ٨٧ - ٨٨ ، ٩٢ - ٩٣ ،
٩٩ ح ٥ ، ١٩٥ ، ٢٧٠ .

الأفضل (الوزير الفاطمى) : ٥٦ .
اكس لاشابل : (آخن) : ٣٥٣ .
اكويلا : ١٧٦ .

الب ارسلان (سلطان سلجوقى) :
٥٠ .

البرت (بطريق بيت المقدس الأسقى) :
. ١٠٧ .

الفونستو الثانى : ١٦٥ .
الكسندر الثالث : ١٤٤ ح ٣ .
الكسندر سينبرجن : ١٦٤ .
الكسيوس الأول : (امبراطور بيزنطى)
: ٥١ .

الكسيوس الثالث : (امبراطور بيزنطى)
. ١٢٥ ، ١٣٠ .

الكسيوس الرابع : (امبراطور بيزنطى)
. ١٣١ .

المانيا : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٧ ح ١ ، ١٣٤ ، ١٤١ ،
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ،
١٦٣ ، ١٦٦ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣٥٥ .

آل مولتفرات : ١٢٨ .

أليس : (الوصية على عرش قبرص)
. ٣٢١ .

الامجد بهرام شاه (صاحب بعلبك) :
. ٨٥ ، ٣٢١ .

إمرى : ١٥٧ .

املين دى ريوارت (فارس صليبي)
. ٢٣٨ .

الانبا يشوى : ٢٤٧ ح ١ .

الانبا يونس السادس : ٢٤٧ .

أنجرس : ٢١١ .

الجلترا : ٨٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ،
١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ .

انجى الثانى (ملك النرويج) ١٦١ .

أندرو أف | ناتيوول ٢٦٣ .

اندرى الثانى (ملك المجر) : ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ،
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .

اندرى | دى اسبس : ٢٠٩ .

انسلم (فارس صليبي) : ٣٣٩ .

انطاكية : ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٠٠ ح ٣ ، ١٠٢ ،

١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ح ٣ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ،

١٤٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨

انوسنت الثاني (بابا) : ١٤٤ ح ٣ .

انوسنت الثالث (بابا) : ٣٥ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،

١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ح ٢ ،

١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٧١ ، ٣٢٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ .

انطرطوس : ١٤٥ - ٣٠١ .

ابرت لاشارينليه (فارس صليبي)

٢٢٣ .

أوتو (أمير صليبي) : ١١٠ .

أوتو الرابع : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ .

الأوحد نجم الدين : ٩٣ ، ٩٥ .

أودواف مونتيليار : ٢١٢ ،

أوشين : ٥١ .

أولريخ (اسقف باسو) : ٣١١ .

أولفر (ابن غير شرعي لملك إنجلترا)

٢١٠ .

أوليفر أف بادنبون : (مؤرخ)

٢٥ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،

١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٣٣ ،

٢٥٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ،

٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ .

ایرارد دی شاسینیه . : ۲۰۹ .

ایزاییلا (امیره بیت المقدس) :

۹۰ ، ۱۰۱ ح ، ۱۰۵ ، ۱۰۶ .

۱۰۸ ح ، ۲۱۰ ، ۳۶۲ .

۲۱۵ ، ۱۸۱ ، ۱۵۹ ، ۱۳۴ ، ۷۸ ، ۲۶

۳۶۲ ، ۳۵۶ .

۵۴ .

۱۰۷ ، ۲۱۳ ، ۲۶۲ .

ایزییلا (یولاند)

ایطالیا

ایلات

ایمار دی لایرون .

- ب -

۲۵۲ خ ۳ .

۶۵ - ۶۶ .

۲۵ ، ۲۶ ، ۳۷ ح ۱ ، ۱۵۵ .

۱۵۵ ، ۱۶۲ .

۴۴ .

۱۳۳ ، ۱۵۸ ، ۲۱۱ .

۳۱۱ .

۳۱۱ ، ۳۱۲ ، ۳۲۳ ، ۳۳۷ ، ۳۴۹ ،

۳۵۲ .

۲۲۴ ح ۴ .

۶۳ ، ۸۵ ، ۹۸ ح ۵ .

۳۶۹ .

۱۶۷ ح ۴ .

۳۱۹ ح ۶ .

باب القباری

البابین

بادنبورن

بارابانت

بارکر (مؤرخ)

باریس

باسو

بافاریا

بالرمو

بانیاں

بایزید الأول

البجناکیه

بحر ابی صیر

بحر أشموم	: ٣٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ - ٣١٩ ح ٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ - ٣٢٨ ، ٣٤٣ .
البحر الأحمر	: ١٣٢ ، ٢٤٢ .
البحر الأسود	: ٥١ .
بحر الحلة	: ٢٨ ، ٣٥ ، ٣١٨ ح ١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ .
البحر المتوسط	: ٣٢ ، ٣٠٤ ، ٣٤٤ .
بحيرة المنزلة	: ٢٩٦ .
بحيرة قدس ..	: ١٠١ .
بدر الدين حسون	: ٣٢٦ .
بدر الدين محمد ابن أبى القاسم :	١٧٣ .
البرامون	: ٣٣١ .
برتران	: ١٦٦ .
برج أعزاز	: ١٠١ .
برج الفائز	: ٢٢٥ .
برج دواد	: ٢٥٠ .
برج السلسلة (برج دمياط)	٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٧١ ، ١٨٧ ، ١٩٣ - ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣ .
برجنديا	: ١٥٣ ، ٣٦٦ .
البردويل	: ٥٧ .
برزويه	: ٨٥ .

البرلس	: ٣٠٦ ، ٢٨ .
بروجيا	: ١٥٩ .
بروسه	: ١٣٢ ، ١٣١ .
بروكياروق	: ٤٩ .
برنديزى	: ٢٠٩ ، ١٥٣ ، ١٤٨ ، ١٣٤ .
برونزويك	: ٣٥٤ .
بريتالى	: ٣٦٦ .
بريه (لويس) (مؤرخ)	: ٤٤ .
بصرى	: ١٧١ ، ٨٥ ح ٣ .
البطسه	: ٣٢٨ ، ٢٠٠ ح ٢ .
بطرس ان سانت مارتل	: ١٠٩ .
بطرس أف مونتاجو	: ٣٣٨ - ٣٣٧ ، ٣٣٢ ، ٣٢٥ ، ٣١٢ ، ٣٤ ، ٣١ .
بطرس الناسك	: ١٢٧ ، ٢٩ ح ١ .
بطرس لوزجنان	: ٣٦٩ .
بطرس موكلرك	: ٣٦٦ .
بطليموس الثانى	: ٧٦ ح .
بطن الريف	: ٣١٩ ح ٦ .
بعرين (بارين)	: ٩٨ ح .
بعلبك	: ٣٢١ ، ٩٨ ح ٤ .
بغداد	: ٤٠ ح ، ٤٩ - ٥١ .
بغراس	: ٩٩ ح ٦ .
بلاجيوس	: ٣٣ ح ١ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ - ٢١٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ - ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .

٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ -
 ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ - ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ٣٢٥ ح ٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٨ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ ، ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

بلاد الجزيرة : ٤٩ - ٦١ .

بلييس : ٦٣ - ٦٤ ، ٦٨ - ٦٩ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٩١ .

بلدوين (اسقف انطوطوس) ١٤٥ .

بلدوين أف بلوني (الأول) : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٨٤ .

بلدوين الثاني : ٥٦ ، ٥٧ .

بلدوين الثالث : ٥٨ - ٦٠ .

بلدوين الرابع : ٧٨ - ٧٩ .

بلدوين التاسع (امبراطور بيزنطة الصليبي) :

١١١ ، ١٢٧ ، ١٣١ .

البلغار : ١٣١ .

بلقينيه : ٣١٨ ح ١ .

بلوشيه (ناشر) : ٣٩ ح ١ .

بينامين التلطيلي : ٤٤ .

البندقيه : ٣٥ - ٣٦ ح ٤ ، ١٢٧ ، ٢٤٢ .

بهاء الدين زهير : ٣٤٢ ح ٤ .

بورديو : ٢١١ .

بورسعيد : ٢٩٧ ح ١ .

بورفؤاد : ٥٥ .

بوره : ١٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ .

بورفان (موقعه) : ١٤٢ .

بولان (البولانيون)	: ١٥٦ ح ٢ .
بول ويجلر (مؤرخ)	: ٣٥ .
بونجارز	: ٢٦ ح .
بونز اف كابدال	: ١٥٧ .
بونيفاس	: ١٢٨ .
بوهمند الثالث	: ١٠٨ ، ١٠٦ .
بوهمند الرابع	: ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ٣٠٠ .
اليازنة	: ١٥٥ ، ٢٢٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ .
بيت المقدس	: يكثر ذكرها
بيت لحم	: ٣٦٥ .
بيران	: ٢٣٨ .
بيروت	: ٥٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٦٦ ، ٣٦٨ .
بيزا	: ١٣٤ ، ١٥٥ ، ٢٤٢ .
بيزنط (عمله)	: ٢٧١ ح ٧ ، ٢٨٤ .
بيزنطه	: ٧٥ ، ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ .
بيسان	: ٨٨ ح ٢ ، ١٦٩ - ١٧٠ .

- ت -

تاريخ بطارقة الاسكندرية	: ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ .
تاريخ هرقل	: ٣٤ ح ١ ، ١٧٣ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ - ٢٣٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٢٨٠ - ٢٨١ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٤٣ - ٣٤٤ .

- تاتكرن (قائد صقلي) : ٧٥ .
- تبنين : ٣٦٥ ، ٨٥ .
- التار : ٣٣٦ ، ٤١ .
- تتش (امير الشام) : ٤٩ .
- التروكوبول : ١٦٧ ح ٤ .
- تروى . : ١٠٢ ح .
- تقى الدين طاهر الحلبي : ٣١٩ .
- تقى الدين عمر : ٧١ .
- تل باشر : ٨٥ .
- تل قيمون : ٢٠٨ ح ٢ .
- تيس (مدينة ، بحيرة) : ٧٧ ، ٥٩ - ٥٨ ، ٥٥ ، ٣٤ ، ٣٢ ، ٣٠ ، ٢٨ .
- ١٨٦ ، ٧٩ ح .
- تولوز : ١٤٥ - ١٣٣ .
- توماس (قديس) : ١٧٦ .
- نونس : ٣٦٧ ، ١٣٣ .
- التوتون : ١١٣ ح ١ ، ١٦٨ ، ١٦٦ ، ١٨٢ ، ١٩٢ .
- ٢٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٦ - ٣ .
- ٣٣٨ - ٣٣٧ ، ٣١١ .
- تيودور لاسكاريس : ١٣٢ .

- ث -

- ثيوت (دوق اللورين) : ١٥٣ .
- ثيوت الرابع (كونت شامبالي) :
- ١٢٧ - ١٢٨ ، ٣٦٦ .

جارنييه (فارس صليبي) : ١٦٦ .

جارنييه الالماني (نائب الملك جان دي برين في عكا) :

. ٢٩٨

جارين أف مونتاجو (رئيس الفرسان الاستاريه) :

. ١٩٢ - ٣٣٧

جاك دارسيس : ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٦٣ .

جاك دي فترى (مؤرخ) : ٢٣ ح ١ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ١٤٤ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،

٢١٣ ، ٢٣٦ ح ١ ، ٢٤١ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ،

٢٦٧ ح ٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ح ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ ،

. ٣٤٥ ، ٣٣٧

جامع ابى المعاطي : ٣٠ ، ١٨٦ ، ٢٨٥ .

جامع الالف عمود : ٢٥٢ ح ٦ .

جامع البصرة : ٤٣ ح .

الجاموس (شخص من جزيرة الميادنة)

. ١٧٥

الجاندارية : ٢٧٢ .

جان دي بوين : ٣٠ - ٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٨٢ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ،

١٠٨ - ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ،

١٩١ - ٢٠٩ ، ٢١٠ - ٢١٢ ، ٢١٣ ،

٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ - ٢٦٨ ،

٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ -

٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
 ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ - ٣٣٢ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥١
 - ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ .

- جان دى جوانفيل (مؤرخ) ٣٨ ح ١ .
 جان لوزجنان : ١٢٦ ح ٣ .
 جبال الألب : ١٣٤ .
 جبال بنى عامر : ٢٥٢ ح .
 جبال طوروس : ٥١ .
 جبل الجزيرة : ٩٢ ح ١ .
 جبل الجليل : ٩٨ ح ٤ .
 جبل جور : ٩٣ .
 جبل طارق : ٢٤٠ ، ٢٦٩ .
 جبل الطور : ٩٦ ، ١٠٢ .
 جبل لبنان : ٩٨ ح ٤ ، ٢٥٢ ح ٢ .
 جبل اللكام : ١٠٨ ح ٤ .
 جبله : ٩٩ ، ٣٢٣ .
 جبيل : ٥٠ ، ٨٧ ، ٩١ ، ١٦٦ ، ٣٣٤ .
 جحوير : ٢٤٧ ح ١ .
 جرماس (بطريق انطاكية) : ١٤٤ .
 الجروح : ٢٣١ ح ١ ، ٢٧١ ، ٣٢٥ .
 جروسية (رينيه) (مؤرخ): ٤٤ .
 جريجورى التاسع : ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .
 جريفاس (كودينال) : ١٥٣ .

- جزيرة ابن عمر : ٤١ ح ٢ ، ٨٦ ح ٥ .
- الجزيرة العربية : ٢٤٠ .
- جزيرة دمياط : ٣١٩ .
- الجعفرية : ٣١٨ ح ١ .
- جلالته : ٣٢٨ ح ١ .
- جلال الدين خوارزم شاه : ٣٦٣ .
- الجلجثة : ٥٧ .
- الجليل : ٣٦٦ ، ٩٠ .
- جماعة الدومينيكان : ٣٦ ح ٢ ، ١٤٥ ح ٣ .
- جمال الدين الكناني : ٢٧٣ .
- جمال الدين بن صيرم : ٣١٩ .
- جنكيز خان : ٢٣٦ .
- جنوه : ١٣٤ ، ١٥٥ ، ٢١١ ، ٢٤٢ .
- الجنويه : ١٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٩٨ .
- جوتيه (أحد رجال البلاط الفرنسي) : ٢٠٩ .
- جوتيه (قائد جيش قبرص) : ٢٣٦ .
- جوتيه الثالث : ١٦٦ .
- جودفري أف بوايون : ٥٣ - ٥٧ .
- جودفري أف سانت أومر : ١٠٢ ح ٣ .
- جودفري دي فيسوف : ٣٧٠ .
- جودفري موست : ٢١٣ ، ٣٣٤ .
- ح : يف نسيم يوسف (دكتور) : ٣٨ ح ١ ، ٤٥ .

- جون لامونت : ١٤٦ .
 جوهاننزا (قيصر البلغار) : ١٣١ .
 جى الأول (صاحب جيل) : ٣٣٤ .
 جى الثالى (صاحب جيل) : ١٦٦ .
 جيون (مؤرخ) : ٤٤ .
 جيزة دمياط : ٢٦ - ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ١٩٠ ،
 ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٠ - ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣٤٣ .

- ح -

- حارم : ٦٣ ، ٨٥ ، ١٠٠ .
 الحافظ الذهبى (مؤرخ) : ٤٣ .
 الحافظ السلفى : ٣٤٢ ح ٧ .
 الحافظ نور الدين أرسلان : ٩٥ ، ٣٤٣ .
 حالى : ٩٣ .
 الحبشة : ٢٣٦ ح ١ .
 الحرايق : ٢١٢ ح ٢ .
 حران : ٩٤ ح ٣ ، ٢٨٩ ح ٧ ، ٣٢٠ .
 حسام الدين يونس : ٣١٩ .
 حسن حبثى (دكتور) : ٤٥ .
 حسن محمد الشماع (دكتور) :
 ٤٣ ح ١ .
 حسنين محمد ربيع (دكتور) :
 ٤١ ح

- الحشيشية (طائفة دينية) : ٣٠١ . انظر ايضا الاسماعيلية .
- حصن الاكراد : ٨٧ ح ٢ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٩ ح ٥ ، ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢١٩ .
- حصن الخوايى : ١٠٤ .
- حصن الطور : ٢٧ ، ٢٦٧ ح ٢ .
- حصن المرقب : ٩٨ .
- حصن المنيطرة : ٦٦ .
- حصن بوتافانت : ٣٠٩ .
- حصن تورون : ٢٥٢ ، ٣٠٩ .
- حصن عكار : ١٠٩ .
- حضر موت : ٢٩٠ .
- حطين : ٣٢٤ ، ٣٤٥ .
- حلب : ٤٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١٩٥ ، ٢٧٠ .
- الحملة الانجليزية : ٣٦٦ .
- الحملة الاليجنسية : ٢٩ ، ١٥٢ ، ١٦٠ - ١٦١ ، ٣٥٣ .
- الحملة الهنغارية : ٢٧ ، ٢٩ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧ ح ٢ ، ٤١ ح ٣ .
- حاه : ٤١ ح ٣ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٣٢١ .
- حصص : ٦٧ ، ٨٥ ، ٩٨ ح ٤ ، ١٠٠ - ١٠١ ح ٤ ، ١٧١ ، ١٩٥ ، ٢٥٢ ح ٢ ، ٣٢٠ - ٣٢١ .
- حنا (ملك انجلترا) : ١٢٤ ، ١٤١ ، ٢١٠ ح ١ .
- الحوف الشرقى : ٣١٩ ح ٥ .

الحوف الغربي : ٣١٩ ح ٥ .
حيفا : ٣٦٨ .

- خ -

خزانة شمايل : ٢٧٢ .
خسفين : ١٧٠ .
خلاط : ٢٣٢ .
خلقدونية : ١٤٤ .
الخليج الازرق : ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٣٤٣ .
خليج العقبة : ٥٤ .
الخوارزميه : ٣٦٤ ، ٣٦٦ .

- د -

الداروم : ٦٧ ، ٨٥ .
داود بن المعظم : ٣٦٤ .
الداوية : ٣١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ،
١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٩٨ ،
٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٥٨ ،
٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ - ٢٩٥ ،
٣١٠ ح - ٣٢٦ ، ٣٣٧ - ٣٣٩ .

دالمشيا : ١٢٨ ، ١٦٥ .
دوجان (الفرد) (مؤرخ) : ٤٤ .
دربساك : ٨٥ ، ٩٩ ح ٦ ، ١٠٠ .
وستمنستر : ٣٦ .

- ٤٢٦ -

دقاق بن تش	: ٤٩ .
الدقهلية	: ٢٢٠ ح ٧ .
دمشق	: ٤٠ ح ٩٢ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٧١ ، ٦٣ ، ٤٩ ، ١٧١ ، ٩٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ح ٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ح ١ ، ٣٦٣ .
دمياط	: يكثر ذكرها .
الدميرة (قرية)	: ٢٢٠ ح ٣ .
دنيسر	: ٩٢ ح ١ ، ٩٤ ح ٤ .
دوفر	: ١٢٤ .
دومنيك (قديس)	: ١٤٥ ح ٣ ، ١٥٤ .
ديار بكر	: ٤٩ ، ٨٦ ، ٩٣ ح ٢ .
دير الأنبا أبى مقار	: ٢٤٧ .
دير الأنبا يشوى	: ٢٤٧ ح ١ .
دير سانت كاترين	: ٥٤ .
دير السريان	: ٢٤٧ ح ١ .
دير القديس جال	: ٣٥٣ .
دير طمويه	: ٢٤٥ .
ديونيس	: ١٧٤ .

- ر -

رادلف (بطريق بيت المقدس) :	
	: ٢٧١ - ٣١٠ .
رادلف ميرنكورت	: ١٤٤ - ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ٢٠٣ .

- رأس الشقة : ١٠٩ ح ٤ .
- رأس العين : ٩٤ .
- رالف الطبرى : ١٠٩ .
- رالف ايرل شيلستر : ٣٣ ، ٢١٠ .
- رانسيما (ستيفن) : ٤٤ ، ٢٠٧ ح ٥ .
- الرحبه : ٨٥ .
- رشيد : ٣٥ ، ٥٩ ، ٩٧ ح ٥ ، ١٨٥ ، ٣٠٤ ،
٣١٩ ح ، ٣٢٧ ، ٣٤٩ .
- رضوان بن تنش : ٤٩ .
- رفح : ٥٥ .
- الرقه : ٨٦ .
- الرملة : ٥٢ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٦٩ .
- الرهبان البندكتيون : ٣٦ ح ١ .
- رهشت (مؤرخ) : ٣٣ ح ١ ، ٤٤ ، ١٤٦ .
- الرها : ٤٥ ، ٥٢ - ٥٣ ، ٥٧ ح ٤ ، ٨٦ ، ٩٥ .
- روبان (أمير أرميني) : ٥١ .
- روبرت (رئيس اساقفة الناصرة) :
١٦٨ .
- روبرت أف بيتون : ٧٩ .
- روبرت أف كورسون : ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ٢٠٩ ،
٢١٧ .
- روبرت الصقلي : ١٢٦ .
- روبرت فتزوالتر : ٢٠٩ .
- روبرت كلارى : ٣٧٠ .

روجر (اسقف الرمله) : ٥٦ .
 روجراف وندوفر (مؤرخ) : ٣٣ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ .
 روما : ٢٦ ، ٢٩ - ٣٠ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،
 ١٥٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٧ ح ١ ، ٣٠٢ .

رومانوس الرابع (امپراطور بيزنطى) :
 ٥٠ .

رولان دى لوك : ٢٠٨ .
 ريتشارد أف كورنول : ٣٦٦ .
 ريتشارد أف ديفزس : ٣٧ .
 ريتشارد قلب الأسد : ٨٠ ، ١٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ .
 الرى (مدينة) : ٤٩ .
 ريموند بن بوهمند الرابع : ١٠٤ .
 ريموند روبان : ١٠٨ ، ٣٠٠ - ٣٠١ .

رينوارت : صاحب نيفين (انفه) :
 ١٠٩ ، ١١٠ .
 رينو أف شاتيون (ارنات) : ٧٩ .

- ز -

زارا : ١٢٩ ح ١ - ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٦٤ .
 الزراقين : ١٧٢ ح ٥ .
 الزردخانه : ٢٥١ .
 زين الدين بن نجف : ٧٣ - ٧٤ .

- س -

ساينا (كنيسة فى ايطاليا) : ٢٦ .

- سانت دنیس : ۱۳۲ .
- ساربروكن : ۱۹۰ ، ۲۶۱ .
- سبلاكو : ۱۶۵ ، ۱۶۷ .
- سبلا (أميره صليبيه) : ۷۹ .
- ست الفخر - مغنية الاشرف ۳۴۲ ح ۴ .
- الستائر : ۱۹۷ ح ۵ .
- ستراسبورج : ۱۶۲ .
- ستون (ناشر) : ۴۴ .
- ستيفن (الصبي الذي قاد حملة الصبيان) :
۱۳۲ - ۱۳۴ .
- ستيفاني (ابنة ليو الثاني ملك ارمينيا وزوجه جان دي برين) :
۱۰۸ ، ۳۰۰ ، ۳۰۳ ، ۳۳۷ ح ۶ .
- ستيفن (قديس) : ۱۷۶ .
- ستيفن لانجتون : ۱۵۵ .
- سروج : ۹۴ ، ۴۹ .
- السريان : ۱۵۷ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
۴۱ ح ۳ ، ۴۵ .
- السكسون : ۱۶۲ .
- سكمان بن أرتق : ۴۹ .
- سلسلة البرج : ۱۸۷ ، ۱۹۹ ، ۲۰۴ . انظر برج السلسلة
- سلسيا : ۱۶۵ .
- سليمان بن قتلش : ۴۹ ، ۵۰ ح ۲ ، ۵۱ .
- سليمان شاه : ۲۲۶ ح ۳ .

- سمنود : ٢٩٢ .
- السمنوديه : ٢٩٢ ح ١ .
- سنسيوس : ١٥٩ .
- السواد (اقليم) : ١٧٠ ح ٥ .
- سواسون : ١٢٨ .
- سوريا : ٣٦ ح ٣ ، ٣٨ ح ١ .
- سوفريد أف سانت براكسيدس :
١٠٩ .
- السيد الباز العرينى (دكتور) :
٤٤ ح ٢ ، ٤٥ .
- السيدة مريم : ٢٨ .
- سيف الدين بن المشطوب : ٢٢١ .
- سيف الدين أزكش : ٨٨ ح ٤ ، ٩١ .
- سيف الدين بن كهذان : ١٩٥ .
- سيفريد : ١٦٢ .
- سيمون دى جنيفيل : ٢٠٩ .
- سيمون (اسقف صور) : ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨ .
- سيمون الثانى أف ساربروكن :
١٩٠ .
- سيناء : ٥٤ ، ٢٩٢ ، ٣٤٤ .

- ش -

- شارمساح : ٣٥ ، ١٩٤ ح ، ٣١٧ - ٣١٨ ، ٣٢٣ ،
٣٢٦ ، ٣٤٨ .

- الشام : يكثر ذكرها .
- شامباني : ٣٨ ح ، ١٢٧ ، ٣٦٦ .
- شاور : ٦٨ ، ٦٠ .
- الشابشتي (مؤرخ) : ٤٣ .
- شباس : ٣١٩ ح ٦ .
- شبه جزيرة البلقان : ٣٦٩ .
- شجاع الدين جلدك المظفر التقوى : ٣٤٢ .
- شجر الدر : ٢٤٩ ح ٢ .
- شرف الدين عنين : ٣٤٢ .
- الشرق الأقصى : ٢٤٢ .
- الشرقية : ٥٦ .
- شقيق أرنون : ٣٦٦ ، ١٧٤ .
- شقيق تيرون : ١٧٠ ح ٩ .
- شمايل : ٢٧٢ ح ٤ .
- الشواني : ٢١٢ ح ١ .
- الشوبك : ٨٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

- ص -

- ٣١٩ ح ٦ :
- الصاحب صفى الدين بن شكر (عبد الله بن علي) :
- ٣٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٣٤٥ .

- الصخرة المقدسة : ٣٦٥ .
- صافيثا : ١٩٥ ح ٤ .
- الصالح نجم الدين أيوب : ٣٦٦ ، ٣٣٨ .
- صحراء المزه : ٨٧ .
- صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ محمد بن حمويه :
٢٨٩ .
- صرخد : ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٣ .
- صفد : ٢٥٢ .
- صقلية : ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ١٤٨ ،
٢٢٤ ح ٤ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣ .
- صلاح الدين الأيوبي : ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٨٠ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ح ١ ، ٩٥ ، ١٠٤ ،
١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٩٦ ، ٢١٩ ح ٣ ،
٢٢١ ح ٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ،
٢٩٦ ح ٤ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ .
- صليب الصليوت : ٢٦٤ ، ٣٢٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ .
- صور : ٣٧ ح ٢ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٥٣ ،
١٥٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ح ٩ ، ٢٥٢ ح ١ ،
٣٦٨ .
- صيدا : ٥٨ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
٣٦٨ .

-- ض --

ضرغام : ٦٠ ، ٦٣ .

حميا بن بن الاثير : ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ .

- ط -

- طبريه : ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ ح ٣ ، ٣٢٣ ، ٣٦٦ .
طرابلس : ٥٢ ، ٥٨ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ،
١٠٨ ، ١١١ ، ١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،
١٧٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٦٨ .
طرطوس : ٣٦٨ ح ٧ .
طلائع بن رزيك : ٥٩ ، ٦٠ .
طنطى : ٣١٨ ح .
الطواش مرشد المنصورى : ٢٥٣ .
الطور (حصن) : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
١٩٥ ، ٢٥١ .
طلى بن شاور : ٦١ .

- ظ -

- الظافر خضر : ٨٥ .
الظاهر يبرس : ٩٨ ح ٤ ، ٣٦٨ .
الظاهر غازى (ابن صلاح الدين) :
٨٥ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ح ٦ ، ١٠٤ ،
١١٠ .

- ع -

- العادل : يكثر ذكره .
العادل بن السلار (الوزير الفاطمى) :
٥٨ .

- العادية : ٢٧ ، ١٩٣ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ ،
٣٥٧ .
- العاقد : ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٣ .
- عالقين : ٢٠٥ .
- عبد الجبار بن اسماعيل : ٧٣ .
- عبد الصمد الكاتب : ٧٣ .
- عبد الرحمن زكي : ٤٥ .
- عبد الرحيم بن علي البيسالي : ٨٨ .
- عبد اللطيف البغدادي : ٣٢٩ ح ٢ .
- عتليت : ١٧٦ ، ١٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ .
- العثانيون : ٣٦٩ ، ٣٧٠ .
- عجوز الجبل : ١٣٣ ح ٣ .
- عجلون : ١٩٥ ح .
- العراق : ٢٤٠ .
- العريش : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٨٠ .
- عز الدين بن الاثير : ٨٦ .
- عز الدين الحميدي : ٢١٩ - ٢٢١ .
- عز الدين أليك الحلبي المعظمي :
٢٤٩ .
- العزير سيف الإسلام : ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٩ ح .
- عسقلان : ٥٥ ، ٧١ ح ١ ، ٨٠ ، ٨٨ ح ٢ ، ٣٢٣ ،
٣٦٦ .
- العقاب (موقعه) : ١٢٥ ، ١٤٢ .

عكا	: يكثر ذكرها .
عكار	: ١٠٩ .
علاء الدين جلدك	: ٣١٩ .
عماد الدين زنكى	: ٥٧ ح ٤
العماد الكاتب	: ٤٤ .
عماره اليمنى	: ٧٣ .
عمر كمال توفيق (دكتور)	: ٣٧ ح ٢ ، ٤٥ .
عمورى الأول	: ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٨٤ .
عمورى الثانى - ملك قبرص	: ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ ح ٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ .
عمورى الثالث	: ١٠٦ .
عيد الصليب	: ٣٢٩ ح ٢ .
عيد النصره	: ١٦٤ ح ٢ .
عيد الفصح	: ٢٥٢ ح ٥ .
عيد القيامة	: ١٦٤ ح ٢ ، ٢٥٤ ح ٢ .
عين جالوت	: ١٦٩ .
عين شمس	: ٣١٩ ح ٦ .
- غ -	
الغازى الارتقى	: ٤٩ .
الغرية	: ١٩٣ ح ٥ .
غزه	: ٦٧ ، ٣٤٢ ح ٤ .
الفوار	: ٨٧ ح ٢ .
الغور	: ٨٧ .

غياث الدين (اخ الملك الكامل) :

. ٣٣٨

- ف -

الفائز : ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٠

الفاتيكان : ٣٩ ح ١ .

فارسكور : ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ،

. ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ .

فاقوس : ٦٣ ، ٧٧ .

فخر الدين جهار كس : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ .

فخر الدين يوسف : ٣٦٣ .

فرانسيس الأسيس : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

فردريك الثاني : ٣٢ ، ٣٥ ، ١٠٨ ح ١ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥

٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣١٢

٣١٤ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢

. ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ .

فرنسا : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٤ ح ١ ، ٧٠ ، ٨٠ ،

١٠٢ ح ٣ ، ١٠٧ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ،

١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ٢٠٩ ،

. ٣٠٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ .

القرما : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٣١٩ .

فريزيا (الفريزيون) : ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ١٩٩ .

القسطاط : ٦٥ ، ٦٨ .

- فصح اليهود : ١٦٤ ح .
- الافقوسيه (نيقوسيا) : ١٦٧ ح ٥ .
- فلاندرز : ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٥٥ .
- فلسطين : ٧٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ٣٧٠ .
- فلکس فابری (مؤرخ) : ٣٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٤٦ ، ٣٤٨ .
- فلهار دوین (مؤرخ) : ١٢٧ .
- فولک (اسقف تولوز) : ١٤٥ .
- فولک (اسقف نیلی) : ١٢٧ .
- فولک الأنجونی : ٥٧ .
- فوره : ٩٧ ، ٣٤٩ .
- فیلیب (ابن یوحنا اف ایلین) : ١٦٦ .
- فیلیب (ابن بوهمند الرابع) : ٣٠١ - ٣٠٢ .
- فیلیب اف البنی : ٣٣ - ٣٤ .
- فیلیب أف سوايا : ١٢٩ - ١٣٠ .
- فیلیب اف مونتاجو : لم يستدل علیه
- فیلیب أوغسطس : ٨٠ ، ١٠٧ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨ .
- فیلیب کونت فلاندرز : ٧٨ : ٧٩ .
- فیلا ریتوس (أمير أرمینی) : ٥١ .
- فیری دی بیتو : ١٦٦ .
- الفيوم : ٦٥ .

ق --

القائم بأمر الله : ٤٩ .

القاضي الاعز سلامه العوريس :

. ٧٣

القاهرة

: ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ٦٤ ،
٦٦ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ،
٢٠١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ،
٢٨٠ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ،
٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ .

قبرص (التمسون)

: ٣٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ح ٣ ،
١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ،
١٨٣ ، ٢١٠ ، ٢٣٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣١٣ ،
٣٢١ ح ٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ .

قبيلة كلاب

: ٤٩ .

القدس

: ١٤٧ ، ١٥٦ ح ٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٥٠ ،
٢٥١ ، ٣٦٦ .

القديس بطرس

: ٢٩٧ ح ١ .

القديس فرانسيس

: ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

القديس كلمنت

: ٢٩٧ .

القديس مرقس

: ٣٩ ح ١ ، ٢٥٢ ح ٢ .

القديس يوحنا

: ٦٩ ح ٥ .

القديسة أجاثا

: ٢٢٤ .

القديسة كاترين

: ٥٤ ح ٤ .

القديسة مارجريت

: ١٧٦ .

قرطاج

: ٢٦٧ .

القسطنطينية

: ٣٧ ، ٨١ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١٢٦ ،
١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥

٢٤٢ ، ٢٧١ ح ٧ .	
: ١٢٥ .	قشتاله
: ٩٨ ح ٥ .	فلاوون
: ٢٧ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٩٩ .	قلعة الحجاج
: ٥٤ .	قلعة الشوبك
: ١٠٢ .	قلعة الطور
: ١٠٨ .	قلعة بغراس
: ٨٦ ، ٩٥ ، ٣٤٣ .	قلعة اجعبر
: ٢٢٧ ح ٤ .	قلعة حران
: ٣٠٧ .	قلعة تيس
: ٣٦٦ .	قلعة شفيف ارنون
: ٣٦٦ .	قلعة صفد
: ٢٩٩ .	قلعة عتليت
: ٢٩٨ - ٢٩٩ .	قلعة قيسارية
: ١٦٦ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ .	قيساريه

— ك —

: ٢٢٤ ح	كاتانيا (مدينة)
: ١٤٦ .	كارل ستيفن (مؤرخ)
: ٤٤ .	كالثروب (مؤرخ)
: ١٤٤ ح .	كالستس الثالى
: ٤٤ .	كامبل (مؤرخ)
: يكتر ذكره .	الكامل (ملك مصر)
: ١٥٥ .	كانتربرى

- كاهن (كلود) (مؤرخ) : ٤٤ .
- الكاهن يوحنا : ٣٨ - ٢٣٦ ح - ٢٤٠ .
- الكتبي (مؤرخ) : ٤٣ .
- الكرك : ٧٩ ، ٨٥ ، ٢٣٨ ح ٢ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
- الكرمل : ١٧٦ .
- كرموك : ٢٣٨ ح ٢ .
- كريم الدين الخلاطى : ٢٠٥ .
- الكعبة : ٢٩٦ ح ٣ .
- كفر البطيخ : ١٠٣ ح ٥ .
- كفر كنا : ٩٦ .
- كلولى : ٢٥ ، ٢٦ ، ١٥١ .
- كمال الدين على بن محمد بن النبيه : ٣٤٢ .
- كنجزفورد : ٤٤ ، ١٤٦ .
- كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) : ٢٨٥ ، ٣٩ .
- الكنيسة الشرقية : ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤٤ .
- كنيسة القديس مرقص : ٢٥٢ .
- كنيسة القيصرون : ٢٥٢ ح ٦ .
- كنيسة سوكم : ٣٧ ح ١ .
- كونستانس (ابن عم ليو ملك ارمينية) : ٣١١ .
- الكومان : ١٦٧ ح ٤ .

كونراد (رئيس اساقفة ميتز) :

. ٨٩

كونراد اف متز : ٣٥٤ .

كونراد اف مونتفرات : ١٠٦ .

كونراد الثالث : ٥٧ ح ٤ .

- ل -

لامب (هارولد) (مؤرخ) : ٤٤ .

لبنان : ١٠١ ح - ١٠٩ ح ٥ .

لجارس : ٢٣٨ .

لدلو (مؤرخ) : ٤٤ .

لشبونه : ١٨١ .

اللاتيران : ٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ح ٣ ، ١٤٨ ح ٥ ،

١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،

١٨٢ ، ٣١٦ ، ٣٥٣ .

اللاذقية : ٨٧ ، ٩٩ ، ٣٢٣ .

اللد : ١٦٩ .

اللورين : ٥٣ ح ، ١٥٣ .

لندن : ١٢٤ .

لويس (ابن فيليب اغسطس) :

١٢٤ ، ١٥٤ ، ١٦١ .

لويس السابع : ٥٧ ح

لويس التاسع : ٣٨ ح ١ ، ١٥٢ ح ١ .

لويس دوق بافاريا : ٣١١ ، ٣٦٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،

٣٣٩ ، ٣٥٢ .

- ليتوت (فارس صليبي) : ٢٠٣ .
 يماسول : ٣٠٤ .
 ليو الثاني (ملك أرمينية) : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠١ .
 ليوبولد دوق استريا : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٩ ،
 ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
 ليودلف فون سوكم (مؤرخ) :
 ٣٦ .
 ليون : ١٣٣ .

- م -

- مارتل : ٣٢ .
 مارجريت : ٢٠٩ ، ٣٣٧ ح ٦ .
 ماردن : ٩٢ .
 ماريا أميرة بيت المقدس : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٣٢١ ح ٦ .
 مارينو سانوتو : ٣٦ .
 ماري كونتسيه شامباني : ١١١ .
 مالطه : ٣٤٠ .
 مانويل الاول (امبراطور بيزنطي) :
 ٣٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٢٣٦ ح ١ .
 مبارز الدين سنقر الحلبي : ١٩٦ .
 المبارز يوسف بن خطلخ : ١٠٠ ، ١٩٥ .
 متي (كونت ايوليا) : ٣٠٥ ، ٣١٠ .
 متي اف. وستمنستر : ٣٦ .

- متى الب ريسى : ٣٦ ، ٣٨ .
- المتوكّل : ١٨٧ .
- المجاهد أسد الدين شيركوه ٨٥ ح ٣ ، ١٧١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٢١ .
- مجاهد الدين : ٢١٩ ، ٢٢١ ح ٣ .
- مجد الدين بن عبد الله الحنفى . قاضى الطور :
٢٥١ .
- مجدل يابا : ٣٦٦ .
- المحلة الكبرى : ٣١٨ ح ١ .
- محمد بن يحيى (المستنصر) ٣٦٧ .
- محمد بن اسحاق : ٧٨ .
- محمد العروس المطوى : ٤٥ .
- محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : ٤٦ .
- محمد مصطفى زيادة (دكتور) : ٤٥ .
- محمود بن تقى الدين (أمير أيوى) :
٨٥ .
- المدينة المنورة : ٢٩٠ .
- مرج الصفر : ١٧٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ .
- مرج دابق : ١٠٠ .
- مرج عيون : ١٧٤ .
- مرسيليا : ٢٦ ، ١٣٣ .
- المرقب : ١٧٥ .
- المسجد الأقصى : ٣٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٨٥ ، ٣٦٥ .
- مسجد الصخرة : ٢٤٩ ، ٢٨٥ .
- المستنصر (الخليفة الفاطمى) : ١٠٤ ح ٢ .

المسعود صلاح الدين يوسف الاقسي

٢٢٦ ح ٣ .

المسيح (عليه السلام) : ٩٧ ح ١ ، ١٣٢ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،
١٦٤ ح ٢ ، ١٧٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ح ٥ ،
٣٠٧ .

مسينا : ١٤٨ ، ١٥٣ .

مصر : يكثر ذكرها .

المظفر محمد : ٢٥٣ .

معبد سليمان : ٢٨٥ .

المعز ايلك التركمانى : ٢٤٩ ح ٢ .

المعظم عيسى : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٩٥ ،

٩٦ ح ٣ ، ١٠٢ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٩٤ ،

١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٢ ح ٤ ، ٢٢٦ ،

٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،

٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٥ ،

٣٤١ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

المغول : ٣١ ، ٢٣٥ ح ٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣٦ ، ٣٦٤ .

المفضل قطب الدين : ٣٣٨ .

المقريزى : ٤٣ ، ٥٩ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ،

٣٢٣ .

مكة المكرمة : ٢٩٠ .

الملكانيون : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٤٩ .

- ملكشاه (سلطان السلاجقة) :
. ٤٩
- سليج : ٣١٨ ح ٣ .
مليسند : ١٧٥ .
- مئورج (مؤرخ) : ٤٤ .
ملاذكرد : ٥١ .
- المنصور ناصر الدين : ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٥٣ .
المنصور سيف الدين قلاوون :
. ٣٦٨
- المنصورة : ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٢٢٠ ح ٧ ، ٢٨٤ ح ،
٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ،
٣١٩ ح ٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
. ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ .
- منوف : ٢٤٧ ح ١ .
الموارنه : ١٥٧ .
مورافيا : ١٦٢ .
- الموصل : ٤١ ح ٢ ، ٦١ ، ٢٢٨ ، ٢٨٩ ح ٧ .
موستار (ترجمان) : ٢٣٨ .
موسى (عليه السلام) : ١٣٢ .
مونتفرات (رئيس دير) : ٣٥٣ .
- المؤيد (الملك) : ٢٧٢ ح ٤ .
الميادنه : ١٧٤ ح ٨ .
- ميفارقين : ٩٣ ، ٩٥ .
ميخائيل دى فتر : ٢٢٤ .

- ميريو كيفالوم : ٧٩ .
 ميشو (مؤرخ) : ٤٤ .
 ميلان : ٣١٢ ، ٣٠٥ .
 ميل دى مانتى : ٢٠٩ .
 ميلو الثالث كونت بارسورسين :
 ٢٥٩ .
 ميمون القصرى : ٩٩ ، ١٠٠ .
 مينز : ١٦٢ .

- ن -

- نابلس : ٩٩ ح ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢١٩ ح ٣ .
 الناصر داود : ٣٦٦ .
 نافار : ٣٦٦ ، ١٢٥ .
 الناصر فرج بن برقوق : ٢٧٢ ح ٤ .
 الناصر قلع ارسلان : (ابن الملك المظفر صاحب حماه) :
 ٣٢١ .
 الناصر لدين الله الخليفة العباسى :
 ٢٨٩ .
 الناصر محمد : ٣٦٩ .
 الناصره : ٩٦ ح ٤ ، ١٠٢ ، ١٦٨ ، ٣٦٥ .
 نجاح الحمامى : ٧٣ .
 النرويج : ١٦١ .
 نزار : ١٠٤ ح ٢ .
 النساطره : ١٥٧ .

- نصيبين : ٩٢ ح ١ ، ٩٤ ح ٢ .
- نمين (انفه) : ١٠٩ .
- نقشور فوقاس (امبراطور بيزنطى) : ٥٠ ح ٢ .
- نهر البقاع : ١٠٩ ح ٤ .
- نهر العاص : ١٠١ ح ٤ .
- نهر الفرات : ٥١ .
- نور الدين زنكى : ٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ١٩٤ .
- نوى : ١٧٠ ح ٣ .
- النويرى (مؤرخ) : ٤٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .
- نيقوبوليس : ٣٦٩ .
- نيقوسيا : ١٤٤ ، ١٦٧ ح ٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٣٣٨ ح ٢ .
- نيقولا (قائد حملة الصبيان) : ١٣٣ ، ١٣٤ .
- نيقولا الأول (بطريق) : ٣٥ ، ١٨٥ ح ٣ ، ٣٤٩ .
- نيقيه : ١٤٤ .
- نيو آراك (قلعة فى انجلترا) : ١٢٤ .
- نيللى (مدينه) : ١٢٧ .

- ه -

- هرمان فون سالزا (رئيس فرسان التيوتون) : ٣١١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .
- الهند : ١٣٠ ، ١٨٩ ، ٢٤٢ .

هنغاريا : ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ، ٣٥٤

هنرى (رئيس أساقفة سيلان) :

. ٣٠٥

هنرى (امبراطور يزنطى اللاتينى) :

. ١٣١

هنرى اف نيفر : ٢٢٥ .

هنرى الأول (ملك قبرص) ١٨٣ ، ٣٢١ ح ، ٣٣٨ ح .

هنرى الثالث : ٣٣ ، ١٦٠ ، ٣٦٦ .

هنرى السادس (امبراطور المانيا) :

. ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩ .

هنرى دوق برونزويك : ٥٤ .

هنرى كونت شامبالى : ٩٠ ح ٢ ، ١٠٥ ، ٣٢١ ح ٦ .

هنرى كونت مالطه : ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

هنرى كونت هولندا : ١٨١ .

هولندا : ١٨١ ، ٢٦١ .

هونوريوس الثالث : ٢٣ ح ١ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩

١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ح ٣ ، ١٩٦ ،

٢١٠ ، ٢٣٦ ح ١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ،

٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ح ١ ،

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩

. ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ .

هونين : ٨٥ .

الهوهشتافن : ١٢٨

هيتوم : ٣٠٢ .

هيو (ملك قبرص) ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،

٣٢١ ح ٦ .

هيو اف ايرن : ١٣٣ .

هيو دى باينز : ١٠٢ ح ٣ .

هيو دى لوزجتان : ٢٠٩ .

و

وادى النطرون : ٢٤٧ ح ١ .

وادى عربه : ٥٤ .

والتر (ابن ميلو الثالث) : ٢٥٩ .

والتراف برتوت : ٢٦١ .

والتر اف مونتيليار (البال القبرحنى) :

١٠٣ .

والتر الثالث (صاحب قيساريه) :

٢٩٨ .

والتر الفلورنس : ١٠٧ .

والتر بالير : ٣٣٩ .

والتر دى همبيرج : ٢٨٠ .

وليم (اسقف بوردو) : ٢٣١ .

وليم (فارس صليبي) : ٢٣٨ .

وليم اف شارتر (وليم بواسيه) :

١٩١ ، ٢٥٩ .

وليم اف مونتفرات : ١٥٧ .

وليم هاركرت : ٢١٠ .

- وليم الثاني (ملك صقلية) : ٧٥ .
- وليم الخنزير : ١٣٣ .
- وليم الصوري : ٣٤٠ . ح ١ ، ٣٥ ، ٣٧ ح ٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٢ .
- وليم ايرل ارونديل : ٢٠٩ .
- وليم ريشانجيه : ٣٨ ح ٢ .
- وليم كونت هولندا : ١٩٢ .
- ونشستر (مقاطعة في انجلترا) : ٣٧ ح ٣ .
- وهبه الله بن محاسن (قاضي غزه) :
- ٣٤٢ ح ٤ .
- ويد : ٢٦١ .

ى

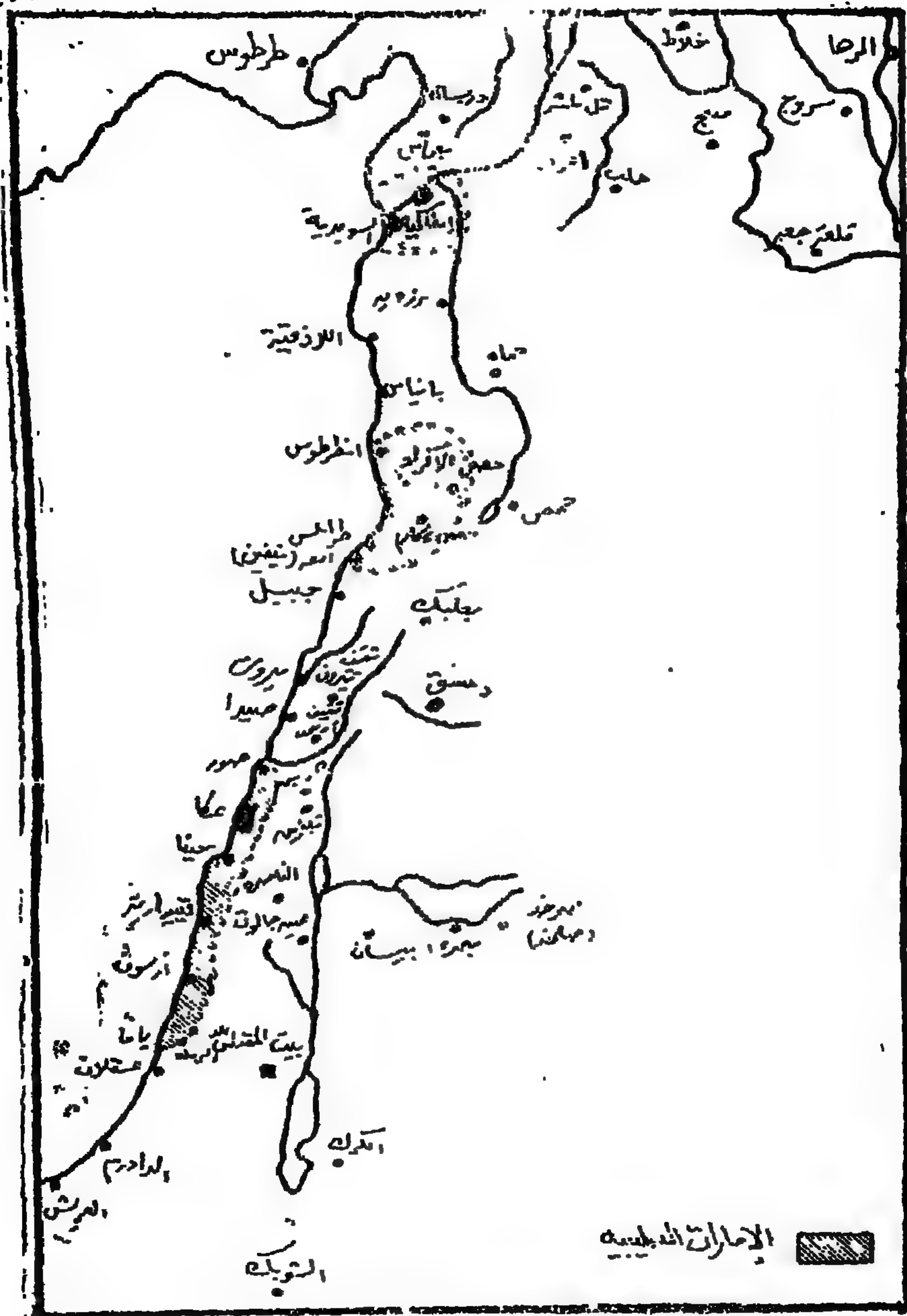
- ياغى سيان : ٤٩ .
- يافا : ٥٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٧٦ ، ٣٦٦ .
- ياقوت الحموى : ٤٤ .
- اليمن : ٧٣ ، ٨٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ .
- اليونيوم (مدينة) : ٣١ .
- يوحنا (ملك انجلترا) : ٣٥ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ .
- يوحنا اف ابلين : ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٦٦ .
- يوحنا التورى : ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦١ .
- يوحنا تزيمكس (امبراطور بيزنطة) :
- ١٥٠ ح ٢ .
- يورك (قلعة) : ٢٤٤ ح ٢ .

يوستورج : ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ .

٣٣٨ ح ٢ .

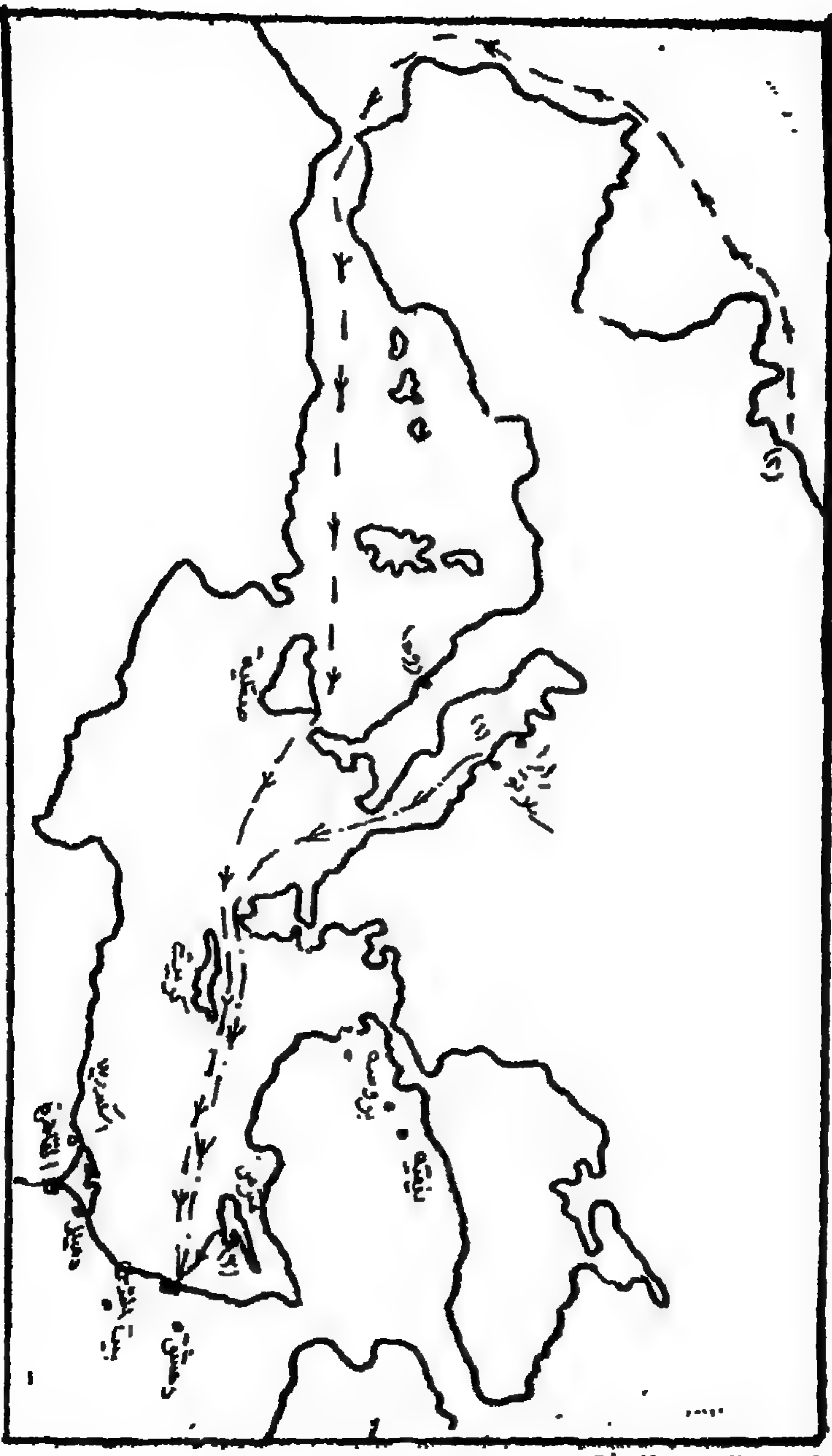
اليونيني (مؤرخ) : ٤٢ .

خزائفة رقم (۱)



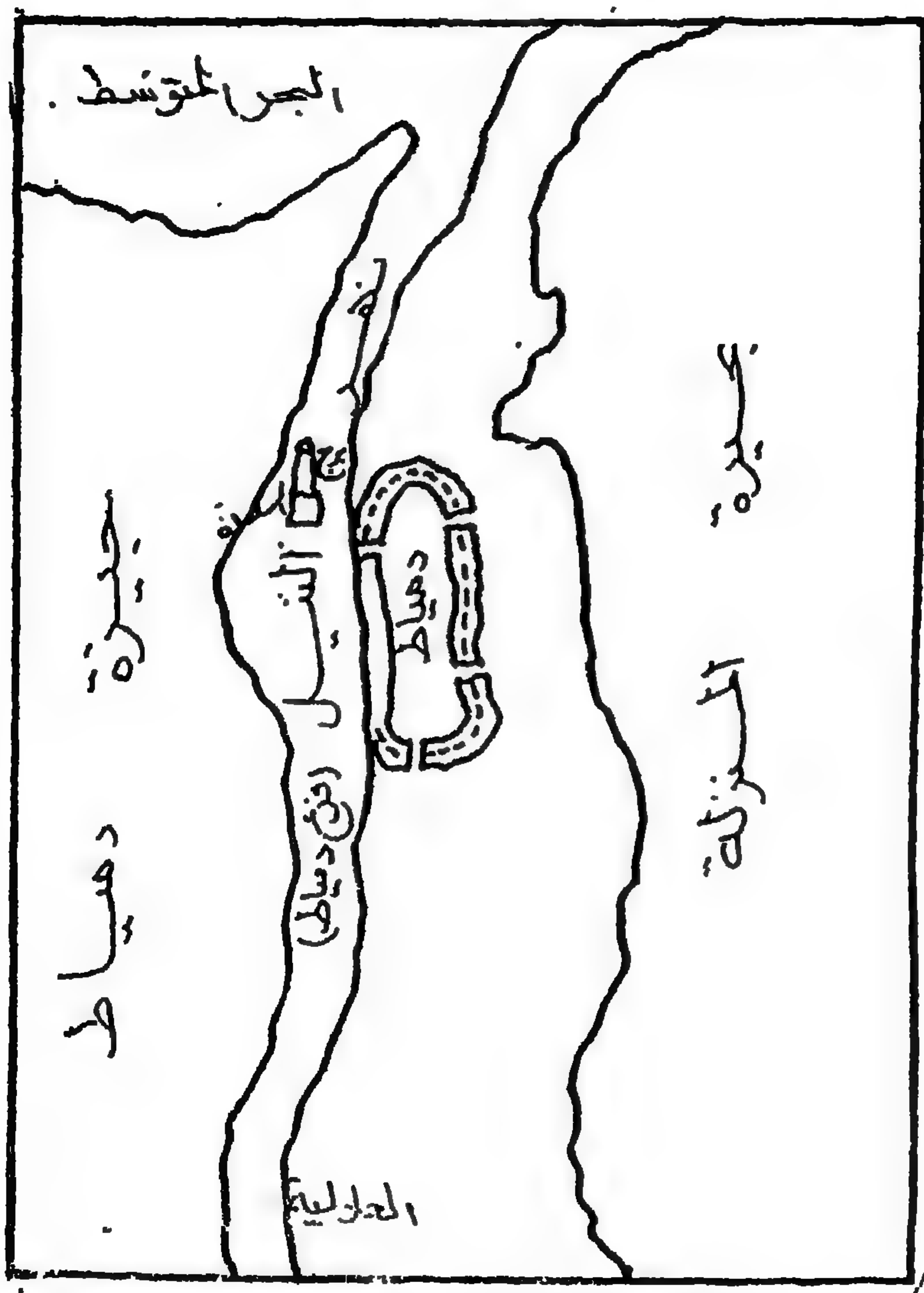
يلاد الستام عميت صباغ الرحلة ١١٦٥ / ٥٨٨ هـ

خريطة رقم (٥)



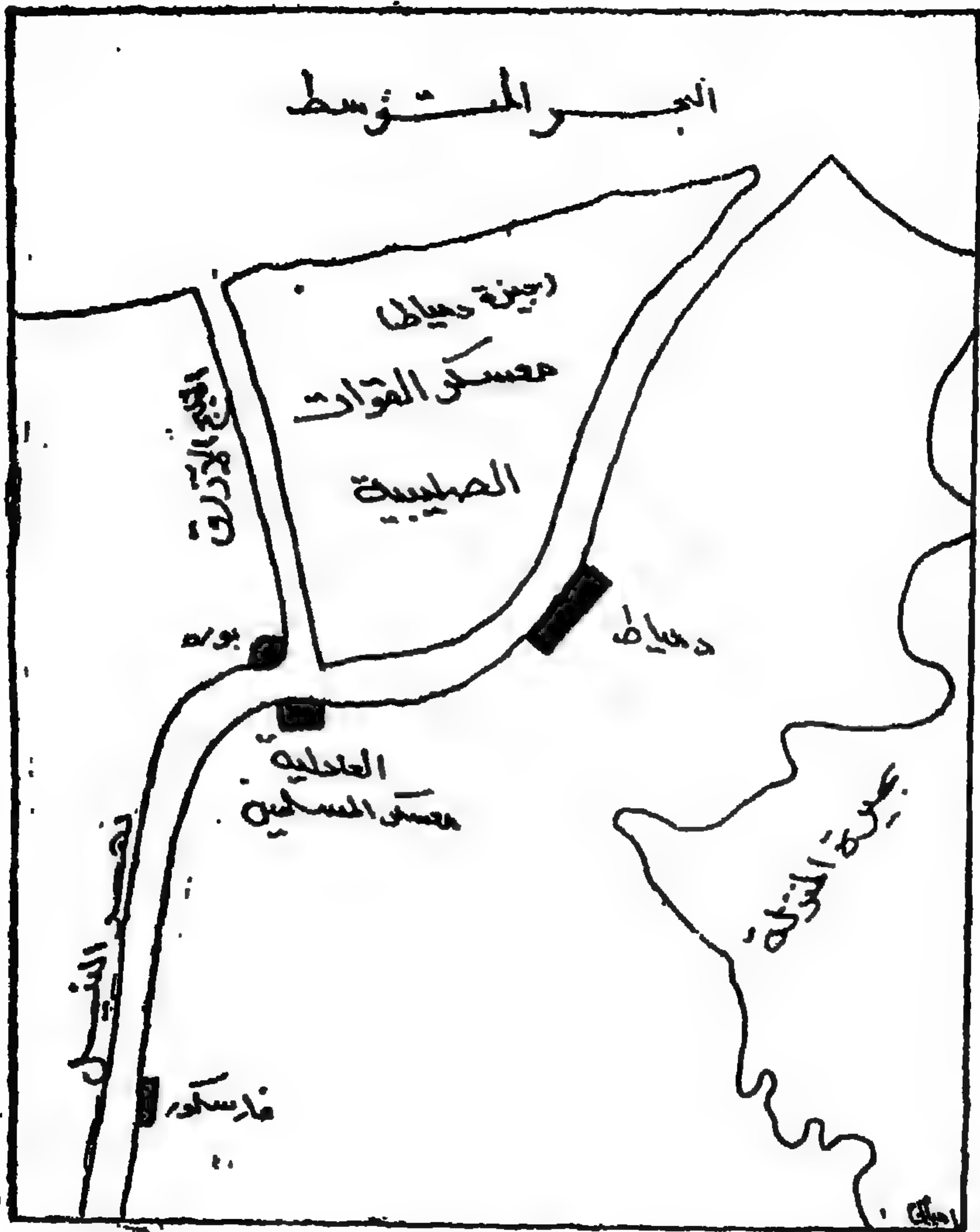
- (١) حلب سيراني قوات، طلبة التي وصلت متأخرة.
- (٢) خط سير قوات جبرص بقيادة الملك أندرو.

خريطة رقم (٣)



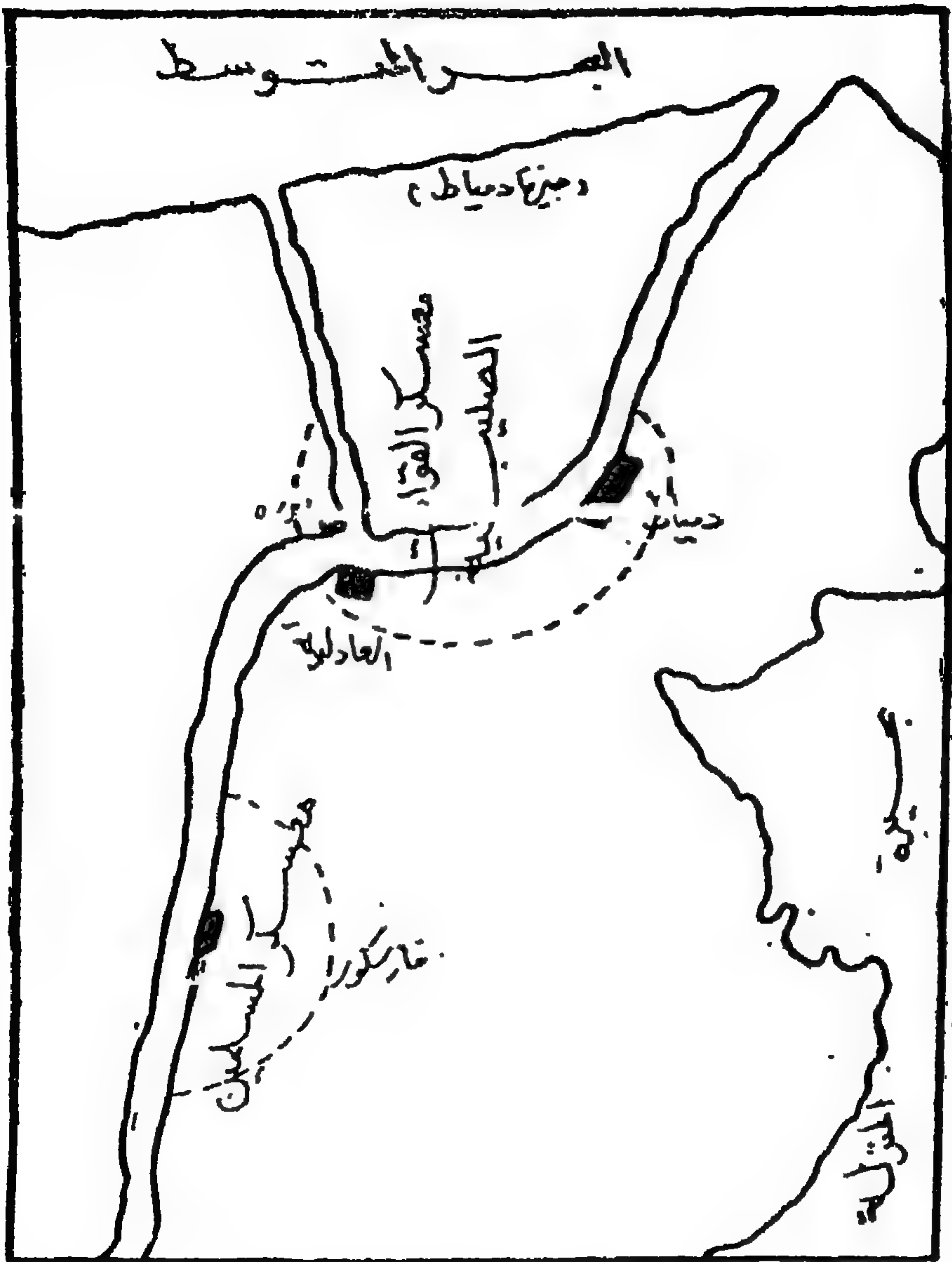
دمياط القديمة زمن الحملة الصليبية

خريطة رقم (٤)



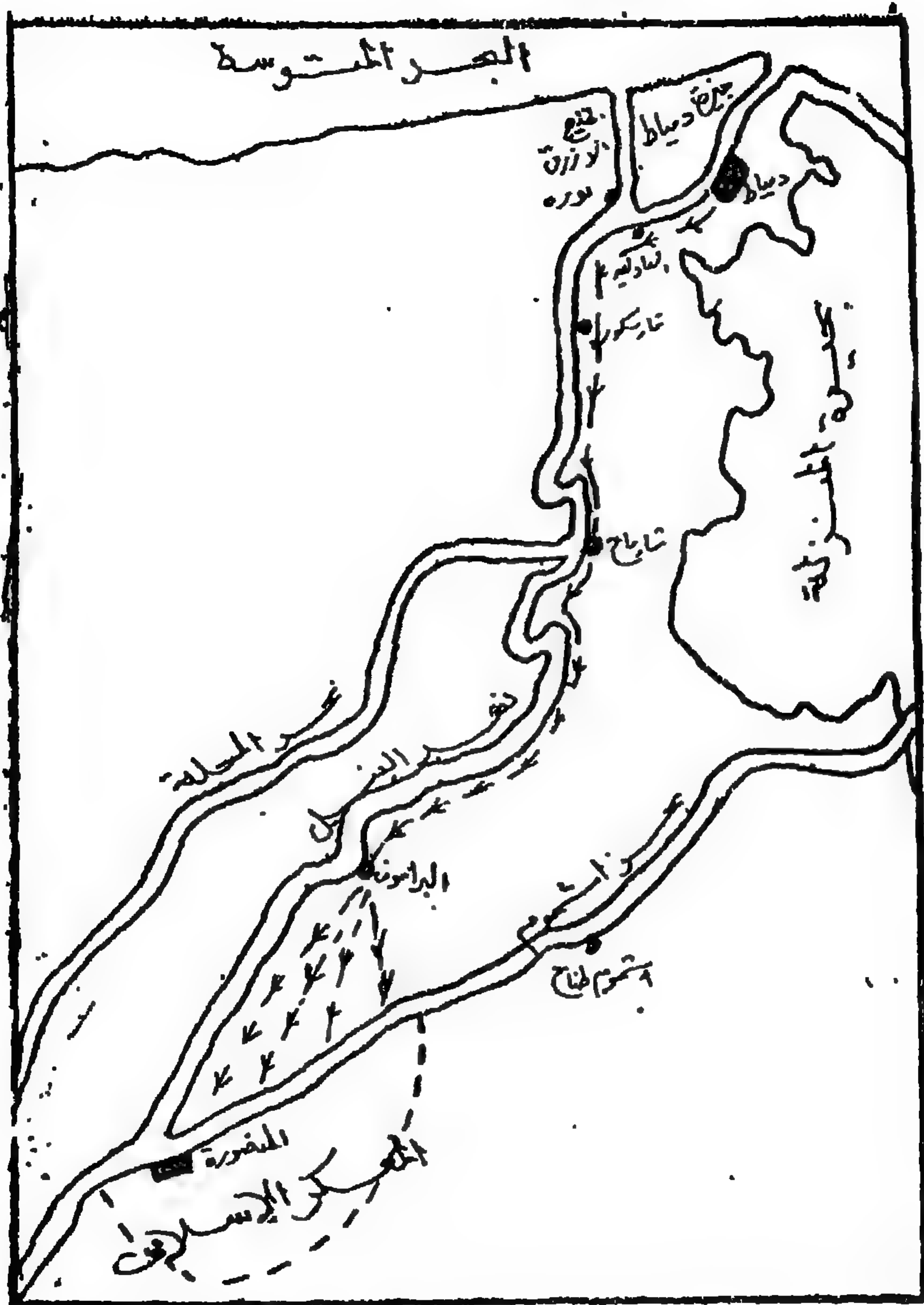
جوامع القوات الإسلامية والصليبية في الفترة من يونيو ١٢١٨ إلى فبراير ١٢١٩
(ربيع أول إلى ١٧ ذو القعدة ٦١٠ هـ)

مخطط رقم (٥)



مواقع القوات الإسلامية والصليبية بحره نبرابر ١٤١٩ م / ١٨ اذوالمعبره ٦١٥ هـ

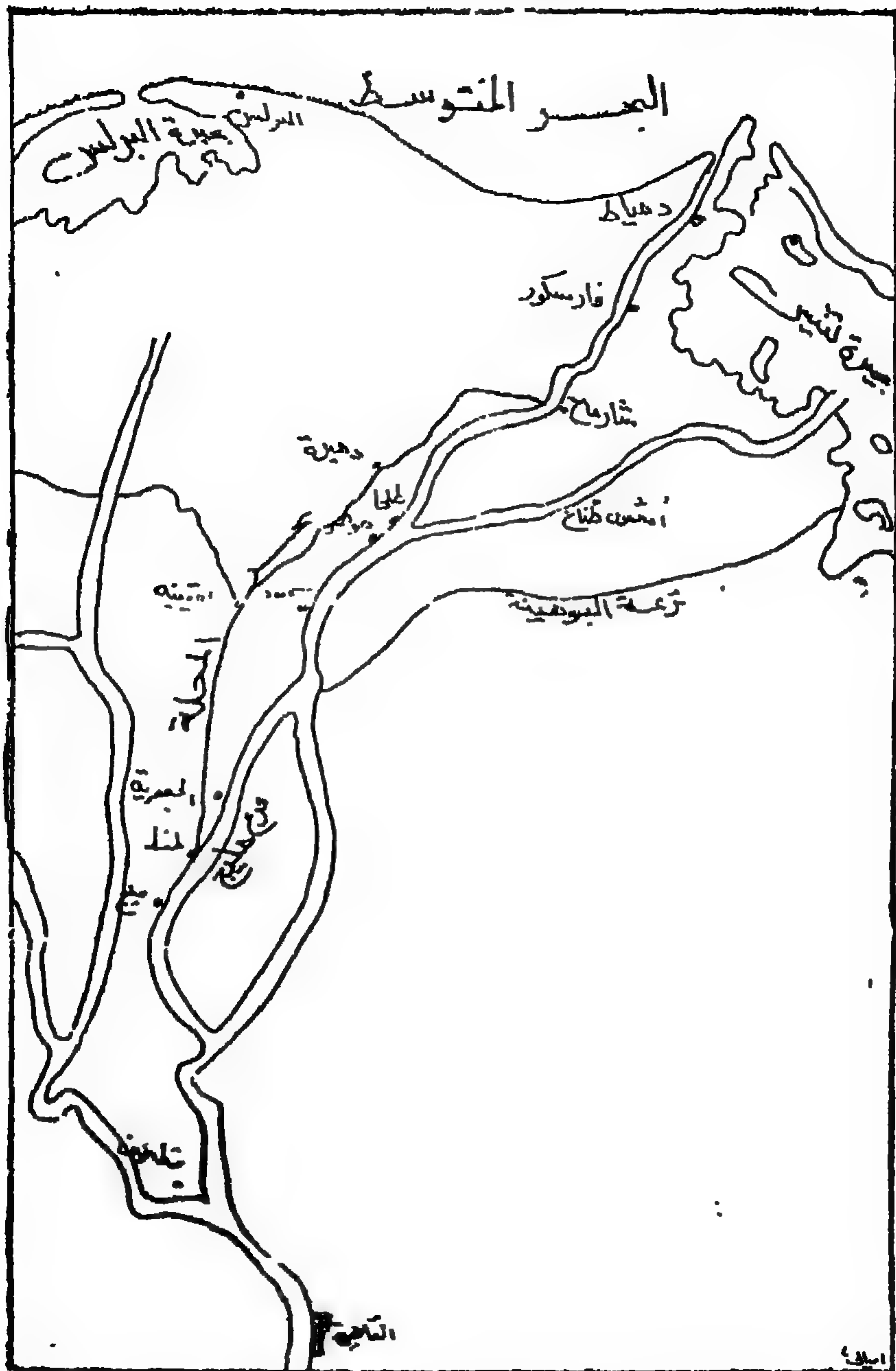
جزئیہ رقم (۶)



← ← ← ← خط سير القوات المصرية من دهايا إلى المنصورة.

(ابتداءً من ۱۷ یولیو ۱۹۹۱ م / ۲۵ جمادی الثانی ۱۴۱۸ هـ)

خريطة رقم (٧٧) .



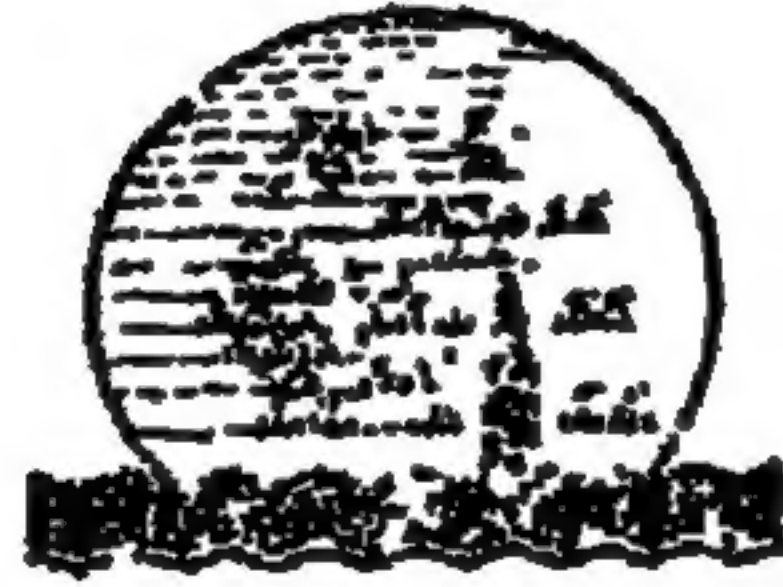
بحر الحلة

تم بحمد الله

عظيم شكرى لجميع العاملين الذين عملوا لاختراج هذا الكتاب

د . محمود سعيد عمران

٠٠٦٧٢



المعهد العالي للدراسات الإسلامية

